مدخل علم الإجتماع التجريبي

والظاهرية التجريبية المعاصرة

دكتــور

السيد علي شتا

المكتبة المصرية



للنشر والتوزيع

٨ ش حمد ال ثاني - مساكن كفر طهرمس - الطالبية - فيصل - الجيزة

تليفاكس ٠٠٢٠٢/٣٧٢١٦٦٢٢

محمول ٠١١/٢٠٢٠٣٧٢٥ - ٠١٢٢/١١٥٠٤٠٨

مدخل علم الاجتماع التجريبي
و
الظاهرية التجريبية المعاصرة

الدكتور
السيد علي شتا

٢٠١٤



للنشر والتوزيع
٨ ش حمد آل ثاني – مساكن كفر طهرمس – الطالبية – فيصل – الجيزة
تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٣٧٢١٦٦٢٣
محمول: ٠١١/٢٠٢٠٣٧٢٥ ،–٠١٢٢/١١٥٠٤٠٨
Egyption_library@yahoo.com

◻ اســم الكتـــاب	.	مدخل علم الاجتماع التجريبي
◻ اسم المؤلـــف	:	السيد علي شتا
◻ سـنة النـــشر	:	٢٠١٤
◻ الطبعـــــة	:	الأولى
◻ اســم الناشـــر	:	المكتبة المصرية للنشر والتوزيع
◻ العنــــوان	:	٨ش محمد آل ثاني/ مساكن كفر طهرمس/ الطالبية/ فيصل/ الجيزة. تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٣٧٢١٦٦٢٣ محمول: ٠١٢٢/١١٥٠٤٠٨-٠١١/٢٠٢٠٣٧٢٥ Email:Egyption_library@yahoo.com
◻ رقــم الإيـداع	:	2013/22237
◻ الترقيم الـدولي	:	978-977-411-513-3 I.S.B.N



دار الكتب المصرية

دار الكتب والوثائق القومية فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

شتا، السيد علي

مدخل علم الاجتماع التجريبي والظاهرية التجريبية المعاصرة/ السيد علي شتا؛ أشرف على إعداده وقدم له السيد علي شتا.– الإسكندرية: المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

٤١٩ص؛ ٢٤ سم.

تدمك 978 977 411 513 3

١– الاجتماع، علم

أ– العنوان

301

رقم الإيداع/ 22237


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الفصل الثالث

موضوعية المعرفة والمنظور الظاهري في العلوم الإجتماعية

الفصل الرابع

البرهان العلمي والصياغة النظرية برؤية ظاهرية

الفصل الخامس

الذاتية والموضوعية برؤية ظاهرية

الفصل السادس

مدخل الظاهرية التجريبية في علم الاجتماع

الفصل السابع

الأصول الفكرية للتجريبية الظاهرية في علم الاجتماع

المقدمة

يتحقق للعلوم تقدمها بقدر ما يتحصل لها من معارف متراكمة حول الظواهر التي تقع في نطاق عملها .

ورغم ما حققه علم الاجتماع من تراكم معرفي هائل شأنه في ذلك شأن مختلف العلوم الأخرى إلا أن هذه التراكمات المعرفية حول الظواهر الاجتماعية محدودة بالقياس للتراكمات التي حققتها العلوم الطبيعية ... الخ . والتي كشفت عن تقدم ملموس لتلك العلوم .

ويرجع ذلك لكون الجهود العلمية في تلك العلوم الطبيعية تتجه مباشرة لتحديد المفاهيم والعلاقات وإجراء التجارب والاستعانة بالملاحظة للتحقق التجريبي من صحة المفاهيم والأحكام التي تتضمنها العلاقات محل الاختبار .

ومن ثم انصرفت فيه جهود علماء الاجتماع إلى الاهتمام بدراسة موضوعة إضافة إلى محاولة فهم ظواهره المجردة ، واستجلاء المعالم المنهجية لهذا العلم ، ورصد مسالكه التجريبية لمعالجة ظواهره ، ومدى حضور كل من المداخل الذاتية والموضوعية على المستوى النظرى والمنهجى ، في فهم الظواهر ومعالجتها ، والمصاهرة المحتملة بينها وبين التجريب الاجتماعى واثر ذلك على فهم طبيعة تلك الظواهر ، والتفسير الذي نقدمه لها .

وبذلك توزع التراكم المعرفي في علم الاجتماع وكان نصيب ظواهره من هذا التراكم محدوداً . بالقياس للعلوم الأخرى التي انحصرت تراكماتها المعرفية حول موضوعها بصورة أساسية .

والمتأمل في تاريخ علم الاجتماع وتطوره عندما يحاول مقارنة وضعه الحالي بوضع هذا العلم في بداياته المبكرة لدى ابن خلدون (١٣٣٢-

والمتأمل في تاريخ علم الاجتماع وتطوره عندما يحاول مقارنة وضعه الحالي بوضع هذا العلم في بداياته المبكرة لدى ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) والمدرسة الأوربية من بعده بحوالي ٤٠٠ سنة يلمس بوضوح تواصل تأثيرات ابن خلدون المتعلقة بتأكيده على (التجريب الاجتماعى والتجربة التاريخية والاستقراء التاريخي والتجربة الشخصية والفهم التأويلي للظواهر الاجتماعية (ببعديه الذاتي والاستبطان الثقافي)) والتى أثرت بشكل واضح على علم الاجتماع الأوربي في القرن التاسع عشر وخاصة فى ألمانيا بدءً من أعمال دلتاى ورفضه لتطبيق مناهج العلوم الطبيعية على الظواهر الاجتماعية وتأكيده على الفهم الإستبطانى لظواهر العالم الإنسانى ونسبيتها التاريخية ...الخ. ومن بعده ماكس فيبر، وهوسرل وشلر ..... وغيرهم من المعاصرين فى علم الاجتماع.

فقد جاء ابن خلدون منذ أكثر من أربعة قرون خلت بالتسمية المعصرة لعلم الاجتماع بقوله: وكأن هذا علم مستقل بنفسه ..... فأنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى[1] ... أى أنه أعلن تسمية هذا العلم فى علاقته بموضوعه وبذلك يكون "علم الاجتماع الإنسانى" وهذه التسمية نقلها أوجست كونت عن ابن خلدون بعد أن أطلع على أفكار المقدمة من الترجمات والكتابات التى نشرت بالفرنسية من خلال صديقه المصرى الشيخ عبد الله الذى كان يدرس فى فرنسا وشغل وزيراً للزراعة فيما بعد، وقد أهداه أوجست كونت نسخة المجلد الذى عدل فيها تسمية لهذا العلم من علم الطبيعة البشرية إلى علم الاجتماع، وهذه النسخة مودعة فى مكتبة جامعة القاهرة وعليها إهداء أوجست كونت وتوقيعه لصديقه الشيخ عبد الله.

"وعلم الاجتماع الإنسانى" الذى يعلن عنه اليوم بعد سقوط علم الاجتماع الكلاسيكى بفعل سيطرة الاتجاهات الأيديولوجية عليه وتلمسها أمل علميتة بتبنى مناهج العلوم الطبيعية، والتى تهاوت أمام النقد الذى أنهال عليها منذ

---

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة صـ ٣٨

والمعاصرين من بعده. هذا العلم مستقل بإطاره النظرى وطريقته المنهجية التى تلائم طبيعة الظواهر التى يعنى بدراستها.

وكان ابن خلدون أول من أكد على حيادية عالم الاجتماع الإنسانى وبعده عن النزعات الايديولوجية لأن طبيعة هذا العلم العلمية لا تتسق مع المنطق الأيديولوجى لأى من المذاهب. وذلك ما يشير إليه قوله "أن العلماء من البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها[1].

فعلم الاجتماع الانسانى علم مستقل بنفسه له منهجيته ونظريته اللذان يشكلان بناء نسقه العلمى وذلك ما يوضحه قوله " ...... وكأن هذا العلم علم مستقل بنفسه ..... واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا[2]

وعلم الاجتماع الانسانى بذلك يتناول ظواهر الاجتماع الإنسانى التى يدركها بالحواس، وباطنه الذى يدركه بالقوى الدماغية [3] كما كان ابن خلدون معنى بالحدس والاستبطان الوجدانى كأساس مهنى للغوص إلى بواطن الأمور وعليه كان علماء الاجتماع الإنسانى على حد قول ابن خلدون "أنهم معتادوا النظر الفكرى والغوص فى المعانى ، وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها فى الذهن أمورا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ، ويطبقون بعد ذلك الحل على الخارجيات ... .. فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها فى الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر. ولا تصير بالجملة إلى مطابقة، وإنما يفرغ ما فى الخارج عما فى الذهن من ذلك [4].

(١)ابن خلدون ، المقدمة ، صـ ٥٤٢
(٢)ابن خلدون ، مرجع سابق صـ ٦
(٣)ابن خلدون ، المقدمة ، صـ ١٠٤
(٤)ابن خلدون ، المقدمة ،صـ ٥٤٢

وفي تناول عالم الاجتماع للعمران البشري والاجتماع الانساني يؤكد ابن خلدون على أسلوب " التمييز " الرد الفينومينولوجي بقوله "فالعمران طبائع في أحواله [1] مستطرداً بعد ذلك ليؤكد ضرورة أن تنظر فيه "وتميز ما يلحقه من الأحوال لذاته ، بمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً، لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له [2] على أن ينصب اهتمامنا بالواقع على ما هو متشخص في مواده من كائنات ووقائع وذوات وأفعال [3].

أما عن فهم الإنسان للعالم الاجتماعي المحيط به، ولمعطياته التي يتحصل عليها فهو يعتمد على عمليات الإدراك والتي تتمثل في الحس المشترك، والتخيل، والتوهم والحفظ ثم التفكير وما يرتبط بها من رؤية وتوجه نحو تعقل. (أي الوعي) بعالم الاجتماع البشري.

وهذا ما يتم في سياق القوى الإدراكية المتعالية وذلك ما يوضحه عند تناوله لقوى الإدراك بقوله "...... قوى الإدراك مترتبة، ومرتقية إلى القوة العليا منها ، وهي المفكرة التي يعبرون عنها بالناطقة ... فقوى الحس الظاهر ... ترتقي إلى الباطن وأوله الحس المشترك، وهي قوة تدرك المحسوسات ... وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لأن المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد، ثم يؤديه الحس المشترك إلى الخيال كما هو مجرد عن المواد الخارجية فقط .... ثم يرتقي الخيال إلى الواهمة والحافظة، فالواهمة لإدراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعدالة زيد .... والحافظة لإيداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة، وهي لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها ... ثم ترتقي جميعها إلى قوة الفكر ... وهي القوة التي تقع بها حركة الرؤية والتوجه نحو التعقل [4].

---

(١)ابن خلدون ، المقدمة ،ص ١

(٢)ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٧

(٣)دكتور/ حسن الساعاتي ، مرجع سابق ص ٦٣

(٤)ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٧

وبذلك يصل بنا ابن خلدون إلى مستوى تعقلنا لعالم الاجتماع الإنسانى ووعينا به وهنا نجد ابن خلدون يذهب إلى أن: "الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج من ذاته بالفكر الذى وراء حسه، وذلك بقوى جعلت له فى بطون دماغه لينتزع بها صورة المحسوسات، ويجول بذهنه فيها فيجرد منها صوراً أخرى، والفكر هو التصرف فى تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها بالانتزاع ، والتركيب وهو معنى الأفئدة ...... والأفئدة جمع فؤاد وهو الفكر(١)

والفكر عند ابن خلدون مراتب ثلاثة (٢):

*أولها تعقل الأمور المرتبة فى الخارج ترتيبا طبيعيا أو وضعيا حتى يستطيع أن يوقع أفعاله على انتظام لأن الأفعال البشرية منتظمة ومرتبة.

*الثانية يستنتج بالتجربة الآراء والآداب التى يفيد منها الإنسان فى تعامله مع أبناء جنسه وسياستهم .

*والثالثة هى تعتبر العلم أو الظن بما هو نظرى وراء الحس، وغاية أفادته تصور الوجود على ما هو عليه والتعرف على أسبابه وعلله.

وبذلك قدم لنا ابن خلدون علم الاجتماع الإنسانى على أنه مستقل له نظريته ومنهجه المغاير لمنهجية العلوم الأخرى لأنها منهجية تساعد على فهم الاجتماع البشرى والغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات وتجديدها فى الذهن أموراً كلية عامة لتحكم عليها بأمر العموم. ويخضعها للتأمل النقدى وذلك ما يوضحه قوله...... "وتأمل الأخبار وأعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه (٣). وبذلك تتحدد معالم الاستيطان الاجتماعى والفهم لعالم الاجتماع الإنسانى برؤية فينومينولوجية تقوم على (التميز) الرد والوعى بالمعنى والتأمل والتخيل. وقد أوجز ذلك

---

(١)المقدمة صـ ١٠٤

(٢)دكتور الساعاتى ، مرجع سابق ، صـ ١٦٥

(٣)المقدمة ، صـ ١٣ ، ١٤

وبالنسبة لفاعلية العمليات النفسية الشاملة للعمليات الخمس التى يعتبر التفكير أبرزها وأعظمها أهمية بالإشارة إلى أن العلماء يحصلون عن طريق "المدركات الحسية، والخيالية، وتركيب المعانى من الحافظة، والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدوا به العلوم التصويرية، والتصديقية التى للفكر البدن، وكلها خيال منحصر نطاقه ...."[١] يصل به الفكر التأملى النقدى إلى مرحلة الوعى حيث يذهب ابن خلدون هنا إلى حد القول: "ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذى وراء حسه وذلك بقوى جعلت له فى بطون دماغه لينتزع بها صور المحسوسات ويجول بذهنه فيها فيجرد منها صور أخرى ......"[٢].

وقد اتسق توجه دلتاى وتأكيده على تمايز منهجية الدراسات الإنسانية للعالم الإنسانى فى (عالم الحياه) عن منهجية العلوم الطبيعية التى لا تلائم طبيعة العالم الإنسانى الذى يتطلب رؤية من الداخل بالاستناد إلى مجموعة من المقولات كأدوات تصورية لتحليل العالم الإنسانى بوجه عام. وعالم الحياة الانسانية اليومية بوجه خاص وهى التى تأثر فيها بمقولات ابن خلدون فى تحليل عالم الاجتماع الإنسانى تؤكد فى ذلك على منهجية التفهم والتفسير والتجربة المعاشة ... الخ. وقد تأثر بتوجه فلهلم دلتاى (١٨٣٣-١٩١١). هذا بجانب أو أخر لرفض وضعية التوجهات الكلاسيكية فى علم الاجتماع كل من ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠)، وادموند هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨)، وماكس شلر (١٨٧٤-١٩٢٨) والفريد شوتز (١٨٩٩-١٩٥٩)، و جارفنكل (١٩١٧) وميلز (١٩١٦-١٩٦٢)، والفن جولدنر وغيرهم من العلماء الذين رفضوا التوجهات الأيديولوجية للاتجاهات الكلاسيكية ووضعيتها القائمة على تبنى مناهج العلوم الطبيعية والنظر لوقائع عالم الاجتماع الانسانى والحياة اليومية على أنها أشياء تدرك من الخارج فحسب هذا فضلا عن التطور لفكر

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، صـ ١٠٤

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، صـ ١٠٤

التطور لفكر النظرية النقدية برؤية فينومينولوجية عند "يورجن هابرماس" الذى انتقد الايديولوجيات، وخرج عن إطار مدرسة فرانكفورت المعتمدة من قبل، واضعاً فى اعتباره التعديلات التى طرأت على المناقشة فى الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السياسة، آخذاً فى حساباته النظرية الأفكار التى توصل إليها "ادموند هوسرل" والمتعلقة بحياة العالم بوصفها أساس العلوم، لكى يستطيع طرح العلاقة الملقاة بين المعرفة والمنفعة من جديد (1).

ومع ذلك واصل الفكر الأوربي الوضعى لعلم الاجتماع تأثيره على علم الاجتماع الأمريكي خلال فترة تأسيسه من ١٩٠٥ – ١٩١٨ م . حيث ظلت التجربة التاريخية محور اهتمام العلماء مع الاعتقاد في أهمية القوانين الطبيعية والتجارب العلمية لدراسة الظواهر الاجتماعية وفي المرحلة العلمية من ١٩١٨ – ١٩٣٥ حاول علماء الاجتماع الأمريكيين جعل هذا العلم منظما وموجها تجريبيا .

ثم وضح في مرحلة النظرية والبحث التطبيقي في الفترة من ١٩٣٥ – ١٩٥٤ تحول علم الاجتماع الى التجريبية والتنظيم بشكل واضح تحت تأثير فكر " دوركايم " و" ماكس فيبر " و " جورج ميد " .

ومع ظهور نظرية الصراع الحديثة عام ١٩٦٠ كان التأكيد واضحا على أهمية التجربة التاريخية في دراسة الأحداث والمشكلات واتخاذ الاستقراء التاريخي أساسا منهجيا لعلم الاجتماع .

وفى مرحلة التكنولوجيا ونظرية الأنساق عام ١٩٧٠ م زاد التأكيد على الاستنباط التاريخي ، من خلال البنائية الوظيفية "لتاكلون بارسونز" ، والتفهم الذاتي (الفينومينولوجي) لدى "تير باكيان" . مع التأكيد على الطريقة العلمية التجريبية .

---

(١)بونير ، روديجر ، الفلسفة الألمانية الحديثة (ترجمة فؤاد كامل) بغداد ، دار الشروق للثقافة العامة ، ١٩٨٦، صـ ٢٢٥ – ٢٦٥

ومع وضوح النموذج الاجتماعي النفسي في علم الاجتماع الأمريكي المعاصر والتأكيد واضح على التجربة الشخصية والتقييم الإستبطاني (الاثنوميثولوجي) عند "تونتر" الذى اصبح يشكل مدخلا منهجيا أساسيا في دراسة الظواهر الاجتماعية وفهمها عند "جارفنكل" الذين رفضوا التوجيهات الأيديولوجية للاتجاهات الكلاسيكية ووضعيتها القائمة على تبنى مناهج العلوم الطبيعية والنظر لوقائع عالم الاجتماع الإنساني والحياة اليومية على أنها أشياء تدرك من الخارج فحسب .

وبذلك يتضح أنه منذ نشأة علم الاجتماع وحتى يومنا هذا والتأكيد الذى طرحه ابن خلدون على الاستقراء التاريخي (التجربة التاريخية) والملاحظة العلمية (التجربة) والفهم التأويلي (التجربة الشخصية) يمارس تأثيره بالنسبة للنظام العلمي لعلم الاجتماع حيث يشكل التجريب التاريخي ، والتجريب الشخصى إضافة الى التجريب الطبيعي المقنن (تجربة العلوم الطبيعية) أساسا منهجيا لعلم الاجتماع .

وإذا كان هناك زعم مفاده أن علم الاجتماع ليس تراكميا ، وأن المنظرين السابقين مازالوا يمثلون أهمية كبرى لعلم الاجتماع بصورة اكثر من أهمية المنظرين والباحثين المعاصرين[1] فان هذا يعنى ان اهتمام المتخصصين منصرف إلى البحث عن تبريرات لعدم تحقيق تقدم علمي ملموس لعلم الاجتماع بإثارة موضوعات فرعية تتعلق ببعض القضايا دون التصدي لقضية العلم الأساسية المتمثلة في نظامه العلمي رغم شعورنا جميعا بالحاجة لمن يجرى هذه المراجعة العلمية لعلم الاجتماع رغم أنها مضنية وطريقها شاق.

---

(1) Ins, Randall, Traditions, N.Y., & Oxford, Oxford University Press, 1985. P.Y ii

ومن ثم فإن ما نثيره اليوم من حوار حول النسق العلمي لعلم الاجتماع التجريبي والفينومينولوجية التجريبية لا نهدف من ورائه إثارة الخلاف الجدلي حول المشروعية العلمية لعلم الاجتماع النظرى ، وعلم الاجتماع العلمي فحسب ، وإنما نهدف به إضافة لما سبق طرح التجريبية الفينومينولوجية لتصحيح مسار علم الاجتماع باعتبار النموذج الفينومينولوجى هو الذى يوفر لنا المنظور النظرى والمدخل المنهجى المناسب لعلم الاجتماع وموضوعة لكونه يحتويهما معا في صورة نسق علمي متكامل يعني بدراسة المجتمع وظواهره، ويوجه تناولها نظريا ومنهجيا بصورة متسقة مع نسق التفكير العلمى.

كما إننا لا نستهدف بما نثيره من جدل حول علم الاجتماع والتجريبية الفينومينولوجية أن تشكك في أهمية التنظير المعاصر والبحث التطبيقي ومعطياته، ولا أن نفاضل بين المناهج الموضوعية والمناهج الذاتية، ولا أن نقارن بين الاستقراء والاستنباط كمسالك منهجية في إقامة البرهان العلمي، ولا أن نغلب اتجاها نظريا على اتجاه نظري أخر.

وأيضا لا نهدف بما نثيره من جدل أن نقارن بين النماذج النظرية الكلاسيكية (العضوي ، والصراعي ، والسلوكي الاجتماعي)

وبين امتداداتها المعاصرة (المتمثلة في النماذج النظرية البنائية الوظيفية، الراديكالية الصراعية المحدثة، ولسلوكية الاجتماعية) والتي تشكل امتدادا لها.

وكذلك لا نسعى للكشف عن التحولات التى حدثت لتلك النماذج النظرية والتى أصبحت بمقتضاها تؤكد اليوم على العلمية والتجريبية الفينومينولوجية والاستقراء والفهم التأويلى (الذاتي والاستنباطي)، بعد أن كانت تؤكد على الأيديولوجية، والاستنباط ... الخ [1].

---

(1)Kinloch ، Graham c.، Sociological Theory ، Its Development and Major Paradigms ، N.Y.، Mcgraw Hill Book Company 1977، P.298.

العلم. أو أن نلقي باللائمة على أنصار الأنساق النظرية المغلقة ونحملهم مسئولية إعاقة التقدم العلمي لعلم الاجتماع، أو أن نسترسل في نقد التبعية الفكرية بمعطيات العصر ومجريات الفكر ووضوح الرؤية بالمسالك العلمية النظرية والمنهجية الملائمة لطبيعة الواقع الاجتماعى والثقافى، والحاجة للمراجعة الواعية لمواقفنا الفكرية مما يدور من حولنا وما نحن مستغرقين فيه بحكم تخصصنا وضغوط الحياة من حولنا .

فنحن لا نقف عند مجرد إثارة الحوار والجدل حول تلك القضايا ، فقد لاقت من الحوار الجدلي المستمر من المفكرين والمتخصصين على الصعيد العالمي والمحلي ما وفر تراكمات معرفية كان من المفروض أن تسهم في تقدم علم الاجتماع كنظام علمي يتسق نظريا ومنهجياً مع نسق التفكير العلمى. وينمى التوجه النظرى لمعالجة موضوع هذا العلم بمنظور فينومينولوجى .

ورغم ما أثير من دعاوى تبريرية لرفع الفهم الموجه لعلم الاجتماع والتى مؤداها أن علم الاجتماع ليس تراكمياً ، وان المفكرين السابقين مازالوا يمثلون أهمية كبرى لعلم الاجتماع رغم تأكيد معظمهم على الاستنباط بدلا من الاستقراء كمدخل لإقامة البرهان العلمي .

وأن موضوع علم الاجتماع ذو طابع تجريدي يحول دون السيطرة عليه، كما هو الحال بالنسبة لموضوعات العلوم الأخرى .

وأنه يستند بصورة اكثر إلى مداخل منهجية ذاتية على عكس العلوم الأخرى التي حققت تقدما باستنادها إلى المنهج التجريبى . وأن التجريب في مجال علم الاجتماع محدود وتواجهه تحديات لا قبل للباحث بها .

كما أن مصير علم الاجتماع ومستقبله لم يعد رغم تأييدنا للمنظرين الكلاسيكية أو رفضنا لمنظوراتهم أو مناصرتنا الباحثين المعاصرين أو نقدهم، أو اخذ موقف المؤيد أو المعارض من التبريرات التى تستهدف إلقاء

اللائمة على ظروف علم الاجتماع والمعضلات التى تواجه المعنيين بهذا العلم والمشتغلين به.

فالتراكم المعرفي حادث بالفعل من جراء الحوار الجدلي والتبريري حول تلك القضايا التي أشرنا لها سلفا .

كما أن المعالجات النظرية النقدية للاتجاهات الوضعية من قبل مدرسة فرانكفورت، وميلز، والفن هولدنر، ومن أنصار النظرية النقدية بربارة أونيل مع تنوعها وتباين مداخلها قد حققت تراكما معرفيا متنوعا . هذا فضلاً عن المعطيات المنهجية التى تمخضت عنها أعمال كل من ، جون ستيوارت ميل ، وكارل بيرسون ، وداهوم ولزوزفيلد وجون ديوى ، وأيضاً المعطيات النظرية المنهجية التى طرحت فى أعمال كل من ابن خلدون ودلتاى ، هوسرل وماكس فيبر وشلر ...الخ والتي بلورت المنظور الفينومينولوجى للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة وهو المنظور التى ساوق تطوره تعميق النزعة التقدمية للاتجاهات الكلاسيكية في علم الاجتماع .

ومن ثم نستهدف بحوارنا حول السياق النظري والمنهجي لعلم الاجتماع الفينومينولوجي وما احتوته تلك السياقات من قضايا خلافية تتعلق بموقف التنظير المعاصر من التنظير الكلاسيكي ، ومشايعة أي من القضايا المنهجية المتعلقة بالموضوعية والذاتية ، والكم والكيف .. الخ . نستهدف بحوارنا حول تلك القضايا وغيرها من القضايا التى نثيرها .. طرح النظام العلمي لعلم الاجتماع التجريبى برؤية فينومينولوجية تمثل ثمرة ذلك الحوار النظري والمنهجي المتصل والتي أنضجتها تلك المحاولات المعاصرة من قبل المنظرين والمنهجيين الذين استهدفوا بحوارهم انتشال علم الاجتماع من التعددية الأيديولوجية ومنهجية العلوم الطبيعية التى تحتضنها والتي تعصف بموضوعية المعرفة والمعايير التي نستند إليها في تفسير ظواهر الواقع الاجتماعي ، وتنوع المداخل المنهجية التي تتساند وظيفيا في تناول الواقع وتفسيره ، مع غياب وعينا بطبيعة التفاوت بين الاتجاهات النظرية باعتبارها

بموضوعية المعرفة والمعايير التي نستند إليها في تفسير ظواهر الواقع الاجتماعي ، وتنوع المداخل المنهجية التي تتساند وظيفيا في تناول الواقع وتفسيره ، مع غياب وعينا بطبيعة التفاوت بين الاتجاهات النظرية باعتبارها استراتيجيات نظرية عامة لتناول المجتمع ومعالجة ظواهره ، وبين المنظورات والنماذج التفسيرية للواقع الاجتماعي والتي قد تكون من بين المنظورات الفرعية الإيضاحية والتفسيرية لأي من الاتجاهات البنائية الوظيفية أو الصراعية الراديكالية أو النفسية الاجتماعية .. الخ .

ورغم ظهور محاولات مبكرة لتصنيف النظريات على أساس خصائصها المشتركة إلى مدارس واتجاهات على يد عالم الاجتماع بيتريم سروكن ، وتكرار تلك المحاولات من قبل بعض المنظرين من حين لآخر حتى وقتنا الحاضر ، إلا أن ظهور التنظير الذي يحاول الكشف عن الانتماءات الوظيفية للاتجاهات النظرية في سياق النسق النظرى العام لم تأت إلا متأخرة في مؤلفينا بعنوان نظرية علم الاجتماع [(١)] ، والمنهج العلمى والعلوم الاجتماعية (١٩٨٢) [(٢)] وأخيرا جاء هذا العمل الحالى مدخل علم الاجتماع التجريبى والتجريبية الفينومينولوجية المعاصرة (١٩٩٨) مكملا للعملين السابقين ومتوجا لهما. حيث ركزنا فيه على الانتماءات الوظيفية بين الاتجاهات النظرية العامة في سياق النسق النظرى الفينومينولوجى العام لعلم الاجتماع التجريبي الذى يشكل المظلة النظرية المرجعية للباحثين والمنظرين فى علم الاجتماع والمعنيين بمعالجة أى من ظواهر المجتمع على مستوى ظروف علم الاجتماع المختلفة باعتبار هذه الاتجاهات النظرية والانتماءات القائمة فيما بينها بمثابة نماذج فرعية للمنظور الفينومينولوجى العام الذى يمثل النسق العام لعلم الاجتماع .

---

(١)دكتور/ السيد على شتا ، نظرية علم الاجتماع ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الطبعة الثانية ١٩٩٣

(٢) دكتور/السيد على شتا ، المنهج العلمى والعلوم الاجتماعية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الطبعة الثانية ١٩٩٣م .

التى تجعل جميع المعرفة قائمة على التجربة . ونقيم النظرية العامـــة التـــى تشير إلى النسق النظرى والمنهجى لتناول مشكلات الحياة اليومية للبشـرية ، ويجعل النماذج التفسيرية مرتبطة بمعرفة العالم الانسانى المكتسبة بواســطة الدراسات الإنسانية التى تتخذ من التجريبية الظاهرية أساسا منهجيا لها .

وفى سياق هذا المسار التحليلى يتضمن هذا الكتـــاب ثمانيــة فصــول متكاملة حول الموضوع يتناول أولها النسق العلمى لعلم الاجتماع التجريبـــى ويعالج الفصل الثانى علمية علم الاجتماع التجريبى ثم نفرد الفصل الثـــالث لموضوعيه المعرفة والمنظور الفينومينولوجى فـــى العلـوم الاجتماعيـة ، ويختص الفصل الرابع بالبرهان العلمى والصياغة النظرية فى علم الاجتمـاع الإنسانى برؤية ظاهرية، أما الفصل الخامس فيتناول الذاتية والموضوعيـــة برؤية ظاهرية، ويختص الفصل السادس بمدخل الظاهرية التجريبيـــة لعلـم الاجتماع ، أما الفصل السابع فيتناول الأصول الفكرية للتجريبية الظاهريـــة المعاصرة فى علم الاجتماع ٠

والله الموفــق ٠

السيد شتا

الفصل الأول

النسق العلمى لعلم الاجتماع التجريبي

*نسق التفكير العلمى .

*تعريف بالعلم وأهدافه .

*النسق العلمى للعلم الطبيعى والعلم الاجتماعى .

*الاتساق بين علم الاجتماع التجريبى ونسق التفكير العلمى .

الفصل الاول

النسق العلمي لعلم الاجتماع التجريبي

تمهيد :

. استهدفت معالجتنا للبناء العلمى لعلم الاجتماع التجريبى الوقوف على العناصر الأساسية لنسق التفكير العلمى وتحديد معنى العلم وأهدافه وأوجه المفارقة والالتقاء بين العلم الطبيعى والعلم الاجتماعى ومدى اتساقهما معاً من حيث مبادئ المنظور العلمى التى توجه استراتيجية التناول النظرى والمعالجة المنهجية للمجتمع وظواهره [1] وحدود المفارقة المنهجية بين النظامين العلميين .

وبذلك تكشف المعالجة فى هذا الفصل عن أبعاد الاتساق بين علم الاجتماع بوضعه الراهن فى ضوء المنظورات الكلاسيكية لعلم الاجتماع ونسق التفكير العلمى ومدى حاجته الملحة للتجريبية الفينومينولوجية المعاصرة .

وبذلك توفر لنا المعالجة فى هذا الفصل فهما علميا متعمقا حول نطاق علم الاجتماع الفينومينولوجي ونظامه العلمى المستند إلى مبادئ المنظور العلمى فى صياغته النظرية وفى إجراءاته المنهجية ، وذلك للكشف عن حدود الاتساق العلمى وأوجه المفارقة بين النظام العلمى لعلم الاجتماع التجريبى ومنطق نسق التفكير العلمى . ومن ثم معرفة مدى الحاجة للتجريب الفينومينولوجى لكى يوفر هذا النظام العلمى الكفاءة النظرية والمنهجية التى تمكننا من توفير المعرفة العلمية المتراكمة حول الظواهر الاجتماعية ، وبالتالى يتحقق لعلم الاجتماع التجريبى تقدمه .

---

(١) دكتور السيد على شتا ، نظرية علم الاجتماع ، الإسكندرية ، مكتبة الإشعاع ، ١٩٩٧

- نسق التفكير العلمى .

- تعريف بالعلم وأهدافه .

- النسق العلمى للعلم الطبيعى والعلم الاجتماعى .

- الاتساق بين علم الاجتماع التجريبى ونسق التفكير العلمى .

أولاً : نسق التفكير العلمي :

يستهدف الحوار حول نسق التفكير العلمى ، معالجة النظام العلمى ومقوماته والمبادئ المتعلقة بالعمل والنشاط العلمى ، وحدود استخدامنا للمنهج العلمى لاكتساب المعرفة حول ظواهر الواقع وصياغة النظريات المفسرة لتلك الظواهر . والأساس المنطقى للبرهنة على صحة تلك النظريات وصلاحيتها لعملية التفسير التى صيغت من أجلها ومدى كفاءة تلك التفسيرات فى فهم الظاهرة الاجتماعية .

ونظراً لأن هذا الحوار يعالج المبادئ المنطقية التى ينهض عليها التفكير العلمى ، والتى تحدد مساره فى معالجة ظواهر الواقع والبرهنة على صحة النظريات ، فأنه يأتى في نطاق فلسفة العلم ، والتى تستهدف معالجة النظام العلمى بتحديد المبادئ المتعلقة بصياغة النظريات وتحصيل المعرفة العلمية ، وحدود العمل العلمى الذى يستهدف تحقيق تراكم هذه المعرفة . سواء مايتعلق منها بالنظام العلمى ذاته ، أو ما يتعلق منها بفهم حياة الإنسان ومعرفة أحواله ، وبذلك فان حوارنا في هذا المجال يسعى لبلورة تلك المبادئ التي تحكم البناء النظرى لنسق التفكير العلمي ، وجعلها واضحة (1) سواء ما يتعلق منها ببناء النظام العلمى الخارجى والداخلى . أو ما يتعلق منها بنشاط العلم من اجل توفير المعرفة العلمية حول ظواهر الواقع ، وحياة الإنسان .

---

(1) Harre ، R. The Philosophies of Science ، London : and New York : Oxford University Press ، 1972 ، P.1.

وأحواله ، وصياغة النظريات التفسيرية الملائمة والتى تساعد على فهم الظاهرة الاجتماعية .

ومن ثم نعالج المبادىء الأساسية لنسق التفكير العلمي على مستوى استخدام المنهج العلمي ، وصياغة النظرية من ناحية ، وتحصيل المعرفة العلمية حول الواقع وظواهره من ناحية أخرى . وذلك في سياق تحليلنا لنظرية الاستدلال ، ونظرية المعرفة ، ونظرية المفاهيم ، ونظرية الأخلاق والمنهج الفيتومينولوجى . وهذا بعينه ما يجعل حوارنا ومعالجتنا مرتبطة بفروع الفلسفة الأساسية المتمثلة في المنطق ، والابستومولوجي ، والميتافيزيقا.والأخلاق . ومثل هذه المعالجة لا تستهدف تناول هذه الجوانب ، وهى منفصلة عن بعضها وإنما تسعى لاستخلاص المبادىء الأساسية التى تحكم نسق التفكير العلمى .

وسوف تتوزع معالجتنا لنسق التفكير العلمى عامة وعلم الاجتماع التجريبى خاصة على فصول الأجزاء الأربعة لمؤلف علم الاجتماع التجريبى والمنظور الفينومينولوجى ويختص الجزء الأول منها ببنية نسق التفكير العلمى كمدخل للتجريبية الفينومينولوجية المعاصرة .

فالقول بان العلم معرفة من نوع خاص محدد – يتم فحصها بطرق منهجية مميزة ومرتبطة بفروض نظرية وتجريبية (1) لا يعنى كما هو ظاهر أن المعرفة مرادف لمصطلح العلم ، وإنما يعنى أن المعرفة المرتبطة بالعلم، ويتم تحصيلها بواسطة نظام متكامل، ينهض على عناصر أساسية ، تميز نسق هذا النظام العلمى عن غيره من النظم الأخرى ، التى تتبع فى تحصيل المعرفة . وهذه العناصر التى يرتكز عليها النسق العلمى تتمثل فى وجود منهج مميز ، ونظرية مرتبطة بالسياق التصورى (النظرى) ، والسياق

(1) Savory ، Theodore H.، The Language of Science ، London ، Tonbridge Printers،L.T.D.، 1967 .P.18

التجريبى (المعرفة الامبريقية) ، والعلاقة التى تربط بين العنصرين ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة [1].

ومن ثم فان تعريف العلم بأنه معرفة من نوع خاص ، يشير إلى أن هذه المعرفة مصاغة فى شكل نظرية، وأنها تمثل إحدى عناصر العلم الأساسية . وهنا قد يطرح البعض سؤالا منطقيا ، إذ كيف نعرف الكل بالجزء ، أى كيف نعرف العلم بالنظرية ، وهى إحدى عناصر هذا النسق العلمى ؟ والواقع أن اكتساب النظرية لأهميتها هذه بالنسبة للعلم يرجع لكون العلم يبدأ بنظرية ، وينتهى منطقيا بنظرية . ولكونها أى النظرية تمثل النموذج الذي يمكننا من فهم الواقع ، نظرا لأنها تساعدنا على فهم الظاهرة وتفسير العلاقات القائمة بين الظواهر كمتغيرات ، والتنبؤ بكيفية حدوث هذه العلاقات ، واحتمالات هذا الحدوث في المستقبل . أى لكون النظرية أداة العلم الأساسية التى توفر وضوح الرؤية بأبعاد الواقع ، الذى يسعى العلم لفهم ظواهره . وعلى أساس ذلك أمكن القول بان النظرية والمنهج عنصران أساسيان للعلم ويشكلان معا بنائه الخارجي . وانهما بمثابة أداتين للعلم. يرتكز عليهما فى القيام بوظائفه . وتحقيق أهدافه .

فالعلم يقوم بوظائف أساسية تتمثل فى وصف وتفسير الوقائع . وذلك لتحقيق أهدافه المعلنة (الفهم ، التنبؤ ، والتحكم) ، وهدفه الضمنى المتمثل فى نمو الوعى العلمى القائم على حقائق الواقع . وتتمثل أولى وظائف العلم التى يقوم بها لتحقيق أهدافه فى اكتشاف الوقائع ، ووصفها ، وتحديد خصائص الواقع . وما ينطوى عليه من عناصر وفئات . وتتمثل وظيفته الثانية في تفسير ظواهر الواقع من حيث نشأتها وتطورها والعوامل المتحكمة فيها . وعلى أساس الوصف والتفسير للواقع وظواهره . يحقق العلم الفهم باعتباره

---

(١) تشير العلاقة المباشرة بين النظرية والمنهج لارتباط النظرية بالمنهج من حيث صياغتها ، والتحقق من صدق هذه الصياغة . وتشير العلاقة الغير مباشرة بينهما لارتباط تحصيل المعرفة بالمنهج ، واعتماد النظرية من حيث الصياغة ، والتحقق على هذه المعرفة وبذلك تشكل العلاقة بين النظرية والمنهج بدورها إحدى المكونات البنائية لنسق التفكير العلمي .

هدفا أوليا يرتكز عليه العلم لتحقيق التنبؤ كهدف نهائى له . فعندما نحقق الفهم للواقع وظواهره يمكننا ان ندرك صيغ العلاقات الجديدة وصورها . وبقدر ما يكون فهمنا للواقع وادراكنا لصور العلاقات بين ظواهره مرتكزا على الحقائق الفعلية ، يكون ادراكنا قائما على اساس من الوعى العلمى . وهو ما يجعل هدف العلم من التنبؤ حول الواقع وظواهره امرا ممكنا . ونظرا لفاعلية الدور الذي يؤديه الوعى العلمى بالنسبة للعلم فانه اى العلم يسعى دائما لتنمية هذا الوعى بالكشف عن الوقائع والاستناد لبياناتها ، لإحلالها محل الأساطير والمعتقدات[1] ، عندما يصور أحكامه او يصيغ تنبؤاته حول الواقع وظواهره . ولكى يتمكن العلم من ممارسة وظائفه وتحقيق غاياته لا بد له من استخدام أدوات أساسية متسقة مع بعضها من ناحية ، ومتكاملة بنائيا لتشكل بناء النسق العلمى ، ومتساندة وظيفيا لتحقيق الغاية من وجود النسق العلمى من ناحية أخرى . وإذا كانت النظرية تمثل أداة العلم التى تساعده فى تحقيق وضوح الرؤية بأبعاد الواقع الذي يجمع حوله البيانات ، فإن المنهج يمثل أداة العلم التى تمكنه من جمع المعرفة العلمية حول الواقع . وصياغة النظرية التى تساعد على فهم هذا الواقع والتنبؤ باحتمالات الحدوث لظواهره .

ومن ثم كانت النظرية والمنهج وما بينهما من علاقة محلا للعديد من التساؤلات التى شغلت فلاسفة العلم الذين سعوا لمعالجة بناء العلم وتحديد عناصره وهم بصدد الإجابة عن تلك التساؤلات . وفى ضوء ذلك نعالج البناء المنطقى لنسق التفكير العلمى بتناول :

- البناء الخارجى لنسق التفكير العلمى .
- البناء الداخلى لنسق التفكير العلمى .
- المنظور العلمى .

(1) Mahmoudi , Kooros N. and Parlin , Bradley W., Sociology Inquiry, Hant Publishing Company , 1975, PP. 14 - 15

- الأداء الوظيفي لعناصر النسق العلمى .

- النسق العلمى لعلم الاجتماع التجريبى والتراكم المعرفى .

وذلك تمهيدا لاستئناف حوارنا حول البناء المنطقى للعلم واستراتيجية البرهان العلمى فى النظام العلمى لعلم الاجتماع التجريبى والنظم العلمية المختلفة .

ا - البناء الخارجى لنسق التفكير العلمى :

تشكل النظرية والمنهج وما بينهما من علاقات البناء الخارجى External Structure لنسق التفكير العلمى إذ أن النظرية تمثل أداة العلم التى يستند إليها فى تفسير الظواهر. وما بينها من علاقات وتفاعلات . والتنبؤ بصور الحدوث المحتملة لتلك العلاقات التى يتم تفسيرها من ناحية . فى حين ان المنهج يمثل أداة العلم الأساسية الأخرى التى يرتكز عليها فى صياغة النظرية والتحقق من كفاءتها بالصورة التى تجعلها صالحة لأداء وظيفتها من ناحية أخرى .

وإذا كانت النظرية على نحو ما يذهب "ريتشارد ريدنر" نسق من العبارات المترابطة والمتضمنة لبعض التعميمات المصاغة فى قوانين قابلة للاختبار . والتحقق الامبريقى[1]. فإنها بذلك أى النظرية تساعد على فهم الواقع وتفسيره والتنبؤ بعوامل الحدوث المحتملة لظواهره فى المستقبل. ومن ثم اعتبرت النظرية أداة اساسية للعلم وعنصرا من عناصر بنائه الخارجى. وذلك لان النظرية نقطة البداية للعلم وخاتمة مطافه المنطقية[2].

ومن ثم نجد أن النظرية رغم أنها أداة أساسية للعلم إلا أنها غاية من غاياته. فى حين أن المنهج يشكل العنصر الثانى لبناء العلم الخارجى ويمثل

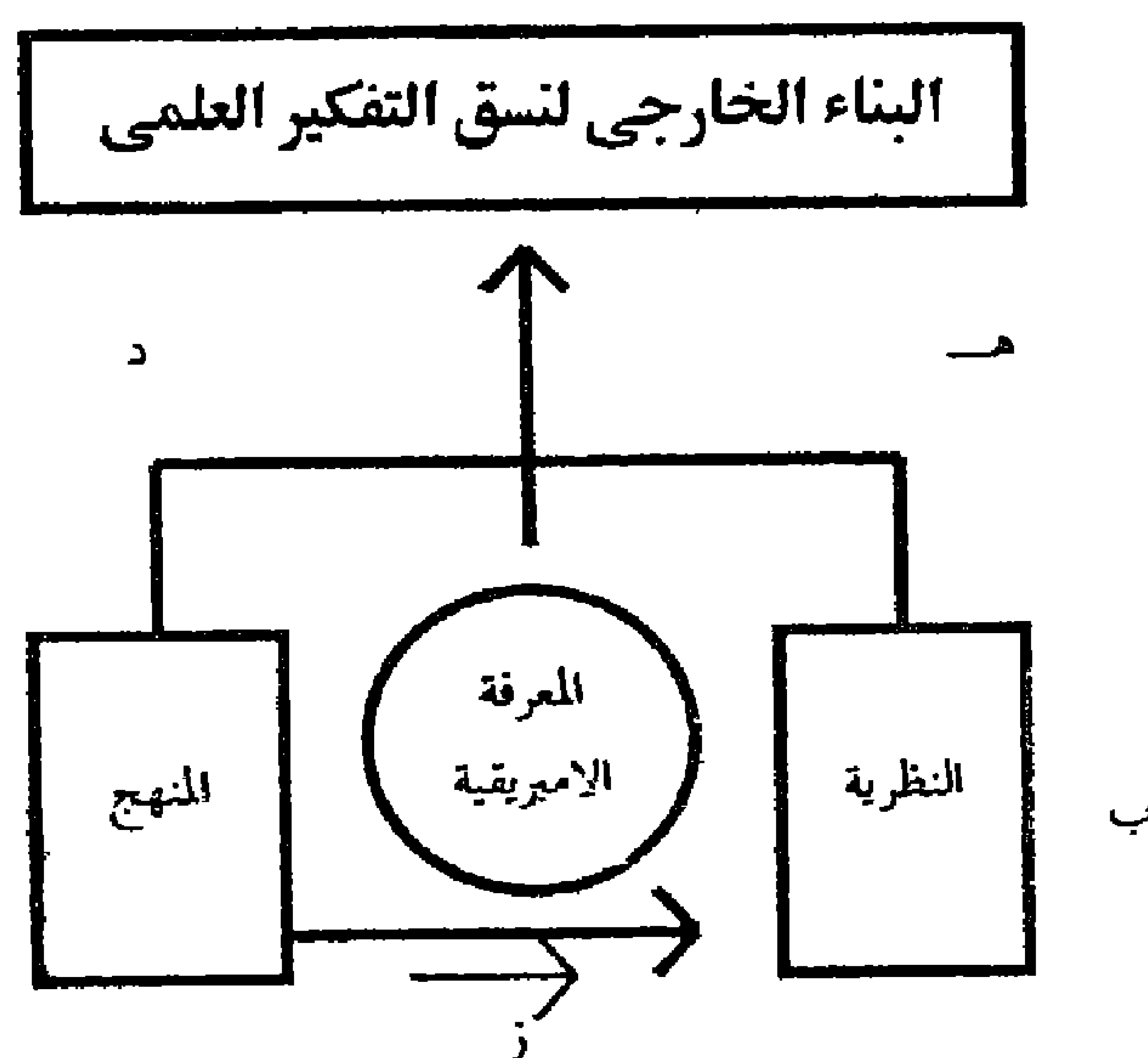
---

(1) Rudner , Richard , S., Philosophy of Social Science , New Jersey : Prentic Hall ,Inc.,1966. P.10.

(2) Mahmoudi , Kooros N., and Parline Bradley W.,Sociology Inquiry , New Y[illegible] Hant Publishing Company 1975. P.17.

أداته الأساسية لصياغة النظرية وجعلها على مستوى الغاية من صياغتها بربطها بالواقع ..وبذلك يعنى العلم أو نسق التفكير العلمى بتحقيق غايتين أساسيتين. يتمثل أولهما فى إنتاج الأحكام حول حقائق الواقع، ويتمثل ثانيهما فى بناء الأنساق النظرية التى تجعل هذه الأحكام مرتبطة ببعضها ، ومتسقة مع طبيعة الواقع الذى تعنى به . ذلك الاتساق الذى يعتبر القاعدة المنطقية لعلم الاجتماع التجريبي .

وفى ضوء ذلك يتضح أن البناء الخارجى للعلم يتكون من النظرية والمنهج والعلاقة الأفقية التى تربط عنصريه ببعضهما من ناحية ، وتربطهما بالواقع من ناحية أخرى .



فالنظرية والمنهج وما بينهما من علاقة يشكلان معا بالإضافة للعلاقة القائمة بينهما وحدة البناء الخارجى للعلم حيث تربطهما علاقة تساند واعتماد متبادل من خلال ارتباطهما بنسق التفكير العلمى من ناحية ، وبالواقع من ناحية أخرى إذ أن المنهج فى حد ذاته لا يشكل نسق التفكير العلمى . وكذلك

متبادل من خلال ارتباطهما بنسق التفكير العلمى من ناحية ، وبالواقع من ناحية أخرى إذ أن المنهج فى حد ذاته لا يشكل نسق التفكير العلمى وكذلك النظرية وحدها لا تشكل نسقا متكاملا للتفكير العلمى .. ولكنهما معا يشكلان البناء المنطقى لنسق التفكير العلمى . وذلك يعنى تكاملهما بنائيا في تكون البناء المنطقى لنسق التفكير العلمى . هذا بالإضافة إلى تلك العلاقة التى تربطهما ببعضهما من حيث صياغة النظرية . وارتباطها بالواقع . فالمنهج لا يعمل في معزل عن الوقائع سواء كانت هذه الوقائع مجسدة مثل الظواهر العضوية وما دون العضوية ، أو مجردة مثل الظواهر الاجتماعية (فوق العضوية) . هذا بالإضافة لارتباط المنهج بالنظرية من حيث صياغتها وارتباطها بالوقائع الامبريقية لجعلها على مستوى الغاية من حيث صياغتها . بحيث تكون قادرة على إيضاح الرؤية بأبعاد الواقع . ومن ثم تكون العلاقة بين النظرية والمعرفة الامبيريقية علاقة تساند واعتماد متبادل فالمعرفة لا تكون معرفة علمية إلا إذا كانت مصاغة فى شكل نظرية . والنظرية لا تكتسب مقوماتها إلا إذا كانت قائمة على المعرفة الامبريقية بالوقائع . وبذلك تتبادل النظرية الاعتماد مع المنهج وتتساند معه وظيفيا من خلال المعرفة الامبريقية، والتى تدخل بحكم دورها الوظيفى فى تكوين علاقة وسيطية بين النظرية والمنهج . ومن ثم تعتبر هذه العلاقة من ضمن المكونات البنائية لنسق التفكير العلمى .

وفى ضوء ذلك نحلل المكونات البنائية لنسق التفكير العلمى من قبيل الايضاح على النحو التالى .

فاذا رمزنا لنسق التفكير العلمى بالحرف (س) وصنفنا المكونات البنائية على المستوى العام إلى :

- العناصر البنائية = ص
- العلاقة بين العناصر البنائية = ع ص
- العلاقة بين العناصر البنائية ونسق التفكير العلمى = ع س
- وفردنا المكونات البنائية العامة إلى :
- المنهج = أ

- النظرية = ب
- المعرفة الامبيريقية = ج
- علاقة المنهج بنسق التفكير العلمى = د
- علاقة النظرية بنسق التفكير العلمى = هـ
- علاقة المعرفة الامبيريقية بنسق التفكير العلمى = و
- علاقة النظرية بالمنهج = ز
- علاقة المنهج بالمعرفة الامبيريقية = ح
- علاقة النظرية بالمعرفة الامبيريقية = طـ
- علاقة تساند ضمنى بين العناصر البنائية ونسق التفكير العلمي = ق
- علاقة تساند ضمنى بين العناصر البنائية = ك

حيث يمكن فى ضوء هذا التحليل للمكونات البنائية تحديد شبكة التفاعل انماط التشبع بين المكونات البنائية لنسق التفكير العلمى وذلك على النحو التالى :

- أ + ب + ج = ص
- (ز + ح + طـ) + (ق + ك) = ع ص
- د + هـ + و = ع س

وفى ضوء ذلك نجد ان نسق التفكير العلمى ينتج عن

- ص + ع ص + ع س = س

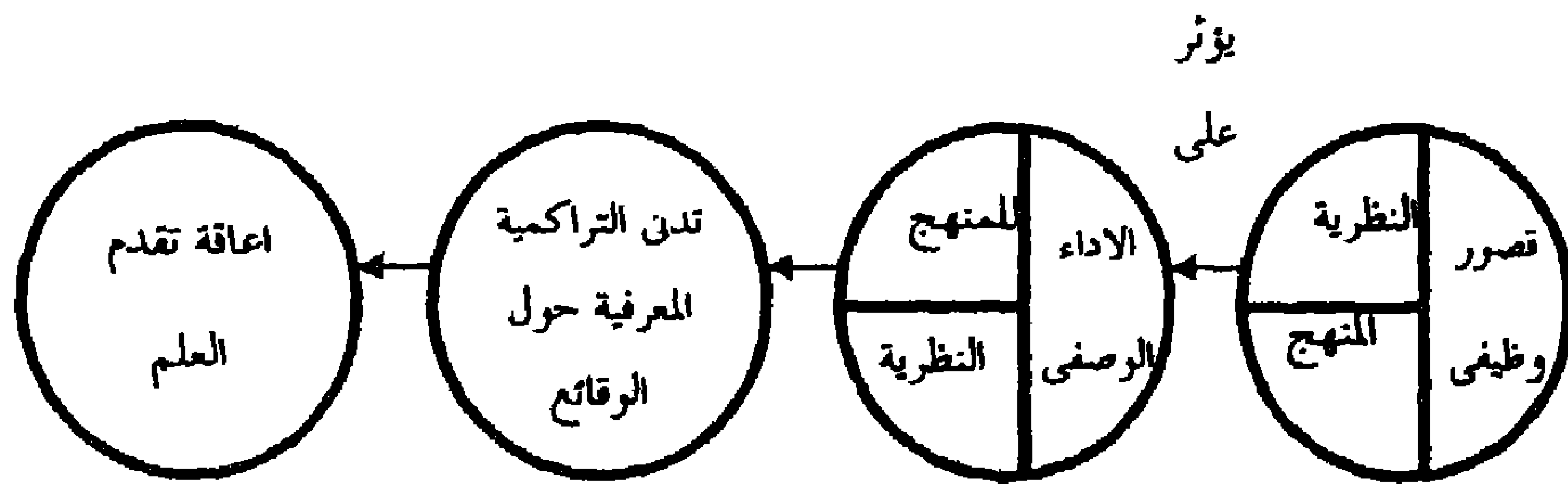
وبذلك نكون قد أوجزنا التحليل السابق لمكونات البناء الخارجى لنسق التفكير العلمى من حيث عناصره والعلاقات المباشرة والضمنية التى تربطها من ناحية ، وتربطها بالنسق العلمى من ناحية أخرى .

٢ – البناء الداخلى لنسق التفكير العلمي :

إن ما نستهدفه بتحليل البناء الداخلى Internal Structure لنسق التفكير العلمى يتمثل فى الوقوف على مضمون كل من النظرية والمنهج والعناصر التى

يشتمل عليها كل منهما، وحدود العلاقة التى تربط عناصر كل منهما ببعضهما ، وما يترتب على كل منهما فى علاقته بالعنصر الأخر والوقائع التى يتناولها من نتاج معرفى .

ذلك النتاج المعرفى الذى يتراكم باستمرار وبتراكمه يتحقق للعلم تقدمه (1) وبقدر مايتحقق للمجال المعرفى من نضج نظرى ومنهجى ، تكون تراكميته للأفضل . بمعنى أن التراكمية هنا تحقق تقدمية العلم . وعندما يرتبك اى من عناصر العلم من حيث النضوج العلمي فأنه لا يحقق أدائه الوظيفي المتوقع ، ومن ثم يترتب على قصوره الوظيفى تراكمية متدنية تؤثر بدورها على الأداء الوظيفي للعناصر الأخرى وبالتالى لا تتحقق للعلم التراكمية المطلوبة لدعم تقدمه .



(أ) – البناء النظرى لنسق التفكير العلمى :

يتضمن البناء النظرى لنسق التفكير العلمى عناصر أساسية تتمثل في المفاهيم والتعريفات والتعميمات . حيث تكون المفاهيم بمثابة بناءات منطقية متولدة عن الانطباعات والإدراك والخبرة المعقدة بالإضافة للاتفاق والاصطلاح عليها . ومن هذه المفاهيم ما يتعلق ببناء النظرية وموضوعاتها وهى المفاهيم التجريدية ومنها ما يشير للسمات الواقعية، تلك السمات التى

(1) Collins , Rnddall , Three Sociological Traditions , Oxford , Oxford University Press , 1985.

نسميها بالمتغيرات Variables وبذلك شاع الاتجاه لتعريف المفاهيم على أنـــها اصطلاحات تعين بعض الدلالات الواقعية لمعنى معين .

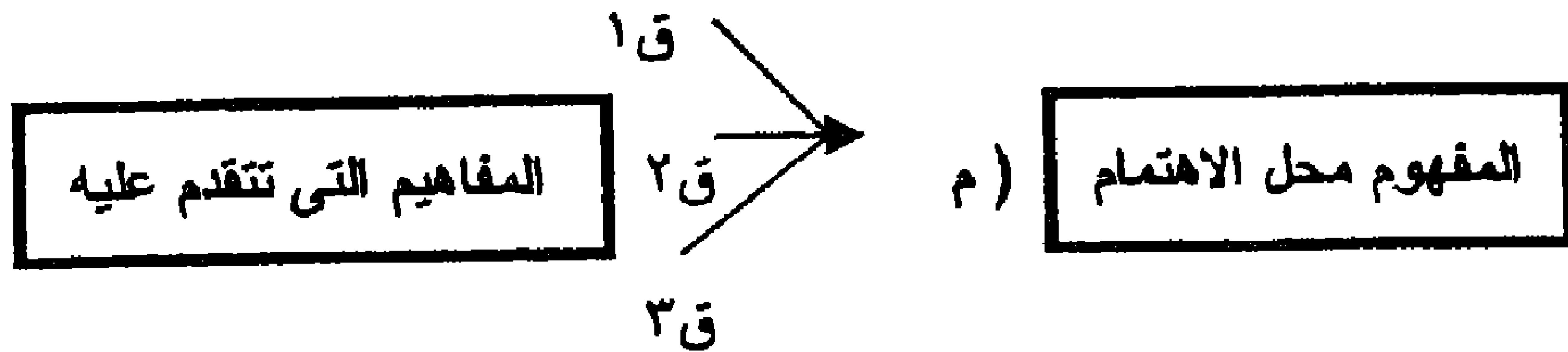
ويعتمد تقويم البناء النظرى لنسق التفكير العلمى على تحديــد العلاقـــات القائمة بين المفاهيم . التي يتضمنها البناء النظرى . وهنا تكون العلاقة بين :

- مفاهيم سابقة .
- مفاهيم لاحقة .
- كلاهما معا .

وذلك ما توضحه الاشكال التالية :

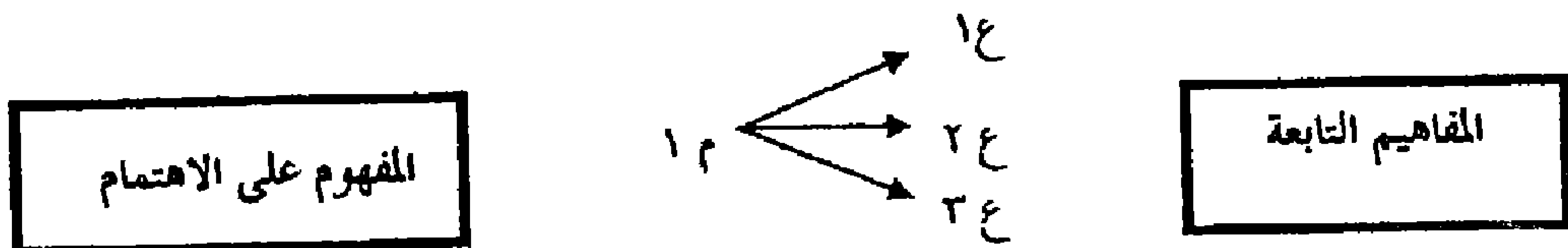
حيث تكون العلاقة في الحالة الأولى بين المفهوم محل الاهتمام والمفاهيم التى تتقدم عليه .

(الشكل ١)



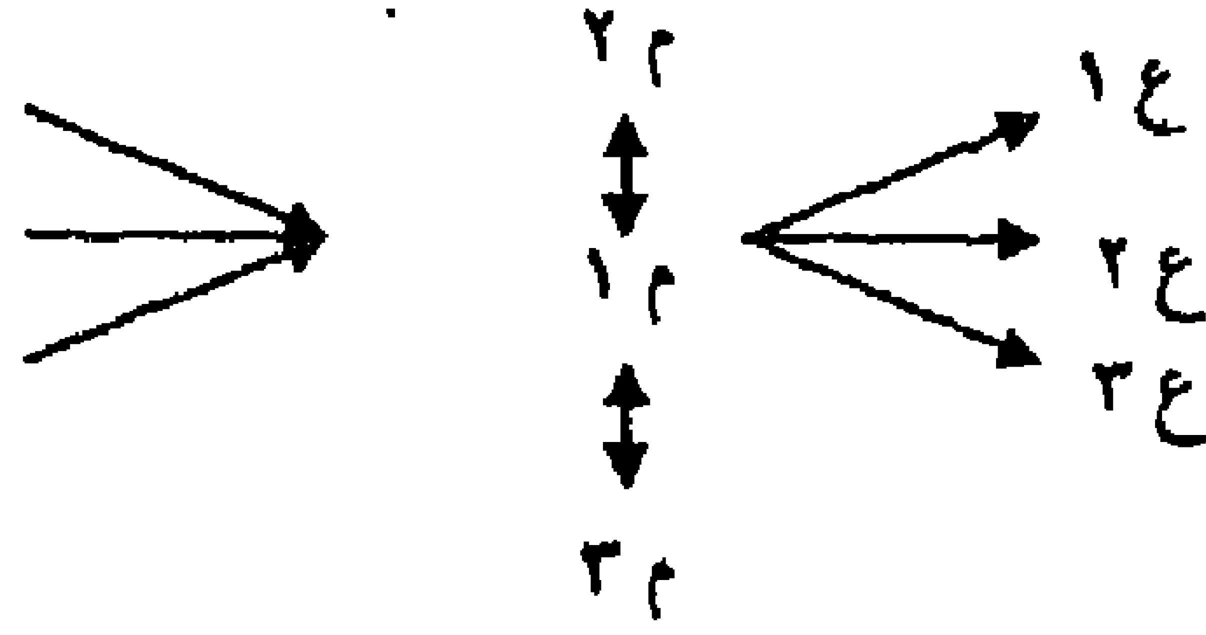
وهذه العلاقة تبرهن على أنها سببية في النهاية . وهذا المستوى البنـــائى التقائى تجمعى . والتحليل الاستراتيجى الثانى للبناء النظرى علـــى مســتوى المفاهيم يتمثل فى علاقة المفهوم محل الاهتمام بتلك المفاهيم التى تتبعه فـــى البناء النظرى ، وهذا البناء التعددى يوضحه الشكل الثانى :

(الشكل ب)



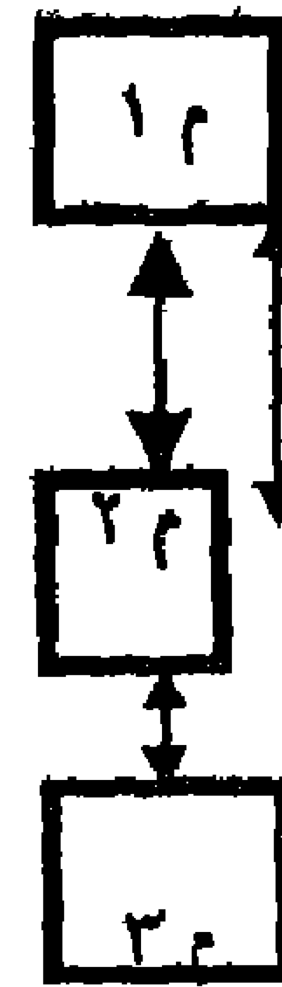
والتحليل الاستراتيجى الثالث للبناء النظرى يتمثل فى الجمع بين الشكلين الاول والثانى :

(الشكل ج)



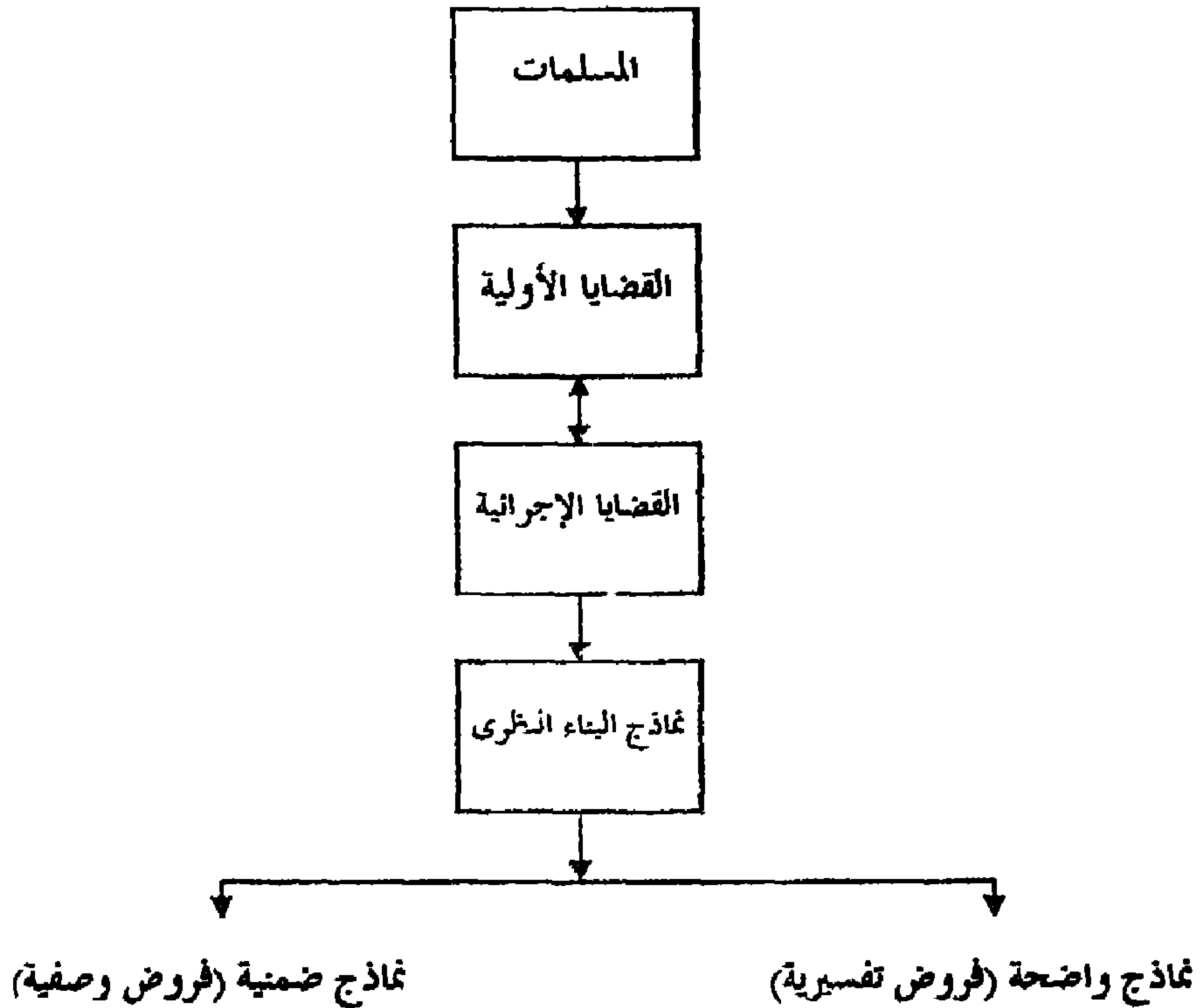
وهنا تكون العلاقة بين المتغير اللاحق والمتغير السابق متضمنان فى البناء النظرى .

ويتولد عن التحليل العلاقة بين المفاهيم فى البناء النظرى نمط رابط للعلاقة يتمثل في الشكل التالي :



وهذا النمط البنائى يشير للعلاقة الوظيفية بين المفاهيم التى يتضمنها البناء النظرى لنسق التفكير العلمى . هذا فيما يتعلق بوضع المفهوم في البناء النظرى لنسق التفكير العلمى . اما بالنسبة للعنصر الثانى وهو التعريف ، وضعه في البناء النظرى لنسق التفكير العلمى . فذلك يتمثل فى كون

التعريف يشير للتجريد الذهنى الذى صيغ المفهوم أو المصطلح من اجله والتأويلات القياسية التى يوجهنا اليها التعريف . وهنا يؤكد "شيشترووينتون" على أهمية التناغم والاتساق بين دلالة التجريد الذهنى للمفهوم . والتأويلات القياسية التى يوجهنا إليها التعريف الأسمى المجرد (1). كما أن التعريف اساس لايضاح الروابط المنطقية القائمة بين المفاهيم . وبذلك فالتعريف يرشد عملية اختبار التعميمات التى يتضمنها البناء النظري. بالإضافة لترشيد عملية اصدار الحكم حول التعميم الذى تم قياسه. وهنا تكون التعريفات بمثابة أداة ربط بين المفاهيم والتعميمات بالإضافة لكونها أداة ترشد عملية اختبار العلاقات وإصدار الأحكام حولها. ثم يأتى بعد ذلك العنصر الثالث للبناء النظرى لنسق التفكير العلمى المتمثل فى القضايا التى تأخذ وضعا متوسطا بين المسلمات والفروض الإجرائية.



---

(1) Winton , Chester , Theory and Measurement in Sociology , New York : Schenkman Publishing Company , 1974. P.10.

والجدول التالى يوضح مستويات الحكم فـى البنـاء النظـرى وقابليتـه للاختبار [1] .

مسمى الحكم	كيفية تعميمه	قابليته للاختبار المباشر	مستوى الحكم
- البديهة أو المسلمة	- صادقة بالتعريف	- غير قابلة للاختبار	- مطلق
- القضية الأولية	- مستنبطة من المسلمة أو مستقرأة من التعميمـات الامبيريقية	- قابلة للاختبار	- احتمالى
- الفروض	- مستنبطة مـن القضيـة الأولية أو مستقرأة مـن التعميمات الامبيريقية	- قابلة للاختبار	- احتمالى
- المصادرات	- تشمل المسلمة والقضيـة ويقـوم عليـها البنـاء النظرى	- يخضع للاختبار ما يرتبط منها بالقضية	- احتمالى

وبذلك تأتى المسلمات (البديهات) Axioms فى المستوى الأعلى من البنـاء النظرى لنسق التفكير العلمى ، تليها القضايا الأولية Propositions فى مسـتوى متوسط . وأخيراً تأتى القضايا الإجرائية (الفروض) فى المستوى الإجرائـى الأدنى [2]. والمسلمات أو البديهات تقوم هنا بدور مساعد . لتحقيـق الفـهم والمعرفة . حيث يتم الرجوع إليها في نهاية المطاف . بمعنى ان المسـلمات هنا من طبيعة غير احتمالية ، أى أنها لا تخضع لإجراءات القياس والاختبار التجريبى فى حين أن القضايا الأولية والإجرائية ذات طبيعة احتمالية .وهـى تجعلها قابلة للاختبار والتحقق الإجرائى . والطبيعة الإجرائية للقضايا الأولية

(1) Bailey , Kenneth D., Methods of Social Research , London : The Free Press & Collier McMilan publishers , 1978. PP.34 - 38

(2) Galtung Johan ., Methodology and Ideology , Copenhagen , Iiexin , Bucuresti,1977. P.30.

تتحقق سواء على مستوى القضايا ذاتها . أو من خلال القضايا الإجرائية والفروض التى تستنبط منها .

وبذلك يكون البناء المنطقى الداخلى لنسق التفكير العلمى على المستوى النظرى بناءاً رأسياً يحدد طبيعته استخدامنا لاى من شكلى الاستدلال المتمثلان فى الاستنباط Deduction والاستقراء Induction حيث لا تستخدم اى من طرق الاستدلال بين المسلمات والقضايا إذ أن الوحدة وعدم التعارض تميز المسلمات في حين ان القضايا تقوم على أساس الاستكمال (جامعة) مع تعدد الأنواع بمعنى ان التنوع والاستكمال هما الطابع المميز للقضايا دون أن يكون هناك تعارض بين قضاياها المتنوعة [1].

وبذلك يكون اختبار قضايا المستوى الوسيط صوريا بالرجوع للمستوى الأعلى (المسلمات) لان الاختبار هنا يتعلق بالاتساق والاستكمال والتنوع وعدم التناقض فى حين ان بين المستوى الوسيط (القضايا الأولية) والمستوى الادنى (القضايا الاجرائية) مرتبط باحتمالية الحكم وقبوله للاجرائية ، والتى بدورها تقيم نمطا اخرا من العلاقة الاستدلالية القائمة على الاستقراء من المستوى الأدنى (الفرض) للمستوى الوسيط (القضية الأولية) بعد اختبار الفروض والتحقق منها . وبقدر ما يتحقق للعنصر النظرى من اتساق داخلى وتناغم بين عناصره والواقع ، بقدر ما تكون النظرية ذات أداء وظيفى قوى وإذا ما غاب التناغم بين النظرية والواقع تدنى أدائها الوظيفى فى تحقيق تقدم العلم .

(ب)- البناء المنهجي لنسق التفكير العلمى :

يمثل المنهج العنصر الثانى لنسق التفكير العلمى ، فهو وسيلة العلم لصياغة النظرية والتحقق منها وتحصيل المعرفة حول الواقع . وتحليل البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى يستهدف الوقوف على عناصر البناء المنهجى

---

(1) Galtung Johan ., Op, cit , P.31.

وما بين هذه العناصر من علاقة تساند واعتماد تجعلها تشكل وحدة البناء المنهجي . ويأتي في قمة هذا البناء تحديد الأسس المنطقية والمباديء التي تحكم عملية تحصيل المعرفة وذلك ما يشير إليه مصطلح المنهجية [1]. Methodology وهو يعين مصادر صياغة النظرية ومدى ارتباطها بتوجيه مسلك البحث ومسار تناول الظاهرة امبيريقيا . ويحدد مستويات تحليل (وصف وتفسير) معطيات البحث حول الظاهرة ، تلك المستويات التي يستند إليها في مراجعة النظرية ، وإعادة صياغتها ، والبرهنة على صحتها . ومن ثم يرتبط هذا العنصر بفلسفة العلم ويتعلق بمعالجة المبادىء الأساسية لصياغة الأنساق النظرية بالاستناد لمعطيات الواقع . كما أن المنهجية تشير في بعض جوانبها لتحليل مناهج البحث وتقويمها وتكون هنا بمثابة الوسيلة التي نعين بها مناهج البحث ونبرهن بها على مدى ملاءمة منهجا معينا لمعالجة الظاهرة وهذه العملية على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للعلوم الاجتماعية وجمع البيانات حولها . وان استخدامنا لمنهج معين في معالجتها سوف يساعدنا على تقديم بيانات ذات نوعية جيدة [2].

ويأتي في المستوى الثاني للبناء المنهجي لنسق التفكير العلمي المدخل المنهجي Methodological Approach والذي يشير للتصور المنهجي لرؤية الواقع وتناول ظواهره ونظمه ، ومراجعة الأنساق النظرية المصاغة حوله . ومن أمثلتها المدخل التجريبي المقارن ، المدخل الرياضي ، المدخل التاريخي ، وهي مداخل موضوعية . أما المداخل المعيارية فتتمثل في المدخل الانثروبولوجي ، والمدخل الفينومينولوجي ، والمدخل الاثنوميثدولوجي وهذه هي المداخل المنهجية الملائمة لطبيعة ظواهر العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة .

---

(1) Miller , Delbert c., op. cit., P.65.

(2) Mahmoudi , Kooros N., & Parlin , Bradley W., Sociology Inquiry, N. Y., U.S.A:Kevdall , Hunt Publishing Company , 1975 , P.21.

وبذلك يتحدد المدخل المنهجي في ضوء المبادىء الأساسية والأسس المنطقية التى يستند إليها الباحث ، والتى تمثل الإطار المرجعى للمعالجة المنهجية . ثم يشرح المدخل المنهجي بدورة هذه المباديء فى سياق محدد للتصور المنهجي الذى يتخذ لمعالجة الظاهرة . والذى يمهد لعملية التناول الاجرائى بتحديد المنهج أو الطريقة والأسلوب الذى يتبع فى معالجة الظواهر وتناولها . ومن ثم يمثل المدخل المنهجى الرابطة المحورية بين المبادىء والأسس المنطقية للمعالجة المنهجية ، وبين اختيارات الباحث للمنهج الذى ينظم عملية تناوله للظاهرة فى ضوء قواعده التى يتميز بها ، وما تقتضيه هذه القواعد من أساليب وإجراءات للتناول . حيث يحدد الباحث هذه القواعد المعرفية للمدخل مثال ذلك المدخل الفينومينولوجى فبعد اختباره يحدد الباحث القواعد التي يقوم عليها مثل : الرد بأنواعه المختلفة ، والتعليق ، وقصدية الوعى ، والماهية ، والذاتية الباطنية . لكل من الشخص والواقع الاجتماعى - الثقافى للمجتمع . والفهم ، - التفسير ، والمعنى ..الخ .

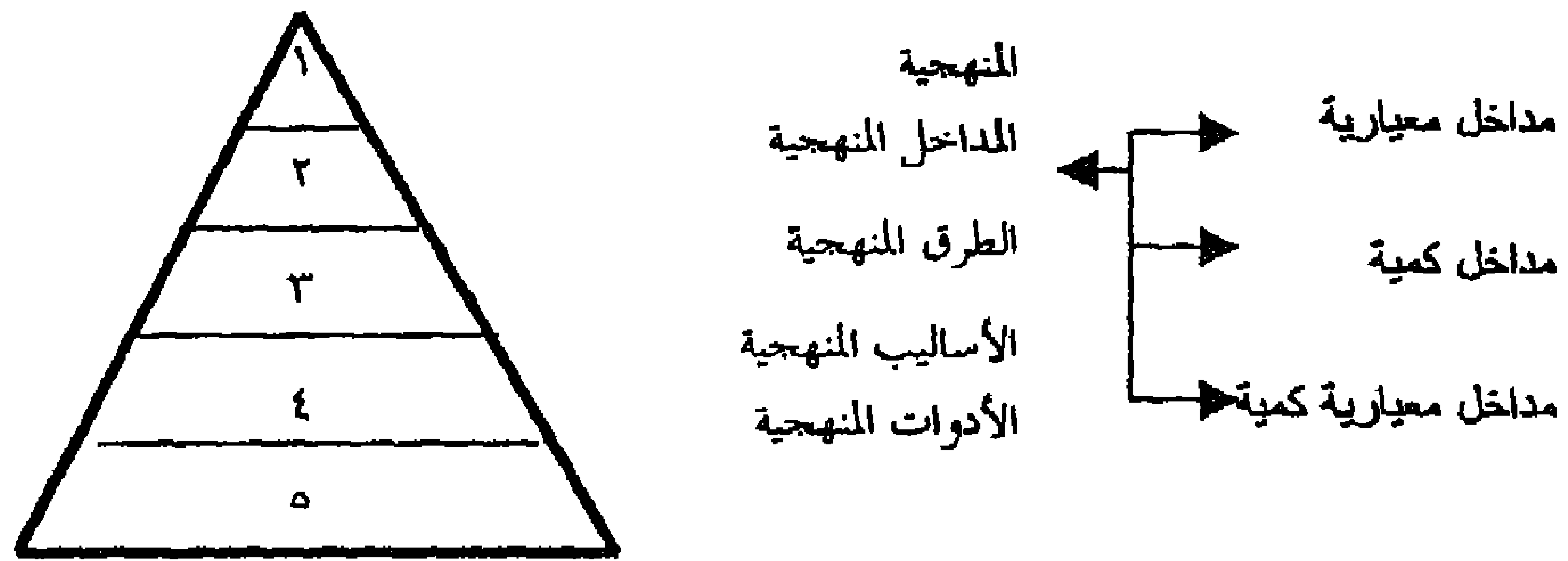
ومن ثم تأتى الطريقة Method أو المنهج فى المستوى الثالث من مستويات البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى ليجسد التصور المنهجى الذى حدده المدخل ، وبالتالى ينقله من مستوى التصور المنهجى للتناول الى مستوى تطبيق مجموعة القواعد التى يقوم عليها المنهج الفيتومينولوجى مثل طريقة المعارضة والطريقة الانعكاسية ، والتى تنظم عملية البحث وتحدد إجراءات تناول الظاهرة والأساليب المنهجية التى ترتبط بهذه الإجراءات والتى تتسق مع قواعد المنهج فى معالجة الوقائع .

وتمثل الأساليب المنهجية Methodological Techniques المستوى الرابع للبناء المنهجى لنسق التفكير العلمى . وهى تشير لإجراءات معينة تحدد مستويات تناول ومعالجة الوقائع والتى يستخدمها منهج معين في تنظيمه لعملية البحث وتحديد مسارها والسيطرة على عملية جمع البيانات وفق هذه الأساليب المنهجية . والتى تنحصر فى القياس . ودراسة الحالة والمسح الاجتماعى

وتحليل المضمون أو الأساليب الفينومينولوجية مثل أسلوب التأمل الفينومينولوجي وأسلوب التخيل الفينومينولوجي - وأسلوب الأصالة .

ثم تأتي في المستوى الخامس والأدنى من البناء المنهجي الأدوات المنهجية Methodological Tools . وهي الوسيلة التي يستخدمها الأسلوب في جمع البيانات حول ظاهرة ما من الظواهر التي يعالجها البحث . ومن هذه الأدوات الملاحظة بالمعاينة ، والمقاييس ، والمقابلة ، واستمارة البحث . .

ويوضح الشكل التالي مستويات البناء المنهجي لنسق التفكير العلمي :



وترتبط هذه المستويات البنائية ببعضها بعلاقة منطقية رأسية تأخذ شكلا هرميا على نحو ما هو مبين في الشكل التوضيحي لمستويات البناء المنهجي . لنسق التفكير العلمي . فهذه المستويات الخمسة تتكامل بنائياً ، وتتساند وظيفيا لتشكل وحدة البناء المنهجي لنسق التفكير العلمي . وكل منها يحدد المستوى الذي يليه ويكشف عن مدى لياقته المنهجية لموضوع الدراسة . وتزداد خصوصية المستوى كلما اتجهنا الى قمة البناء المنهجي . وتقل الخصوصية كلما اتجهنا للمستويات الأدنى وهذه الخصوصية هي التي تتعلق بتفاوت موضوعات العلوم الاجتماعية عن موضوعات العلوم الطبيعية حيث يكون المنظور الفينومينولوجي مناسب لموضوعات العلوم الطبيعية وذلك من حيث تعدد استخدامنا لوحدات المستوى .

إذ أن المستوى الأول (المنهجية) يرتبط بالتوجيه الأساسى لمبادىء العلم بالنسبة لصياغة النظرية . واختبارها وتناول ظواهر الواقع . ويأتى المستوى الثانى (المدخل المنهجى) ليجسد مبادىء المنهجية لمنهج معين وموضوع الدراسة والمعالجة وتحديد مقتضيات مجموعة القواعد المنهجية تلك من الأساليب والأدوات .

وبتحديد منهج الدراسة على المستوى الثالث يتحدد الأسلوب الذى يلائمه ، وحدود استخدامه لهذا الأسلوب . وبتحديد الأسلوب المنهجي يتحدد نوع الأداة المنهجية الملائمة لجمع البيانات حول الظاهرة . وبذلك تكون المنهجية بمبادئها واحدة من حيث توجيه العمل العلمى . في حين ان المداخل المنهجية تتحدد فى ضوء طبيعة الموضوع وتنوعها محكوم بإمكانية تطبيق قواعد منهجية معينة . ويتعدد استخدامنا للمناهج (الطرق) فى ضوء التصور المنهجى للتناول .

وبالنسبة لتعدد استخدام الأساليب المنهجية فتحكمه مقتضيات المنهج المستخدم ، والقواعد التى تنظم عملية البحث وعلى أساس الأسلوب المستخدم فى الدراسة تحدد الأدوات المناسبة لجمع البيانات حول الوقائع .

وبذلك يأتى تحديد المستوى الأدنى للبناء المنهجى مرتبطا بالمستوى الأعلى تباعا . ومن ثم تكون البدايات المنطقية لتحديد البناء المنهجى من قمة الهرم المنهجى نزولاً للمستويات التالية تباعا . وذلك لان البدء بتحديد المستويات الأدنى لا يساعد على تحديد المستويات الأعلى كما أن البدء بهذه الصورة يترتب عليه حدوث ارتباك وعدم اتساق بين الإجراءات المنهجية المستخدمة للدراسة . ومن ثم تغيب اللياقة المنهجية بين الإجراء المنهجى وموضوع الدراسة .

ومن ثم يكون هناك قصور وظيفى للعنصر المنهجى الأمر الذى يؤثر على الأداء الوظيفى للمنهج والنظرية فى عملية البحث ، ومن ثم تتدنى

التراكمية المعرفية حول الوقائع ، وذلك ما يعيق تقدم العلوم عامة ، وعلم الاجتماع خاصة. وذلك ما نسعى لتجاوزه من خلال تطبيق إجراءات التجريبية الفينومينولوجية المعاصرة .

٣- المنظور العلمي وخصائص نسق التفكير العلمي .

يقوم المنظور العلمى على مجموعة المفاهيم والمبادىء التى تميز الطريقة العلمية فى البحث والتفكير والتى تجعل من محاولات التفكير حول الظواهر نظما علمية تتسق مع نسق التفكير العلمى فى منطقة وإجراءات تناوله للظواهر وتفسيرها .

وقد كان التأكيد على مبادىء المنظور العلمى ومفاهيمه تلك والمتمثلة فى التجريبية والشكية والموضوعية ... الخ . هى التى حددت الخصائص المميزة للمنظور العلمى وجميع تلك المفاهيم والمبادىء تتسق مع المنظور الفينومينولوجى .

وفى ضوء ذلك نتناول بالتحليل الموضوعات التالية :-

- خصائص نسق التفكير العلمى .
- مبادىء المنظور العلمى .
- خصائص المنظور العلمى لعلم الاجتماع التجريبى والتجريبية الفينومينولوجية المعاصرة .

(أ) خصائص نسق التفكير العلمي :-

ثمة خصائص عامة تسم جميع العلوم ، بما فيها علم الاجتماع التجريبى وتتمثل فى :

- أن العلم يعنى بوضع الفرضيات .
- وأنه يعنى بتعريف المصطلحات .

- وأنه يستخدم الطرق الموضوعية للملاحظة .

- ويتزم العلم فى عملية تصنيف الظاهرة موضع الملاحظة .

- يقترح الفروض pothesesyH الجديدة ويختبرها .

- يعبر عن الإنتظامات الكيفية بمصطلحات كمية قدر الإمكان .

- ينمى ويطور النظرية ، التى ترتبط بالجوانب المختلفة للمعطيات .

ويتم ذلك بطرق منهجية متكاملة ، كما أن النظرية قد تكون موضوعا للتعديلات فى ضوء المعطيات الجديدة التى يقدمها العلم حول الظواهر التى تسهم النظرية فى تفسيرها .

- يسهم بصورة مستمرة فى عملية التنقيب وإعادة فحص التعميمات Generalizations ، والتى عندما تقام تظل قابلة للنقد ، وإعادة الفحص فى ضوء المعطيات الجديدة [١] .

هذه هى سمات العلوم الأساسية وخصائصها التى يشاركها فيها علم الاجتماع التجريبي [٢].

(ب) مبادىء المنظور العلمي .

ثمة مبادىء عامة تحكم المنظور العلمى لنسق التفكير العلمى بصورة عامة ، حيث تشارك فيها مختلف العلوم التى استقلت عن الفلسفة والتى حققت تقدما ملموسا فى نطاق المعرفة المتراكمة حول الظواهر التى تعنى بها من جراء التزامها بتلك المبادىء .

وتستوى فى ذلك العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية .. الخ . إذ أن تقدمها مرهون بمدى التزامها بمبادىء المظور العلمى والعمل بموجبها عند تناول الظواهر الواقعة فى نطاق عملها ، وعليه اهتم العلماء فى أى من

(1) Forcese, Dennis & Richer, Stephen, Social Research Methods, N. J. : Prentice - Hall , Inc., 1973. PP. VI - VII,15.

(2) Andrews, T, Methods of psychology, 1948. P.5.

النظم العلمية بأن يعملوا بموجب هذه المبادىء ومن بينهم هؤلاء العلماء المعنيون بتقدم العلوم الاجتماعية .

وتتأكد علمية نظم العلوم الاجتماعية بمدى اتباعها لمبادىء المنظور العلمي فى مجال عملها . وهى فى ذلك تتماثل مع نظم العلوم الطبيعية . ولا يعنى تفاوت استخدام كل منها للطرق والأساليب والأدوات تناقص الكفاءة العلمية لأى منها . إذ أن وحدة المنهجية : أى وحدة المبادىء والأسس التى توجه عملها . واختياراتها بالنسبة للمداخل والطرق والأساليب والأدوات المنهجية هى أساس علمية تلك النظم المعرفية . وما التفاوت في الإجراءات إلا نتيجة لتفاوت طبيعة الموضوعات التى تقع فى مجال عمل كل منها . والعمل على تحقيق مبدأ اللياقة المنهجية بين موضوع الدراسة والإجراء المنهجى المتبع فى معالجة هذا الموضوع . فالتجريبية الكلاسيكية تناسب العلوم الطبيعية فى حين أن التجريبية الفينومينولوجية تلائم العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة .

ولعل وجود مجموعة من المفاهيم والمصطلحات فى أى مجال معرفى هى إحدى الملامح المميزة للنظم العلمية ، والتى تشكل وسيلة الاتصال والتفاهم بين المتخصصين فى أى من تلك النظم العلمية وفى ذلك تتماثل النظم العلمية للعلوم الاجتماعية مع النظم العلمية للعلوم الطبيعية . إذ أن لكل منها مجموعة من المفاهيم والمصطلحات المشتركة والمتفق عليها من قبل معظم العلماء . كما أن للعلوم الاجتماعية مفاهيمها العامة المشتركة فيما بينها جميعا . إضافة للمفاهيم المشتركة فيما بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية مثل : القوانين. والقضايا والمسلمات والمصادرات والنظريات والفرضيات.

ومع ذلك فإن العلوم الاجتماعية تستخدم بعض المفاهيم الدارجة والشائعة فى حياة الناس . إلا أن استخدامها لمثل تلك المصطلحات لا يكون بنفس دلالتها الدارجة . فمصطلحات الثقافة والمجتمع والمركز والدور والوظيفة

والبناء والتأمل والخيال والرد والفهم رغم أنها تستخدم بصورة شائعة بين الناس. إلا انه عندما يستخدم عالم الاجتماع مصطلح الدور أو الوظيفة أو التأمل أو الخيال ..الخ ، فإنه يعني بها شيئا آخر مختلفا في معناه . ومضمونه مما يعنيه الرجل العادى . ورغم أننا نعلم الكثير من تلك المفاهيم . ونفهم الكثير عن سلوك الإنسان . وتصرفاته . إلا أن الأمر يختلف عند نظرة رجل الاجتماع إلى هذه الأمور وفي تناوله وتحليله وتفسيره لها والمعلومات التى يقدمها عالم الاجتماع تكون واضحة لنا فقط بعد ان يقدمها لنا . وإذا ما اتفقت مع أفكارنا السابقة اعتبرناها من الأمور الواضحة .

وفى ضوء ذلك يكون للتناول العلمى سماته ، وخصائصه المميزة له . والتى تميز اختيارنا للمفاهيم وإدراكنا للظواهر والأمور المتعلقة بها . بشكل مختلف تماما عن اختيارات الرجل العادى لمفاهيمه . وإدراكه لما حوله من أمور . وبذلك يكون للعلم والمبادىء الأساسية التى تحكم منظورة توجيه مميز لأفعالنا ومسارنا فى معالجتنا للحوادث والظواهر والمواقف فى الحياة اليومية .

وفى ضوء ذلك يمكن تعريف المنظور Perspective بأنه مجموعة من الرموز أو المفاهيم التى اتفق على استخدامها عند ملاحظة الحوادث والأمور التى تدور من حولنا . والتى تسمح لنا باختيارات معينة . وتساعدنا على تنظيم إدراكنا وترشيد أفعالنا فى عملية الملاحظة تلك [1] . وبذلك فان المنظور العلمى ينهض على مجموعة من المفاهيم الأساسية . التى تشكل مع بعضها مجموعة متكاملة من المبادىء الأولية . التى تحدد اختياراتنا وتنظيم إدراكنا للظواهر والوقائع التى نتناولها . وتوجيه مسارنا فى معالجتها ومن أمثلة تلك المنظورات ، المنظور الفينومينولوجى والمنظور الوجودى والمنظور الاثنوميثودولوجى .

---

(1) Fitzgerald & Cox, Op. cit., P.4.

وبذلك يرجع اهتمام العلماء بتحديد مبادئ المنظور العلمـــى وتـــأكيدهم على إمكانية تحقيق تلك المبادىء فى مجال العلوم الاجتماعية لإيمانهم بـــأن تطبيق هذه المبادىء يساعد فى دعم نظم تلك العلوم وتأكيد علميتها من جهــة والوصول بمعطياتها المعرفية لدرجة عالية من اليقين تســاعدنا فــى إقامــة البرهان العلمى والتحقق من صحة معارفنا حول الظواهر الاجتماعية . ومن ثم اهتم كل من "جاك فيتز جرالد " و "ســتيفن كوكــس" بتحديــد المبــادىء الاساسية للمنظور العلمى ، والكشف عن إمكانية اســتخدامها فــى العلــوم الاجتماعية . وذلك على النحو التالى :

(اولاً) مبدأ التجريبية *Empericism*

يثير هذا المبدأ الى حاجة العالم فــى تطويــره للنظريــات والفــروض واختبارها إلى الملاحظة الامبيريقية للحوادث والظواهر . وذلك لكى تتوفــر له إمكانية مقارنة تفسيراته ونظرياته بمعطيات الملاحظة . والمشاهدة الفعلية للظواهر والوقائع التى يتناولها . والتى صيغت النظرية لتفسيرها وإيضــاح أبعادها . وتحقق التجربة الفينومينولوجية هذا المبدأ لاتساقها مع موضوعــات الدراسة فى علم الاجتماع بخاصة والعلوم الاجتماعية بعامة .

(ثانياً) مبدأ الموضوعية *Objectivity*

تشير الموضوعية هنا الى محاولة العالم للتأكيد على أن النتــائج التــى توصل إليها تستند إلى ملاحظاته الفعلية للظواهر ودراستها اكثر من اعتمــاده على ماالديه من انطباعات عن تلك الظواهر . وإذا كان تحقيق هذا المبدأ مــن الامور الميسرة فى نطاق العلوم الطبيعية ، فان الحال يختلف بالنسبة للعلــوم الاجتماعية ، وذلك لحضور الجوانب الذاتيــة فــي مجــال عمــل العلــوم الاجتماعية . الأمر الذى يجعل تحقيق الموضوعية في العلــوم الاجتماعيــة مرهون بتحديد العلماء لتحيزاتهم وأخذ الجوانب الذاتية والموضوعية بعيــن الاعتبار عند دراسة مواقف الحياة اليومية . وذلك لأنه بقدر ما يتوفر لهم من وعي بجوانب الأبعاد الذاتية والموضوعية لمواقف الحياة ، وأيضاً بجوانــب

تحيزاتهم حتى يستطيعون التخلص منها . وبالتالى بلوغ الموضوعية فى النتائج التى يتوصلون إليها من دراسة الظواهر الاجتماعية . بحيث تكون هذه النتائج متسمة بدرجة عالية من الصدق والثبات والشمول .

(ثالثا) مبدأ النسبية *Relativism*

يشير مبدأ النسبية إلى أن العالم لا يعتبر النتائج التى توصل إليها نتائج دائمة وصادقة وشاملة بصورة مطلقة . وذلك لان الحكم أو النتيجة العلمية هى حكم أو نتيجة احتمالية فى حين أن النتائج والأحكام المطلقة إنما تأتى فى دائرة الفلسفة . ولذلك فان العالم بدلا من أن يسعى لتأكيد أحكاما مطلقة فانه يسعى للتأكد من صحة وسلامة النتائج السابقة . ومدى صحة النتائج التى توصل إليها ، في أماكن وأزمنة مختلفة دون أن يعتبر نتائجه التى توصل إليها نهائية .

(رابعا) المبدأ المتعلق بنزعة الشك العلمي *Skepticism*

يرتبط هذا المبدأ من حيث التتابع والاستكمال بمبدأ النسبية . وذلك لأنه يشير إلى قدرة العالم ورغبته الدائمة لطرح التساؤلات حول أى من الأمور التى يعنى بها . وأن يرتبط قبوله لنتيجة ما بمحاولته للتحقق من مدى صدق هذه النتيجة . وبذلك فان العالم إذا ما كان شغوفا دائما للنظر فيما وراء أبواب ونوافذ الوقائع الموصدة لمعرفة الكثير عن تلك الوقائع استطاع ان يحقق لنفسه فهما صحيحا وسليما حول عالمه ويعزز من هذا المبدأ الشد فى الأحكام السابقة وتعليقها وصولا إلى جوهر الظاهرة وذلك مما يحققه المنظور الفينومينولوجي وإجراءاته التجريبية ومنها الرد الفينومينولوجى .

(خامسا) مبدأ الاقتصاد العلمى *Parsimony*

يشير هذا المبدأ لقدرة العالم على اختزال التفسيرات واختصارها لأقل عدد ممكن من التفسيرات المتعلقة بظاهرة معينة . وذلك يعنى أن على

الباحث الاجتماعى أن يطور وينمى إطاراً تفسيرياً واحداً لتفسير مختلف جوانب السلوك البشرى الذى يعنى بفهمه .

وبذلك يكون لمبادىء المنظور العلمى فى مجال العلوم الاجتماعية فاعلية بالغة . وذلك لأنها ترفع من كفاءة النظم العلمية لتلك العلوم فى معالجتها لظواهرها . وتحصيل المعرفة حولها وتقديم التفسيرات لها .

وتؤكد تلك المبادىء أهمية التجريب فى مجال العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة فى تحصيل المعرفة وصياغة النظرية .

(سادساً) الاتساق النظرى والمنهجى للمنظور العلمى

وهذا الاتساق ضرورة علمية لاغنى عنها لأى نظام علمي وذلك كما هو حادث فى العلوم الطبيعية حيث يتسق إطارها النظرى مع إطارها المنهجى لأنهما اتسقا معا فى إطار ظواهر معينة . أما بالنسبة للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة فالمجال يختلف إذ أن الرؤى النظرية لظواهر الواقع الاجتماعى متعارضة والمنهج التجريبى مستعار من العلوم الاجتماعية وهذا هو الوضع المأسوى فى العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة ، وذلك مايواجهه المنظور الفينومينولوجى حيث يتسق إطاره المنهجى مع إطاره النظرى فى فهم الواقع الاجتماعى والثقافى والشخصى للحياة الشخصية وبالأخذ بهذا المنظور يمكن انتشال تلك العلوم من وضعها المأسوى الراهن .

(جـ) الخصائص التى تميز المنظور العلمى لعلم الاجتماع التجريبى

وفى ضوء تلك الخصائص نجد أن ثمة مفاهيم أساسية ترتبط بالعلم وتتمثل فى تلك المفاهيم التى تميز ما هو علمى عن صور المعرفة عن ماهو فلسفى وغيره من ألوان المعرفة ، ومن الملاحظ أن تلك المفاهيم تشير لقضايا أساسية تقتضى أن نقف عندها بالشرح لما لها من أهمية فى صياغة العلم وتحديد مقوماته الأساسية . وهذه المفاهيم هى :

(اولا) التكميم التام : *Complete Quantification*

لاشك أن العلم يرتبط مباشرة بمدى قدرتـــه علـــى وضـــع البيانـــات المدروسة ، والعلاقات المكتشفة فى صيغة كمية . كما أن العلوم تختلف فـــى مدى قدرتها على وضع تلك البيانات والعلاقات في هذه الصيغـــة الكميـــة أيضا . وذلك ما نلمسه بوضوح بالنسبة لعلوم الفلـــك والطبيعـــة فـــى هـــذا الاتجـــاه ، حيث نجدها متقدمة فى هذا المجال بشكل واضح وملموس . بلـــغ من الدقة حدا أصبحت معه الصياغة الكمية من أهم خصائصها . فى حين أن علم الاجتماع ، رغم التقدم الذى قطعه فى هذا المجال ، والذى دعمه علمـــاء الاجتماع الرياضى (مثال راشفسكى وزيف وغيرهما من علمـــاء الاجتمـــاع الرياضى) إلا انه مازال يحتل مرتبة اقل بالنسبة للعلوم الطبيعية فـــى هـــذا المضمار ، وربما يرجع ذلك فى أساسه لطبيعة التكميم والقياس . ومع ذلـــك نلحظ اليوم جهودا موفقة فى مجال علم الاجتماع لدعم هذا الاتجاه ، بـــهدف رفع مقدرته على قياس العلاقات التى تكتشف فى مجال علم الاجتماع .

(ثانيا) : الطريقة التجريبية *Experimental Method*

عندما نتحدث عن المنهج التجريبي أو الطريقة التجريبية ، فإننا نتـــاقش هنا أهم جانب أو عنصر من عناصر العلم ، والمنهج العلمى . حيث أن هـــذا المنهج من أهم الجوانب التى دعمت تقدم العلم . وبالنسبة لعلـــم الاجتمـــاع فرغم نطاقه المحدود نسبيا نتيجة لطبيعة موضوع علـــم الاجتمـــاع ، إلا أن فائدته لهذا العلم تتزايد باستمرار وخاصة مع التأكيد المعاصر على التجريبية الفينومينولوجية التى تتسق مع طبيعة الظواهر ومواقف الحياة اليومية.

(ثالثا) : العلم والطريقة الموضوعية *Objective Method*

إن مفهوم العلم كطريقة موضوعية لتجميع المعرفة ، قد تزايد انتشاره فى الحقبات الأخيرة . وطبقا لهذا المفهوم فان العلم لايتكون من الحقائق المثبتـــة

عمليا ، وعلاقاتها المتداخلة . والتى يكشف عنها العلم ، ولكنه يتكون أيضا من المنهج الذى يستعان به فى جمع تلك الحقائق المثبتة [1] . والحقيقة أن للمدخل العلمى موضوعية مؤكدة . وذلك لأنه يستخدم المناهج التى تستبعد إلى حد كبير الجانب الشخصى للملاحظ ، وذلك لان موضوعية العلم ذات قيمة واضحة بالنسبة للآخرين ، الذين قد يراجعون معطيات ملاحظتهم التجريبية . وعلى وجه العموم فان العلوم تجرى مراجعة نقدية للمناهج ، والمعطيات ، لاستبعاد مالم يثبت صحته من تلك المعطيات فى ضوء تلك المراجعة ، والتحقق بالاستناد إلى الواقع . وذلك هو محور الطريقة الموضوعية للعلم مع الأخذ فى الاعتبار أن الجانب الذاتى مباطن لواقع بالنسبة للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة .

(رابعا) : العلم والفهم

إذ أن للعلم وظيفتين أساسيتين هما الوصف والتفسير وهما أساس الفهم ويعتمد تحقيق الفهم فى العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة بمدى ربط معنى التعبيرات البشرية (اصطلاحية ، تعبيرات أفعال ، تعبيرات انفعالية) بتفسيرها والمصاهرة بين الجانب الذاتى والجانب الموضوعى فى فهم مواقف الحياه وهذا مايحققه المنظور الفينومينولوجى .

وعندما تناول "ديفيد وللر D. Willer" الجوانب العلمية لعلم الاجتماع [2]، أكد على جانبيه النظرى والمنهجى . ولذلك استهل حديثه فى الفصل الاول والذى تناوله مشكلة المعرفة فى علم الاجتماع بأن المنهج العلمى له عنصران يتمثلان فى المنهج ، وبناء النظرية Construction of Theory . وبذلك نجده يخصص الفصل الثانى مباشرة لبناء نموذج النظرية حيث أكد فيه على أهمية الجانب النظرى للعلم . وقد ساق تعريفه للنظرية بأنها "مجموعة

---

(1) Warren & Roucek , Op. cit., P.5.

(2) Willer, David, Scientific Sociology " Theory and Method " : N. J. : Prentice - Hall . W.C., 1967. PP. 1 - 8.

العلاقات المتكاملة والمتمتعة بمستوى معين من الصدق [1] . وقبل الإشارة لمشكلة صدق النظرية ، يذهب "وللر" إلى أنه من الضرورى والهام أن نشير إلى هذه العبارات ، التى وضعت كنظرية ، والتى يسميها وللر بالفروض Hypotheses، التى تتطلب التأكد من صدقها لكى تكون النظرية . والتأكد من صدقها يقتضى التجريب وإذا كان التجريب الكلاسيكى ملائم للعلوم الطبيعية فإن التجريب الفينومينولوجى ملائم للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة .

وبذلك عندما يثبت صدق الفروض الموضوعية ، فإنها تشكل الصياغة النهائية للنظرية . وذلك لان تحقيق مستوى معين من الصدق للفروض مطلب ضرورى وهام ، لصياغة النظرية .

٤- الأداء الوظيفى لعناصر النسق العلمى .

رغم تفاوت مدلول التعريف للعلم بالنسبة لكل من النظرية والوقائع والمنهج إلا أن لكل منها أداءً وظيفياً مميزاً بالنسبة لنسق التفكير العلمى إذ أن القصور الوظيفى لأى من تلك العناصر يؤثر على تراكمية المعرفة وبالتالى يعيق تقدم العلم .

والواقع أن الحقيقة المؤكدة بين معظم علماء المناهج أن المعرفة ليست مرادفا لمفهوم العلم ، وذلك لان المعرفة ذات شمول ومدلول واسع عن العلم . حيث أنها تتضمن فى شمولها معارف علمية ، ومعارف غير علمية . والتفرقة بين نوعى المعرفة هنا تستند على الأساس المنهجى ، وأسلوب التفكير المتاح فى عملية تحصيل المعرفة . حيث أن اتباع الباحث لقواعد المنهج العلمى ، فى الكشف عن الظواهر ، وتفسيرها ، يمكنه من توفير المعرفة العلمية حول تلك الظواهر كما أن انتقاء نوع المنهج المناسب للظاهرة يؤثر على الأداء الوظيفى للمنهج .

(1) Willer , Ibid., P.9.

وتحديد الفرق بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية هنا ، لا يكفى لتعريف العلم . وذلك لأن توفير المعرفة العلمية حول الظواهر لا يكفى لتعريف العلم ، رغم أنها واقعة فى نطاق العلم ، وأنها هدف من أهدافه . وذلك لان العلم يسعى لتوفير المعرفة وصياغتها فى إطار نظرى ، يتضمن قضايا ومفاهيم ، وهذا فى حد ذاته جانب من جوانب العلم . وعندما يسعى العلم لتطبيق هذه المعرفة المصنفة على الظواهر ، وتفسيرها ، فانه يحقق الجانب الآخر للعلم، والذى تسبقه عملية صياغة القوانين ، التنبؤية فى ضوء المعرفة المتحصلة ، حول الظواهر الواقعة فى نطاقه .

ومن ثم ذهب البعض لتعريف العلم بأنه المعرفة المصنفة . وتعريف العلم بتراكم المعارف المنظمة ، يستهدف تعريف العلم بموضوعة فحسب ، وهو المعرفة العلمية المنظمة . ومثل هذا التعريف يتسق مع مدلول كلمتى منظم Systematic ومعرفة Knowledge وذلك ما انتقده وليم جود W. Good و"بايل هات" لقصور التعريف وتجاهله لخاصية العلم الأساسية . والمتمثلة فى كون العلم مدخلا منهجيا [1]في المجال الامبيريقى ، لتوفير المعرفة العلمية الصادقة حول الظواهر من ناحية ،وتطبيق هذه المعرفة المتحصلة على الظواهر لتقديم التفسيرات الملاءمة لها من ناحية أخرى. ولكونه مدخلا منهجيا فانه يساعدنا على توفير المعرفة الصادقة . كما انه بمثابة أسلوب للتحليل يساعد العالم على صياغة الفرضيات ،وتقريرها فى ضوء المعرفة المنظمة ، التى تم تحصيلها على أساس المنهج العلمى.وإذا ما بدأنا بالمسلمات والفرضيات ، وانتهينا بالاستدلال الاستنباطى من هذه الفرضيات والمسلمات، فإننا لا نكون هنا بصدد علم ، لان ذلك يدخل فى إطار الفكر الفلسفى ، ومن ثم ذهب كل من جود وهات إلى أن روح العلم تتمثل في فهم العالم الذى يعيش فيه الإنسان . كما أن ما نعنيه بفهم العالم الواقعى من الأمور الصعبة التى تتطلب اعتبارات معينة فى عملية التفسير . ومن ثم ذهب "وليم جود وهات"

---

(1) Good , W., Hatt, P. Methods in Social Research , N.Y. McGraw , Hill Book Co.,1952. P.7.

فى تعريفهما للعلم إلى : أن التعريف المتداول الذى يتناول العلم باعتباره تراكم المعرفة المنظمة لا يساعد على فهم العلاقة بين النظرية والواقع ، ويكتفى بالتركيز على الوقائع وحدها . فى حين انهما يذهبان إلى أن العلم يهتم بالنظرية والوقائع ، والعلاقة القائمة فيما بينهما .

وإذا كان للنظرية والوقائع أدائهما الوظيفى لتقدم العلم . فإن الأساس المنهجى الذى يستند إليه البحث حول الوقائع كما تستند إليه النظرية فى صياغتها وتنميتها ، والتحقق من صحتها يشكل بدوره أساسا لتقدم العلم لما له من أداء وظيفى بالنسبة للنظرية والوقائع .

وفى ضوء ذلك سوف نتناول بالتحليل الأداء الوظيفى لكل من :

- النظرية .
- الوقائع .
- المنهج العلمى .

بالنسبة لنسق التفكير العلمى ، وذلك لأن القصور الوظيفى لأى من تلك العناصر يؤثر فى الأداء الوظيفي للعناصر الأخرى ، وبالتالى تتأثر به تراكمية المعرفة ، وتدنى مستوى التقدم الذى يحققه العلم .

ومن ثم يهدف علم الاجتماع التجريبى والتأكيد على التجريبية الفينومينولوجية المعاصرة بالنسبة لظواهر ومواقف الحياة اليومية المعاشة إلى تحسين الأداء الوظيفى لكل من تلك العناصر لتحقيق التراكمية المعرفية في علم الاجتماع ، وبالتالى تعزيز التقدم العلمى .

وفيما يلي نتناول الأداء الوظيفى لتلك العناصر بالنسبة لنسق التفكير العلمى .

(أ) الأداء الوظيفى للنظرية :

- تعريف التوجيهات الأساسية وتحديدها بتعريف انواع البيانات التى تكون مجردة .

- كما أنها تقدم الاطار التصورى الملائم للظاهرة بما يحويه من تنظيم وتصنيف وترابط .

- وكذلك فانها تلخص الوقائع والحقائق فى :

- تعميمات امبيريقية .

- وتعميمات نظرية .

- كما أن النظرية تتنبأ بالوقائع .

- وتعين الثغرات فى معرفتنا .

وبهذه الصورة تساعد النظرية العلم على المستوى النظرى .

(ب) الاداء الوظيفى للوقائع :

فى الجانب الآخر الخاص بالوقائع نجد أنها :

- تساعد فى صياغة النظريات والتحقق منها .

- تساعد فى عملية إعادة صياغة النظرية .

- تعمل على رفض النظريات التى لا تلائم الوقائع .

- كما أنها تعدل مركز النظرية وتوجهها .

- وتساعد فى إيضاح النظرية وإعادة تعريفها .

ومن ثم يتضح لنا أهمية إدراج عنصرى النظرية والوقائع فى إطار تعريف العلم ، لما لهما من دور وظيفى أساسى في بناء العلم ، وتحديد معالمه[1] بالإضافة إلى تحديد المهام الوظيفية للمنهج بالنسبة لنسق التفكير العلمى .

---

(1) Goode & Hatt , Op. cit., P.8.

(ج) الأداء الوظيفى للمنهج بالنسبة للنسق العلمى :

يتجسد الأداء الوظيفى للمنهج فى نسق التفكير العلمى من خلال علاقة التفاعل القائمة بينه وبين النظرية من ناحية وبينه وبين الوقائع من ناحية أخرى .

إذ أن جمع البيانات حول الوقائع يستند إلى منهج علمى . كما أن صياغة النظرية يستند إلى المنهج العلمى . وإحياء النظرية يستند الى منهج علمى وكذلك تطوير النظرية يستند إلى وجود المنهج العلمى وذلك ما نوضحه بإيجاز فيما يلي :

- يسهم المنهج العلمى وظيفيا بالنسبة للنظرية فيما يوفره من بيانات ومعلومات حول الواقع ، وهذه البيانات والمعلومات مصنفة إلى مفاهيم حول الظواهر وتعريفاتها ، وتحديد خصائص الوقائع والعلاقات التى تربط الظواهر بالعوامل المؤثرة عليها،أى التى تربطها بما عداها من ظواهر . وهذه المعلومات هى أساس المعرفة التى عندما تتأكد صحتها ترقى لمستوى النظرية :
- أن التحقق من صدق الفروض التي تعتمد عليها الصياغة للنظرية يخضع لإجراءات منهجية محددة .
- وأن مراجعة النظرية واختبار صحتها فى ضوء الوقائع يستند إلى المنهج العلمى .
- وعليه يسهم فى توفير المعرفة حول الوقائع ، وتنمية النظريات للمنهج العلمى ، ومهارات استخدامه وتوظيفه فى كل من المهام الوظيفية المشار إليها.

وبذلك يتكامل الأداء الوظيفى لعناصر النسق العلمى لتحقيق تراكمية المعرفة التى ينهض عليها تقدم العلم .

ومما يؤكد وجهة النظر تلك ما ذهب اليه "كوهين" عندما أشار إلـــى أن العلم فى أضيق معانيه يعنى الوصول إلى القوانين العامة ، التى تقيم الصلـة المنطقية بين الحقائق المختلفة . وأن المنهج العلمى بأوسع معانيه يساعد على تدعيم الفروض بتخليصها من الأخطاء . وكوهين بذلك يشير الى أن العلـم يهدف الوصول الى قوانين ، ويساعد المنهج العلمـى فـى مـد البـاحثين بالفروض المبدئية للدراسة . وكوهين هنا يؤكد أهمية المنهج العلمى بالنسـبة للعلم ، ويوضح أهمية وجود الصياغة النظرية في البحث . كما أنـه بذلـك يوضح ضمنيا عنصر التنبؤ للعلم بالاستناد للقوانين .

وذلك بدوره يدحض التعريف المتداول للعلم بالاستناد الى موضوعـة ، وهو المعرفة المنظمة فحسب ، ويقيم وزنا لأهمية إدراج المنـهج وعنصـر التنبؤ فى تعريف العلم .وذلك ما اكده بوضوح كل من " كارل بيرسـون" و " دوهيم" و" بوانكريه " عندما قرروا أن الحقائق وحدهـا لا تصنـع العلـم ، بمعنى أن العلم لا يعرف عن طريق موضوعه . وذلك لان الموضوع بمثابة وحدة ينطوى تحت لوائها العلوم المختلفة سواء كانت علـوم اجتماعيـة أو طبيعية .... الخ .

تلك التى تتميز (أى العلوم) عن بعضها باختلاف موضوعـها ووسـائل الملاحظة العلمية . ومن ثم يكون العلم وسيلة للوصول إلى المعرفة المنظمة، حول أى نوع من الظواهر على أساس منهجى ، مع تطبيق هذه المعرفة فـى عمليات التنبؤ .

وفى ضوء ذلك الحوار نحى فريق من العلماء فى تعريفهم للعلـم منحـا آخر غير المنحى الذى انتهجه التعريف المتداول . حيث عرفوا العلـم بأنـه المعرفة المنظمة المتحصلة عن التجريب والدراسة والملاحظة ، التى تـهدف

تحديد أصول الظواهر وطبيعة تلك الظواهر التى تخضع للدراسة والملاحظة[1] .

٥- النسق العلمي لعلم الاجتماع التجريبي والتجريبية الفينومينولوجية

. أكد ابن خلدون على أهمية التجريب العلمي والملاحظة والمقارنة في تحقيق تراكم المعرفة العلمية حول ظواهر العمران البشرى ، هذا فضلا عن اهتمامه الواضح بمبادىء المنظور العلمي والعمل بموجبها في دراساته وبحوثه ، إضافة لذلك جهود علماء الاجتماع من بعده بحوالى ٤٠٠ سنة ، والتى اتجهت لتأكيد علمية علم الاجتماع بالاستناد الى التجريب العلمي في دراسته لظواهره ، وذلك مالمسناه بوضوح عند اوجست " كونت " الذى أكد على التجربة والملاحظة فى تحصيل المعرفة العلمية ، إضافة إلى إسهامات دوركايم ومن بعده علماء الاجتماع الذين أكدوا على أهمية التجريبية الفينومينولوجية لعلم الاجتماع .

وعندما تناول "دافد وللر" D. Willer الجوانب العلمية لعلم الاجتماع[2]، أكد على جانبيه النظري والمنهجى . ولذلك استهل حديثه فى الفصل الأول والذى تناول مشكلة المعرفة فى علم الاجتماع بأن المنهج العلمي له عنصران يتمثلان فى المنهج ، وبناء النظرية Construction of Theory . وبذلك نجده يخصص الفصل الثانى مباشرة لبناء نموذج النظرية حيث أكد فيه على أهمية الجانب النظرى للعلم . وقد ساق تعريفه للنظرية بأنها "مجموعة العلاقات المتكاملة والمتمتعة بمستوى معين من الصدق [3]. وقبل الإشارة لمشكلة صدق النظرية ، يذهب "وللر" إلى أنه من الضرورى والهام أن نشير إلى

---

(1) Webster's New Twentieth Century Dictionary of England's Language, 1960. P.1622

(2) Willer , David , Scientific Sociology " Theory and Method " : N.J. Prentice Hall.W.C., 1967 .PP.1-8.

(3) Willer , Ibid., P.9.

هذه العبارات ، التى وضعت كنظرية ، والتى يسميها وللر بالفروض Hypotheses، التى تتطلب التأكد من صدقها لكى تكون النظرية .

وبذلك عندما يثبت صدق الفروض الموضوعية ، فإنها تشكل الصياغة النهائية للنظرية . وذلك لان تحقيق مستوى معين من الصدق للفروض مطلب ضرورى وهام ، لصياغة النظرية ويقتضى العلم الوصول إليه ، قبل أن تطبق النظرية .

وبالنسبة لبناء النظرية فان هذه الفروض تأخذ شكلين . الشكل الأول يتمثل فى : النسق الصورى للقضايا Propositions ، والثانى يتمثل فى النسق الاجرائى ، والذى يتحدد عن طريق الإضافة التى تسهم بها التعريفات الإجرائية للنسق الصورى أو النظرى (1).

والواقع أن قضايا النسق الصورى تحتوى على أطراف الحديث التى تشير الى "المصطلحات والعلاقات" . وذلك ما أكده "شيرشمان" فى تحليله لمفهوم القضايا (2). ولهذا فان كل قضية سوف تحتوى على مصطلحات مرتبطة بمصطلحات أخرى ، والتى عندما نأخذها ككل فإنها تكون النسق الصورى. وبذلك لا يحتوى النسق الصورى على تعريفات إسمية أو إجرائية . ولا يحتوى أيضا على أية تفسيرات لأى من العلاقات المقررة . وذلك لأن هذه الأمور جميعها توجد فى بناء النظرية . ولاشك ان تأكيدنا هنا ينحصر فى شكل العلاقات وليس فى اشتقاقها أو تطورها أو معناها الاسمى .

---

(1) استخدمنا مصطلحات النسق الصورى والنظرى Formal System والنسق الإجرائى Operational System من حيث اختلافهما فى هذا المجال بطريقة مماثلة للاختلاف القائم بين العلم الصورى (النظرى) والعلم غير النظرى والذى قدمه شارلز وست شيرشمان , Churchman Charles West

أنظر

- Churchman , Charles West , Elements and Logic and Formal Science, N. Y. : J.B., Lippincott Co., 1940.

(2) Churchman, Ibid., P.74.

بالاستدلال الاستنباطي ، بمعنى أن وضع قضية يستدل عليه من قضية أخرى. غير انه قد يكون إستدلالي على نحو ما يتم في فحص النسق البديهي Axiomatic System ، وهو هنا يقتضي وضع العلاقات في شكل مركب ومتسق .

. إذن فكيف يمكننا صياغة النسق التفسيري ؟ وهذا ما يمكننا تحديد خطواته بالرجوع للنتائج التي حققها عالم الاجتماع الفرنسي اميل دوركايم وهو بصدد دراسته للانتحار Suicide ، والتفسيرات التي قدمها لمعدلات الانتحار ، والتي تختلف باختلاف حالات اجتماعية ثلاث تتمثل في :

- الانتحار الأنوي Egoistic Suicide .

والذي يرتبط بضعف التكامل الاجتماعي بين الأفراد ومعايير الجماعات والمجتمعات .

- والانتحار الإثاري Altruistic Suicide .

والذي يشير لزيادة التكامل الاجتماعي بين الأفراد ومعايير الجماعات والمجتمعات .

- والانتحار الأنومي Anomic Suicide .

وهو يشير لارتباط معدل الانتحار واختلافه مباشرة بوقوع الكوارث ، أو حدوث الرخاء الاقتصادي المفاجيء ، والذي يحدث بسرعة غير عادية ، يترتب عليها صراع المعايير وتصدعها .

وفي ضوء هذه القضايا التي حددها اميل دوركايم(1) تتشكل مناقشته للظاهرة على النحو التالي :

---

(1) Durkheim، E. Suicide، New York. The Free Press of Glencoe، Inc. 1951 .

الظروف الاجتماعية	الحالة السيكولوجية	النتيجة
التكامل الضعيف	الذاتى	معدلات عالية للانتحار
التكامل القوى	الغيرية	معدلات عالية للانتحار
رخاء اقتصادى سريع مفاجئ	الأنومى	معدلات عالية للانتحار

والواقع انه فى حالة ما يكون النسق الاجرائى صادقا بمستوى مفيد هنا يصبح نسقه التفسيرى نظرية ، وتصير قضايا النسق التفسيرى قضايا للنظرية. وفى حالة ما تكون النظرية نسق تفسيرى صادق فمن الضرورى أن نعتبرها مصدرا للنسق الصورى وبذلك تكون النظرية الصادقة مصدرا للنسق التفسيرى للعلم . هذا بالنسبة للنسق التفسيرى للعلم ، أما بالنسبة لمشكلة البناء النظرى للعلم كاستراتيجية نظرية ، فعلم الاجتماع يعانى من فراغ نظرى حاولت الاتجاهات التقليدية ملؤه دون أن تحقق فيه تقدم الأمر الذى جعل لمنظور الفينومينولوجى الحل المناسب للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة .

وبالنسبة للعلوم الطبيعية تعتبر الأنساق الصورية معقدة جدا اكثر مما أوضحناه فى هذا المجال ، والذى قد يتحدد من خلال التجربة بواسطة الاستقراء ، ويمكن ان يحدث ذلك بالطريقة التالية :

حيث تصاغ المصطلحات باعتبارها الحالة الغالبة فى العلوم الطبيعية . ومن ثم يمكن صياغة العلاقات التجريبية بين تلك المقاييس بواسطة التجربة .

وهذا ما يشكل النسق الاجرائي . وعند هـــذه النقطـــة يتكـــون النســـق الاجرائى من قضايا وعبارات العلاقات التى توجد فى تجربة خاصــــة ، أو فى سلسلة من التجارب .

وإذا ما اقتنع الباحث بأن جميع العوامل الملائمة متضمنة ومضبوطـــة أو مسيطر عليها ، وأنها مترابطة فى ضوء القياس ، فانه يســـتطيع ان يقـــرر هنـــا . أن العلاقات التي وجدت لها عمومية ، ومن ثم تقـــرر هنـــا كنســـق صورى للعلاقة بين المصطلحات التى تضمنتها المقاييس المستخدمة .

وهذه العملية تشير إلى أن تأسيس وصياغة النسق الصورى والنظرية يتم بواسطة الاستقراء . والذى لا يعمل بصورة كلية لعلـــم الاجتمـــاع بالنســـبة لصياغة الأنساق النظرية العامة . حيث لا يقدم النسق الصورى ، مباشـــرة من معطيات البحث ، وان كان من الضرورى عمليـــا أن نســـتخدم المنـــهج التجريبي. ولا يعنى ذلك القول بأن وجود الأنساق النظرية لا يمكن ان يكون متمتعا بدرجة من الصدق المفيد عند مستوى معين باستخدام مناهج أخرى .

فإذا ما قدم النسق النظرى الصورى قبل بداية البحث . فان ثمة مستويات للصدق مفيدة هنا ، ويمكن تحقيقها والوصول إليها بالاستخدام . ومن أمثلـــة ذلك المنهج المقارن Comparative Method ، فإذا ما وجـــد النســـق النظـــرى الصورى بتعريفات إجرائية ملائمة ، وإذا ما وجدت الظـــروف التجريبيـــة المشار إليها بواسطة نتائج النسق الاجرائى فى عدد من الحالات ، فإن عملية البحث إذن تهتم بكيفية ارتباط وتلاؤم الفروض مع ظروف معينـــة وجـــدت تجريبيا .

وإذا ما كان الاتساق والتطابق متحققان بين الاثنيـــن أمكننـــا الوصـــول لمستوى صدق معين . ويمكن للنسق التفسيرى أن يصاغ ويقوم كنظرية .

ومثل هذا البحث ممكن فى دائرة علم الاجتماع التجريبى ، كما أن وسائل جعل الأنساق النظرية والتجريبية صالحة للاختبار قد تتمثل فى المناهج التـــى

لا تعتمد على الاستقراء من التجربة ، وبدلا من الاستقراء من التجربة تطرح بديلا أخرا يقترح هنا لاشتقاق النظرية بواسطة الاستدلال الاستنباطى عــن الأنساق الصورية ، وعن النموذج Model ، والــذى يعــد بمثابــة تصــور لمجموعة الظواهر والذى يبنى بواسطة الجانب العقلــى[1]. والــذى يكــون غرضه النهائى الوصول بالمصطلحات والعلاقات والقضايا الخاصة بالنســق الصورى لمستوى النموذج . وإذا ما صدقت هذه النماذج من خلال التجريــب فإنها تصبح نظرية . والنماذج قد تستخدم فى غرضين أساسيين يتمثلان فــى خلق الانساق الصورية ، والتوجيه فى عملية اشتقاق التعريفات الاجرائية .

ولاشك أن ثمة اختلاف وتمييز قائم بين النموذج والنظرية ، وذلك ما أكد عليه "وللر" مستندا فى ذلك لنقده لما قرره "برايثوايت" Braith waite ، من أنــه فى علم النفس والعلوم الاجتماعية يتكرر استخدام النموذج باعتبــاره ملائــم لصياغة النظرية ، حيث ذهب " وللر " الى أن ذلك ينطوى على مغالطـــة ، وذلك لان النماذج الرياضية Mathematical Models هى التى تكون مــن هــذا النوع ، فى حين اننا هنا نتناول الانساق الصورية ، والتى يكون من نماذجها فى علم الاجتماع الأنساق التفسيرية لذات العلاقة بالمدخل البنائى الوظيفــى Structural Functional ، والمدخــل الصراعــى Conflict Approach والمدخــل التطورى Evolutionary Approach ، والمدخل الفينومينولوجى ، والتــى تعــبر جميعها عن نماذج ، فجميعها بمثابة وصف للظاهرة ، ومن الممكن ان تؤدى الى انساق صورية قابلة للاختبار ، ومن ثم يمكن اعتبارها نماذج .

وعليه فان المعنى الذى نعطيه هنا لمفهومى النموذج والنظرية ، يتســق مع الاستخدام الشائع بين فلاسفة العلم لهذين المفهومين . وفى علم الاجتمــاع فان مفهوم النموذج يستخدم فى بعض الأحيان مطابقا لتلك المداخل التصورية والتى توضع مع بعضها تحت مصطلح النظرية .

---

(1) Willer , op.cit., PP.14 -15

مثال ذلك تصنيف الكس انجلز لانواع المداخل الى البنائى الوظيفى والتطورى والصراعى عند فحصه لها باعتبارها نماذج [1].

والحقيقة ان هناك اختلاف بين نمط النماذج التى ناقشها الكس انكلز ، والنماذج التى تولد الأنساق الصورية النظرية فالأولى تتلائم مع ما اسماه "روبرت ميرتون" بالتوجيهات السسيولوجية العامة General Sociological Orientations والتى يمكن تسميتها بالنموذج العام General Model ، فى حين أن النوع الآخر من النماذج يعتبر اكثر ملاءمة للنظرية ، إذ يمكن تسميته بالنموذج النظرى Theoretical Model . والاختلاف الثانى بين النوعين من النماذج يتمثل فى أن النماذج العامة تشير عادة لمعدل واسع من البيانات اكثر من النماذج النظرية . ومثال ذلك أن النماذج العامة قد تشير إلى معدل الاهتمام الواسع بتطور الجماعة ، فى حين أن النموذج النظرى يكون اكثر تحديدا وربما يتضمن فقط اهتمام الجماعة بالتطور . وبالنسبة للنموذج العام قد يتناول بناء المجتمع ككل ، فى حين أن النموذج النظرى ينحصر اهتمامه بنوع واحد من الجماعات الفرعية . وثمة تمييز أخر بين نوعى النماذج العام والنظرى يتمثل فى أن النموذج النظرى قد يشتق من النموذج العام . لأن النماذج العامة قد تكون مصدرا لنماذج النظرية ، فالنموذج يمدنا بمجموعة المفاهيم والتعريفات الاسمية التى تتطابق مع أنماط الظاهرة الامبيريقية . وفى عملية الاستدلال الاستنباطى من النموذج للنسق النظرى للنظرية تشكل التعريفات والمفاهيم ، الجانب العقلى والإطار التصويرى للنموذج . كما أن المصطلحات والعلاقات الخاصة بالنسق النظرى العام تشتق من المفاهيم ومقترحات النموذج . وبذلك يكون التصور النظرى فى علم الاجتماع التجريبى موزعا بين النماذج العامة ، وبين شبه النماذج ، ورغم أن النماذج غير مبرهنة ، وغير مثبته ، إلا أنها أساسية . وإذا ما اكتسب أو حصل علم الاجتماع على نظرياته من خلال النماذج فان النماذج لا تعالج كأيديولوجيات

---

(1) Ankeles , A., What is Sociology , Prentice - Hall .,1964. Ch.3.

سياسية جامدة ، كما كان الحال فى الماضى . وذلك لإننا فى عصر يسعى لتطوير النظريات والتخلص من الالتزام وإخضاعها لمعطيات الواقع [1] . وسوف تتضح تلك النماذج النظرية عند مناقشتها فى سياق التجريبية الفينومينولوجية .

ثانيا : تعريف العلم وأهدافه .

إن رغبتنا فى الوصول إلى فهم لطبيعة المجتمعات البشرية وما تنطوى عليه من ظواهر ووقائع هى التى تدفعنا بالضرورة لتلك المحاولات الدائمة لفهم الطبيعة الأساسية للعلوم الاجتماعية عامة ، وعلم الاجتماع خاصة. باعتبارها النظم العلمية التى تساعدنا على الوصول لهذا الفهم ، وتوفير المعرفة العلمية ، وتحقيق تراكمها الدائم حول وقائع المجتمعات البشرية وظواهرها الاجتماعية والثقافية . وما تستهدفه تلك المحاولات الدائمة لفهم النظم العلمية للعلوم الاجتماعية ، وعلم الاجتماع ، يتمثل فى المحل الأول فى طموحاتنا الدائمة لتنمية الاستراتيجية المنهجية والنظرية لتلك العلوم " التى لم تأخذ بعد بالمنظور الفينومينولوجى ، والتجريبية الفينومينولوجية " بما يجعلها قادرة على فهم الواقع الاجتماعي وظواهره وتحقيق تراكم المعرفة العلمية حولها على أسس سليمة. تتسق مع مبادىء المنظور العلمى لنسق التفكير العلمى ومنطقه فى البرهنة على صحة المعرفة التى تحصلها أى من النظم العلمية حول الظواهر الواقعة فى مجال اهتمامها . وما نديره من حوار حول نسق التفكير العلمى وبنائه المنهجى ما هو إلا محاولة من تلك المحاولات التى تستهدف معالجة النظام العلمى ومبادئه التى تحكم العمل والنشاط العلمى فى مجال العلوم الاجتماعية ، والوقوف على حدود استخدامنا للمنهج العلمى الذى يشكل إحدى عناصر هذا النسق فى تحصيل المعرفة

---

(1) Merton ,Robert , Social Theory and Social Structure , N.Y. : The Free Press of - Glencoe , Inc . 1957. P.87.

حول ظواهر الواقع الاجتماعي (1) ، وصياغة النظريات المفسرة لتلك الظواهر . وتحديد الأسس المنطقية للبرهان العلمي ومدى استنادنا لتلك الأسس فى البرهنة على صحة تلك النظريات وصلاحيتها لتفسير الظواهر التى صيغت من اجل فهمها وتوجيه العمل العلمى عند معالجتها .

وبذلك فان تنمية النظم الغلمية للعلوم الاجتماعية لا يتحقق إلا بفهمنا لبناء العلم واستراتيجيته فى معالجة وقائع العالم وظواهره من ناحيـة ، وتحديد طبيعة الظواهر الاجتماعية والثقافية ومقتضيات معالجتها فى ضوء المبادىء الأساسية لنسق التفكير العلمى ومنظوره من ناحية أخرى . وذلك للوصول باستراتيجية العلوم الاجتماعية لمستوى يتحقق معه لياقة تلك الاستراتيجية منهجيا لموضوع تلك العلوم ، وكفاءتها لمعالجة ظواهر الواقع الاجتماعي وتحقيق تراكم المعرفة العلمية حولها . وقدرتها للبرهنة على صحة تلك المعرفة سواء كانت مصاغة فى شكل نظرية مكتملة او لم تكتمل بعد فى ضوء أسس ومبادىء إقامة البرهان العلمى .

وذلك بعينه ما يجعلنا نستهل معالجتنا للبناء العلمى لعلم الاجتماع التجريبى والتجربة الفينومينولوجية المعاصرة بتناول الموضوعات التالية :

- تعريف العلم .
- اهداف العلم .
- وظائف العلم .
- المعرفة التجريبية .

١- تعريف العلم :

يعتبر مصطلح العلم (Science) من اكثر المصطلحات التى لاقت اهتماما بالغا من قبل العلماء . وذلك لتعريفه تارة وتحديد عناصره ووظائفه وأهدافه

(1) Fitzgerald, Jack D. & Cox, Steven M, Unraveling Social Science, Chicago : Rand McNally College Publishing Company , 1975. P.1.

تارة أخرى . وإذا كان الاتجاه التقليدى قد قصر العلم على تلك العلوم التجريبية (البيولوجيا والطبيعة والكيمياء وفروعها) باعتبارها تعتمد فى استخلاص نتائج من أبحاثها وصياغتها على أساس الرياضيات وذلك فيما قبل القرن الثامن عشر فقد كان ذلك راجع فى أساسه إلى اعتقادهم بأن هدف العلم ينحصر فى الكشف عن تلك الظواهر والقوى التى تكمن وراءها ، وتعمل على حدوثها . إلا أن هذا الفهم قد قوبل بنقد شديد من قبل "ديفيد هيوم" عندما رفض فى القرن الثامن عشر هذا الاعتقاد المتعلق بهدف العلم وفهم العملية بهذه الصورة . وأكد على انه ليس بمقدور الإنسان أن يكشف القوى المجهولة فى الظواهر وأن ما يستطيع عمله ينحصر فى معرفة الروابط القائمة بين هذه الظواهر ، وبذلك لم يعد هدف العلم البحث عن القوى الغامضة التى تعمل على حدوث الظواهر ، وإنما أصبحت العلاقة بين الظواهر هى هدف العلم . ثم أدى الحوار حول هدف العلم بعد ذلك إلى اعتبار تلك الروابط والعلاقات القائمة بين الظواهر ، بمثابة القوانين التى يسعى العلم للكشف عنها . وبذلك لم تعد العلل تشكل هدف العلم .ومن ثم بدأ الاهتمام يتزايد بالتفسير والفهم الفينومينولوجى لظواهر ومواقف الحياة اليومية .

وقد كان ذلك فاتحة أمام العلماء والمفكرين لتطوير فهمهم لمعنى العلم . فجاء تعريف الرياضي الفرنسى "هنرى بوانكاريه" بما يشير إلى أن العلم معرفة تتعلق بادراك الروابط والعلاقات القائمة بين الظواهر لا بالظواهر فى حد ذاتها وهو فى ذلك كان متأثرا بفهم ديفيد هيوم للعلم وبالحوار الذى جعل من القوانين (الروابط والعلاقات بين الظواهر) بدلا من العلل هدفا للعلم .

وقد ترتب على فهم "بوانكاريه" للعلم بهذه الصورة الاتجاه إلى جعل العلم مرادفا للمعرفة وسيدع تعريف العلم بأنه تراكم المعرفة المنظمة .

إلا أن علماء المناهج أمثال "جود " و" هات " قد أكدا على أن تعريف العلم بهذه الصورة لا يكشف لنا عن السمة الأساسية للعلم باعتباره طريقة أو مدخل لتناول الواقع وفهم ظواهره . وذلك ما جعل "جوليان هكسلى" يتخذ

من النشاط الذى يتحقق بواسطته تحصيل المعرفة أساسا لتعريف العلم ، فاعتبره (أى العلم) بمثابة النشاط الذى نحصل من خلاله معرفتنا حول الظواهر والذى يمارس بواسطته الضبط والتحكم فى العالم الواقعى كما أن " لندبرج " يؤكد فى تعريفه للعلم على انه وسيلة للحصول على المعرفة المضبوطة حول الظواهر . وتطبيقها فى عملية التنبؤ باحتمالات حدوثها فى المستقبل فى سياق تعريف العلم . وقد مهد ذلك الطريق أمام "كوهن" لطرح تعريف للعلم فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية باعتباره يعنى الوصول إلى القوانين العامة التى تقيم الروابط بين الحقائق باتباع الطريقة العلمية . وهو بذلك يبين المعرفة سواء كانت مصاغة فى شكل نظرية مكتملة ، أو لم تكتمل بعد. والطريقة العلمية التى تستخدم فى تحصيل تلك المعرفة . وفى ذلك تأكيد لمشروعية المنظور الفينومينولوجى والتجريبية الفينومينولوجية .

ويأتى تعريف "تيودور سافورى Theodor Savory بما يؤكد على تلك الصلة القائمة بين عنصرى العلم المتمثلان فى النظرية والطريقة العلمية ، إذ يعتبر العلم معرفة من نوع خاص محدد ، يتم فحصها بطرق منهجية مميزة ومرتبطة بفروض نظرية وتجريبية [1]. وهذا التعريف لا يعنى كما هو ظاهر ان المعرفة مرادف للعلم ، وإنما يعنى أن المعرفة سواء كانت مصاغة فى شكل نظرية مكتملة أو لم تكتمل بعد يتم تحصيلها بواسطة نظام متكامل ينهض على عناصر أساسية تميز النظام العلمى عن غيره من نظم تحصيل المعرفة الأخرى . وهذا مايؤكد مشروعية الحل الفينومينولوجى لعلم الاجتماع الذى يتسق نظريا ومنهجيا مع طبيعة الوقائع الاجتماعية والثقافية .

وإذا كان المنظور العلمى ينهض على مبادىء أساسية تتمثل في :

– مبدأ تحقيق التجريبية والتى تتطلب أن يستند العلماء فى تطويرهم للنظريات والفروض وتنميتها على الملاحظة الفعلية للظواهر والحوادث موضوع الدراسة ، بحيث يقارن الباحث نظرياته وتفسيراته

---

(1) Savory , Theodore H., The Language of Science , London , Tonbridge Printers , L.T.D., 1967. P.18.

بملاحظاته للحوادث والوقائع ، ويستبعد ما يتعارض منها مع نتائج ملاحظاته . ومبدأ الموضوعية التى تتحقق بتأكيد الباحث على نتائج ملاحظة الوقائع بوعى وفهم ، ومبدأ النسبية الذى يشير إلى أن ما وصل إليه الباحث من نتائج لا يعتبر دائماً ، وعاماً ، وصادقاً بصورة مطلقة . ومبدأ الشك الذى يشير لرغبة العالم فى طرح التساؤلات عن كل شيء وصولا للحقائق الكامنة وراء الظواهر . ومبدأ الحياد الاخلاقى برفض الأحكام المعيارية المتعلقة بما يجب أن يكون أو بما هو أفضل وحصر التفسيرات العلمية لظاهرة معينة فى جوانب محددة قدر الامكان ، فان علم الاجتماع يتخذ من هذه المبادىء منطلقة لتناول الظواهر الاجتماعية بالوصف والتفسير لتحقيق الفهم العلمى لتلك الظواهر والوصول الى مستوى التنبؤ العلمى بمستقبل تلك الظواهر واحتمالات حدوثها والعوامل التى تتحكم فى هذا الحدوث . وذلك مايؤكد على أهمية التجريبية الفينومينولوجية فى تناول وقائع الحياة اليومية الاجتماعية والثقافية حيث توفر الفينومينولوجية مبدأ الاتساق النظرى لعلم الاجتماع فى معالجة ظواهره .

٢- اهداف العلم ووظائفه :

ثمة اتفاق واضح بين المنظريين والمنهجيين على ان للعلم أهداف أساسية حددة تتمثل فى الفهم والتنبؤ والتحكم . وان تحقيق العلم لهذه الأهداف يعتمد لى مدى أدائه لوظائفه الأساسية المتمثلة فى الوصف والتفسير للظواهر التى تناولها باعتبار الوصف والتفسير وسائله الأساسية لبلوغ أهدافه [1] .

(١) أهداف العلم :

يدور حوارنا فى هذا المجال حول الأهداف المعلنة للعلوم وتتمثل تلك أهداف فى : فهم الظواهر باعتبار هذا الفهم ركيزة أساسية لتحقيق هدف

(1) Bailey , Kenneth D, Methods of Social Research , The Free Press ., London. Collin McMillan Publishers, 1978, PP.31-32

العلم الثانى المتمثل فى التنبؤ بمستقبل هذه الظواهر واحتمـــالات حدوثـــها . وذلك تمهيدا لتحقيق الهدف النهائى المتمثل فى السيطرة على تلك الظواهـــر والتحكم فى العوامل التى تعمل على حدوثها .

(أ) الفهم كهدف للعلم :

يجمع فلاسفة العلم على ان الفهم Understanding هدف أولى مـــن أهـــداف العلم الأساسية المعلنة وذلك لأنه بدون فهم الظواهر والوقائع لانســـتطيع ان نصدر حكما أو تعميما حولها . وبذلك يعتبر الفهم العملية الأساســـية التـــى نستند إليها للوصول إلى إدراك واع للظاهرة ، وما يرتبط بها من وقـــائع ، وما نعنيه بمصطلح العملية Process فى هذا المجال : يتمثل فى كـــون هـــذا الإدراك يتم من خلال مراحل معينة تبدأ بالإجابة عن السؤال : ماذا حـــدث ؟ باكتشاف الوقائع والظواهر ، ومحاولة تحديد خصائصها ، والسمات المميـــزة لها . وذلك تمهيدا لاكتشاف العلاقات القائمة بين تلـــك الوقـــائع والظواهـــر وتفسيرها للإجابة عن السؤال لماذا حدثت الظاهرة ؟ بتحديد العوامـــل التـــى تحكمت فى هذا الحدوث ، والعلاقات التى تربط تلك العوامل ببعضها ، والتى تربطها بحدوث الظاهرة من ناحية ، والعلاقات التى تربط الظواهر ببعضـــها والتى تتحكم فى نشأتها وعلاقتها بغيرها من الظواهر فى تطورها ، وأدائـــها لوظائفها من ناحية أخرى . ومن ثم تتحقق الإجابة عن السؤال كيف حدثـــت الظاهرة ؟ وبذلك يكون تحقيق هدف الفهم عملية متصلة تبدأ الوصف مـــرورا بالتفسير وصولا إلى الكيفية التى تم بها حدوث تلك الظواهر .

وعليه لا يتحقق الفهم العلمى للظواهر إذا مـــا اقتصرنـــا علـــى مجـــرد الوصف وذلك لان التفسير مرحلة أساسية لاكتمـــال عنـــاصر الفـــهم لتلـــك الظواهر . كما أننا لا نستطيع ان نحقق التفسير للظواهـــر إلا إذا كنـــا قـــد اكتشفنا تلك الظواهر وعناصرها والسمات والخصائص الجوهرية لـــها ، أى الوقوف على ماهيتها المنهجية الفينومينولوجية والتجريبية الفينومينولوجية .

ويتحقيق الوصف والتفسير للظاهرة يتحقق فهمها والوصول إلى القوانين التى تتحكم في نشأتها وتطورها وعلاقتها بغيرها من الظواهر وأدائها لوظائفها .

(ب) التنبؤ كهدف للعلم :

يجمع العلماء على أن التنبؤ Predication هدف أساسى للعلم إلا أن تحقيق هذا الهدف يرتبط بصورة أساسية بتحقيق الفهم كهدف أولي ويرتبط بصورة مباشرة بالتفسير كمرحلة نهائية فى عملية الإدراك والفهم للظواهر . وذلك ما جعل البعض يقيم العلاقة بين التفسير والتنبؤ . ويعتبرهما وجهان لعملة واحدة نظراً لاعتقادهم بأن التفسير يأتى بعد وقوع الحوادث فى حين أن التنبؤ يسبق وقوع الحوادث [1] . وهذه مسألة لاجدال فيها . وذلك لأن التنبؤ يهتم بما سوف يكون فى المستقبل لأنه بمثابة اختيار لمجموعة من العلاقات القائمة بين متغيرات أو ظواهر أو أحداث تقبل الملاحظة والمشاهدة . ولهذا تكون تلك التنبؤات مصاغة فى شكل قانون أو نظرية علمية معلنة . إلا أن صياغة القانون أو النظرية لا يتحقق إلا بفهم تلك الوقائع والظواهر. وتقديم تفسيرا لها فى شكل حكم احتمالى تتحدد درجة يقينه فى ضوء التحقق الامبيريقي للقانون أو النظرية التى تتضمن التنبؤات وبذلك يكون التفسير عملية متصلة نقيم عليها تنبؤاتنا . ونتحقق بها من درجة يقين تلك التنبؤات بعد حدوث الظواهر التى تنبأنا بها ، أو التى أصدرنا حكما باحتمالات حدوثها بكيفية معينة .

ويتحقيق هدف التنبؤ هذا يتوفر للإنسان فرصة السيطرة على الظواهر والتحكم فى العوامل المؤدية لحدوثها وتوجيهها بالكيفية التى تجعل هذا الحدوث لصالح الإنسان ومنفعته وهذا هو الهدف النهائى للعلم .

(٣) وظائف العلم :

يعتمد تحقيق العلم لأهدافه على مدى قيامه بوظائفه الأساسية ، تلك

---

(1) Bailey, Kenneth D., Op. cit., P.34.

الوظائف المتمثلة فى الوصف والتفسير للظواهر الواقعة فى مجال عملـــه . والواقع ان تحديد الوصف والتفسير كوظيفتين للعلم تعتـــبر مـــن المســائل الجدلية، التى استهدفها الحوار المتصل والمستمر حـــول تعريـف العلـم ، وأهدافه ، والكيفية التى يصل بهـا العلـم لتحقيـق تلك الأهـــداف . فقـد كان " فرنسيس بيكون " و " جون استيوارت ميل " و " جاليليو " لا يقبلـون الأسس الصورية القبلية للعلوم التجريبية ، ومع ذلك فقد كـــانوا لا يقبلـون الاتجاه الذى يعتبر الوصف وظيفة أساسية للعلم ، وذلك نتيجة لقناعتهم بـــأن التقدم العلمى لا يعتمد على الوصف ، أى وصف ما يحدث فقط ، وإنما يعتمد على وصفه وتفسيره معاً . وقد كان لهذا الاتجاه أنصاره ومؤيدوه إذ ذهـب " شرشمان وزملاؤه " إلى أن الوظيفه المبدئية للنموذج العلمى تفسيرية اكـــثر منها وصفيـــة [1] . وربما كان لاتجاه " شرشمان " وزملائه هذا أثره علـــى اتجاه كل من " فورسز " و " ريشر " فى مؤلفهما مناهج البحث الاجتمـــاعى ١٩٧٣ م إذ وضعا الوظيفة التفسيرية فى وضع معين بالنسبة للعلم [2]. وقـد كان التأكيد على الوظيفة التفسيرية للعلم راجع فى أساســـه لتلـك العلاقـة المباشرة بين التفسير والفهم والتفسير والتنبؤ كهدف للعلم ، وذلك ما جعـــل البعض يهتم بإبراز الوظيفة التفسيرية فى العلوم الاجتماعية ، لكـــى تحتـل مكانتها العلمية بين العلوم الطبيعية الأخرى . وقد مارس هذا الرأى تـــأثيرا واضحاً على المعنيين بتحديد وظائف العلم حتى أواخر القرن التاسع عشـر . عندما ظهر اتجاه جديـد تزعمه كـل مـن " ارنســت ماخ " و" اسـتفالد " و " كارل بيرسون " وهم ممن تأثروا بوضعية " اوجست كونت " إذ رفـض هذا الفريق الاتجاه باعتبار القانون العلمى قانونا تفسيريا فقط ، وأكدوا علـى أن القانون العلمى قانون وصفى أيضا . وذلك ما جعلهم يعتبرون الوصـــف

---

(1) Churchman, C. West and Others, Introduction to Operations Research , N.Y. John Wiley & Sons, Inc., 1957, P.157.

(2) Forcese ,D,D. & Richer, S., Social Research Methods . N. J. : Prentice Hall, Inc.,1973, PP.6-7.

وظيفة أساسية للعلم [1] .

ويعتبر موقفهم هذا رد فعل للاعتقاد السائد آنذاك بأن كل تفسير هو تفسير علمي ، على نحو ما ذهب إليه " جون استيوارت مل " ، ونتيجة للفجوة القائمة في مضمون علم الكيمياء بين ما يدرك بالحس فعلاً وبين النظرية العلمية ، الأمر الذى جعلهم يذهبون إلى حد القول بأن ما يفترض الكيميائيون وجوده لا أساس له . وعليه رفضوا التفسير عن طريق الفروض الاستنباطية الصورية التى لا يدرك مضمونها ، وذهبوا إلى أن الوصف هو الذى يعبر عن الموقف العلمى الدقيق ، وبذلك يرون أن العلم يجيب عن الكيف ، بمعنى أنه مجرد وصف لما يحدث بالفعل وذلك بعينه ما جعل دافيد وللر يؤكد على الوصف والتفسير باعتبارهما وظيفتين أساسيتين للعلم وان لكل منهما مستواه الخاص ، فالعلم إذا ما أراد أنه يتجاوز حدود الوصف فى نظره يحتاج للقوانين العامة لكى يصبح تفسيريا. وأن التفسير العلمى يدور حول العلاقات العامة فى حد ذاتها ويتناولها بالتأويل والتفسير [2] . كما أن "كينث بايلي" قد اعتبر الوصف والتفسير وظيفتين أساسيتين للعلم لتحقيق الفهم كهدف أولى للعلم يعتمد عليه تحقيق العلم لهدفه النهائى المتمثل فى التنبؤ [3] . وذلك ما سبق تأكيده بشكل واضح من قبل "ستيفن كول" عندما اعتبر الوصف والتفسير محورى إقامة البرهان العلمى فى علم الاجتماع [4]. وبأداء العلم لوظائفه يتحقق له هدفه الضمنى المتمثل فى الوعى العلمى ، وتحقيق الوعى العلمى لدى الباحث حول الظاهرة يتحقق له هدف العلم الثانى المتمثل في التنبؤ [5]. وبتحقيق الظاهرة وبتحقيق هذا الهدف يستطيع الباحث أن يحقق

---

(١) دكتور محمود فهمى زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمى ، الإسكندرية ، دار الجامعة المصرية ، ١٩٧٧م ص ١٤٦ – ٣٤٧ .

(2) Willer, David , Scientific Sociology , N. J. prentice Hall , Inc, 1967, PP. 23-25

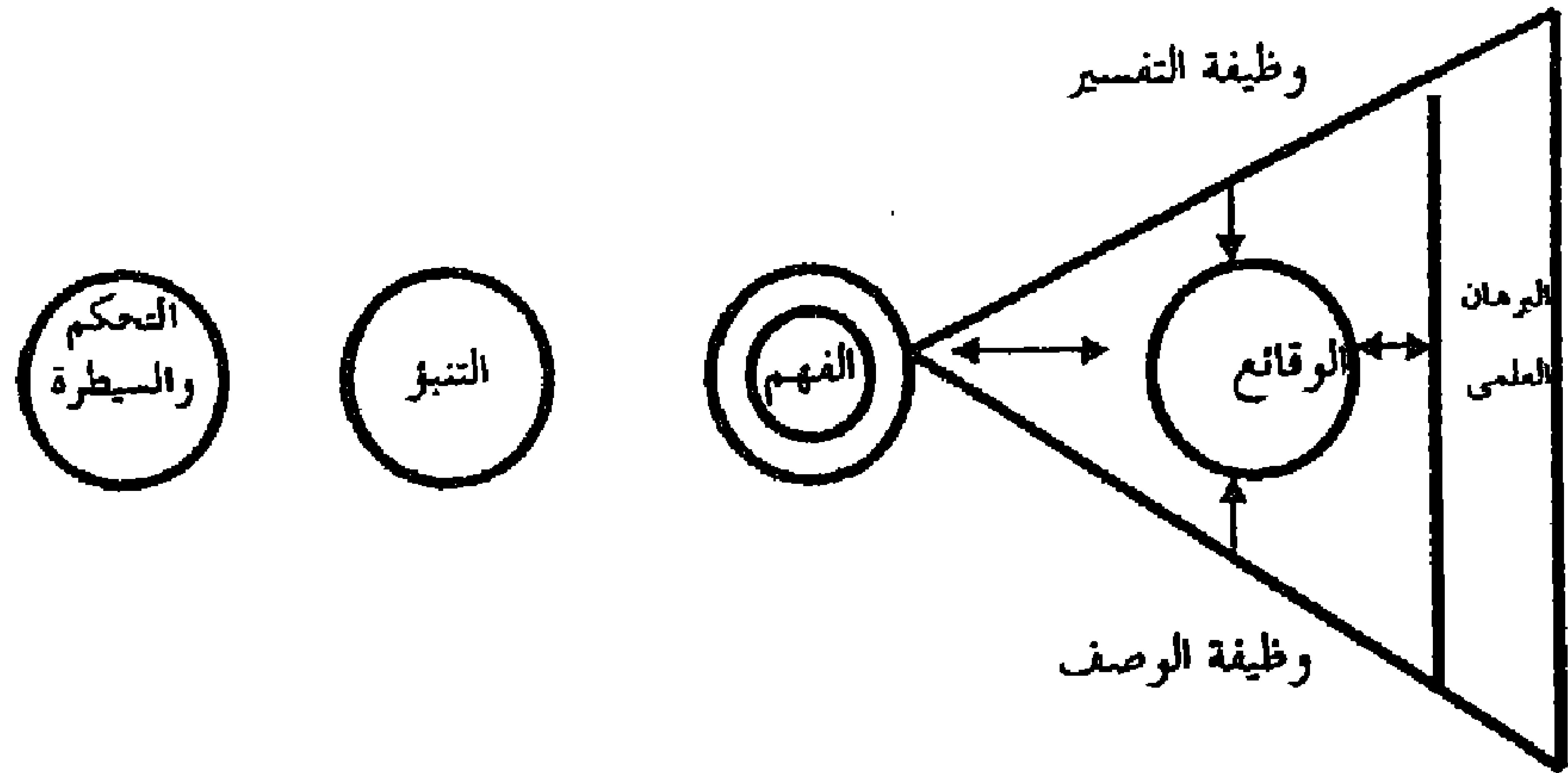
(3) Bailey , Kenneth d., Op. cit., PP. 31 -32.

(4) Cole, Stephen, The Sociological Method , Chicago: Rand McNally College Publishing Company, 1972. PP.29-33.

(5) Zusman, Marty , Scientific Explanation in Prespective . in Mahmoudi & Parlin . Op cit., P.14.

التحكم والسيطرة على الظاهرة ، وهو هدف نهائى للعلم .

والشكل التالى يوضح علاقة وظائف العلم بتحقيق أهدافه



٤- المعرفة التجريبية

تستند عملية البحث حول المعرفة لإجراءات وقواعد منهجيـــة معينـــة ، وذلك بغية الوصول إلى المعرفة المضبوطة حول أنواع الظواهر التى تنظـــم الكون ، لإمكان استخدامها فى عمليات التنبؤ بمستقبل تلك الظواهر ، حتـــى يسهل على الإنسان التحكم فى تلك الظواهر ، والسيطرة عليها خلال تفاعلـــه معها . ولن يتأتى للإنسان ذلك إلا بتوفير المعرفة الدقيقة والثابتة ، حول تلك الظواهر التى يصيغ تنبؤاته حولها .

ولاشك أن توفير مثل هذه المعرفة من اختصاص العلم ، لما يتوفر له من وسائل البحث والملاحظة العلمية . ومن ثم عرَّف لندبرج العلم بأنه فرع مـــن فروع المعرفة ، ووسيلة للحصول على المعرفة المضبوطة عن أى نوع مـــن الظواهر ، وتطبيق هذه المعرفة فى عمليات التنبؤ [1] . كما ذهـــب كوهـــن Y.R.Cohen فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية ، الى أن العلم فـــى أضيـــق معانيه يعنى الوصول إلى القوانين العامة ، التى تقيم الصلة المنطقيـــة بيـــن الحقائق المختلفة ، وذلك باتباع المنهج العلمى بأوسع معانيه ، لما له من دور فى تدعيم الفروض وتخليصها من الأخطاء .

---

(1) Lundberg , Foundations of Sociology , N.Y. : 1939. PP. 5-10.

وفى ضوء ذلك يكون للعلم جانبه النظرى المتمثل في خلق بناء نظرى قائم على المفاهيم والفروض لفئة معينة من الظواهر ، سواء كانت ظواهر طبيعية أو ظواهر اجتماعية وثقافية وشخصية . وهذا ما يشار إليه بالجانب النظرى للعلم . والذى يستند أساسه من حيث الصدق إلى معطيات التجريب .

أما الجانب الثاني للعلم فيتمثل فى تطبيق ما توصل إليه العلم من معرفة نظرية على ظاهرة معينة لفهمها ، ويطلق على هذا الجانب ، الجانب الامبيريقي ، وتوفر الجانبين للعلم على درجة من الأهمية لأنهما يشكلان معاً حدود النظام العلمى لأى علم . ومن ثم ينهض نسق التفكير العلمى على عناصر أساسية تتمثل فى نظريته ، ومنهجه ، والظواهر التى تدور حولها معارفه .

وعلم الاجتماع التجريبي باعتباره واحداً من النظم العلمية الضرورية لكى يحقق الاتساق مع نسق التفكير العلمى عليه أن يتخذ من المنظور الفينومينولوجى نسقه النظرى وبنائه المنهجى لكى تتوفر له اللياقة النظرية والمنهجية فى معالجة ظواهر الواقع وتوفير المعرفة حولها .

ثالثاً : النسق العلمى للعلم الطبيعى والعلم الاجتماعى

تشكل معالجة البناء المنطقى للعلم الطبيعى . والبناء النظرى للعلم الاجتماعى بعداً إضافياً لمعالجة بناء نسق التفكير العلمى والمبادىء الأساسية التى تحكم البناء النظرى للعلم . وذلك لأنها تعمق فهمنا لهذه المبادىء على مستوى نظم علمية عامة ، كما أنها تضفى مزيدا من الوضوح على طبيعة النظام العلمى . والمبادىء التى تحكم نشاط العلماء وعملهم فى مجال أى من النظم العلمية . كما أن هذه المعالجة تكشف عن طبيعة الصلة القائمة بين نسق التفكير العلمى والنظم العلمية العامة ، من حيث بنائه النظرى . ومثل هذه العلاقة تساعد كثيراً فى فهم طبيعة البناء النظرى للنظم العلمية الفرعية المندرجة فى نطاق تلك النظم العلمية العامة .

وبذلك تكون معالجة البناء النظرى للعلم الاجتماعى . ممهدة لفهم البناء النظرى لعلم الاجتماع ، باعتباره واحداً من تلك العلوم المندرجة فى نطاق العلم الاجتماعى . كما ان تحديد المبادىء الأساسية التى تحكم المنظور العلمى للعلم الاجتماعى تساعد فى الكشف عن إمكانية تطويع تلك المبادىء وتحقيقها على مستوى البناء النظرى لعلم الاجتماع باعتباره محور المعالجة فى هذا الكتاب .

وفى ضوء ذلك نعالج الجوانب التالية :

- بناء العلم الطبيعى .
- العلم الاجتماعى والمنظور العلمى .
- بناء العلم الاجتماعى .

١- بناء العلم الطبيعى :

يجرنا الحديث عن البناء المنطقى للعلم الطبيعى لمناقشة جوانب أساسية تحدد علاقة نموذج العلم الطبيعي بنسق التفكير العلمى من ناحية ، وتناول العلم الطبيعى من حيث وضعه كوسيلة لغاية ، أو فن من اجل الفن [1] من ناحية أخرى . والواقع ان مناقشة هذه الجوانب تدور فى نطاق معالجة الأساس الابستمولوجى والمنهجى للعلم الطبيعى [2] .

إذ أن نسق التفكير العلمى يمثل الإطار المرجعى للعلم الطبيعى على المستوى النظرى والمنهجى . وذلك لأنه يتخذ من المنهج العلمى أساسه فى معالجة المشكلات العلمية فى تناوله للوقائع . كما ان المنهج العلمى ينهض على أساس التحكم فى التجربة التى يتناول بها الوقائع . وعلى أساس التجربة العلمية يقيم العلم الطبيعى تعميماته وأحكامه . كما أن الحلول التى يقدمها تتخذ من التعميمات الواسعة أساساً لها .

---

(1) Goode & Hatt ., op. cit., P.26.

(2) Mouton, UNESCO. Main Trends of Research in Social and Human Sciences , Paris : The Hague , G.J. Thieme , Mijmegan, 1970. P.38.

ونظراً لأن العلم الطبيعى يتخذ من نسق التفكير العلمى أساسه المرجعى فى دراسته للوقائع الامبيريقية ، فانه بذلك يعتبر وسيلة لغاية تتمثل فى تلك الحلول التى يقدمها حول الظواهر الواقعية ، متبعا فى ذلك العمليات التى يقرها نسق التفكير العلمى فى تحقيق تلك الغاية . وهو لذلك لا يستهدف ذاته بتنمية عمليات معينة على المستوى النظرى والمنهجى ، لرفع كفايته فى إنجاز أهدافه . وإنما يتخذ من العمليات والقواعد النظرية والمنهجية التى يقرها نسق التفكير العلمى أساسه المباشر لتحقيق غاياته ، والذى يساعده فى ذلك طبيعة الوقائع التى يعالجها ، والتى تتسم بالواقعية والمباشرة القائمة على اساس الإدراك العيني ، وانفصال الإنسان عنها لاختلاف ماهيتها عن ماهية الإنسان الذى يتناولها بالدراسة والمعالجة .

وعلى المستوى النظرى تمثل المفاهيم المادية مثل المسافة ، والكتلة ، والسواء . ومفاهيمه غير المادية مثل السببية والقوى .. الخ أدواته الأساسية التى تعبر عن السمات الفعلية للوقائع التى يتناولها . أما قوانينه التي يستند إليها في تناول الوقائع ، فهى مستندة لاستقرائه التجريبي لتلك الوقائع الملموسة (1). وهو فى تنميته لتعميماته يتخذ من المبادىء الأساسية التى تحكم نسق التفكير العلمى أساسه المنهجى .

كما أن مداخله المنهجية التى تعكس التصور المنهجى لمعالجة الوقائع ذات طابع موضوعى وتحقق الدقة نتيجة للمحكات الموضوعية التى تنهض عليها . ويمثل المدخل الرياضى محور اهتمام العلم الطبيعى فى قياس الظواهر . كما يعتبر القياس الأسلوب المنهجى الأساس للعلم الطبيعى أما الملاحظة فهى الأداة المنهجية الأساسية لتناول الوقائع ووضع البيانات حولها بالإضافة للمقاييس الأساسية الأخرى .

وبذلك لا تظهر المحلية الثقافية فى استخدام المفهوم ، أو الكيفية التى يتم

---

(1) Osteber, Dag. Meta Sociological Essays , Pillsburg, Duquerne University Press 1976. P. 49.

بها تفسير الوقائع وتناولها . الأمر الذى يؤكد على قيام الاتصال بين فريق العلماء الذين يعملون فى حقل معين من حقول العلوم الطبيعية .

ومما يساعد على تحقيق هذا الاتصال العلمى كون الظواهر الطبيعية مرتبطة بحقائق مرئية وملموسة [1] . وعلى أساس ذلك فان العلم الذى يهتم بالمواد المنفصلة عن كل دلالة فردية ، وعلاقة بالنسبة لنا ، يعالج تلك المواد فى شكلها الملموس . وباعتبارها ظاهرة طبيعية ذات طبيعة عينية . ومن ثم فان العلم الطبيعى يهتم بالأشياء والموضوعات فى شكلها الملموس . وعلى المستوى التجريدى تتناول العلوم الطبيعية الحدوث فقط . بمعنى أنها تتناول الحركة والعملية التى يتغير من خلالها الشكل . ولذا تهتم العلوم الطبيعية بفهم هذه العملية . لمعرفة الوسائل التى أدت إلى أن تأخذ التغيرات مكانها . كما أنها تتناول الانتظامات لإيجاد القوانين التى تحكم هذه الانتظامات .

فالعلم الطبيعي لا يحاول ايجاد القوانين التى تحكم الشىء ككل ، كعملية كلية ولذلك فإن الشىء ككل ليس موضوعاً للبحث فى العلم الطبيعى . بل إن إجراءات العلم الطبيعى فى اتجاه معاكس إذ يهتم بدراسة العلاقة بين أجزاء الشىء وأجزاء الطبيعة ، والتى يهتم بها أو ينظر إليها باعتبارها مستقلة عن الكل التى تكون أجزائه ، وذلك هو ما يقوم به المنهج التجريبى [2] .

فهدف التجربة هو الوصول إلى حالة الاعتماد . وذلك لأنها سؤال لمعرفة بأى الطرق يكون وضع مادي معتمد على آخر ؟ وكيف يتغير عندما يتغير الآخر ؟ فالتجربة تميل لتأسيس العلاقة بين ظاهرتين أو وضعين ، فكلاهما ينبغى تمييزه عن الآخر وعن وضع العالم . وفى ذلك تسوق مثالا يؤدى لإيضاح ما نفكر فيه :

عندما تكون الفازه موضوعة على المنضدة : حينما تتحرك المنضدة تسقط الفازه ، فوضع الفازه يعتمد على وضع المنضدة . وعندما نقول ذلك

(1) Osterberg , Ibid., P.17.
(2) Osterberg , Dag., Ibid., P.50.

بصدد تحديد حالات اعتماد الفازه ، نعنى بذلــك علاقتــها بــالمنضدة . وإذا أمسكنا بالفازه عند تحريك المنضدة فإنها لا تسقط لأنها تكون غير معتمـــدة على المنضدة .

وهذا المثال المطروح يوضح أمرين أولهما : أن كل جــزء فــى حالــة اعتماد على وضع الشيء وثانيهما : إن كل حالة اعتماد قائمة تشير إلــى أن الحالات الأخرى للاعتماد لا تؤخذ فى الاعتبار . ووضعى العلاقة المشـــار إليهما ينظر إليهما باعتبارهما منفصلان عن وضع العالم .

وإذا ما نوقشت حالات الاعتماد بين الظواهر فان ذلــك يشــير لقضيــة السبب فأى تفسير للسبب عن حدوث الظاهرة يشير إلى أنــها تعتمــد علــى ظاهرة أخرى أو أكثر . وعندما يكون المنهج العلمى الطبيعى تجريبياً فـــإن سماته الأساسية تتمثل فى رغبته لإيجاد بأى الطرق تعتمـــد أجــزاء علــى أخــرى . وهو بذلك يتناول حالة الاعتماد ، ولا الانتظام فى العلاقـــة بيــن ظاهرتين . ونفس الشيء يبدو حدوثه فى نفس الموقف . لـــهذا فإنــه مــن الضرورى معرفة إذا ما كان الموقف هو نفس الموقف السابق أم لا ، علــى أن يتم تعيينه بواسطة القياس . وذلك لان الموقفين المتماثلين ينتجــان نفــس التأثيرات .

والمنهج التجريبي بذلك تحليلى لأنه يفرد الأجزاء التى يشــتمل عليهـــا الكل [1]. وذلك لمعرفة الأحوال الداخلية . المتعلقة بظواهر الواقـــع وتوفــير المعرفة العلمية حولها . وبذلك فان البناء المنطقى للعلم الطبيعى ينهض على أساس نظرى ومنهجى . يتسق إلى حد كبير مع البناء المنطقى لنسق التفكـير العلمى . وهو فى ذلك يتخذ من نسق التفكير العلمى إطاره المرجعى الـــذى يحكم البناء النظرى لنماذج العلم الطبيعى (علم الطبيعة ، علم الفلــك ، علــم البيولوجيا ، علم الجيولوجيا .. الخ) .

---

(1) Osterberg , op.cit., P.57.

ومن ثم ولكون نسق التفكير العلمى إطاراً مرجعياً للعلم الطبيعي ، فذلك يشير إلى أن البناء المنطقى للعلم الطبيعي يستند إلى نسق نظرى فى ايضاح الرؤيا بطبيعة الوقائع الطبيعية ، وتفسيرها . كما انه يستند أيضاً لبناء منهجي يتخذ منه أساسه فى تناول الظاهرة ومعالجتها على أساس علمى .

ونظراً لأن طبيعة الظاهرة التى يعالجها العلم الطبيعي تتسم بالشيئية وتخضع للإدراك الامبيريقى المباشر . فقد ساعدت معالجتها فى سياق مختلف العلوم الطبيعية على بلورة البناء المنطقى للتفكير العلمى . وذلك لأنها تساعد على تحقيق المباشرة العلمية بين الباحث وموضوع بحثه ، نتيجة لقابليتها للإدراك الامبيريقى المباشر من قبل الباحث . فى الوقت الذى ليس بينها وبين الباحث مباشرة ذاتية تؤثر على تناولها ، وتفسيره لها . وقد ساعد ذلك على وجود اتفاق واضح بين العلماء على المفاهيم المستخدمة ، وبالتالى على تحقيق الاتصال العلمى بينهم .

ومن ثم ساعد ذلك على وجود اتفاق بين العلماء على النموذج التفسيرى للعلم الطبيعي . الأمر الذى ساعد على توفير نموذج تفسيرى عام يساعد على إيضاح الرؤيا بأبعاد الوقائع ، ويخضع لمعايير موضوعية مقاسة وقابلة للتحقق الامبيريقى ، ويشكل أساساً إرشادياً للباحثين عند تناول الظاهرة الطبيعية .

ومن ثم لايعانى العلم الطبيعى من مشكلة تعدد النماذج التفسيرية العامة كما هو الحال بالنسبة للعلم الاجتماعى الذى تتحكم فى تحديد نماذجه التفسيرية وجهة نظر الفاعل فى اختياره ، وفهمهم للظاهرة .

ومن أمثلة تلك النماذج النظرية العامة فى العلوم الطبية "النموذج الجرثومى " الذى ينهض على أساس أن الأمراض تسببها الجراثيم . والذى تفسر فى ضوئه الأمراض الوبائية والأمراض الجلدية والدرن .. الخ .

ويمثل نموذج " الموجة الضوئية " فى علم الطبيعة مثالاً آخر للنماذج

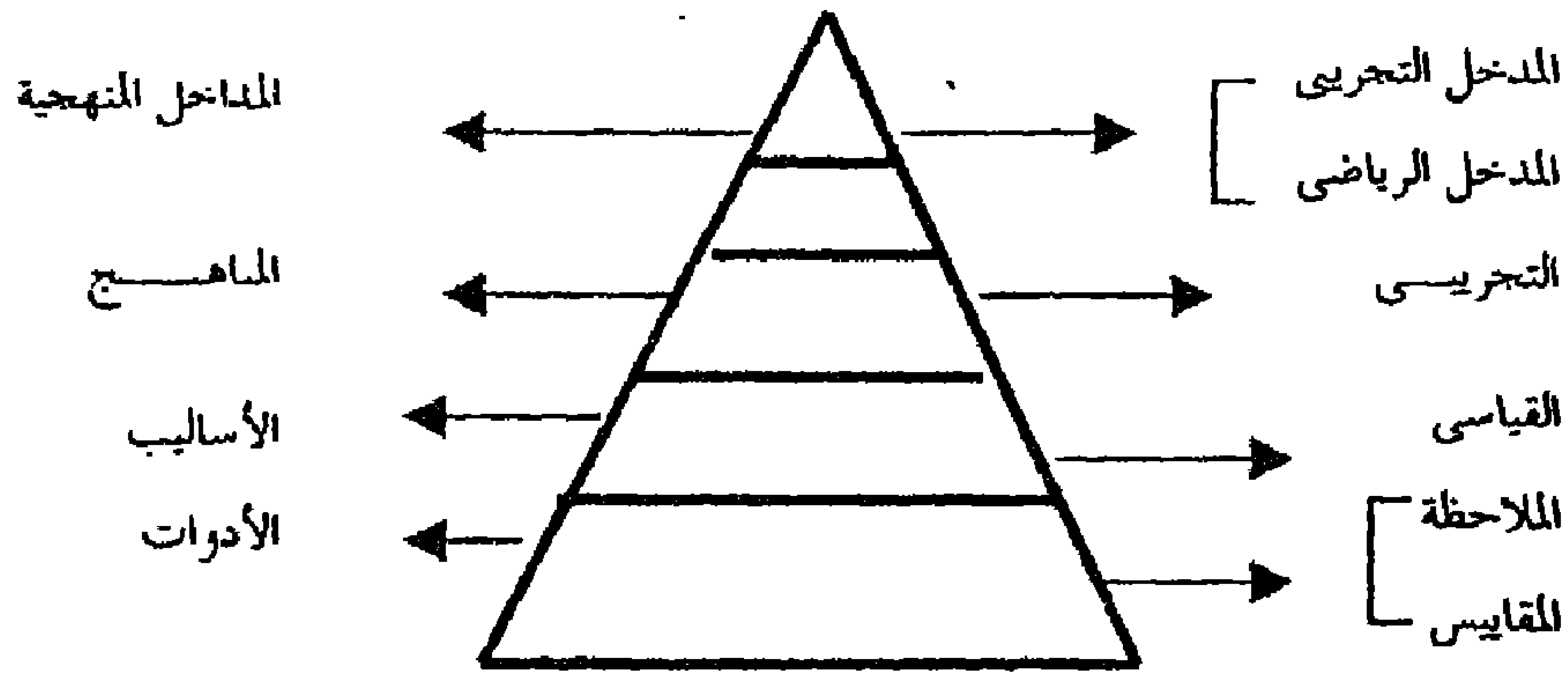
التفسيرية العامة بالإضافة لنموذج النسبية وما يرتبط به من نظريات تختص بتفسير ظواهره ، نسيمه نموذج المجال مثل المكان والخلاء والزمان وحركات الكواكب والشمس والمجموعات النجمية [1] . ونموذج القوة Force في الميكانيكا وهذه النماذج التفسيرية العامة رغم تمتعها بدرجة احتمال عالية إلا أن يقينها ليس من نوع يقين البرهان الهندسى لأن المبادىء والقوانين التى تقوم عليها النماذج لاتثبت بمبادىء يقينية لا يخالجها الشك . كما هو الحال بالنسبة للبرهان الهندسى وإنما إثباتها تحكمه الظواهر الملاحظة والتحقق التجريبي .

ومن ثم فإن هذه النماذج النظرية التفسيرية العامة تتسق مع طبيعة البناء الداخلى للنموذج التفسيرى فى نسق التفكير العلمى ، حيث أنها تتيح الفرصة لاكتشاف الوقائع ، ووصفها ، ثم تفسيرها ، بهدف الوصول الى فهم تلك الوقائع على أساس من الوعى العلمى القائم على المعرفة الامبيريقية ، والذى يساعد العلم على تحقيق هدفه النهائى المتمثل فى التنبؤ بحدوث الظواهر ، والعوامل التى تتحكم فى هذا الحدوث .

وبالنسبة للبناء المنهجى للعلم الطبيعى فهو ذات طبيعة مميزة من حيث مكوناته الاساسية إلا أنه يتخذ نفس الشكل الهرمى الذى يتخذه البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى . ومن ثم يشتمل هذا البناء على مجموعة العناصر التى يشتمل عليها البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى . ولذلك يأتى فى قمة البناء المنهجى للعلم الطبيعى ، المنهجية المتعلقة بالمبادىء التى تحكم عملية معالجة الظواهر وكيفية تناولها لتقديم التفسير العلمى لها ، وهذه المبادىء هى نفسها التى تحكم البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى ، يلى ذلك المداخل المنهجية للعلم الطبيعى ، وهى تتمثل فى المدخل التجريبي والمدخل الرياضى . أما المناهج فهى منحصرة فى المنهج التجريبي ، يلي ذلك

(١) دكتور محمود فهمى زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمى ، الإسكندرية ، دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٥.

الأساليب المنهجية المستخدمة فى العلم الطبيعى والمتمثلة في القياس الذى يتسق مع طبيعة الظاهرة ثم يلي ذلك الأدوات المنهجية المتمثلة فى الملاحظة والمقاييس التى تحدد المسافة والسرعة .. الخ . وذلك ما يوضحه الشكل التالي .



وبذلك تجد ان عناصر البناء المنهجى للعلم الطبيعى ذات طبيعة موضوعية ، تمليها طبيعة الظاهرة الطبيعية . حيث لا تتدخل الجوانب الذاتية فى تناولها ، وتفسيرها ، وانما تخضع فى ذلك لمعايير مقننة ، ومتفق عليها .

كما وان مكونات البناء المنهجى للعلوم (النظم الفرعية للعلم الطبيعى) اقل اختلافا عنها بالنسبة للمكونات المنهجية للنظم الفرعية للعلم الاجتماعى [1] .

٢- العلم الاجتماعي والمنظور العلمى :

ان تحليل البناء المنطقى للعلم الاجتماعى ، ينهض على أساس إيضاح حدود استخدام المنهج والنظرية ، في جميع مراحل محاولتنا لفهم العالم من المنظور العلمي . وذلك لمعرفة المبادىء الأساسية التى تحكم المنظور العلمى عامة ومنظور العلم الاجتماعى خاصة ، والتى تحدد استخدامنا للنظرية والمنهج فى مراحل فهم العالم . وهذا ما نشير إليه بالمنهجية .

وما يشير إليه تصورنا المنهجى لتناول الظاهرة ومعالجتها يدخل ضمن

---

(1) Runder , Richard S., Philosophy of Social Science , N.Y. Prentice Hall , Inc.,1966. P.3.

نطاق المدخل المنهجى . أما الأساليب والأدوات التى يستعان بها فى تناول الواقع ، وجمع البيانات حول العالم المحيط بنا فهى تشير للمنهج Method . والذى يعتبر تجسيدا للتصور المنهجى للتناول (المدخل) فى دراسة الظاهرة وتطبيق المدخل لمعالجتها ، فى حين أن مصطلح المنهجية Methodology يشير لمنطق تطبيق مبادىء المنظور العلمى لدراسة الحوادث .

وبذلك لا ينظر للمنهجية باعتبارها نتاجا للبحث العلمى . ولكن باعتبارها كل من العملية التى يتولد بواسطتها هذا النتاج ، والخطوات التى تشير لربط النظرية بالبحث الامبيريقي فى تحصيل المعرفة [1] ومدى اتساق الإجراءات المنهجية مع طبيعة الظواهر . وبذلك فان فهم المنهجية يساعدنا على إدراك كيفية تحصيل المعرفة . وان كانت كل من النظرية والمنهجية داخلة فى جميع الخطوات التى نحاول بها فهم العالم . وان المنهجية ترتبط بمنطق تطبيق مبادىء المنظور العلمى لدراسة الحوادث . فان تحليلنا للبناء المنهجى للعلم الاجتماعى يقتضى منطقيا ان نبدأ بتحديد المبادىء الاساسية للمنظور العلمى .

ويعرف المنظور Perspective بمجموعة الرموز أو المفاهيم التى يستخدمها الإنسان للاختيار من بين الجوانب الملاحظة لموضوع أو حادثة ما . وبذلك فإن المنظور يسمح لنا باختيار مدركاتنا وتنظيمها وتوجيه أفعالنا . وبالنسبة للعلم فيمكن النظر إليه باعتباره الرؤية التى تحدد مدخل المعالجة وتناول الظواهر. وإذا تناولنا العلم كعملية وباعتباره المنهج الذى نحاول به فهم العالم المحيط بنا ، فإن المنظور العلمى Scientific Perspective يعرف هنا ، وبصورة عامة على نحو ما ذهب "روبرت برستيد" : بأنه رؤية المدخل وطريقته لبحث أى ظاهرة كانت .

---

(1) Fitzgerald, Jack D. and Cox , Steven M., Unreveling Social Science , Chicago, Rand McNally College Publishing Company , 1975. PP.15-17.

وهنا يكون العلم متضمنا بصورة مبدئية لاتجاه عقلى ، واتجاه للتمييز ، على أساس التطابق مع المبادىء المتعددة التى تشكل المنظور العلمى ، وتحدد معالجته . ومن ثم تعود لمعالجة المبادىء الأساسية المميزة للمنظور العلمي لكى نقيس عليها المنظور العلمى لعلم الاجتماع الفينومينولجى ، وبناؤه النظرى والمنهجى ، وفلسفة العلم الاجتماعى التى توجه هذا البناء وتتحكم فيه .

(أ) مبادىء المنظور العلمي :

فى ضوء التحليل السابق للبناء المنطقى لنسق التفكير العلمى ، والمبادىء التى تحكمه على مستوى الاستدلال والمعرفة ، وصياغة المفهوم ، والجانب الأخلاقى . اتضح ان المنظور العلمى تحكمه مبادىء أساسية تتمثل فى : النزعة التجريبية ، والموضوعية ، والنسبية ، والحيادية الأخلاقية ، والانحصار أو عدم التوزع فى التفسير [1] ، والشكية . ويتمثل المبدأ الأول فى النزعة التجريبية Empiricism . ويتطلب هذا المبدأ من العالم أن يعتمد فى اختباره للنظرية ، والفروض وتنميتها على ملاحظة الأحداث التى يدرسها عملياً قدر الإمكان . وهنا فان العالم يقارن تفسيراته للنظرية بملاحظاته للحوادث التى يدرسها ويرفض ، أو يعدل هذه التفسيرات أو النظريات التى تتعارض مع الواقع الملاحظ .

وبالنسبة لمبدأ الموضوعية objectivity فانه يشير إلى أن العالم يحاول بوعى التأكد من أن النتائج التى وصل إليها تستند إلى الملاحظة والبحث أكثر منها على تقديراته الشخصية الأولية ، وطالما أن التوجيهات الذاتية لا يمكن استبعادها تماما ، فإن على العالم أن يهتم بها بوجه خاص لكى يكون واعياً بها ومسيطراً عليها . وربما يكون الوصول للموضوعية مسألة صعبة فى العلوم الاجتماعية أكثر منها فى العلوم الطبيعية ، وذلك لأن العالم الاجتماعى

---

(1) Fitzgerald , Jack D.& Cox , Steven M. Unreveling Social Science , Chicago : Rand McNally College Publishing Company , 1975. PP. 7-8.

يتفاعل مع موضوعه ، وهو الكائنات البشرية بطريقة ما ، وأخذ هذا التفاعل فى الاعتبار يعد تحقيقاً للموضوعية فى العلوم الاجتماعية . فى حين ان عالم الطبيعة أو الكيمياء لا يتفاعل مع موضوعه . ومن ثم فإن على العالم الاجتماعى أن يهتم بتحديد تحيزاته بالإضافة لأهمية وعيه بها . وذلك محاولة منه للوصول للموضوعية قدر الإمكان .

أما المبدأ الثالث للمنظور العلمى فيتمثل فى النسبية (Relativism) ويؤكد هذا المبدأ ببساطة على أن العالم لا يعتبر نتائجه دائمة وعامة وصادقة بصورة مطلقة . بل على العكس من ذلك يتحقق من أن نتائجه تجريبية . وطبقاً لاكتشافاته لتلك الحالة فأنه يرفض النتائج السابقة أو يعدل عباراته وذلك طبقاً لمعطياته . وعلى أساس ذلك نتأكد أهمية المبدأ الرابع للمنظور العلمى والمتمثل فى نزعة الشك Skepticism ويتضمن هذا المبدأ ان يكون لدى العالم الرغبة فى التساؤل عن كل شىء وأن يشخص ما وراء الأمور محاولة منه لتحديد مدى صدق المجادلة (المناقشة) أو النتيجة .

ويتمثل المبدأ الخامس فى الحياد الأخلاقى Ethical Neutrality وهو أيضاً سمة أخرى للمنظور العلمى . حيث أن العالم فى أدائه لدوره لا يأخذ الجوانب المتعلقة بالدلالة الأخلاقية أو المعيارية للقضايا . وكمهنى لا يهتم بما هو صواب أو خطأ ، أو خير أو شر ، ولكنه يهتم فقط بما يكون حقيقي أو غير حقيقي .

ويتمثل المبدأ السادس والأخير فى الاقتصاد العلمى Parsimony وتحديد التفسير بمعنى أنه يحقق الاختصار فى التفسير . وذلك يشير إلى أن العالم يحاول تقليل التفسيرات الممكنة العديدة لظاهرة معينة إلى عدد بسيط قابل للإنجاز . وفى حالة العالم الاجتماعى فان ذلك يعنى مثالياً تطوير أساس تفسيرى واحد للسلوك البشرى .

ثم تأتى وحدة الانبثاق النظرى المنهجى للمنظور واتساقه للمنظورات مع

طبيعة الظواهر لتشكل مبدأ سابعاً يرتبط بأسباب تناول الظواهر وتفسيرها علمياً .

ب- فلسفة العلم الاجتماعى :

إن الحديث عن فلسفة العلم الاجتماعى يتمايز عن الحديث عن فلسفة النظم العلمية المرتبطة بالعلم الاجتماعى . ويقابل الحديث عن فلسفة العلم الاجتماعى الحديث عن فلسفة العلم الطبيعى . أما الحديث عن النظم العلمية الفرعية فينطوى تحتها الحديث عن فلسفة علم الفيزياء ، وفلسفة علم البيولوجيا . وهذا التصنيف الفرعى يقابله الحديث عن فلسفة النظم العلمية الاجتماعية مثل فلسفة علم النفس ، وفلسفة التاريخ ، وفلسفة الاقتصاد ، وفلسفة علم الاجتماع . وحديثنا عن فلسفة العلم الاجتماعى هنا لا يتخذ من النظم العلمية الفرعية أساساً له . كما أن معالجتنا لفلسفة العلم الاجتماعى تختلف عن معالجة الفلسفة الاجتماعية Social Philosophy فالفلسفة الاجتماعية مثل النظام المرتبط بها وهو تاريخ الفكر الاجتماعى تهتم بوجهات النظر المختلفة ، حول الطبيعة المرغوبة للنظم الاجتماعية ، أو المجتمعات . وبذلك تدخل الأيديولوجيات السياسية ضمن نطاق اهتمامات الفلاسفة الاجتماعيين . وقد ساق "بيجنيه" Pegging تميزه بين الفلسفة الاجتماعية ، وفلسفة العلم الاجتماعى على أساس أن الأولى ذات طابع معيارى Normative . فى حين أن الثانية تتسم بالحيادية الأخلاقية . وعلى أساس مصطلح المعيارى واللامعيارية يمكن التمييز بين الفلسفة الاجتماعية . وفلسفة العلم الاجتماعى ، على أساس ان الفلسفة الاجتماعية ترتبط برؤيات معينة حول طبيعة المجتمع . فى حين أن فلسفة العلم الاجتماعى ترتبط فى الجانب الآخر بالجانب المنهجى . وبذلك فإن فيلسوف العلم الاجتماعى يهتم بالجانب المتعلق بمنطق صياغة اى نظرية فى العلم الاجتماعى ، وتبرير أى نظرية للعلم

الاجتماعى . وبذلك يهتم بقابلية الاختبار العلمى لبعض النظريات [1] .

ومن ثم فإن اهتمام فلسفة العلم الاجتماعى ينحصر فى تلك الجوانب المنهجية المتعلقة بصياغة النظرية ، وقابليتها للاختبار ، وتبريرها. وقد شاع فى الحقبات الأخيرة استخدام مصطلح العلم السلوكى Behavioral Science وقد أحرز استخدام هذا المصطلح تقدما ملموسا على استخدام مصطلح العلم الاجتماعى وخاصة بين هؤلاء الذين يرغبون فى استبعاد مصطلح اجتماعى ، فى الوقت الذى يهتمون فيه بعلم النفس . وذلك لأنهم يرون أن استخدام مصطلح العلم السلوكى يصاهر بين النظام الاجتماعى ، والنظام السيكولوجى. فى حين أن استخدام مصطلح العلم الاجتماعى قد يساء فهمه بهذا الخصوص.

ومن ثم فإن استخدام مصطلح العلم السلوكى قد حقق تقدماً بهذا الخصوص . وعليه فقد حل محل مصطلح العلم الاجتماعى [2] . وقد اقتضى ذلك إعادة تعريف " السلوك " باعتباره الظاهرة التى يهتم بدراستها علماء النفس والعلماء الاجتماعيون . ومن ثم فإن علينا عندما نستخدم هذا المصطلح ان نناقش بعض الجوانب الاصطلاحية ، وخاصة ما يتعلق بالتميز بين المنهجية ، ومكونات البناء المنهجى ، والاكتشاف والصدق أو التبرير ، والعلم كعملية وكنتاج .

ويندرج تحديدنا لهذه الجوانب فى نطاق تحليلنا للجوانب الابستيمولوجية المتعلقة بنظرية المعرفة ، والجوانب الأخلاقية المتعلقة بالتقويم .

(جـ) المنظور العلمى للعلم الاجتماعى :

يشكل المنظور العلمى لنسق التفكير العلمى المنطلق المنطقى لأى نظام علمى سواء كان ذلك بالنسبة للعلم الطبيعى ونظمه الفرعية ، أو بالنسبة للعلم

---

(1) Runder , Richard S. Philosophy of Social Science , Englewood Cliffs , N.Y.: prentice Hall , Inc. 1966. P.3.
(2) Runder , Richard S., Ibid., P.4.

الاجتماعى ونظمه الفرعية . وان كانت طبيعية الظاهرة التى يعالجها العلم الطبيعى ونظمه الفرعية تساعد على اتخاذ المنظور العلمى لنسق التفكير العلمى أساساً لها فذلك يرجع لقابلية المبادىء التى تحكم المنظور العلمى للتحقق بدرجة كبيرة ، الأمر الذى يجعل الأساس المنطقى لهذه النظم مستندا بشكل مباشر للمنظور العلمى . وقد وفر ذلك كثيراً بالنسبة للعلم الطبيعى ونظمه الفرعية . حيث أن حاجتنا لأن تعمل من اجل تنمية ذاتها منهجيا ونظريا بما يوفر هذه المبادىء ويحققها محدودة . ومن ثم انصرفت هذه العلوم نحو وظيفتها العامة . وذلك ما جعلها تحقق مزيداً من التقدم فى مجال بحث الظاهرة الطبيعية وفهمها ، وصياغة القوانين العامة والثابتة ، التى تتحكم فى هذه الظواهر. وتحدد حدوثها ، والعوامل التى تؤثر على هذا الحدوث .

فى حين أن طبيعة الظاهرة التى يهتم بها العلم الاجتماعى وما تتسم به من تجريدات ، قد طرحت أمام هذا العلم ونظمه الفرعية العديد من التحديات، المتعلقة بالمبادىء الأساسية التى تحكم المنظور العلمى . وذلك ما جعل العلم الاجتماعى ، ونظمه الفرعية ، تعمل على محورين أساسيين يتمثل أولهما فى محاولتها لفهم الظاهرة الاجتماعية علميا ، وتنمية المفاهيم والفروض والنظريات ، التى تساعد على فهم الظاهرة ، وتحديد مظاهر حدوثها ، والعوامل التى تتحكم فى هذا الحدوث شأنها فى ذلك شأن العلم الطبيعى ونظمه الفرعية . ويتمثل المحور الثانى فى محاولة العلم الاجتماعى ونظمه الفرعية الدائمة لتنمية نفسها منهجيا ونظريا بما يجعلها متسقة مع منطق المنظور العلمى ، ومحققة لمبادئه فى تناولها للظاهرة ومعالجتها .

ولا يعنى ذلك قصور النظام العلمى للعلم الاجتماعى ونظمه الفرعية عن النظام العلمى للعلم الطبيعى ونظمه . بل إن ذلك يؤكد الكفاءة العلمية للنظام العلمى للعلم الاجتماعى ونظمه فى تناوله للظاهرة الاجتماعية ذات الطابع التجريدى ومحاولة فهمها والسعى لتنمية نفسه ، بما يجعله متسقا منطقيا مع

المنظور العلمى ومبادئه فى دراسته ، ومحاولته لفهم تلك الظاهرة .

وذلك ما جعل العلم الاجتماعى ونظمه الفرعية يصاهر بين منظورات الاتجاهات المختلفة لفهم الظاهرة الاجتماعية وتناولها ، رغم تفاوت هذه الاتجاهات من حيث الأبعاد التى تتناولها ، والإجراءات المنهجية التى تستند إليها فى تناول تلك الأبعاد . مثال ذلك : النموذج العلمى للوظيفية ، والنموذج العلمى للاتجاه القياسي ، والنموذج العلمى للاتجاه التحليلي ، والتى تؤكد على التناول الموضوعى فى جانب باستنادها لإجراءات منهجية موضوعية . والنموذج العلمى للتفاعلية الرمزية والنموذج العلمى للتبادلية الاجتماعية والنموذج العلمى لنظرية الدور وتأكيدها على الجانب الذاتى ، والإجراءات المنهجية الذاتية فى تناول الظاهرة الاجتماعية إضافة إلى الاهتمام المتزايد اليوم بالنموذج العلمى الفينومينولوجى الوجودى الذى ينهض على مبادىء نظرية ومنهجية متكاملة ومتسقة إضافة إلى اتساقه مع الواقع الاجتماعى بجانبيه الذاتى والموضوعى .

ولا يعنى ذلك وجود تناقض بين وحدات النسق العلمى للعلم الاجتماعى ونظمه ، لان اتخاذه لهذه المنظورات لا يتم فرادا بل ينهض على أساس تكامل الأبعاد والإجراءات التى يستند إليها كل من تلك المنظورات ، بما يجعله قادراً على تناول أبعاد الظاهرة الاجتماعية ، والسيطرة عليها ومعالجتها امبيريقيا .

فإذا كان منظور الاتجاه النفسى الاجتماعى يؤكد على تنظيم جوانب معينة للسلوك البشرى بطريقة مفيدة مثل : الفاعل ، والذات ، ومفهوم الذات ، والآخر ، وأخذ دور الأخ ، وتعريف الموقف والرمز ، وخط الفعل ، والتفاعل . مستندا فى ذلك لفرضيات معينة توجه تناوله للظاهرة الاجتماعية ، والتى تشير إلى أن التعليم ميكانيزم مبدئى لتكيف الإنسان مع بيئته ، وأن الاختلاف ذات الدلالة بين البشر والمخلوقات الأخرى يتمثل فى الوسائل التى تحقق بها الاتصال . والمتمثلة فى اللغة ، اللغة كنسق رمزى ،

والاتفاق المتبادل والاتصال ذات الدلالة أو المعنى . فعندما يستخدم شخص الرمز للاتصال بالشخص الآخر ، فإن الرمز يعنى نفس الشيء فى النهاية بالنسبة للمتحدث والمستمع . ومن ثم فان الناس يبتكرون الرموز الجديدة للإشارة لمختلف الجوانب الجديدة فى بيئتها وبهذا المعنى فان اللغة البشرية نسق مفتوح . فى حين أن انساق الاتصال بالنسبة لكائنات غير البشرية مغلقة بهذا المعنى (1) .

وبذلك فإن المنظور العلمى للتفاعلية الرمزية يؤكد على الجوانب الذاتية المتعلقة بالتفاعل وانساق الأفعال بين الناس . فى حين أن المنظور العلمى للوظيفية يؤكد على الجوانب الموضوعية المتعلقة بالعناصر البنائية للنسق ، والعمليات الحادثة بداخله ، ونمو النسق وتطوره . وبذلك فان النموذجين يكملان بعضها فى تناول أبعاد الظاهرة الاجتماعية . ومن ثم تؤكد الوضعية على تناول الجوانب التى تحقق التكامل بين تلك الأبعاد من خلال تأكيدها على دراسة السلوك وتكميم الظاهرة الاجتماعية ، والتعريفات الإجرائية . والتى تساعد بدورها على قياس الظاهرة الاجتماعية من منظور الاتجاه القياسي الذى يؤكد على التناول الإسمى ، والتناول الترتيبى ، والتناول الفاصلى ، والتناول النسبى لأبعاد الظاهرة . وهى الجوانب التى تتسق مع منطق المنظور العلمى للاتجاه التحليلى الذى يؤكد على تطور منظورات التحليل لصياغة المنظور العلمى الذى يساعد على فهم الحوادث والأنماط العامة ، والعلاقات . بما يساعد على وصفها ، وتفسيرها من منطلق المنظور العلمى ومبادئه . وقد مهد ذلك للأخذ بالمنظور الفينومينولوجى الوجودى لعلم الاجتماع خاصة والعلوم الاجتماعية عامة .

وفى ضوء ذلك نتناول بعض الجوانب المتعلقة بعمل العلم الاجتماعى ونظمه لتنمية نفسه ، بما يجعله متسقا مع المنظور العلمى ومبادئه . وبما يساعد على فهم الظاهرة الاجتماعية .

---

(1) Fitzgerald & Cox , op. cit., PP.12-13.

وتتمثل اولى الجوانب المتعلقة بالعلم الاجتماعى فى تحديد الوضع المنهجى للعلم الاجتماعى . ويسوقنا ذلك للرد على الادعاء الذى طرح فى الماضى والمتعلق بان العلوم الاجتماعية تختلف عن العلوم الأخرى اختلافا جوهريا لأنها تتطلب منهجية مختلفة كليا عن تلك المنهجية التى تتطلبها العلوم الأخرى . والواقع أن صانعى هذا الادعاء قد فعلوا ذلك لسببين يتمثل أولهما فى غياب المنظور النظرى والمنهجى العام للعلوم الاجتماعية ، والثانى نتيجة للبلبلة والتشتت الحادث بين المنهجية والإجراءات [1] لقياس المظلة النظرية والمنهجية للعلوم الاجتماعية .

فالمنهجية تشير فى أساسها لمجموعة المبادىء الأساسية التى تحكم المنظور العلمى ، وصياغة النظرية وقابليتها للتحقق على أساس الربط بينها وبين الواقع . أما الإجراءات المنهجية فتبدأ من تحديد المدخل المنهجى ، وهو التصور المنهجى لمعالجة الظاهرة وتناولها امبيريقيا ، مرورا بالمناهج والأساليب حتى الأدوات المنهجية المستخدمة ، فإنها تتعلق بكيفية تناول الظاهرة ومعالجتها امبيريقيا ، ومن ثم فإن الاختلاف بين العلوم من حيث المنهجية أو استخدام المنهج العلمى محدود لدرجة كبيرة . وتحكمه طبيعة الظاهرة . فى حين أن الإجراءات المنهجية المستخدمة تختلف نوعيا بين العلوم الاجتماعية ، والعلوم الطبيعية . وهذا الاختلاف مشروع ووارد لتحقيق اللياقة المنهجية بين الإجراءات المنهجية المستخدمة ، وموضوع الدراسة .

والواقع إن الاعتراف بأن مختلف النظم العلمية تستخدم إجراءات منهجية مختلفة للبحث لا يعنى الاعتراف بأى شىء يتعلق بطبيعة العلم الاجتماعى . فالاختلاف بين الإجراءات المنهجية المستخدمة فى العلم الاجتماعى ، والعلم الطبيعى ، ليس اكثر من الاختلاف القائم بين الإجراءات المنهجية المستخدمة بين العلوم الطبيعية ذاتها فى الوقت الذى نجد فيه ان جميع العلوم تتسم

---

(1) Runder , Richard S., Op. cit., P.5.

بمنطق عام للتبرير ، لقبول أو رفض الفروض أو النظريات [1] .

ويتمثل الجانب الثانى المتعلق بالمنظور العلمى للعلم الاجتماعى ونظمه الفرعية فى قرينة الاكتشاف ، وقرينة الصدق . فالادعاء بأن العلم الاجتماعى يتميز منهجيا عن العلوم الأخرى يقع في مجال الاهتمام الفلسفى ، ويسمى بقرينة الصدق أو قرينة التبرير . وعلى النقيض من ذلك مجال البحث الامبيريقى الذى يسمى بقرينة الاكتشاف . وإذا ما كنا بصدد قضية الادعاءات ، فإننا نتناول جدل منطق البحث أو المنهج ، أكثر من تناول التكنيكات . وهذا الاهتمام بالمشكلات المتعلقة بالمنهجية أو منطق البحث العلمى تنتمى بدورها لسياق الصدق .

والواقع أن منطق الاكتشاف وما يرتبط به من صدق وتفسير وتنبؤ يشير إلى قابلية المنهج العلمى للتطبيق فى مجال البحث الاجتماعى ، ودراسة المجتمع ، وظواهره ، بمثل قابليته للتطبيق فى دراسة الظواهر الأخرى الطبيعية ، وأن معطياته فى مجال البحث الاجتماعى تتمتع بالصدق بقدر ما يتوفر لها من معالجة منهجية دقيقة ، توفر له اللياقة المنهجية بين الموضوع والإجراء المتبع فى دراسته ، مع الحفاظ على منطق وحدة المنهج العلمى .

وبصورة عامة فان سياق الصدق هو السياق الذى نهتم به عندما يكون الاهتمام أقل بكيفية الاكتشاف أو الوصول إلى الفروض العلمية أو النظرية . حيث تبرز الأسئلة حول قبولها أو رفضها . وبالنسبة لمستوى الاكتشاف فى الجانب الأخر تنتمى هذه الأسئلة إلى كيفية ، أو ماهية الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التى تؤدى للتفكير فى الفروض المثمرة . وباختصار : فإن القضايا أو التساؤلات الملائمة لسياق الاكتشاف هى الأسئلة فى العلوم الاجتماعية . وهى الأسئلة التى يجيب عليها علم الاجتماع أو علم النفس من حيث تاريخ العلم اكثر من فلسفة العلم [2].

---

(1) Runder , Richard ., Ibid , P.5.
(2) Runder , Richard ., Ibid , P.5.

أما الجانب الثالث المتعلق بالعلم الاجتماعى من حيث التحديات التى تواجهه فيتمثل فى العلم كعملية والعلم كنتاج معرفى لعملية اكتشاف الوقائع وتفسيرها والواقع ان التميز بين المصطلحين على درجة كبيرة من الأهمية . لتحديد القطاع أو المجال الذى يعمل فيه العالم . إذ ان لكل مجال أسسه وأطره وأبعاده التى يرتادها ، وذلك لأن مصطلح العملية Process يشير إلى أنشطة وأعمال العلماء أو المؤسسات العلمية ، مثال ذلك التجريب والملاحظة والاستدلال والقراءة ، وتنظيم المشروعات البحثية . الخ . ولكن فى الجانب الأخر يستخدم نفس المصطلح ليشير لنتيجة هذه العمليات والأنشطة . وبإيجاز فان العلم كنتاج يشير للكينونات أو الموجودات اللغوية Linguistic Entities . والعلم كعملية يشير لما وراء الظاهرة اللغوية .

وما يمكن استخلاصه من المناقشة السابقة مبدئياً ، هو أن هناك منهجية واحدة فقط لجميع العلوم الامبيريقية (1). وأنه ليست هناك اختلافات على هذا المستوى بين العلم الاجتماعى ونظمه الفرعية ، وبين العلم الطبيعى ونظمه الفرعية إلا أن ذلك لا ينفى وجود بعض الاختلافات النسبية بين الإجراءات المنهجية التى يستخدمها العلم الاجتماعى ، والعلم الطبيعى . وهذا الاختلاف لايتعدى حدود الاختلافات القائمة بين النظم الفرعية للعلم الطبيعى

من حيث استخدامها للإجراءات المنهجية المتنوعة ، نتيجة لطبيعة الظاهرة التى تقع فى نطاق أى من تلك النظم العلمية الفرعية . غير أن هذه الاختلافات لا تنفى منطق وحدة المنهج العلمى . والذى يمكننا تحقيقه إذا ما أخذنا بالمنظور الفينومينولوجى ومدخله المنهجى كمظلة نظرية ومنهجية للعلوم الاجتماعية .

٣- بناء العلم الاجتماعى :

إن الحديث عن السمات البنائية لنظرية العلم الاجتماعى لا يخرج عن

---

(1)) Groot , Adrian D. Methodology , Paris : Mouton , The Hague , 1969. P.348.

نطاق الحديث عن السمات البنائية للنظريات العلمية (١) . وذلـــك يعنـــى أن التطابق وارد بين البناء النظرى للعلم الاجتماعى والبنـــاء النظـــرى لنســـق التفكير العلمى .

وإذا كان العلم يسعى لتحصيل المعرفة حول العالم ، والوقائع المحيطـــة بنـــا ، فإن كل نظام علمي بذلك يغطى نطاقا معيناً ، ومحدداً من هذا العـــالم ووقائعه (٢) . وإذا كانت الوقائع التى يغطيها العلم الطبيعى ونظمه الفرعيـــة ذات طبيعة عينية مدركة ، فى حين أن الوقائع التى يغطيها العلم الاجتماعى ونظمه الفرعية ذات طبيعة تجريدية لا تدرك بصورة مباشرة ، كما هو الحال بالنسبة للظواهر التى يتناولها العلم الطبيعى ونظمه الفرعيـــة . فـــإن الأداة الأساسية لتلك النظم العلمية فى إدراك الوقائع وفهمها هى النظرية .

وبذلك فان العلم يبدأ بنظرية وينتهى منطقياً بنظرية ، متخذاً فـــى ذلـــك منهجية واحدة فى عملية تحصيل المعرفة ، سواء كانت مصاغة فى نظريـــة مكتملة أو لم تكتمل بعد . ومع ذلك فان مختلف النظم العلميـــة لـــم تحقـــق مستويات متعادلة من حيث صياغتها لتلك النظرية ، وذلك راجـــع لطبيعـــة الظواهر التى تتعامل معها تلك النظم العلمية وعدم وجود المظلـــة النظريـــة والمنهجية الملائمة ، ليس راجع لأى اختلاف فى البنـــاء المنطقـــى للنســـق العلمى لتلك النظم .

ومن ثم فإن تحليلنا للبناء النظرى للعلم الاجتماعى يتسق مع منطق تحليل البناء النظرى لنسق التفكير العلمى . مع إيضاح طبيعة التحديات التى تواجـــه عملية صياغة النظرية فى العلم الاجتماعى ونظمه الفرعية . نتيجة لطبيعـــة الظواهر التى يتعامل معها ، والتى تشكل تجريداتها اولى تلك التحديات التـــى تواجه عملية صياغة النظرية العلمية القابلة للاختبار الامبـــيريقي . كمـــا أن الطبيعة التجريدية للظاهرة الاجتماعية المرتبطة بالعنصر البشرى ، باعتباره

(1) Runder , Richard S., op. cit., P.10.

(2) Groot , Adrian , D. Methodology , Paris: Mouton , The Hague, 1969 . P.1.

الموضوع الاساسى للعلم الاجتماعى ، وباعتباره طرفاً فى عملية البحث ، وإحدى متغيراتها الأساسية ، قد جعلت للجانب الذاتى حضوراً واضحا بجانب العنصر الموضوعى الذى يحققه المنهج العلمى المتبع فى عملية الصياغة .

وبذلك تشكل ثنائية الجانب الذاتى والجانب الموضوعى تحديا أخرا من التحديات التى تواجه عملية صياغة النظرية فى العلم الاجتماعى . ولا يعنى هذا التحدى ان العلم الاجتماعى يسعى لاستبعاد هذه الثنائية بنفى الجانب الذاتى الذى يشكل جوهر موضوعة ومحور اهتمامه . وان ما يشكله هذا التحدى يتمثل فى كيفية استخدام الذاتية والموضوعية دون أن يكون للجانب الذاتى تأثيرا على عملية الصياغة . ودون أن تؤدى المصاهرة والوحدة بينهما إلى تشتت وارتباك فى البناء النظرى للعلم الاجتماعى (١) .وهنا تبرز أهمية النموذج الفينومينولوجى الوجودى للعلوم الاجتماعية .

وهنا تبرز أهمية المنهج العلمى كأداة أساسية للعلم فى عملية صياغة النظرية ، ومواجهة ما تفرضه هذه الثنائية من تحديات تغذيها الخلفية الثقافية للباحث ، والظاهرة ، وطبيعة التوجيهات الايديولوجية ، التى تطبع بصماتها على فكر الباحث واختياراته ، ومجريات تفسيره للمعطيات الامبيريقية حول الظاهرة التى يعالجها .

ويتمثل التحدى الثالث الذى يواجه العلم الاجتماعى فى صياغة النظرية الايضاحية فى تعدد النظريات التى تعكس وجهات نظر مختلفة ، حول طبيعة المجتمعات والأنساق الاجتماعية (٢).

أما التحدى الرابع الذى يواجه عملية صياغة النظرية الايضاحية للعلم الاجتماعى . فيتمثل فى تعدد التصورات الاجتماعية لتناول الظواهر على مستوى النظم الفرعية للعلم الاجتماعى .

---

(1) Osterberg , Dag. Meta Sociology Essay , Pittsburg , Duquesne University Press , 1976.

(2) Runder , Richard S., op.cit., PP.2-10.

ومع ذلك فان هذه التحديات التى تواجه العلم الاجتماعى فى صياغة النظريات التفسيرية لا تبطل عملية الصياغة النظرية . ولا تنفى قابلية البناء النظرى لنسق التفكير العلمى للتحقق ، على مستوى العلم الاجتماعى ، ونظمه الفرعية .

أما بالنسبة للبناء المنهجى للعلم الاجتماعى فهو يتسق فى منطقه مع منطق البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى من حيث المنهجية ، وما تنهض عليه من مبادىء تحكم عملية صياغة النظرية واختبار قابليتها للتحقق وصدقها . بربطها بالواقع شأنه فى ذلك شأن العلم الطبيعى ، ويتسق أيضا من حيث تتابع المكونات البنائية الاخرى بدءا بالمداخل المنهجية مرورا بالمناهج والأساليب حتى الأدوات ، مع منطق التتابع المشار إليه بالنسبة لتتابع المكونات المنهجية لنسق التفكير العلمى . إلا أن طبيعة الظواهر التى يعالجها العلم الاجتماعى ونظمه الفرعية تقتضى إدراك بعض المناهج والأساليب ، والأدوات بما يحقق اللياقة المنهجية بين الإجراء المنهجى وطبيعة الظواهر التى يعالجها . وذلك مايحققه الاستناد إلى الأساس المنهجى والنظرى للمنظور الفينومينولوجى الوجودى بالإضافة إلى المداخل والمناهج والأساليب والأدوات الموضوعية التى يستند إليها ويشتمل عليها البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى .

ومن ثم فإن الحديث عن عملية العلم الاجتماعى ، ونظمه الفرعية لا يكون بالرجوع إلى البناء المنطقى للعلم الطبيعى ونظمه الفرعية . وإنما يكون بالرجوع للبناء المنطقى لنسق التفكير العلمى الذى يشكل الإطار المرجعى لكل من العلم الطبيعى ونظمه الفرعية والعلم الاجتماعى ونظمه الفرعية .إضافة إلى الرجوع إلى الاطار النظرى العام المتمثل فى المنظور الفينومينولوجى للعلوم الاجتماعية .

ونظرا لطبيعة الظواهر المتمايزة على مستوى العلم الطبيعى ونظمه الفرعية . والعلم الاجتماعى ونظمه الفرعية ، فإن معالجة البناء المنطقى لأى

من النظم الفرعية لكل من العلم الطبيعى ، والعلم الاجتماعى يستند إلى طبيعة التصور الذى يستند إليه كل من تلك النظم العملية فى تناول الظاهرة الواقعة فى مجال عمله . وتفسيرها والتنبؤ بها . وليس بالرجوع للبناء النظرى والمنهجى . إذ أن كون أى من تلك النظم تشكل نسقاً علمياً فهى تستند منطقياً للإطار المرجعى لنسق التفكير العلمى والذى ينهض على بناء منهجى ونظرى محدد يميز منظوره العلمى ، وتحكمه مبادىء المنظور العلمى لنسق التفكير العلمى .

وبالاستناد فى تحديد النسق العلمى للعلم الاجتماعى والعلم الطبيعى إلى نسق التفكير العلمى نكون بصدد نظم علمية لها إطارها النظرى وأساسها المنهجى ، إضافة إلى الموضوع الذى تتناوله وبذلك يكون علم الاجتماع التجريبي واحداً من العلوم الاجتماعية التى تتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعاً لها وتستند فى تناولها لتلك الظواهر للأساس النظرى والمنهجى للمنظور الفينومينولوجى لنسق التفكير العلمى والذى ينهض بصورة أساسية على التجريب الفينومينولوجى ، وذلك لتوفير إطاراً معرفياً متراكماً لتفسير الظواهر الاجتماعية .

وبالتالي تحقيق التقدم للعلم .

رابعاً :الاتساق بين علم الاجتماع التجريبي ونسق التفكير العلمى :

منذ البدايات المبكرة لعلم الاجتماع التطبيقى عند ابن خلدون مروراً ببداية هذا العلم لدى مفكرى اوربا " اوجست كونت "و " دوركايم وماكس فيبر" وحتى الوضع الراهن لعلم الاجتماع التطبيقى بعد وضوح الاستراتيجية المنهجية للاتجاهات النظرية المتمثلة فى البنائية الوظيفية والصراعية المحدثة والنفسية الاجتماعية والوضعية المحدثة والاتجاه القياسي والاتجاه التحليلي والاتجاه الفينومينولوجى والتأكيد واضح على التجريب والاستقراء كأساس لتوفير المعرفة حول المجتمع وظواهره .

وذلك ما يجعلنا نشير إلى أن الاتجاهات النظرية الكلاسيكية والمعاصرة لم تعارض مطلقاً الاتجاه العلمى وإنما هى تؤكد بصورة او بأخرى على ضرورة الاتساق مع مبادىء المنظور العملي والعمل بموجبها فى توفير المعرفة حول الظواهر الاجتماعية . مع استخدام الاجراء المنهجى الملائم للظاهرة الاجتماعية ، هذا إضافة إلى التأكيد على الموضوعية كأساس منهجى لاستخدام التجريب التاريخي والمقنن والشخصى والفينومينولوجى فى معالجة ظواهر الواقع الاجتماعى .

وما حدث من انعطاف فكرى فى فهم الاتجاهات النظرية الكلاسيكية إنما يرجع لاختلاف الهدف من تحليلها لدى المنظرين من ناحية ، وعدم الرغبة للتصدى لمثل تلك القضايا الصعبة تحسباً لاحتمالات الرفض ممن احتوتهم تلك الاتجاهات الفكرية ، وطقوسية النصوص المستوعبة لديهم ، وما يستتبع ذلك من شعورهم بالخطر الذى يهز الأساس الذى بنوا عليه وضعهم الاكاديمى ويخشون عليه من أى تعريض يكشف زيف هذا الأساس .

ولكن ليطمئن هؤلاء على ما آل إليه حالهم فنحن لا نقلل من أهمية الاتجاهات النظرية بنماذجها العامة ونماذجها الفرعية (الوصفية والتفسيرية) فإنها تستند فى تبرير ما تذهب إليه بالنسبة لإيضاح معالم علم الاجتماع التجريبي فهى التى أفرزت التأكيد على مشروعية هذا العلم منذ بداياتها المبكرة وحتى الوضع الراهن الذى آلت إليه . وما عليهم الا أن يتروا ويراجعوا حساباتهم مع الاتجاهات التى احتوتهم فكرياً ومع النظام العلمى لعلم الاجتماع التجريبي والذى لا نعتبره جديداً عليهم فكل ما تعلمناه فى سياق علم الاجتماع يؤكد مضمون التجريب والقياس والاستقراء ولكن لم نشأ أن نفطم أنفسنا ونجرى مراجعة للاتجاهات التى احتوت معظمنا على الصعيد العالمى والصعيد المحلى . ولكن أصبحت هناك ضرورة لمراجعة حساباتنا مع شيوع التجريب الفينومينولوجى

فالاتجاهات النظرية العامة تؤكد على التجريب بأنماطه المختلفة وما

يرتبط به من قياس واستقراء وتأويل وخاصة على مستوى الاتجاهات النظرية العامة التي تشكل معاً ، ومن خلال الانتماءات الوظيفية القائمة فيما بينها النسق الاجرائي لعلم الاجتماع التجريبي .

فالبنائية الوظيفية تؤكد على التجربة التاريخية كأساس للاستقراء والاستنباط على نحو ما فعل " بارسونز " ، فضلاً عن تأكيدها للتجربة الشخصية المستندة للمدخل الفينومينولوجي لدى "تيرياكيان" وتأتي النماذج القياسية التي تخضع للتجريب لدى " ماريون ليفي " عن المتطلبات الوظيفية للمجتمع وأشكال التكيف الثقافي لدى " روبرت ميرتون " إضافة إلى متغيرات النمط لدى " بارسونز " وعناصر البناء الدافعي وتوجيهات القيم للشخصية . جميع تلك النماذج القياسية تؤكد على أهمية التجريب سواء كان تاريخياً أو تجريبيا شخصيا أو تجريبياً مقنناً أو تجريبياً فينومينولوجياً .

وبذلك تنسق استراتيجية التناول للظواهر الاجتماعية لدى الاتجاهات النظرية مع توجيهات العنصر النظري للعلم . هذا فضلاً عن الانتماء القائم بين الوظيفية والسلوكية الاجتماعية من حيث تكاملهما معاً في تناول الظواهر الاجتماعية على مستوى الماكرو (الوحدات الكبرى) ، ومستوى الميكرو (الوحدات الصغرى)[1] وهما بذلك يكشفا لنا عن الجوانب الموضوعية والجوانب الذاتية للظواهر الاجتماعية فالظاهرة باعتبارها سلوكاً متكرر الحدوث .. الخ . تنطوي على جوانب موضوعية متغلغلة في صميم الجانب الذاتي للأشخاص الذين يصدر عنهم هذا السلوك بأي من صوره المتنوعة .

أما عن النماذج الفرعية لتلك الاتجاهات النظرية سواء ما كان إيضاحياً (وصفياً) أو تفسيراً تخضع في توجيهاتها لجدلية التأليف فيما بينها من حيث الاتفاق والاختلاف وتحديد أوجه التلاقي فيما بينها من حيث الاتفاق والاختلاف ، وتحديد أوجه التلاقي والمقارنة فيما بينها في إيضاح الرؤية

(1) Harre , R.The Philosophies of Science , London and New York , Oxford University Press . 1972 , P.I.

بأبعاد الواقع وتفسير الكيفية التى يتم بها حدوث ظواهره .

فالفيصل فى الحكم على صحتها هو التجريب واستقراء الوقائع ، ومن ثم ليس هناك تعارض فى طرح الأنساق النظرية العامة على أنها أنساق مغلقة . لأنها ترسم معالم استراتيجيات معينة لتناول الواقع وبين النماذج الايضاحية والتفسيرية المتولدة منها لأنها تخضع للتجريب الاجتماعى سواء كان تاريخياً او مقننا او شخصياً او فينومينولوجياً ، ومن ثم لا تؤثر على الاتجاهات النظرية العامة التى تشكل بانتمائها الوظيفى لبعضها النسق الإجرائى العام لعلم الاجتماع التجريبي ، أى تشكل إطارا نرجع إليه فى تناولنا للمجتمع وظواهره . وإذا ماتخذ المنظور الفينومينولوجى كإطار عام لعلم الاجتماع تكامل الاساس النظرى والمنهجى لعلم الاجتماع التجريبي فى توفير المعرفة العلمية المتراكمة حول المجتمع وظواهره وهو بهذا التكامل يتسق مع منطق نسق التفكير العلمى فى عملية البحث وتحصيل المعرفة حول ظواهر الواقع بصوره المختلفة .

١- الاتساق على مستوى البناء النظرى لعلم الاجتماع التجريبى

ينطوى البناء النظرى للعلم على مستويات بنائية متدرجة من حيث عموميتها ، تبدأ بالإطار المعرفى العام الذى يمارس التوجيه النظرى للعلم يليه الاطار الاجرائى العام الذى يؤلف بين الواقع الذاتى والواقع الموضوعى ، يليه النظرية التفسيرية ثم النماذج الوصفية والتفسيرية التى يتضمنها بناء النظرية ، وينتهى بمستوى القضية التفسيرية ، والفروض الإجرائية المستخلصة منها . وهو بذلك يشكل عنصراً أساسياً من عناصر العلم الأخرى . والتى يرتبط بها بعلاقات تساند واعتماد متبادل . كما أنه يتساند معها فى أدائه الوظيفى بالنسبة للعلم ونشاطه حول ظواهره . ومن ثم لا ينفصل تحليل البناء النظرى انفصالا تاماً عن بقية عناصر العلم الاخرى ، والتى يعتمد عليها ويؤدى دوره الوظيفى من خلال العلاقة التى تربطه بها . وذلك ما يجعله يخضع فى تقويمه . وتحليل مكوناته . وتحديد الاسس

المنطقية التى ينهض عليها . والتى تحكم عملية صياغته . لمجموعة المعايير التى يستند إليها العلم فى تقويمه للفكر [1] ، وتحديد المبادىء الأساسية التى ينهض عليها المنظور العلمى .

وإذا كانت هذه المعايير على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لمختلف النظم العلمية ، فإن أهميتها تتزايد بالنسبة لعلم الاجتماع التجريبى نظراً للطبيعة التجريدية والمعقدة للظواهر التى يعالجها . والتى وإن كانت من نتاج الإنسان وإبداعاته . فإنها تسهم فى تكوين الإنسان ، وتشكيل شخصيته . وتوجيه تفاعله . وأنماط سلوكه . ومن ثم فان من يتصدى لمعالجة النسق الفكرى لعلم الاجتماع التجريبى ، وتحليل بنائه النظرى ، بهدف البحث عن طبيعة الموازين السسيولوجية التى ينهض عليها الإطار المعرفى لعلم الاجتماع التجريبى . يشعر بالحاجة لتحديد الاطار الفكرى العام الذى يحكم السياق النظرى المنهجى الملائم للظاهرة الاجتماعية والتعرف على المعايير التى تحكم نسق التفكير العلمى ، واستجلاء المبادىء التى تميز المنظور العلمى عن غيره من منظورات التفكير البشرى . وذلك لتحديد نمط المعرفة التى يتوخاها العلم حول ظواهره ، وتعيين السبل التى تكفل له بلوغ هذه المعرفة . وصياغتها فى نسق نظرى . تتوفر له المقومات المنطقية للصياغة ، بحيث يكون قادراً على تناول الظواهر والظواهر التى صيغ من أجلها . وتقديم التفسير المناسب لها. ويعكس الاتجاه نحو المدخل الفينومينولوجى للظاهرة الاجتماعية قناعة واضحة بالكفاءة النظرية والمنهجية التى يحققها فى تناول الظاهرة الاجتماعية .

(أ) العلاقات المنطقية داخل النسق العلمى لعلم الاجتماع التجريبى

إن معالجة المبادىء الأساسية للتفكير العلمى فى نطاق فلسفة العلم لايعنى

---

(1) Weinstein , Deena and Weinstein ., Michael , A Choosing Sociology , N.Y. : David McKay Company . Inc . 1976 , P.61.

أننا نتناول نظرية الاستدلال ، ونظرية المعرفة ، ونظرية المفهوم . والنظرية الأخلاقية باعتبارها مجالات منفصلة عن بعضها وذلك لأن مجرد معالجتها في سياق نسق التفكير العلمي يعني أنها قضايا مرتبطة ببعضها . وأنها تتكامل بنائياً وتتساند وظيفيا في دعم وجود النسق العلمي . كما أن دراسة أي حل دراسة مفيدة في نطاق أي من هذه الجوانب لايتحقق وهو في معزل عن المجالات الاخرى . فأى حلول تقدم للمشكلات المتعلقة بمبادىء نسق التفكير العلمي في أي من تلك المجالات تؤثر على نوع الحلول التي تكون ممكنة في المجالات الأخرى (1) .

وانطلاقا من هذا الأساس التصوري لنسق التفكير العلمي نناقش أشكال العلاقات المنطقية على مستوى الوحدات الأساسية الكبرى والوحدات الصغرى الفرعية الداخلة في سياق هذا النسق .

(ب) العلاقات المنطقية بين العناصر الأساسية لنسق التفكير العلمي:

تعكس تلك العلاقات طبيعة التفاعل الحادث بين البناء المنهجي والنموذج التفسيري للعلم من ناحية . وبينها وبين الوقائع المعطاه للدراسة والمعالجة من ناحية أخرى فالنظرية عنصر أساسي من عناصر العلم . وذلك لان العلم يبدأ بنظرية وينتهي بنظرية . كما أن النظرية أداة العلم لإيضاح الرؤية بطبيعة الواقع . وبقدر ما يتوفر للعلم من معرفة علمية حول الواقع سواء كانت هذه المعرفة نظرية مكتملة الصياغة او لم تكتمل بعد . فإنها محور اهتمام العالم رغبة منه في الاستفادة بها في فهم الواقع . واهتماما منه بها لاكتمال صياغتها في ضوء معطيات الواقع . وهنا تبرز أهمية البناء المنهجي كأداة للعلم لصياغة النظرية صياغة علمية مستندة إلى معطيات الواقع . وبقدر ما يكون الأساس المنهجي لاستقراء الوقائع متكاملاً . بقدر ما

---

(1) Harre , R., Op. cit., P.9.

يتوفر للنظرية الأساس العلمى لرفع كفايتها العلمية ، وجعل قضاياها ومفاهيمها قابلة للقياس والتطبيق فى مجال الواقع . وبقدر ما يكون الأساس المنهجى لاستنباط القضايا الإجرائية من قضايا النظرية الأولية واضحاً . بقدر ما تكون القضايا الإجرائية (الفروض) قابلة للاختبار والقياس .

وتتجسد صور هذه العلاقات فى تلك العلاقة القائمة بين القانون والاستدلال الاستقرائى ، إذ أن اكتشاف الوقائع القائم على الاستقراء أساس الوضوح وإقامة الدليل على صحة القانون ، فإذا لم يحكم منطق الاستقراء للوقائع الملاحظة لصياغة القوانين لانستطيع أن نجزم بصدق القوانين المصاغة . وإذا كانت صحة القوانين تعتمد على إمكانية تطبيقها على الوقائع الملاحظة . فإن ذلك يقودنا بدوره إلى الحديث عن الاعتبارات المنطقية التى تؤثر على الوضع الابستمولوجى المتعلق بالتنبؤات وإمكانية بلوغ تلك التنبؤات .

كما أن استخدام البيانات فى أى من المجالات لإجراء التنبؤ حول ظواهر تلك المجالات يتطلب النظرية التى تخدم أى من تلك المجالات . نظراً لأن النظرية تتضمن فى بعض جوانبها القوانين العامة التى توجه عمليات استقراء الوقائع . مثال ذلك فى حالة استخدام البيانات الفلكية لعمل تنبؤات فلكية بواسطة الاستقراء يتطلب الحال النظرية الفلكية . والتى تتضمن بعض القوانين ذات الطابع العام . وذلك يشير إلى أن بعض النظريات قد تبلغ من التأكيد حدا يتجاوز تأكيد البيانات . ومن ثم فهى تلعب دوراً هاماً فى عملية استقراء البيانات . كما أن البيانات بدورها وظيفة فى تأكيد بعض النظريات او تعميمها . ولذلك نؤكد على أهمية ثبات البيانات [1] التى نحصل عليها من خلال العمل الامبيريقى .

وفى هذه الحالة يمكن القول بان هذا النوع من عدم التأكد حول المستقبل،

---

(1) Harre, R., op. cit., . P. 11.

يقل كلما اكتشفنا وقائع اكثر . وهذا هو ما يحكم تجاوز التأكد من بعض النظريات للوقائع . والتى يستند تحصيلها على عملية الاستقراء العلمى (الاستقراء الناقص) . وفى هذه الحالة تبرز طبيعة التفاعل بين نمط الاستدلال الاستقرائى والمعرفة .

(ج) العلاقات المنطقية بين الوحدات الفرعية

ثمة علاقات بين الوحدات الفرعية التى تتضمنها العناصر الأساسية لنسق التفكير العلمى ، وهذه العلاقات تعكس بدورها طبيعة التفاعل الحادث بين عناصر نسق التفكير العلمى من ناحية ، وتوضح أشكال العلاقات المنطقية التى تسم الهيكل البنائى ، وتدعم الأداء الوظيفى لنسق التفكير العلمى من ناحية أخرى .

وتتمثل أولى أشكال هذه العلاقات فى تلك العلاقة القائمة بين المفاهيم والتفسير الاستدلالى المنطقى . أما الشكل الثانى فيتمثل فى العلاقة القائمة بين نمطى الاستدلال وقضايا التفسير الأولية والإجرائية . فى حين أن الشكل الثالث يتمثل فى العلاقة القائمة بين الفهم والوعى والتنبؤ .

وعلى أساس ذلك نناقش كل من أشكال العلاقات القائمة بين الوحدات الفرعية لنسق التفكير العلمى . وبالنسبة للشكل الأول والذى يشير للتفاعل الحادث بين المفاهيم والتفسير وأشكال الاستدلال المنطقى . فإن قيمة تحليل هذا الشكل العلاقى تتمثل فيما تضفيه من مقدرة إضافية بالنسبة للعالم عند تعريف الفرضيات المتضمنة فى اللغة ، والنماذج التى يستخدمها فى نطاق العلم . وذلك لان معرفة العالم لهذه الفرضيات الواضحة تمكنه من التحكم فيها وإيضاحها وتفسيرها بصورة نظامية . فالعمل التجريبى رغم قيمته ، لا يمكنه وحده تعيين المفاهيم الافضل من حيث استخدامها ، وذلك يرجع إلى أن عمل التجربة وإجرائها الفعلى يتطلب تصوراً للمشكلة ، وأن هذا التصور

يتطلب بدوره استخدام بعض المفاهيم [1] .

فعلى أساس ذلك تتحدد ماهية العلم ، وما يحاول العلمـــاء القيـام بـــه ، والكيفية التى يؤدون بها واجباتهم العملية . والعمليـــــة والنتـــائج المترتبـــة عليهـــا .

وهنا نعود للمجالات المرتبطة بفلسفة العلم والمتمثلة فى المنطق (نظريـــة الاستدلال) والابستمولوجى (نظرية المعرفة) والميتافيزيقا (المتعلقة بنظريـــة المفاهيم) وما يرتبط بكل منها من عمليات فرعية . وذلك لفحـــص أشـــكال التفاعل بين المفاهيم والتفسير وأشكال الاستدلال المنطقى على مستوى علـــم الاجتماع التجريبي والتجربة الفينومينولوجية على وجه الخصوص .

وتتحدد أولى أشكال هذه العلاقات فى طبيعـــة التفـــاعل بيـــن المفـــهوم والاستدلال المنطقى من حيث الصياغة التجريدية للمفهوم، والتحديد الاجرائى له . فالمفهوم تجريد ذهنى لأفكار لها تجسيدها فى الواقع ، وعلـــى أســـاس استقراء تلك الأفكار ، وتحديد ما بينها من خصائص مشتركة تحدد طبيعـــة هذا التجريد . وعندما يتم الاتفاق على هذا التجريد بين العلماء يدخل المفهوم ضمن البناء الأساسي للنظرية باعتباره إحدى عناصرها الأساســـية . ولمـــا كانت النظرية أداة العلم لفهم الواقع وإيضاح الرؤية بأبعاده . فإن ذلك يشـــير إلى إمكانية الاستخدام الإجرائى للمفهوم . ولكن ذلك يتم من خلال عمليـــات استنباطية معينة يتحدد فى ضوئها الخصائص والسمات الاجرائية للمفـــهوم . وبالصورة التى تجعل المفهوم قابل للقياس والاختبار فى الواقـــع . وبذلـــك تتضح أبعاد التفاعل بين المفهوم ونمطى الاستدلال المنطقـــى . وطالمـــا أن المفهوم أساس لصياغة العلاقات التفسيرية والتى نقيمها بين مفهومين او اكثر فان ذلك يشير إلى أبعاد التفاعل بين المفهوم والتفسير . وتتمثل أولـــى هـــذه الأبعاد فى صياغة العلاقات التفسيرية الأولية . والتى تمثل مستوى القضايـــا

(1) Harre , R., op. cit., P.17.

الأولية الأكثر تجريد للنظرية . وهنا تكون صياغة تلك العلاقة بين المفاهيم التجريدية . إلا أن هذه القضايا الأولية تخضع لعمليات معينة تتمثل في استقراء الواقع ، والاستناد إلى معطياته في تجريد هذه العلاقات . ومن ثم فإن جعل هذه القضايا الأولية قابلة للقياس والاختبار يقتضي استنباط القضايا الإجرائية (الفروض) التي تتضمن تحديداً للسمات المحدودة ، والتي يمكن قياسها في الواقع . وبذلك نجد ان التفاعل بين المفاهيم والتفسير وأشكال الاستدلال أساس الصياغة النظرية من ناحية ، وأساس لتطويع النظرية لإجراءات الاختبار والقياس من ناحية أخرى .

أما الشكل الثاني من أشكال العلاقات المنطقية داخل نسق التفكير العلمي والمتمثلة في التفاعل بين الفهم ، والوعي العلمي ، والتنبؤ . فهي ترتبط منطقيا بأشكال العلاقة الأولى . حيث أن تحديد المفاهيم ومستويات التفسير أساس لتحقيق الفهم والفهم هنا لا يقف عند مجرد تحديد المفاهيم المرتبطة بالواقع ، وكذلك تحديد أشكال العلاقات الأولية في النسق النظري . وإنما تتحدد مستويات فهمنا للظاهرة بمدى ارتباط هذه المفاهيم بالسمات الملاحظة في الواقع من ناحية ، وبمدى قدرتنا على استنباط العلاقات الإجرائية ، أي القضايا الإجرائية ، والتي نشير إليها بالفروض ، والتي تكون اكثر تحديداً للسمات الواقعية التي يمكن قياسها ، في ضوء العلاقات الأولية المصاغة بين مفاهيم النسق النظري للعلم . وذلك يعني أن الوعي العلمي يتحدد بمدى استناد فهمنا للظاهرة على الملاحظة ، والمعرفة الامبيريقية . وعلى أساس وعينا العلمي بالواقع ، تتحدد إمكانية التنبؤ بحدوث الظاهرة ، واحتمالات هذا الحدوث في المستقبل .

٢- الاتساق على مستوى البناء المنهجي لعلم الاجتماع التجريبي

يعتبر البناء المنهجي للعلم من الموضوعات الأساسية التي شغلت فلاسفة العلم وعلماء المناهج وغيرهم من الرواد الذين تكبدوا مشقة الدفاع عن استقلال أي من النظم العلمية عن الفلسفة . ويرجع هذا الاهتمام بصورة

أساسية لاعتبارات تتعلق بوضع البناء المنهجي بالنسبة للعلم . واعتماده الرئيسي عليه في تحصيل المعرفة حول الوقائع والتحقق من صدق هذه المعرفة سواء كانت مصاغة في نظرية مكتملة أو لم تكتمل عناصرها بعد . ولكون هذا البناء المنهجي قاسم مشترك بين جميع العلوم ووسيلتها في دعم استقلالها عن الفكر الفلسفي . وتنمية حصيلتها المعرفية حول الظواهر الواقعة في مجال عمل كل منها . وهنا يختلف الحال بالنسبة للمنظور الظاهري فلم يكن هدفها الاستقلال عن الفلسفة وإنما انحصر هدفها في تطور الفلسفة ذاتها وجعلها علماً دقيقاً بمنهج واضح ونظرية واضحة تخدم العلوم الاجتماعية .

ولما كان البناء المنهجي للعلم ينهض على عناصر أساسية مترابطة ومتساندة في أدائها الوظيفي ، بحيث تشكل وحدة واحدة تربطها بعناصر العلم الأخرى علاقات تجعل من العلم نسقاً متكاملاً لتحصيل المعرفة . فإن معالجتنا للبناء المنهجي يستهدف تفريد هذه العناصر المنهجية وتحديد العلاقات التي تربطها ببعضها من ناحية وتحديد الوظائف التي تؤديها كل من تلك العناصر في عملية تحصيل المعرفة من ناحية أخرى .

إلى أن الوصف هو الذي يعبر عن الموقف العلمي الدقيق ، وبذلك فإنهم يرون أن العلم يجيب عن الكيف بمعنى انه مجرد وصف لما يحدث بالفعل وذلك بعينه ما جعل " دافيد وللر " يؤكد على الوصف والتفسير باعتبارهما وظيفتين أساسيتين للعلم . وان لكل منهما مستواه الخاص . فالعلم إذا ما أراد أنه يتجاوز حدود الوصف في نظره يحتاج للقوانين العامة لكي يصبح تفسيرياً. وان التفسير العلمي يدور حول العلاقات العامة في حد ذاتها ويتناولها بالتأويل والتفسير (1) . كما ان "كينث بايلي" قد اعتبر الوصف والتفسير وظيفتين أساسيتين للعلم لتحقيق الفهم كهدف أولى للعلم . يعتمد عليه

(1) Willer David , Scientific Sociology , N.J. : Prentice - Hall , Inc, 1967, PP.23-25.

تحقيق العلم لهدفه النهائى المتمثل فى التنبؤ (1). وذلك ما سبق تأكيده بشكل واضح من قبل "ستيفن كول" عندما اعتبر الوصف والتفسير محورى لإقامة البرهان العلمى فى علم الاجتماع (2).

(أ) معنى المنهجية : *(Methodology)*

يشير مصطلح المنهجية لتطبيق منطق المنظور العلمى فى دراسة الظواهر والحوادث (3) وهى بذلك تعين مصادر صياغة النظرية ومدى ارتباطها بتوجيه مسلك البحث ومسار تناول الظاهرة امبيريقيا . كما أنها تحدد مستويات تحليل معطيات البحث حول الظاهرة سواء كانت وصفية أو تفسيرية وهى المستويات التى تستند إليها فى مراجعة النظرية . وإعادة صياغتها وإقامة البرهان العلمى على مدى صحتها ، والمنهجية بذلك ترتبط بفلسفة العلم . وتتصل بمعالجة المبادىء الأساسية لصياغة الأنساق النظرية بالاستناد لمعطيات الواقع . كما أن المنهجية تشير فى بعض جوانبها لتحليل طرق البحث وتقويمها . وهنا تكون بمثابة الوسيلة التى نعين بها طريقة البحث ونبرهن بها على مدى ملاءمة هذه الطريقة لتناول الظاهرة وتحصيل المعرفة حولها . وان استخدامنا لطريقة معينة سوف يمكنا من توفير بيانات ذات نوعية جيدة حول تلك الظاهرة (4). والمنهجية بذلك تأتى فى قمة البناء المنهجى وهى قاسم مشترك بين جميع النظم العلمية لأنها تقيم صلة وثيقة بين إى من النظم العلمية والمبادىء الأساسية للمنظور العلمى العام .

مثال ذلك كأن نحدد المدخل الفينومينولوجى أساساً لتناول الظاهرة الاجتماعية ومفاهيمه كمبادىء أساسية تشير لقضايا معينة نرجع إليها فى فهم

---

(1) Mahmoudi & Parlin , Op. cit., P.21.

(2) Cole , Stephen , The Sociological Method , Chicago : Rand McNally College , Publishing Company , 1972, PP.29-33.

(3) Fitzgerald , J. & Cox., Op,cit., P.15.

(4) Mahmoudi & Parlin , Op. cit., P.21.

واقع الحياة اليومية .

(ب) المدخل المنهجي : *(Methodological Approach)*

ويأتي المدخل المنهجي في المستوى الثاني من البناء المنهجي للعلم وهو يشير للتصور لرؤية الواقع وتناول ظواهره ومراجعة الأنساق النظرية المصاغة حوله . ويتحدد المدخل المنهجي في ضوء المبادىء الأساسية والأسس المنطقية التي يستند إليها الباحث والتي تمثل الإطار المرجعي للمعالجة المنهجية . ومن أمثلة المداخل المنهجية التي تحدد التصور المنهجي لرؤية الواقع ومعالجة تلك المداخل الموضوعية المتمثلة في المدخل التجريبي والمدخل المقارن والمدخل الرياضي والمدخل التاريخي . أما المداخل المعيارية والتي يتضمنها البناء المنهجي للعلوم الاجتماعية عامة . وعلم الاجتماع خاصة ، فتتمثل في المدخل الفينومينولوجي الذي يشير لرؤية الباحث الذاتية للوقائع الملاحظة . والمدخل الاثنومينولوجي الذي يشير لرؤية شعب من الشعوب او جماعة من الجماعات لثقافتها الخاصة وما تحتويه من معان وأفكار ودلالات رمزية .

والجدير بالذكر في هذا الشأن ان المداخل المعيارية تعمل في نطاق العلوم الاجتماعية وتحقق الموضوعية بتغطيتها للوقائع الموضوعية والذاتية للظواهر الاجتماعية .

والمدخل المنهجي بذلك يشرح مبادىء المنظور العلمي في سياق محدد مثل التصور المنهجي الذي يتخذ منه الباحث مدخله لمعالجة الظاهرة والذي يمهد لعملية التساؤل الاجرائي بتحديد الطريقة المنهجية المناسبة والتي نتبع قواعدها في تناول الظواهر وتوجيه مسار معالجتها . وبذلك يمثل المدخل المنهجي الرابطة المحورية بين المنهجية وما تنطوي عليه من مبادىء وأسس منطقية للمعالجة العلمية وبين اختيارات الباحث للطريقة التي تنظم عملية تناول الظاهرة في ضوء القواعد التي تنهض عليها هذه الطريقة . فبتحديد

المدخل الفينومينولوجى مثلاً للدراسة ، تحدد القواعد المعرفية التى يقوم عليها التصور المنهجى والتى يقوم عليها المدخل وحدود استخدامها .

(جـ) الطريقة *Method*

وتأتى الطريقة المنهجية فى المستوى الثالث من مستويات البناء المنهجى للعلم لتجسد التصور المنهجى الذى حدده المدخل المنهجى الموجه بالمبادىء الأساسية للمنظور العلمى . والطريقة بذلك تنقل هذا التصور المنهجى لمعالجة الظاهرة من مستوى التصور إلى مستوى تطبيق مجموعة من القواعد المنهجية التى تقوم عليها طريقة ما من الطرق المنهجية . سواء كانت الطريقة التجريبية أو الطريقة المقارنة أو الطريقة التاريخية ... الخ . والتى تحدد بدورها إجراءات تناول الظاهرة ، ومسار عملية التناول . وما تقتضيه من أساليب منهجية تلاءم قواعد الطريقة : وطبيعة الموضوع المطروح للمعالجة .

(د) الأساليب المنهجية *Methodological Techniques*

وتأتى الأساليب المنهجية فى المستوى الرابع من مستويات البناء المنهجى للعلم . وهى تشير لإجراءات معينة تحدد مستويات تناول الظاهرة . ومعالجتها امبيريقيا ، والتى تناسب طريقة منهجية معينة . ومن أمثلتها أسلوب القياس وأسلوب المسح وأسلوب دراسة الحالة ، وأسلوب تحليل المضمون ، وأسلوب التأمل ، أسلوب التخيل بالنسبة للطريقة الفينومينولوجية.

والواقع إن اختيار أى من تلك الأساليب فى معالجة الظاهرة تحكمه طبيعة القواعد التى تنهض عليها الطريقة المنهجية المتبعة فى معالجة تلك الظاهرة .

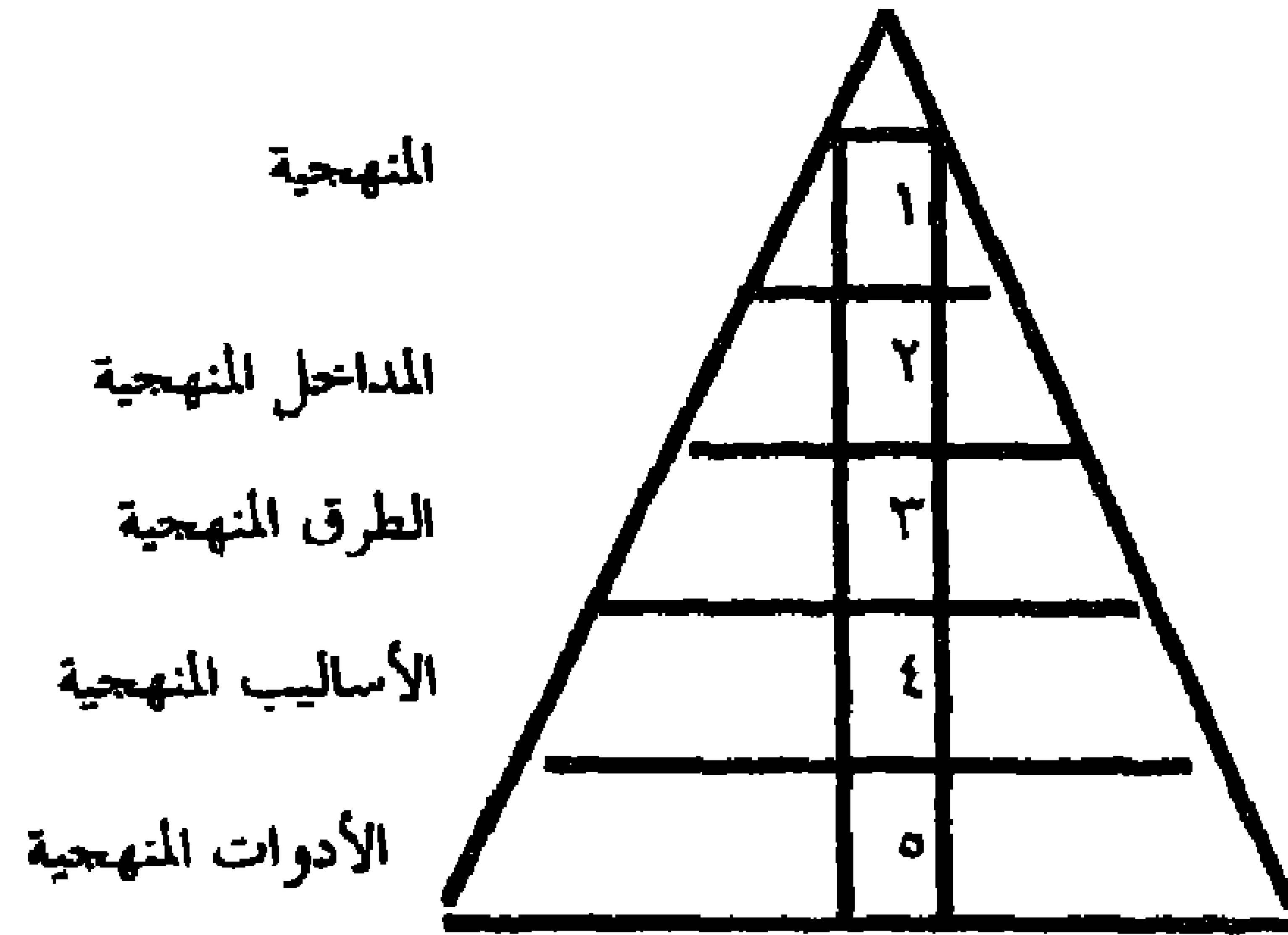
فالطريقة التجريبية يناسبها أسلوب القياس ، والطريقة التاريخية يناسبها أسلوب تحليل المضمون كما ان اختيار أى من أسلوبى المسح ودراسة الحالة

يحدده مستوى التناول لوحدات الظاهرة .

(هـ) الأدوات المنهجية *Methodological Tools*

تأتى الأدوات المنهجية فى المستوى الخامس من مستويات البناء المنهجى وهى تشير للوسيلة التى يتبعها أسلوب منهجى معين فى جمع البيانات حول ظاهرة او حادثة معينة (1). ومن أمثلة هذه الأدوات المنهجية الملاحظة . والمقابلة واستمارة البحث والمقاييس . وتحديد استخدام أى من هذه الأدوات يتم فى ضوء الأسلوب المتبع للدراسة وطبيعة وحدات موضوع الدراسة .

والشكل التالى يوضح مستويات البناء المنهجى للعلم .



من التحليل السابق يتضح ان عناصر البناء المنهجى للعلم ترتبط ببعضها بعلاقة منطقية رأسية ، تأخذ شكلا هرميا كما هو مبين فى الشكل التوضيحى لمستويات البناء المنهجى للعلم . وذلك لأن المستويات المنهجية الخمس تتكامل بنائياً وتتساند وظيفيا لتشكل معا وحدة البناء المنهجى للعلم . فكل منها يحدد المبادىء والأسس التى تحكم تحديد المستوى الذى يليه . ويكشف عن مدى لياقته المنهجية لموضوع الدراسة .

كما اتضح من التحليل أيضاً إن خصوصية المستوى تزداد كلما اتجهنا إلى قمة البناء المنهجى ، وتقل هذه الخصوصية كلما اتجهنا للمستويات

---

(1) Fitzgerald & Cox,Op.cit.,P.15.

الأدنى . وذلك من حيث تعدد استخدام وحدات المستوى . فالمستوى الأول وهو المنهجية يرتبط بالتوجيه الأساسى لمبادىء المنظور العلمى . بالنسبة لصياغة النظرية واختبارها . وتناول ظواهر الواقع . كما أنه يحدد اختياراتنا للمداخل المنهجية . ويأتى المستوى الثاني للمداخل المنهجية ، ليجسد مبادىء المنهجية ، بتحديد التصور المنهجي للمعالجة والتناول إضافة لتحديده لأبعاد اللياقة المنهجية . ومتطلباتها من القواعد المنهجية لطريقة معينة وموضوع الدراسة المطروح للمعالجة . وما تقتضيه القواعد المنهجية تلك من أساليب وأدوات . وبتحديد الطريقة المنهجية للدراسة على المستوى الثالث يتحدد الأسلوب المنهجي الملائم للدراسة وحدود استخدامنا لهذا الأسلوب ومستوياته.

وبتحديد الأسلوب المنهجى على المستوى الرابع من مستويات البناء المنهجى . يمكن تحديد نوع الأدوات المنهجية الملائمة لجمع البيانات حول الظاهرة .

وبذلك تكون المنهجية بمبادئها وحدة واحدة فى توجيه العمل العلمى لأى من النظم العلمية . فى حين أن تحديد المداخل المنهجية تحكمه مبادىء المنظور العلمى . وطبيعة موضوع الدراسة . وتنوع المداخل المنهجية هنا يكون محكوما بإمكانية تطبيق قواعد منهجية معينة .

ويتعدد استخدامنا للطرق المنهجية فى ضوء التصور المنهجي للتناول ، وطبيعة موضوع الدراسة . أما بالنسبة لتعدد استخدام الأساليب المنهجية فتمليه مقتضيات الطريقة المنهجية ، وقواعدها التى تنظم عملية البحث . وتحدد مسارها ، فى معالجة الموضوع . وعلى أساس الاسلوب المنهجى المتبع فى التناول للظاهرة . تتحدد الأدوات المنهجية الملائمة لجمع البيانات حول الوقائع .

وبذلك يأتى تحديد المستوى الادنى للبناء المنهجى مرتبطا بالمستوى

الأعلى تباعا . ومن ثم تكون البدايات المنطقية لتحديد البناء المنهجي من قمة الهرم المنهجي . نزولا للمستويات التالية تباعا . وذلك لان البدء بتحديد المستوى الأدنى لايساعد على تحديد المستويات الأعلى . كما ان البدء بهذه الصورة يترتب عليه حدوث ارتباك وعدم اتساق بين الإجراءات المنهجية المستخدمة للدراسة ، الأمر الذى يترتب عليه غياب اللياقة المنهجية بين الإجراء المنهجي وموضوع الدراسة .

كما أن البدء بالمستويات الأعلى نزولا للمستويات الأدنى يعنى أن متطلبات كل مستوى من عناصر المستوى المنهجي الذى يليه يمكن أن تتعدد حسب مقتضيات المستوى الأعلى . وبذلك تقل خصوصية المستويات الأدنى وتزداد خصوصية المستويات الأعلى . فاحتياجات الباحث من الطرق المنهجية يحكمها المدخل المنهجي المعلن للتناول . كما ان الأساليب المنهجية التى يختارها الباحث تحكمها طبيعة الطريقة المنهجية ومقتضياتها من الأساليب ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة للأدوات المنهجية التى يختارها الباحث . إذ يمكن أن تتعدد هذه الأدوات فى ضوء المتطلبات المنطقية لاستخدام أسلوب منهجى معين فى الدراسة .

٣- الاتساق على مستوى مبادىء المنظور العلمى :

تتأكد علمية نظم العلوم الاجتماعية بمدى اتباعها لمبادىء المنظور العلمى فى مجال عملها . وهى فى ذلك تتماثل مع نظم العلوم الطبيعية من حيث، خطوات الطريقة العلمية واستراتيجيتها وليس من حيث الإجراءات المنهجية وهذا مانعنيه بوحدة منطق المنهج العلمى . ولا يعنى تفاوت استخدام كل منها للطرق والأساليب والأدوات . تناقص الكفاءة العلمية لأى منها . إذ أن وحدة المنهجية . أى وحدة المبادىء والأسس التى توجه عملها واختياراتها بالنسبة للمداخل والطرق والأساليب والأدوات المنهجية هى أساس علمية تلك النظم المعرفية . وما التفاوت فى الإجراءات إلا نتيجة لتفاوت طبيعة الموضوعات التى تقع فى مجال عمل كل منها . والعمل على تحقيق مبدأ اللياقة المنهجية

بين موضوع الدراسة والإجراء المنهجي المتبع في معالجة هذا الموضوع . فالتجريبية التقليدية تناسب العلوم الطبيعية ، في حين أن التجريبية الفينومينولوجية تناسب العلوم الإجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة .

إذ أن المستوى الأول (المنهجية) يرتبط بالتوجيه الأساسي لمبادىء العلم بالنسبة لصياغة النظرية . واختبارها وتناول ظواهر الواقع . ويأتي المستوى الثاني (المدخل المنهجي) ليجسد مبادىء المنهجية بتحديد التصور المنهجي للمعالجة والتناول . وتحديد حدود اللياقة المنهجية بين القواعد المنهجية لمنهج معين ، وموضوع الدراسة والمعالجة . وتحديد مقتضيات مجموعة القواعد المنهجية تلك من الأساليب الأدوات . وبتحديد منهج الدراسة على المستوى الثالث يتحدد نوع الأداة المنهجية الملائمة لجمع البيانات حول الظاهرة . وبذلك تكون المنهجية بمبادئها واحدة . من حيث توجيه العمل العلمي . في حين أن المداخل المنهجية تتحدد في ضوء طبيعة الموضوع . وتنوعها محكوم بإمكانية تطبيق قواعد منهجية معينة . ويتعدد استخدامنا للمناهج (الطرق) في ضوء التصور المنهجي للتناول . وبالنسبة لتعدد استخدام الأساليب المنهجية فتحكمه مقتضيات المنهج المستخدم ، والقواعد التي تنظم عملية البحث ، وعلى أساس الأسلوب المستخدم في الدراسة تحدد الأدوات المناسبة لجمع البيانات حول الوقائع .

وبذلك يأتي تحديد المستوى الأدنى للبناء المنهجي مرتبطا بالمستوى الأعلى تباعا . ومن ثم تكون البدايات المنطقية لتحديد البناء المنهجي من قمة الهرم المنهجي نزولا للمستويات التالية تباعا . وذلك لأن البدء بتحديد المستويات الأدنى لا يساعد على تحديد المستويات الأعلى كما أن البدء ، بهذه الصورة يترتب عليه حدوث ارتباك وعدم اتساق بين الإجراءات المنهجية للدراسة . ومن ثم تغيب اللياقة المنهجية بين الإجراء المنهجي وموضوع الدراسة .

الفصل الثانى

علمية علم الاجتماع التجريبى

- سسيولوجية علم الاجتماع التجريبى
- الأخلاق وموضوعية المعرفة
- المفاهيم العلمية
- الاستراتيجية المنهجية للتعميم وإقامة البرهان
- الاستدلال العلمى والصياغة النظرية
- نسق التفكير العلمى

تمهيد :

يعتبر علم الاجتماع التجريبى واحدا من النظم العلمية التى تتوفـر لـها الكفاءة العلمية لتوفير معرفة تراكمية حول موضوعه .

وذلك لأنه (اى علم الاجتماع التجريبى) يخضع الظـاهرة الاجتماعيـة لمعالجة مقننة سواء على مستوى التجربة المنضبطة ، أو التجربة التاريخية ، أو التجربة الشخصية بالمعايشة أو التجربة الفينومينولوجية .

ومن ثم تأتى معطيات التجريب معبره عن الواقع الفعلى هذا فضلا عـن كفاءته العلمية فى اخضاع النظرية التفسيرية للتحقـق التجريبـى وادخـال التطويرات النمائية على تلك النظرية ، وذلك من خلال استراتيجيته المنهجية للتحليل والصياغة النظرية للانساق النظرية التفسيرية ، وبذلك يحقـق علـم الاجتماع التجريبى التراكمية العلمية التى تساعد علـى تحقـق تقـدم علـم الاجتماع عامة وعلم الاجتماع التجريبى خاصة .

ومن أولى القضايا التى يمكن ان تطرح نفسها فى شكل سـؤال ونحـن بصدد معالجة علم الاجتماع التجريبى ومدى كفاءته ، فى دراسـة الظـاهرة الاجتماعية ، القضية التى تشير الى المدى الذى يمكن ان تسهم بـه العلـوم الاجتماعية ، وبوجه خاص علم الاجتماع التجريبى مع العلوم الاخرى فـى تحديد الابعاد الحقيقية لتاريخ المجتمع البشرى [1]، وفهم واقـع المجتمعـات المعاصرة ، لنبنى على معطيات ماضى تلك المجتمعات وحاضرها صـورة تنبؤية عن مستقبلها .

الواقع أن مثل هذه القضية تفرض علينا مراجعة كاملة لطبيعة فهمنا لعلـم الاجتماع التجريبى ومدخله كعلم ، وحدود هذا المدخل فى دراسة الظـاهرة الاجتماعية ، ومن ثم لا نكون بحاجة لوقفة طويلة مع المحاولات التقليديـة ،

(١) دكتور عاطف غيث ، الموقف النظرى فى علم الاجتماع ، الإسكندرية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٣ - ١٦٤.

لتعريف علم الاجتماع التجريبى وتحديد موضوعة ، إلا بالقدر الذى يساعدنا على تناول القضايا الأساسية التى تفرضها طبيعة المشكلة الراهنة . المطروحة أمام علماء الاجتماع . حيث اصبح من الضرورى اليوم ان يكونوا على مستوى عال من الإدراك والوعى الذاتى ، وأن يجيبوا عن نفس الأسئلة التى يثيرها حول غيرهم بالنسبة لأنفسهم ، وأن يرون أنفسهم كما يرون الآخرين [1] فيسعون للكشف عن الأنا فى الأنت ، والأنت فى الأنا. ولن يتحقق لهم ذلك إلا بدعم روح النقد الذاتى فى علم الاجتماع من خلال أنفسهم . فإذا كان لعالم الاجتماع الحق فى أن ينظر للآخرين ، ويتحدث عنهم فى سياق مجتمعهم باعتبار ذلك ضمن واجباته العلمية ، ولكونه مسئولا عن رؤيته ، وعما يقوله حول الإنسان والمجتمع . فان عليه ان يرى نفسه فى سياق المجتمع وأن يتحدث عن ذاته ، وذلك لان فهمه لذاته كعالم ، يحدد ابعاد رؤيته للاخرين . كما أن فهمه لنفسه فى سياق المحيط الاجتماعى والثقافى والشخصى لمجتمعه ، يتصل بفهمه للاخرين كفاعلين يشاركهم عضويتهم فى المجتمع . وذلك يقتضى منه أن يعلق توجهه ، إن يرى الواقع من المنظور الفينومينولوجى .

وذلك لأنه بمدى ما يكون الإنسان واعيا بذاته ، يستطيع ان يحدد إمكانياته وقدراته الإسهامية . ونفس الشىء بالنسبة لعالم الاجتماع أو بصورة اعم بالنسبة لعلم الاجتماع التجريبى فإذا ما تحقق لهذا العلم القدرة على تحقيق النقد الذاتى ، امكنه ان يستبعد الأحكام القيمية ، وأن يحدد دورة الاسهامى فى كشف النقاب عن تاريخ المجتمع الانسانى ، وطبيعة المجتمعات فى الوقت الحاضر . وبالتالى الوصول للمقدرة التنبؤية بمستقبل تلك المجتمعات .

وفى ضوء ذلك نعالج النقاط التالية :

- سسيولوجية علم الاجتماع .

---

(1) Gouldner, Alvin W. , The Coming Crisis of Western Sociology , London, Heinemann . 1971. P.25.

- الأخلاق وموضوعيه المعرفة .
- المفاهيم العلمية .
- الاستراتيجية المنهجية للتعميم وإقامة البرهان .
- الاستدلال العلمى والصياغة النظرية .
- نسق التفكير العلمى .
- التكامل النظرى والمنهجى فى علم الاجتماع التجريبى .

أولا :- سسيولوجية علم الاجتماع :

إن الاهتمام المعاصر بين علماء الاجتماع بتحليل بناء علم الاجتماع كعلم ، لم يكن من قبيل الصدفة ، وإنما يرجع ظهور هذا الاتجاه لضرورة ملحة اقتضتها ظروف هذا العلم فى الوقت الراهن . فقد تعددت فروعه إلى الحد الذى تصور البعض ان كل من تلك الفروع كفيل بدراسة الشريحة الاجتماعية الواقعة فى نطاق عمله ، فى الوقت الذى اصبح اهتمام علماء الاجتماع بالصياغة النظرية العامة من اكثر القضايا التى تشغل المتخصصين فى هذا العلم . هذا فضلا عن تزايد الرغبة بين لفيف من علماء المناهج لدعم المدخل لعلم الاجتماع ، لتأكيد موضوعيته وتخليصه من الأحكام القيمية ، التى عرضته لكثير من صور النقد . كل هذه المواقف كانت من اكثر الدوافع فاعلية لزيادة الاهتمام بتحليل بناء هذا العلم ، ومن ثم جاءت محاولة بعض العلماء أمثال "روبرت فريدريكس" لتحليل هذا البناء العلمى والتأكيد على سسيولوجية علم الاجتماع Sociology of Sociology ، والذى حاول فحص دعاوى علم الاجتماع العلمى على أساس نقدى تحليلي [1] .

ونشطت الدراسات فى سياق علم الاجتماع المعرفى لتحليل العلاقة بين الفكر والواقع الاجتماعى والثقافى وصور المعرفة وتطور أشكالها [2] وكذلك

---

(1) Friedriches W. Sociology , of Sociology , N.Y., 1970. P.19.
(2) Fischer , George , Note on Sociology of Knowledge As Social , 1966.

عولج علم الاجتماع كظاهرة معرفية نمت بنمو التفكير البشرى ، وذلك لتحديد ابعاده البنائية والوظيفية ، والصور الأساسية لتطوره .

وذلك كله ما دفع بعالم الاجتماع الأمريكى "الفن جولدنر" للتأكيد على وجوب صياغة علم الاجتماع الاكاديمى [٣] Academic Sociology فى ضوء التأمل السسيولوجى بصورته الجديدة الأكاديمية ، التى تضفى عليه المشروعية العلمية رغم تعدد فروعه ، وتحليلنا لأبعاد علم الاجتماع الأكاديمى على هذا النحو يتخذ مسالك أساسية تكشف كل منها عن بعض أبعاد علم الاجتماع التجريبى .

وإذا كنا نعتبر السلوك الاجتماعى البشرى موضوع علم الاجتماع التجريبى الأساسى . والذى يستهدف بدراسته وصف هذا السلوك وتفسيره ، فإن علم الاجتماع فى قيامه بعملية الوصف والتفسير تلك، يعد طريقة خاصة، ووسيلة من وسائل الإنسان الأساسية ، التى تساعده على فهم السلوك البشرى، على أساس من التحليل الوصفى والتفسيرى . الذى يستند تحقيقه فى سياق هذا العلم على ركيزتين أساسيتين هما :

النظرية ، والملاحظة وما بينهما من تأثير متبادل ، وما يتعرضان له من تغيرات على مر الايام [١] . وذلك بعينه ما يجعل علم الاجتماع بمثابة مشروع علمى متكامل ، لتناول الحقائق الاجتماعية فى حاضرها ومستقبلها وتقديم الإجابات لجميع الأسئلة التى نطرحها حول السلوك البشرى .

ومن ثم عندما نناقش أبعاد الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية نكون بصدد واجب ابداعى لصياغة القواعد النظرية والمنهجية لهذا المشروع العلمى (علم الاجتماع التجريبى) بما يجعلها ملائمة ومفيدة لفهم العلاقات الاجتماعية البشرية . وما نعنيه بالعلاقات الاجتماعية البشرية بصفة أساسية

---

(3) Gouldner Alvin , W. op.cit., PP.26-27.

(1) Chambliss , William J. and Ryther , Thomas E., Sociology " The Discipline and its Direction ", N.Y., McGraw - hill Book Company, 1975.P.4.

هو ما نشير اليه فى الغالب الاعم بطريقة ارتباط الناس بعضهم ببعض ، بما يحويه هذا الارتباط من أوضاع وأدوار ونظم وانساق اجتماعية ومعانى وأنماط تعكسها الذاتية الباطنية من المنظور الفينومينولوجى .

وذلك ما يجعل علم الاجتماع التجريبى متميزا فى الأسلوب والطريقة التى يتناول بها السلوك البشرى ، وصورة المتمايزه ، فى سياقها الاجتماعى والثقافى . ولما كان عالم الاجتماع فى علاقته بالناس والمجتمع يتبع قواعد محددة تنظم سلوكه ، وتحدد أبعاد علاقته تلك ، وتميز هذا السلوك بالصورة التى تجعله اكثر قدرة على فهم هذا العالم وهذه العلاقات . فان تلك المقدرة على الوصف والتفسير تعتمد على ما يتمتع به الباحث من اتجاه علمى نحو التجريبية الفينومينولوجية المعاصرة وسلوك علمى فى عملية البحث . وتلك المقدرة تؤخذ بدورها على أنها نمط من السلوك البشرى الذى يقع فى دائرة البحث والدراسة ، فإذا لم يكن عالم الاجتماع قادرا على فهم سلوكه واتجاهه العلمى ، بمعنى انه إذا لم يكن قادرا على فهم نفسه . فكيف يستطيع ان يتفهم ما يدور من حوله . وفهم نفسه هنا يتم فى دائرة فهمه لنظامه العلمى على المستوى النظرى والمنهجى، الذى يستند إليه فى فهم سلوك الآخرين ، وعلاقاتهم ببعضهم ، والمحيط الاجتماعى والثقافى الذى يتفاعلون معه .

والاتجاه العلمى والسلوك العلمى لعالم الاجتماع يتحددان بمدى فهمه لحدود الصياغة النظرية ، والمعالجة المنهجية ، التى تحدد طريقة هذا العلم واسلوبه فى وصف السلوك البشرى وتفسيره . ومن ثم يكون السلوك العلمى إحدى أنماط السلوك البشرى المتعددة .

ولما كانت الظاهرة الاجتماعية كما يعرفها عالم الاجتماع الفرنسى اميل دوركايم ، هى كل اسلوب للسلوك يعم فى المجتمع ، والتى توجد فى نفس الوقت بذاتها مستقلة عن مظاهرها الفردية [1] ، فإن علم الاجتماع التجريبى

---

(1) Gouldner , op. cit., P.25.

باعتباره أسلوبا من أساليب السلوك العلمي الذى يمكن تفسيره فى ضوء سياقه النظرى والمنهجى للمنظور الفينومينولوجى ، الذى يميزه بذاته عن اساليب السلوك الاخرى ، وهو بذلك لا يفسر من خلال مظاهره الفردية بقدر ما يعتمد على المظاهر المنهجية والنظرية . الأمر الذى يدعم تناوله كظاهرة اجتماعية ، ثم تفسيرها بتحديد الأبعاد المنهجية والنظرية التى تحدده كنظام علمى تجريبى ، وذلك بدوره ما يؤكد على ضرورة معالجة علم الاجتماع التجريبى كظاهرة اجتماعية بمعنى معالجة النظرية الاجتماعية ، والبحث عن منظور هذا العلم المتمثل فى المنظور الفينومينولوجى ، وفى ضوء الاستراتيجية المنهجية لعلم الاجتماع التجريبى فى حد ذاته ، والتى على أساسها يتناول عالم الاجتماع سلوك الآخرين بالوصف والتفسير مستندا فى ذلك على معطيات التجريب الفينومينولوجى .

وذلك بعينه ما دفع بـ " ألفن جولدنر " ليؤكد على ضرورة رؤية علماء الاجتماع لأنفسهم بقوله "ليس من واجب علماء الاجتماع فقط أن يروا الناس كما يرون أنفسهم ، ولا أن يرون أنفسهم كما يراهم الآخرون ، ولكن من واجبهم أيضا أن يروا أنفسهم كما يروا الآخرين [1] . فذلك منطلق الحاجة لدعم الوعى الذاتى بين علماء الاجتماع ، والذى يدفع بهم لان يطرحوا حول أنفسهم نفس الأسئلة التى يطرحونها حول الاخرين ، بمعنى أننا فى حاجة لاكتساب عادة رؤية معتقداتنا العلمية الخاصة كما نرى معتقدات الآخرين .

بمعنى أن نناقش لماذا يرى البعض فى علم الاجتماع كنظام للقيم الحرة "Value-Free" ولماذا يرى البعض فى بحث ما انه جيد ، وفى بحث آخر أنه غير ذلك ؟ ولماذا يتحرك علماء الاجتماع من نظرية إلى أخرى . ولماذا يتبنى علماء الاجتماع وجهة نظر معينة تتحكم فى معتقداتهم الحرفية ، أى المعتقدات المتعلقة بتخصصهم ؟ وذلك فى سياق تعرفنا على جوانب القصور

(1) Rex , John , key Problems of Sociological Theory , London , Routhiedge & Kegan Paul , 1973. P.42.

الحالية فى تحديد الفهم الجاد للصعوبات التى تكتنف النظر لبحث ما على أنه جيد ، والآخر غير جيد ، فى تناول الظاهرة . والمعايير التى يمكن الاستناد إليها فى التقييم وإصدار الأحكام العملية حول السلوك . وصولا بذلك إلى تحديد استراتيجية المنهج العلمى ، ليس على أساس منطقى فقط ، ولكن على أساس أخلاقيات العلم فى دراسة الظاهرة الاجتماعية على ان يكون علم الاجتماع التجريبى الظاهرة الأساسية التى تناقش فى ضوء تلك الاستراتيجية المنهجية الفينومينولوجية لفهم طابع علم الاجتماع كنظام علمى تجريبى يتسق مع التجريبية الفينومينولوجية المعاصرة وذلك بفهم نظرياته حول السلوك الاجتماعى والبشرى ، ومنهجيته الفينومينولوجية فى تناول الفرضيات التى تطرحها تلك النظريات حول الإنسان والمجتمع .

وتحديد مدى قدرته على إخضاع المنظورات التفسيرية للتحقق التجريبى بأنواعه المختلفة (المقنن ، والتاريخى ، والشخصى ، والفينومينولوجى) بالمعايشة .

على أن يتوفر للمتخصصين من الخبرات والمهارات العلمية التى تمكنهم من تحقيق التجريب الاجتماعى بالمستوى الذى يجعله بكفاءة عالية فى تناوله للمجتمع وظواهره وإخضاع النظريات لمعطيات تناول تلك الظواهر . وإجراء التطوير المناسب علميا لها فى ضوء تلك المعطيات .

ثانيا : الأخلاق وموضوعية المعرفة :

لا ينفصل حديثنا عن قضية الأخلاق والعلم ، وموضوعية المعرفة والعلم ، عن القضية الأساسية المتعلقة بالتأهيل العلمى للباحث ، فإذا ما توفرت له المهارات العلمية الضرورية لإنجاز البحث العلمى بمستوى نظرى ومنهجى يتسق مع النمط الأساسى لنسق التفكير العلمى ويتسق مع طبيعة موضوع البحث ، وإذا ما درب على الكيفية التى يتعامل بها مع التراث النظرى والطريقة العلمية التى يستند إليها فى صياغة النموذج التفسيرى

المرتبط بموضوع بحثه ، وكيفية إخضاعـــه للقيـــاس والتحقـــق التجريبـــى الفينومينولوجي ، وإذا مـــا تمثـــل الأســـس العلميـــة للإجـــراء التجريبـــى الفينومينولوجي فى البحوث الاجتماعية بأنماطه المختلفـــة ، وتـــدرب علـــى خطوات التعميم التجريبى وإجراءاته المختلفة ، وإذا ما تفهم الأسلوب العلمى للتحليل ، ومراجعة المفاهيم والفروض ، والتعريفات فى ضـــوء المعطيـــات التجريبية وقضايا الفينومينولوجية والوصول بها إلى مستويات معينـــة مـــن التعميم العلمى المستند الى الاستدلال الاستقرائى إذا ما تحقق له ذلك أمكننـــا ان نطالبه بتحقيق مبدأ أخلاقية العلم ، ومبدأ موضوعية المعرفة القائمة علـــى وحدة الواقع الموضوعى والواقع الذاتى .

وهنا تثار القضية الأساسية لعلم الاجتماع التجريبى وهى ضرورة جعلـــه ضمن الموضوعات الأكاديمية بـــأى مـــن الـــبرامج الأكاديميـــة الجامعيـــة بمستوياتها المختلفة حتى توفر لدارسى علم الاجتمـــاع المعرفـــة والخـــبرة الضرورية بأبعاد النظام العلمـــى لعلـــم الاجتمـــاع التجريبـــى والتجريـــب الفينومينولوجي والقضايا الفينومينولوجية التى يستند إليها لهذا العلم ، وحدود التجريب الكلاسيكى والفينومينولوجي فى دراســـة الظواهـــر الاجتماعيـــة ، وصياغة الأنساق النظرية التفسيرية، مـــع ضـــرورة إدراج بعـــض فـــروع المعرفة السسيولوجية الأخرى التى تعزز القدرات العلمية للباحثين ، مثل علم الاجتماع الرياضى وعلم الاجتماع المقارن وعلم الاجتماع المعرفـــى وعلـــم الاجتماع الفينومينولوجـــى وعلـــم الاجتمـــاع الوجـــودى والإحصـــاءات واستخدامات الحاسب الآلى فى البحوث الاجتماعية ، وانطلاقا من ذلك سوف نلقى الضوء على قضية الأخلاق وموضوعية المعرفة من خلال الموضوعية التالية :

- الأخلاق وموضوعية المعرفة .
- المؤشرات الموضوعية وموضوعية المعرفة .

١– علاقة الأخلاق بموضوعية المعرفة (١):

يعتبر الحديث عن الجانب الأخلاقي في العلم من أولى القضايا الهامة التي تثار ، والتي لامناص من إثارتها . وذلك يرجع في أساسه لكون الأخلاق بمثابة وصية للعقل . فإذا كانت القيمة الأساسية في العلم تشير لاعتقادنا بأنه من الأفضل ان نعرف اكثر من ألا نعرف ، فان الوصية التي توجه عمل العقل متضمنة في هذه القضية البسيطة والتي تشير إلى ضرورة جعل المعرفة رؤية نشطة . وذلك ما يعزز القيم الخاصة بالبحث الدائم عن المعرفة وعدم قصرها على العالم وحدة ، نظرا لان الوصية الخاصة بأهمية المعرفة التي تشير إلى انه إذا كانت المعرفة افضل من الجهل بالنسبة للعوام من الناس كما هي بالنسبة للعلماء ، فانه يجب نشر معطيات العلم وجعلها عامة .

والواقع أن الاعتقاد بان المعرفة افضل من الجهل من القضايا المقنعة والمقبولة ، لأنها تشير لأمور لا تحتمل الشك كما أنها تبرر بدورها النوعية الخلقية للعلم ، والتي يمكن أن تجعل معطياته المعرفية مثمرة ومفيدة . وذلك ما يشير لأهمية تدريب العالم وإعداده ليكون عمله موجها نحو تحصيل المعرفة الحقيقية حول ظواهر الواقع . وان يكون عمله متسما بالأمانة المطلقة باعتبارها مسألة أخلاقية ، وضرورية أيضا لأى عالم من العلماء . وهذا النوع من أخلاقية العلم ، والتي تشير إلى أمانة العالم تتطلب منه ان يعترف بخطئه عندما يقع في الخطأ (٢). وذلك ما يقرر بدوره أن موضوعية العالم تقتضي منه التحرر من أى توجيه أيديولوجي ، أو اعتقاد فكرى ، أو تحيز ثقافي . وأن يكون متحررا من أى ضغوط اجتماعية وثقافية وفكرية .

---

(١) دكتور / السيد على شتا ، المنهج العلمي والعلوم الاجتماعية ، الإسكندرية ، مكتبة الإشعاع ، ١٩٩٧م

(2) Goode & Hatt op. cit., P.21.

أخلاقيا يسم العلم الحديث . وإذا كانت العلوم الاجتماعية على علاقة قوية بالتوجيهات القيمية وبصورة اكثر من العلوم الطبيعية ، فان دور العالم الاجتماعى فى تحقيق الموضوعية يزداد أهمية فى مجال العلوم الاجتماعية .

٢- مؤشرات الموضوعية وموضوعية المعرفة :

ثمة اتجاه واضح بين علماء الاجتماع ، يؤكد على ضرورة تحقيق موضوعية المعرفة ، فى العلوم الاجتماعية . وان كان أصحاب هذا الاتجاه يتخذون محكات معينة ومختلفة فى بعض الأحيان لبلوغ هذه الموضوعية . فمنهم من يؤكد على ضرورة تحقيق حيادية الباحث فى مراحل البحث المختلفة ، ابتداء من صياغة النظرية التى توجه البحث إلى مرحلة جمع البيانات وتحليلها وتفسيرها . ومنهم من يؤكد على محكات الصدق والثبات ، وكفاية المعلومات فى البيانات التى تنهض عليها المعرفة فى العلوم الاجتماعية ، ومنهم من يؤكد وحدة الجوانب الموضوعية والذاتية فى معالجة الظواهر الاجتماعية .

وأخيرا يذهب فريق من العلماء الاجتماعيين ، وعلماء المناهج ومنهم "جوبال" إلى أن تحقيق موضوعية المعرفة ينهض أساسا على الحيادية من جانب الباحث ، وصدق وثبات وكفاية البيانات التى تنهض عليها المعرفة فى جانب أخر .

ومن ثم يكون الابتعاد عن أى أحكام معيارية شرط ضرورى لتحقيق الحيادية . على ان يكون التوجيه النظرى للباحث قائما على الحوار النقدى للاتجاهات النظرية المختلفة ، ووضع قضاياها فى حوار مع معطيات البحوث الامبيريقية للواقع موضوع البحث مع اتخاذ قضايا المنظور الفينومينولوجى إطارا مرجعيا عاما .

أما عن تحقيق الثبات فى المعرفة فذلك يقتضى تحقيق درجة من الصدق والثبات فى أدوات (وسائل) البحث . وذلك باختبار ثباتها بإعادة تطبيق

أدوات البحث على نفس عينة الدراسة مرة ثانية بعد فترة زمنيـــة معينـــة . لمعرفة إلى أى مدى تكون البيانات المتحصلة فى حالة التطبيق الثانى مطابقة للبيانات المتحصلة فى التطبيق الأول (1) .

كما أن الإنسان باعتباره ملاحظ للظاهرة يؤثر على عملية ثبات المعرفـة إذا لم يخطط لنفسه كيفية تحقيق ثبات المعلومات حـول الظـاهرة . وذلـك بالحصول على اتفاق من المبحوثين حول القضايا التى يناقشها معهم ، والتـى تهم موضوع البحث وهذا الاتفاق على القضايا أولى خطوات تحقيق ثبـات المعرفة أما عن الأساس الثانى لتحقيق الثبات فى المعرفة ، وبالتالى صدقـها فهو تمثيل وحدة الدراسة ، سواء كانت أفرادا أو جماعات أو مجتمعا محليـا بعينه ممثلة لهذه الوحدة . بحيث تتوفر فيها كافة خصائص المجتمع الأصلـى وان يكون ذلك بنسبة كافية لتمثيل وحدة الدراسة الأساسية أو مجتمع الدراسة الأساسي .

أما الحقيقة الثالثة لتحقيق ثبات المعرفة من قبـل الملاحـظ أو البـاحث فترتبط بالباحث نفسه . وذلك لان الثبات يمكن ان يتحقق بقدر معقـول ، إذا ما اتبع قواعد واسعة ومحددة لممارساته للبحث . وذلك بان يوفـر العوامـل الشخصية الكفيلة بجعله فى حيوية فكرية وجسمانية ، كفيلة بتناول الظـاهرة بوضوح كاف ، ودون ان يكون متحيزا . وذلك بتوفير المعرفة الكافية حـول الظاهرة بوضوح كاف ، ودون أن يكون متحيزا . وذلك بتوفـير المعرفـة الكافية حول الظاهرة ، واستبعاد أى أحكام معيارية ، والاستناد فى أحكامـه فقط لمعطيات الواقع حول الظاهرة موضوع البحث (2) .

فى حين أن صدق المعرفة يعتمد على مدى الاتساق بيـن بنـود أدوات البحث وموضوع دراسته ، ومدى ما تتمتع به أدوات جمع البيانـات حـول الظاهرة من اتساق . هذا فضلا عن تلاؤم التكنيكات المنهجيـة لموضـوع

---

(1) Gobal , op. cit., PP.206-207.

(2) Gobal , op. cit., PP.179-181.

البحث . ولاشك ان ثبات البيانات يحقق صدق المعرفة حول الظاهرة .

وبالنسبة لكفاية المعلومات حول الظاهرة لتفسيرها ، فذلك من المحكات الأساسية لتحقيق موضوعية المعرفة ، إذ من الضرورى ان تتوفر لدينا البيانات الكافية حول الظاهرة لإمكان تقديم التفسيرات العلمية لها ، ولإمكان التعرف على كافة جوانبها البنائية والدينامية .

أضف لذلك أن موضوعية المعرفة تستند أساسا إلى مدى تكامل المعالجة المنهجية للظاهرة بحيث نتناولها من جانبيها البنائى والوظيفى . لما يحققه ذلك من رؤية الظاهرة من زواياها المتعددة ، وبصورة كاملة . فضلا عن كون المدخلين البنائى والوظيفى محققان لتكامل الجوانب الاجتماعية والإنسانية المرتبطة بالواقع الاجتماعى .

ولما كانت موضوعية المعرفة مسألة هامة فى العلوم الاجتماعية ، كان من الضرورى أن يوفر البحث موضوعية الوصف Description والتفسير Explanation والتنبؤ Prediction للسلوك الاجتماعى البشرى . فى حين أن العلوم الاجتماعية لا تنفصل عن الاتساق ، لان العلماء لا يهتمون بالوصف البسيط للحقيقة الراهنة ، ولكنهم يرغبون فى التنبؤ بالحوادث المستقبلية (فالعلم بالإضافة إلى كونه مشروع وصفى فانه يتضمن الغاية كتنبؤ) . والتنبؤ قد يؤدى الى مزيد من الضبط ، والضبط للبشر الآخرين ليس بالقرار العلمى فحسب ، ولكن الضبط هنا ، أى ضبط البشر هو أيضا قرار أخلاقى ومعيارى (١).

وفضلا عن ذلك فان العلوم الاجتماعية لا يمكن تناولها منفصلة عن السياق المجتمعى Societal Context. وذلك لأن نشاطات تلك العلوم ، ومعطياتها ذات أهمية اجتماعية بالغة بالضرورة (٢) .

---

(1) Smith , H.W., op. cit., PP.3-4.
(2) Forceso , Dennis & Richer , Stephen , Social Research Methods , N.J. : Prentice Hall 1973. P.15.

ونتيجة لعدم انفصال العلوم الاجتماعية عن الإنسان ممثلا فى العلمـــاء ، والبشر الذين يخضعون لعملية الضبط . التي يقتضيها التنبؤ في تلك العلوم ، وما يتضمنه هذا التنبؤ من قرار أخلاقى ومعيارى من ناحية ، وارتباطـــهما أى ارتباط العلوم الاجتماعية بسياق المجتمع الذى تكون معطيات تلك العلـوم ذات أهمية بالغة وضرورية له من ناحية أخرى ، أصبحت قضية موضوعية المعرفة فى تلك العلوم على درجة كبيرة من الأهمية . ومن ثم تتـــأكد لنـــا أهمية تحقيق محكات الموضوعية المشار إليها سلفا لضمان قدر معقول مـــن موضوعية المعرفة فى العلوم الاجتماعية ، التى يتصل نشاطها ، وترتبـــط معطياتها بالإنسان فى جانب والمجتمع فى جانب أخر . والتى تشكل ضرورة لاغنى عنها لكل من الإنسان والمجتمع .

ثالثا : المفاهيم العلمية : *Concepts*

١- لغة العلم ولغة الحياة اليومية :

تزايد الاهتمام حديثا بالمفاهيم المستخدمة فى نطاق العلم وبنائه النظرى ، وقد بلغ هذا الاهتمام حدا اصبح معه هـــدف الميتافيزيقـــا الحديثـــة تحقيـــق الوضوح الفكرى ، بالدراسة المدققة الواضحة للمفاهيم . وقد ترتب على ذلك دراسة المفاهيم العامة المستخدمة فى العلم والحياة العادية . ومن أمثلة ذلـــك اهتمام الميتافيزيقيين المحدثين بدراسة المفاهيم المتعلقة بالمكـــان والزمـــان والمستخدمة فى الحياة العادية . ومقارنتها بتلك التى تستخدم فى العلم .

وقد تحقق ذلك فى بعض جوانبه بدراسة الجوانب المختلفة لاستخدام اللغة ومن ثم فإن اهتمام الميتافيزيقيين المحدثين يتمثل اليوم فى محاولتهم لاكتشاف كيفية ارتباط المفاهيم ببعضها . وكذلك لمعرفة ارتباط المفاهيم المادية بمفهوم السببية وذلك ما هو واضح فى النموذج الطبيعى للعلم وبوجه خاص فى علـم الطبيعة أما بالنسبة للعلوم الاجتماعية وبوجه خاص علم النفس وعلم الاجتماع

فان مشكلات المفاهيم المتعلقة بالزمان والمكان قد تولدت فـــى نظريـــات النسبية . وبالنسبة للمشكلات المتعلقة بحدود الفرد فقــد نتجـت فــى علــم البيولوجيا وبوجه خاص فى مناقشة محاولات تحديد وحدة التطـــور . أمــا بالنسبة لعدم الرضا بعلم النفس فانه غالبا يرجع فى بعـــض جوانبــه لعــدم وضوح المفاهيم الميتافيزيقية مثل الشخص والعقل .

وبالنسبة لمشكلة المفهوم فى علم الاجتماع ، فهى محصلة المشكلات التى تولدت فى العلوم المختلفة من ناحية (وذلك راجع لكون علم الاجتماع يسعى لتحقيق التنبؤ حول ظواهره ، ومحصلة الطبيعة التجريدية لموضوعــه مــن ناحية أخرى) . هذا بالإضافة لنسبية الزمان والمكان التى تمــيز الظـــاهرة الاجتماعية التى يتناولها وذلك ما ترتب عليه ظـــهور المشــكلات المتعلقــة بالمفهوم من حيث خضوعه لنسبية الثقافة وما ترتب عليه من تنوع أو وجود فروق نوعية فى دلالة الاستخدام فى الثقافات المختلفة . وذلك ما ترتب عليــه استخدام المفهوم بدلالات متمايزة نسبيا فيما بين الثقافات المختلفة .

وهنا يواجه علم الاجتماع بمشكلة استخدام المفهوم فى الثقافات المختلفة . والتى تتأثر باستخدام المفهوم فى الحياة العادية ، ومقارنته بالاستخدام العــام للمفهوم فى العلم . إذ أن استخدام المفهوم فى العلم يتحرر من تمــايز دلالات الاستخدام فى الحياة العادية للمجتمعات .

كما أن استخدام مفهومات العلم فى سياق دراسة معينة لثقافة معينة يحتاج لعملية تحديد المفهوم بما يجعله قابل للتناول الإجرائى . بمعنــــى ان نـــهبط بالمفهوم من مستواه التجريدى العام إلى مستواه الإجرائى المحدد .

ولاشك أن عملية الهبوط بالمفهوم لمستوى الإجرائية والصعود بــه مــن الإجرائية لمستوى التجريد من أهم المشكــلات التــــى تواجـــه عالــــم الاجتمـــاع ، وذلك لأنه مطالب فى حالة الارتقاء بالمفهوم لمستوى التجريد أن يخلصه من الدلالات الخاصة ، وأن يبقى فقط على دلالالته العامة . فـــى

حين أن عملية تحويل التجريد إلى مستوى الاجرائية تقتضى ابراز الدلالـــة الخاصة بثقافة معينة . وهنا تبرز معضلة تحديد الدلالة أو المعنى العام الـذى يقوم عليه المفهوم العام المجرد ، ثم إضافة الدلالة الخاصة المتمـــيزة التـــى تجعل المفهوم قابل للاجرائية فى مجال ثقافة معينة .

ونظرا لأن المفاهيم تعبر عن الفئات العامة التى تؤدى وظيفتها فى تنظيم المعرفة العلمية ، فان فهم هذه الفئات من حيث أصولها والطريقة التى تعمـل بها فى تفكيرنا والتى ترتبط بنمو المفاهيم من الأمور الضرورية . وذلك لأن معظم الفئات العامة تدخل فى تفكيرنا بطرق متعددة والتى تتضمن الطريقـــة التى ندرك بها العالم . والطريقة التى تكون بها اللغة منتظمـــة ، وطريقـة اختيار المفهوم من بين التشكيلات اللغوية . والتى بهـــا نصف مـــا ندركـــه ونقيم [1] التنظيم حوله .

والواقع أن الحديث عن هذه الجوانب يمهد له أساسا تعريـــف المفـــهوم ، وتحديد أنواعه ، وطرق صياغته ، والتميز بين المفهوم والمصطلح . وذلـــك ما نتناوله ونحن بصدد معالجة المفاهيم المستخدمة فى نطاق العلم .

٢- تعريف المفاهيم والمصطلحات :

يعرف المفهوم concept بأنه المصطلح الذى قد يعين داله لغويـــة معينـــة لمعنى [2] ما من المعانى . وليس هذا بالتعريف الوحيد الذى قدم لتحديد معنى المفهوم . إذ أن هناك العديد من التعريفات التى طرحت والتى تساعد علـــى كشف بعض جوانب المفهوم . والعلاقة بينه وبين المصطلح . ومـــن هـذه التعريفات تعريف "نيكولا مولينز" للمفهوم بأنه يبدأ كفكرة ويعبر عنـــها فـــى كلمات . فالفكرة المعبرة عنها فى كلمات هى بداية المفهوم فقط . وهنا يشـير مولينز إلى أن الفكرة التى يعبر عنها بطرق مترابطة تكون المفهوم . كمـــا سوف يستخدم المصطلح فى سياق تحليله . فالمفاهيم فى نظره يمكن التعبـير

(1) Harre , R. op. cit., P.100.
(2) Lin,Man , op. cit., P.19.

عنها بمصطلحات terms للتعريفات الأمبيريقية أو للمفاهيم الأخرى [1] . وهو هنا يضع تفرقة أولية بين المفهوم والمصطلح على أساس أن المصطلح أكثر تحديدا وأقل تجريدا من المفهوم . وأنه قابل للإجرائية . وأن المفهوم يتضمن أكثر من مصطلح . وفي ضوء ذلك يمكن تعريف المفهوم بأنه تجريد ذهني لفكرة لها تجسيدها فى الواقع .

وبذلك فإن النظرية تضع مجموعة من الكلمات أو المصطلحات التى لها طابعا عاما فى علم الاجتماع ومن تلك المصطلحات ، المعايير ، القيم ، المجتمع، الطبقة الاجتماعية ، الدور الإجتماعى ، التراث الشعبى ، النظام الاجتماعي ، البناء الاجتماعي الوظيفة الاجتماعية ... الخ . وهذه المصطلحات ماهى إلا كلمات تستخدم لتحديد أو وصف وتمييز مفهوما أو فكرة ما . والمفهوم بذلك بمثابة تجريد ذهنى لفكرة فى عقل الإنسان . وبذلك فإن المعايير والقيم والمجتمع .. الخ ما هى إلا كلمات تعين وتحدد فكرة وتصور لما تعنيه الكلمة أو المصطلح [٢] . فما تعنيه كلمة "المجتمع" بالنسبة لعالم الاجتماع . وما يرتبط بها من تصور ذهنى ما هو إلا مفهوم عالم الاجتماع للمجتمع ، وذلك لأن مصطلح المجتمع بمثابة وصف وتمييز لتصورنا الذهنى لما تكونه المجتمعات .

ومن ثم فإن المفاهيم تمكن الإنسان من تصنيف وتأويل دلالة أو معنى كلمة ، وكذلك بناء هذه الدلالة وتحديدها . ونظرا لأن المفاهيم التى يستخدمها الإنسان فى حياته اليومية لتصنيف العالم ما هى إلا جزء مما نسميه بالثقافة . فإن عالم الاجتماع يبنى عالمه بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الإنسان فى الحياة اليومية . وذلك لان عالم الاجتماع لايستطيع أن يستخدم مفاهيم الحياة اليومية لغموض هذه المفاهيم وعدم وضوحها بالنسبة لحاجاته . لأنه (اى رجل الشارع يريد الحياة (البقاء) . والنجاح فى حين ان عالم الاجتماع يصف هذه

(1) Mullins Nicholas , C., In , Wella , Allan : op. cit., P.61.
(2) Winton , Chester A. Theory and Measurement in Sociology , N.Y. : John Wiley & Sons , Inc, ., 1979. P.5.

الرغبة بالنسبة للبقاء . أو النجاح [1]. كما انه يبحث فى أسباب الرغبتين . وما يرتبط بهما من وظائف ، وما يترتب عليها من نتائج .

وتشير المفاهيم الخاصة بعالم الاجتماع لعالمه الخاص لأنها تعكس الجانب الفينومينولوجى . أى رؤيته . وتصوره الذاتى للعالم . وذلك لأن المفاهيم التى يستخدمها عالم الاجتماع مثل الدور الاجتماعى ، والقيم ، والمعايير .. الخ . والتى توجد فى ذهنه لا تشكل ظاهرة حقيقية في العالم لإنها بناءات ذهنية لعالم الاجتماع . جردناها من العالم الحقيقي ويستخدمها كوسيلة لمناقشة الإنتظامات التى يراها فى هذا العالم . وعندما تستخدم المفاهيم التخيلية التجريدية تلك فى الواقع المعاش ، نسمى هذا تحقيقا للتجريد فى الواقع الفعلى .

ولا يعنى استخدام عالم الاجتماع لمفاهيم مختلفة عن تلك المفاهيم الخاصة برجل الشارع ، أنه سيأخذ منظورا مختلفا حول العالم . وإنما يرجع تلك لكونها افضل للفهم والتنبؤ بأنماط السلوك . وذلك ما جعله يميل لاستخدام مفاهيم اكثر تحديدا من المفاهيم الدارجة فى الحياة اليومية .

٣- أنواع المفهومات :

إن القيمة المرجوة من دراسة المفاهيم بالنسبة للعلم . تتمثل فيما تضفيه هذه الدراسة من تحديد للفرضيات الواضحة التى تتضمنها اللغة . والنماذج المستخدمة . فإذا كانت هذه الفرضيات معلومة فإنه يمكن التحكم فيها وتفسيرها نظاميا . والواقع إن أى عمل تجريبى وحده لا يمكنه تحديد أى من المفاهيم أفضل من حيث استخدامها وذلك لأنه لكى تجرى تجربة ، فإن إجرائها يتطلب وجود تصور للمشكلة وهذا بدوره يتطلب استخدام بعض المفاهيم . ومما هو جدير بالذكر ان الممارسة العلمية تقتضى استخدام بعض المفاهيم ، والتى نفكر بها حول العالم . وهنا يقسم "هار" R.Harre المفاهيم

(1) Winton, C. op. cit., P.6.

العلمية إلى فئتين واسعتين أسماهما بالمفاهيم المادية Material Concepts والتي من أمثلتها الكتلة ، والطول ، والقوة ، والسواء ... الخ . وهذه المفاهيم تحدد النوع والكيفية معا . وهي تستخدم في وصف الأشياء والمواد والمعطيات أيضا . فالأشياء والمواد لها كتلة ولها أيضا قوى دافعة وتكافؤ ... الخ . وبذلك تستخدم المفاهيم المادية لوصف الأشياء والخصائص والعمليات الملاحظة . وغير الملاحظة .

والمفاهيم الصورية Formal Concepts تستخدم لإحضار البناءات والتنظيمات البديلة ومن هذه المفاهيم – مفاهيم السببية ، والوجود ، والتوحد . وهي بذلك مفاهيم صورية فالمفاهيم المتمثلة في الوجود Existence والتوحد Identity تفرض تنظيما فكريا على ملاحظاتنا . كما إنها تستخدم للتعبير عن فهمنا لما يحدث (1) .

وقد قدم " نورمان دنزين " تصنيفا للمفاهيم على أساس التمييز بين مفاهيم لغة الحياة اليومية ، والمفاهيم التجريدية المستخدمة في نطاق العلم . مؤكدا على ضرورة التمييز بين المفاهيم المستخدمة في الحياة اليومية بالنسبة للحقيقة وتلك المفاهيم العلمية للحقيقة (2).

٤– تعيين المفهوم :

أ– طرق تعيين المفهوم :

ثمة طرق أربعة أساسية لتعيين المفهوم وصياغته ، وتتمثل هذه الطرق في الاعتماد على تخيلنا الخاص ، وبواسطة الخبرة . ومن المفاهيم الأخرى ، واصطلاحيا (3) ولاشك في أن هذه الطرق التي يعين بها المصطلح متفاوتة فيما بينها من حيث تأصيل المفهوم ، وجعله على مستوى الصياغة العلمية .

---

(1) Harre R. op. cit., p.28.
(2) Denzin , Norman K., The Research Act, N.Y. : McGraw - Hill Book Company , 1978. P.11.
(3) Lin,Man, Foundation of Social Research , N.Y. : McGraw - Hill Book Company, 1976. P.19.

فبالنسبة للطريقة الأولى والتى تشير لتعيين المفهوم من خلال التخيل Imagination أى على أساس تخيلنا الخاص ، فقد يتحقق من خلال الملاحظة أنه لم يعط بعدا أو مسما لوضع معين من الأنشطة بعد . أو أن المسمى المعطى لوضع معين غير ملائم . وبالنسبة لأغراضنا فقد نرغب فى تعيين فئات لأوضاع من الأنشطة المتعددة أو أن نقسم وضعا لأوضاع فردية متعددة.

وفى مثل هذه الأوضاع قد ننشىء مفهومات تشير لوضع ، أو تنظيم أنشطة اجتماعية معينة قد استخدمت لتعيين فئات رتب للأفراد (وذلك مثل مكانة العمل أو الدخل المتمايز) ، فمفهوم المركز الاجتماعى - الاقتصادى أنشىء لتلك الأنشطة كما أن الباحث يجد أن المركز المهنى يعبر عن تمايز العمل [1] .

والطريقة الثانية لتعيين المفاهيم هى بواسطة الخبرة experience وتتضمن الخبرة الملاحظات الشخصية للأنشطة الاجتماعية . فكما لاحظ علماء الاجتماع إنجاز جماعات بشرية معينة لأهداف ، أو تقديم نتائج ، فإنهم لاحظوا أيضا إن ترتيب رتب الأفراد فى هذه الجماعات قد عينت جيدا . وفى السياق السسيولوجى أستخدم مفهوم التنظيم بحيث سمح بتعيين معظم التنظيمات التى يمكن فهمها باستخدامنا للمفهومات .

وتشير الطريقة الثالثة لتعيين المفاهيم بواسطة الاتفاق أو الاصطلاح convention . حيث نجد أن العديد من المصطلحات لها معان اصطلاحية بالنسبة للجماعة والمجتمع المحلى والثقافة . وهذه تمدنا بالمصادر الاصطلاحية للمفاهيم بالنسبة للنظريات الاجتماعية ، فمصطلحات مثل القصر، والراشدون ووسائل الإعلام وغيرها ، قد وجدت طريقها فى العبارات النظرية .

(1) Lin,man , op. cit., P.19.

وتتمثل الطريقة الرابعة فى أن المفاهيم قد تصاغ من مفاهيم أخرى ومن أمثلة ذلك : عندما نشرح مفهوم المركز الاجتماعى الاقتصادى . قد يكون عالم الاجتماع مهتما بالفرد الذى له مرتبة عالية بالقياس لمؤشر واحد للمكانة الاقتصادية الاجتماعية (مثل التعليم) ، وله مرتبة منخفضة على أساس مؤشر أخر مثل (المهنة) . وهذا التفاوت يصير مركز لبعض العبارات النظرية . ويؤدى إلى مفهوم مثل عدم تطابق المراكز . Status Inconsistency

ومن ثم فإنه فى دراسة التفاعل بين الأفراد قد لاحظ علماء الاجتماع أنه فى بعض حالات التفاعل يكون للمشاركين مركزا اجتماعيا واقتصاديا مماثلا. فى حين أنه فى حالات أخرى لوحظ أن مراكزهم كانت غير متماثلة. مثال ذلك عندما يكون الشخص (أ) يشغل منصب مدير لبنك ، والشخص (ب) يشغل منصب مدير لبنك آخر فى حين أن الشخص (أ) حاصل على مؤهل عال ، ويتقاضى أجرا قيمته عالية . أما الشخص الآخر فإنه يحمل مؤهلا أقل من الجامعى ، ويتقاضى أجرا أقل .

ومن الأمور الهامة عند تعيين المفاهيم . والتى تأخذ شكل مبادىء أساسية لصياغة المفهوم . هو الاستناد الى الاتفاق فى صياغة المفهوم . وتجنب المفاهيم الجديدة الغير ضرورية . وذلك لان المفاهيم تصاغ فى كلمات . ومن ثم ينبغى أن نستخدم ما اتفق عليه من هذه الكلمات أو المصطلحات وفى بعض الأحيان قد نحتاج إلى بعض الكلمات أو المفاهيم لتعديلات جزئية جديدة بالنسبة لاستخدامها فى مشروع البحث . وهنا لانحتاج لطرح مفاهيم جديدة . وإنما على الباحث أن يقدم تعريفه الخاص للمفاهيم المتفق عليها ، لإيضاح التعديلات التى أدخلها فى استخدامه [1] للمفاهيم .

ب- أسس الاتفاق على المفهوم :

عندما نتساءل عما هو المفهوم الصحيح ؟ وما هو أساس قبول المفهوم

---

(1) Lin, Nan , op.cit., P.20.

للتعبير عن وضع معين للأنشطة ؟ هنا نجد ان الإجابة البسيطة التي طرحت بهذا الصدد في سياق الحوار السابق تؤكد على أهمية الإجماع والاتفاق على المصطلح أو المفهوم ، باعتباره أساسا لقبول مفهوم دون غيره . وإذا كان الإجماع على التعريف الإجرائى لمفهوم مسألة منهجية ، فإن أهمية الإجماع تصل إلى حد الضرورة المطلقة بالنسبة لاستخدام المفهوم على مستوى النظرية . وذلك لأن الإجرائية تدخل فيها اعتبارات البيئة المحلية الثقافية ، في حين أن النظرية تتجاوز حدود المحلية الثقافية المحدودة النطاق .

ومن ثم تحتاج المفاهيم التى تنهض عليها النظرية لنطاق واسع من الإجماع بين العلماء على هذه المفاهيم . وتتمثل أولى أسس الإجماع فى كون علماء الاجتماع يشاركون بعضهم الاهتمام فى أن بعض الأوضاع الملاحظة تشترك مع بعضها فى خصائص معينة . بحيث يساعد استخدام مفهوم معين على فهم تلك الخصائص نظرا لأنه يتضمن هذه الصفات والخصائص التى تشترك فيها تلك الأوضاع . وفى ضوء هذا الإجماع أو الاتفاق بين علماء الاجتماع يتوفر لدينا موافقة عامة على أن الأوضاع الملاحظة والمتضمنة فى وضع معين تشترك مع بعضها فى خصائص معينة يقوم عليها المفهوم .

ويتمثل الأساس الثانى للاتفاق أو الإجماع على المفهوم فى كون المنطق المستخدم فى صياغة المفهوم مشتركا بين علماء الاجتماع وأن الأساس النظرى عام ومشترك . إذ أنه بدون وجود هذه العمومية فى استخدام الأساس المنطقى لصياغة المفهوم سوف يختلف معنى المفهوم بين من يفهمون المفهوم طبقا لأطر منطقية مختلفة .

أما الأساس الثالث للإتفاق على المفهوم فيتمثل فى إقامة البرهان على المفهوم من خلال الاختبارات الامبيريقية . وذلك لأن القناعة بصحة مفهوم معين تتأكد عندما تتحدد التعريفات الإجرائية للمفهوم النظرى . بحيث تكون متضمنة للأبعاد والخصائص الأساسية التى يتضمنها المفهوم النظرى دون أن تدخل فيها أبعاد أخرى تفرضها محلية الثقافة التى يستخدم فيها المفهوم .

ويتسق هذا التوجه مع مفاهيم المنظور الفينومينولوجي .

والواقع أن أسس الاتفاق الثلاثة المشار إليها بالنسبة للمفهوم أساسية على مستوى الصياغة النظرية ، كما أنها مطلب أساسي لقبول نظرية دون غيرها. وذك لإنها تتم عادة بين علماء الاجتماع باعتبارهم خبراء في مجال تخصصهم [1] .

٥- المفهوم بين التجريد والإجرائية :

إن العمل الامبيريقي في حد ذاته لا يمكننا من تعيين أى من المفاهيم أفضل في استخدامه دون غيره . وذلك لأنه لكي يجرى العمل الامبيريقي فإنه يتطلب تصورا ما للمشكلة التي يتناولها . وهذا التصور يتطلب بدوره استخدام بعض المفاهيم[2] ذلك لأن المعرفة العلمية لا تأتي من مجرد الملاحظات العشوائية للوقائع ، وإنما هي تحقق امبيريقي لعبارة ما حول الظاهرة. وذلك يعني أن الملاحظات العلمية والإطار النظري الذي يوجه هذه الملاحظات يؤكدان على أهمية المفهوم ، ووظيفته العلمية . وذلك لأن العلم يحاول بحث جوانب معينة للحقيقة بنسق فكري مجرد . يؤول هذه الجوانب . والعلم بذلك ينمي مفاهيمه ومصطلحاته بالتناول الاجرائي للوقائع ، ونظرا لأن المفاهيم أساس لصياغة العبارات التي يتضمنها النسق التجريدي للعلم. فقد يشار للنسق النظري للعلم على أنه نسق المفاهيم ، أو نسق تصوري كما درج البعض على ترجمة مصطلح Conceptual scheme بالإطار التصوري . واستخدامنا للمصطلحات لتحديد وفهم جوانب الظاهرة التي نبحثها ، وبالتالي فعندما نصيغ قضية معينة فإننا نستخدم المفاهيم كرموز للظاهرة التي ندرسها [3] . ومن ثم جاء تعريف القضية باعتبارها عبارة حول العلاقة بين

---

(1) Dubin, Robert , Theory Building , N.Y. : The Free Press 1978, P.12-13.

(2) Harre. R. op. cit., PP.16-17.

(3) Goode W. and Hatt, Methods in Social Research , London : McGraw-Hill Kogakusha L.T.D. ,1942 , P.41.

مفهومين أو أكثر [1] . والعلاقة التى نقصدها هنا هى أى جانب أو أى كيفية يمكن أن تربط أو توصل نشاطين أو مفهومين أو اكثر . ومهما كان شكل العلاقة التى نقيمها بين المفاهيم ، فإنها تشير إلى أن المفاهيم أساس للصياغة النظرية . وأنها أى المفاهيم أساس أيضا للعمل الإجرائى .

وهنا نجد أن جميع المفاهيم تجريدية . وأنها تعرض فقط بعض جوانب الحقيقة وأن تنمية هذه المفاهيم يستند للعمل الامبيريقى وذلك ما جعل كل من "جود " و "هات " يذهبان إلى أن المفاهيم ما هى إلا بناءات منطقية تولدت عن الخبرات المعقدة . ولا يعنى هذا التأكيد على المفاهيم فى إطار نسق التفكير العلمى أنها بمثابة ظاهرة فى حد ذاتها . وذلك لان المفاهيم لاتشكل ظاهرة فى حد ذاتها ، بمعنى ان هذه البناءات المنطقية لا توجد خارج نطاق الإطار المرجعى الذى نحدده . وذلك لأن النظرية تتناول جوانب الواقع .

أما المفاهيم فى بناء النظرية فترمز لهذه الجوانب التى تتناولها نظرية ما . ومن ثم فإن المفاهيم تستمد معانيها من السياق الفكرى الذى تكون بداخله [2] . وإن كانت المفاهيم ترمز للعلاقات الامبيريقية الظاهرة ، فإن العلاقات بين المفاهيم بدورها بمثابة بناءات منطقية لتلك المفاهيم . وبذلك فإن المفاهيم أساسية للاتصال الفكرى بين التصور والعمل الامبيريقى .

ومن ثم تدخل عملية صياغة المفهوم ضمن أساسيات نسق التفكير العلمى وتشكل إحدى جوانبه . لما تحققه من اتصال بين العنصر النظرى والعنصر المنهجى للعلم . كما أن فهم المصطلحات الأساسية للعلم تحقق الاتصال العلمى بين المرء والعلم الذى يتخصص فيه . فبدون استيعابه لمفاهيم العلم . لا يمكنه فهم المجال الذى يتخصص فيه . وذلك لأن استيعابه للمفاهيم يمكنه من مشاركة الآخرين فى الإطار المرجعى العام للعلم . ومن ثم يأتى تعريفه لأى من المفاهيم المستخدمة متفقا مع الاتجاه العام لتعريف المفهوم . وتحديد

(1) Lin, Nan , op. cit., P.20.

(2) Goode & Hatt , op. cit., P.42.

أبعاده التى يرمز بها للظاهرة .

وهذا هو السر الكامن وراء عدم وضوح التعريفات ، وعدم وصف المفاهيم بطريقة ملائمة من قبل من لا يستوعبون مفاهيم تخصصهم . ومن ثم أرجع "جود " و "هات " نفس الوضوح هذا لبعض الأسباب العامة المرتبطة بالاتصال العلمى . والتى تتمثل فى :

كون نمو المفاهيم ينبع من الخبرة المشتركة . هو الذى يؤدى إلى استمرار استخدام المصطلحات أو المفاهيم . وذلك ما حدث بالنسبة لبعض المفاهيم السسيولوجية مثل مفهومى المجتمع والمجتمع المحلى (الجماعة) Gemeinschaft،Gesellschaft فمنذ أن قدمهما "تونيز" فى الدراسات السسيولوجية الألمانية وهما يستخدمان فى علم الاجتماع الأمريكى . كما ترجما إلى الإنجليزية بمصطلحى المجتمع Society والمجتمع المحلى Community والواقع أن اللغة التى تعرض الخبرة المشتركة لها جوانبها الهامة بالنسبة لدارسى العلم .

إضافة لذلك فإن المصطلحات المستخدمة لتشير للمفاهيم العلمية قد يكون لها أيضا نفس معانيها فى الأطر المرجعية الأخرى وذلك ما يجعل الاتصال العلمى ممكنا على مستوى التخصص ، وبين النظم العلمية الأخرى ، كما أنه يمكن أن يشير المصطلح لظواهر مختلفة . وقد تتغير معانى المفاهيم ، وذلك لأن كل علم يجعل تعديل مصطلحاته مرتبطا باستمرار تراكم معرفته [1] .

ومن الواضح أن العلوم الطبيعية تعطى تأكيدا كبيرا على الطابع الإجرائى للمفهوم نظرا لأن القليل من مفهوماته هى التى تشير للخبرة المباشرة ، وذلك مثل : الوزن والطول أو اللون . وحتى هذه المفاهيم تعرف إجرائيا أيضا . فى حين أن معظم المفاهيم تشير للظاهرة التى تكون غير قابلة للقياس أو غير واضحة للعين المجردة . ومن ثم فهناك تأكيد كبير على ان العلماء من

---

(1) Goode & Hatt , op. cit., PP.39-48.

الأمم الأخرى والذين يفكرون بلغات أخرى سوف يعنون نفس الشيء بالمفهوم . ويبدو أن علم الاجتماع قد طور كثيرا في الوضع المشترك للبحوث الإجرائية . وأنه يحدث نموا متزايدا للتعريفات الإجرائية في هذا المجال . وباستناده للإطار النظرى والمنهجى الفينومينولوجى سوف تحل المشكلات المعلقة بالمفاهيم .

والواقع إن التشتت والارتباك فى النظام العلمى ينجم عن استخدام المصطلح للإشارة إلى ظواهر مختلفة . وإذا كان التعريف النظرى للمفهوم يشير للسمات العامة المجردة للخبرات الملاحظة ، فإن التعريف الإجرائى يعرف الظاهرة بتحديد أكثر وبما يساعد الباحث على إخضاعها للقياس .

ومن ثم فإنه من الضرورى أن يكون لدينا وعى تام بمشاكل المفهوم ، وأن نكون مدركين أن المصطلح التقليدى (مثل التماسك الاجتماعى ، والبناء الاجتماعى) لايشير بصورة تامة للظاهرة على النحو الذى تعرف به عن طريق التعريفات الاجرائية التى تعنيها . وفى بعض الحالات قد يكون التعريف الاجرائى اكثر تعقيدا . وقد تكون نتائجه غير مثمرة مثل التعريف التقليدى [1] . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المجال أنه عندما تكون المصطلحات واضحة فإنها لا تسبب صعوبات فى استخدامها وأنه عندما يحدث ارتباك فى استخدام المفاهيم والمصطلحات يؤدى ذلك إلى صعوبات معينة فى استخدامها .

ومن ثم فإن العلماء من حين لأخر يحاولون تحليل المفاهيم للتعرف على أوجه المفارقة والالتقاء فى استخدامها وذلك لتقديم الحلول المطلوبة . ولهذا فان تحقيق الاتصال العلمى يعتمد على التعميمات التى تجرى بالنسبة لاستخدام المفهوم . كما أن إعادة تحليل المفهومات يفيد كثيرا فى تنمية المفاهيم بالصورة التى تجعلها ملائمة للنظريات الجديدة ومحققة للمطالب

(1) Goode & Hatt , op. cit., P.54.

النظرية الجديدة .

٦- إعادة صياغة المفاهيم :

ومن ثم يمكن القول بأن معرفة الدارس للأدوات التصورية لمجاله يعتمد على فهمه للمفاهيم بمعنى ان تكون المفاهيم واضحة ويعتمد هذا الوضوح على ما يسميه "جود " و " هات " بإعادة صياغة المفهوم Reconceptualization أو إعادة تعيين المفهوم Respecification of a concept وذلك يحتاج لبعض الإجراءات التى تؤدى إلى إيضاح تفكير الباحث حول المفاهيم المستخدمة فى مشكلة البحث الذى يقوم به ، وعملية إيضاح المفهوم وإعادة صياغته أو إعادة تعيينه تقتضى من الباحث أن يبدأ بتعريف موضوع بحثه بوضوح . وأن يعين مفاهيمه الأساسية مثل التكيف ، والطقوسية ، والرشد ، والعزلة والطبقة الاجتماعية .. الخ . ثم يليه بعد ذلك تعيين العناصر التى يتضمنها المفهوم ، فذلك أساس لاستخدام المفاهيم مثال ذلك قد نجد ان مفهوم التكيف يتضمن العناصر التالية : السعادة الشخصية ، والمجاراة لقواعد المجتمع ، وتقبل القدر (المصير) وحبه لنظم جماعته وتقبله لها .. الخ .

وهنا تجد أنه من المفيد أن يرجع الباحث للتراث المنشور والذى استخدم فيه المفهوم . وذلك لاكتشاف الاستخدامات المختلفة للمصطلح . كما انه من المفيد أيضا ربط الظاهرة بالظاهرة المماثلة التى وصفت بمصطلحات أخرى، والتى تكون منتمية لمجالات أخرى غالبا . وذلك للتعرف على مدى استخدام نفس المفهوم فى وصف الظواهر المختلفة . ولاشك فى أن إعادة صياغة المفهوم وإعادة تقنينه سوف يؤدى لنتائج مثمرة تتمثل فى بعض الفروض التى تكون اكثر فائدة (1) .

وتتمثل العملية الأخيرة التى يجب ذكرها بهذا الصدد فى الاستخدام الخاص بالنسبة للمفهوم ، والذى يحقق فائدة نظرية اكثر . أما من حيث

---

(1) Goode & Hatt , op. cit., PP.49-50.

مستوى التعميم الأعلى والأدنى للمفهوم فان ذلك يهدف إلى إيضاح المفهوم الذى نريد به تحقيق فائدة اكثر بالنسبة للبحث . فرغم ان معظم الأفكار البحثية التى يبدأ بها الدارسون تكون متمثلة فى المفاهيم الأكثر عمومية (وذلك مثل الوظيفية ، والمجتمع الحديث والتنشئة) . إلا أن هناك بعض الباحثين الذين يهتمون بالمفاهيم الأقل عمومية . فرغم أن المفاهيم على المستوى الأول قد تبدو بالنسبة للدراسة اكثر دلالة منها على المستوى الثانى . إلا أن المستوى الثانى للمفاهيم رغم انه يبدو اقل أهمية إلا أنه مرغوب لوضوح التعريف والتعيين للعناصر .

ومع أنه ينبغى علميا تحقيق التكامل بين المستويين فإن النشاط البحثى المحدد ينبغى دائما ان يهتم بتعيين النطاق المحدود للمفهوم رغم أن هدفه الوصول إلى التعميم [1]. والواقع أن العمل المضطرد من مفهوم على مستوى من العمومية إلى المفهوم الأكثر بساطة فى تحديده يواجه بتحديات تتعلق بترجمة معانيه الواسعة إلى مفاهيم أكثر تحديدا من حيث المعانى ، بحيث تكون محددة بشكل كاف لملاحظتها ، ومن جانب آخر فإن الدارس يحاول دائما أن يحقق التكامل بين المستويات النظرية لجعل المفهوم المجرد قابل للملاحظة . ومن ثم فان توحيد عناصر المفاهيم يأتى فى المحل الأول من الاهتمام للوصول إلى المعنى المتعلق بالمفهوم العام . وبذلك تكون النتيجة اكثر فائدة ويكون المفهوم محددا بشكل دقيق .

رابعا : الاستراتيجية المنهجية للتعميم وإقامة البرهان من المنظور الفينومينولجى

يتأكد فى نطاق علم الاجتماع التجريبى الحرص على إقامة البرهان العلمى على صحة التعميم أو عدم صحته بالاستناد إلى معطيات التجريب

---

(1) Goode & Hatt . Ibid., P.57.

الاجتماعى سواء كان تجريبيا مقننا أو تجريبيا تاريخيا أو تجريبيا بالمعايشة او تجريبيا فينومينولوجيا

كما أن التعميم بأى من مستوياته سواء كان فرضية أو فرص أو قضية يخضع للجدلية القائمة بين الحكم الاستنباطى والحكم الاستدلالى أى بين الكم والكيف وصولا الى مستويات صدق الحكم أو التعميم حول الظواهر الاجتماعية بعد ردها فينومينولوجيا .

والحكم هنا حكم وصفى أو تفسيرى والتعميم تعميم وصفى أو تفسيرى، والجدلية هنا تشير إلى الاستقطاب والتضمين والاستكمال فيما بين الكم والكيف أو الحكم الاستنباطى والحكم الاستقرائى للوصول إلى مستويات معينة من الصدق أو التعميم للحكم (والعلاقة أو الخاصية) والذى يخضع للقياس التجريبى بأنواعه المختلفة .

حيث تشكل معطيات القياس التجريبى المقنن واحدا من إجراءات الاختبار التجريبية لصحة الحكم أو التعميم ، حيث يخضع الاختبار هنا لمؤشرات إجرائية مقننة للتعميم التجريبى والقياسى ، أو لمعطيات التجريب التاريخى حيث يتم القياس على معطيات الأحداث التاريخية فى ظروف السياق الاجتماعى والثقافى لتلك الأحداث ، وهنا يتم المصاهرة بين معطيات التجريب المقنن والتجربة التاريخية حيث يتم الرجوع لمعطيات التجربة المقننة حول الظاهرة لتفسير الأحداث التاريخية وهو ما أسماه ابن خلدون بتفسير الغائب بالحاضر.

أو الرجوع لمعطيات التجريب بالمعايشة أو التجربة الفينومينولوجية والتى تقوم على الملاحظة على أن تكون تلك الملاحظة مقننة بصورة تنظم الانطباعات التى تتكون لدى الملاحظ ، بحيث تأتى تأويلاته الذاتية أو الاستبطان للثقافة فى ضوء ضوابط ومعايير تلائم الاستقراء الذى يتحقق بصورة موضوعية من ملاحظات الباحث وحدسه ووعيه .

وبذلك يستند البرهان العلمى فى علم الاجتماع التجريبى على المصاهرة المنطقية (الجدلية) القائمة بين الاستنباط والاستقراء والرد الفينومينولوجى حيث يتم الوصول لمستوى معين من التعميم والذى يخضع بدوره للاستقراء التجريبى فى تأكيد صحته أو خطأه وبالتالى يُقبل التعميم أو يُرفض على أساس الاختبار التجريبى بأى من أنواعه المشار إليها .

وعلى أساس ذلك سوف نتناول قضية التعميم وإقامة البرهان على صحته من خلال الموضوعية التالية :

- الاستراتيجية المنهجية لصياغة التعميم حول الظاهرة الاجتماعية .
- الاستراتيجية المنهجية لإقامة البرهان العلمى على صحة التعميم .

١ - الاستراتيجية المنهجية لصياغة التعميمات حول الظاهرة الاجتماعية :

تعتمد صياغة التعميمات فى علم الاجتماع التجريبى على استراتيجية منهجية أساسها التأليف أو المصاهرة بين معطيات الاستنباط والاستقراء من

الأحكام وبينها وبين معطيات الرد الفينومينولوجى من الأحكام بالنسبة للظواهر الاجتماعية حيث يتحدد مستوى التعميم ومدى اتساقه على مستوى المفهوم والقضية والتعريف . وذلك ما يعزز إجراءات القياس والاختبار التجريبى لمدى تجانس مستويات الحكم أو التعميم . بحيث يكون المفهوم بمستوى صدق ملائم للعلاقة التى تقيمها بين المفاهيم أو الحكم الذى نصدره بالنسبة لتلك العلاقة ، والتعريف الذى تحدد به معنى ودلالة المفهوم والحكم الصادر ثم مقارنتها بأحكام الرد الفينومينولوجى .

ويؤكد التراث صحة ما نذهب إليه بالنسبة للبحث حول المجتمع وظواهره باتباع الأسلوب العلمى التجريبى من المنظور الفينومينولوجى .

فلاشك فى أن ما ذهب إليه عالم الاجتماع الفرنسى اميل دوركايم : من

أنه يبدو طبيعيا أن نهتم أو نتناول علم الاجتماع على أنه محاولة لتعريف الظواهر الاجتماعية وتصنيفها والبحث عن أسباب اختلافها وأنه يرتبط ، مباشرة بمحاولته لرسم حدود الاستراتيجية المنهجية للبحث فى علم الاجتماع عن طريق الصياغة العامة General Farmula أو القانون العام General Law الذى ينبغى فى نظره أن تنتهى إليه عملية البحث (1) . ورغم ما اتسم به فهم دور كايم من غموض حول استراتيجية البحث ، إلا أن تأثره بفهم اوجست كونت وميله للاتجاه الامبيريقى ، والبحث فى المرحلة الوضعية ، كان واضحا . تلك المرحلة الوضعية أو المرحلة العلمية التى عرفها أوجست كونت بالتأكيد على أنه :

" فى حالة المرحلة الوضعية العلمية الأخيرة ، تخلص العقل من البحث غير المجدى عن المعانى المطلقة وأصل الوجود ونهايته ، وعلل الظواهر وأسبابها ، واستخدامه فى دراسة القوانين التى تحكم تلك الظواهر . مثال ذلك العلاقات الثابتة لتتابع الظواهر وتماثلها ".

فالاستدلال العقلى والملاحظة وسيلتان مترابطتان لمثل تلك المعرفة . وما يتبادر لأذهاننا اليوم ببساطة ونحن بصدد الحديث عن تفسير الظواهر وفهمها ، هو تأسيس الارتباط بين الظاهرة المفردة وبعض الظواهر العامة ، والتى يتناقص عددها بصورة مستمرة مع تقدم العلم (٢).

وتأكيد أوجست كونت على ترابط الاستدلال العقلى والملاحظة ، يجعله فى وضع لايشارك به اتجاه دور كايم المعارض للتحيز النظرى (٣) Anti Theoretical Base ورفضه لفكرة تسلح الباحث ببعض الفروض النظرية قبل البدء فى عملية التصنيف . وتأكيده الواضح فى مؤلفه قواعد المنهج فى علم

---

(1) Rex, John , Op. cit., P.15.
(2) Comte, The Positive Philosophy , 1853, Vol. I. Chapter 1. See : Rex, John, Op. cit., P.16.
(3) Rex, J., Ibid., PP.15-16.

الاجتماع على أن يبدأ البحث بنقد الاتجاهات المختلفة لدراسة الظاهرة ، وذلك ما يتم فى المرحلتين الأولى والثانية من البحث ، والتى حصرهما فى :

أ – تعريف الموضوع فى ضوء بعض الصفات التى يمكن ملاحظتها .

ب– وصف الأنماط السوية بعد دراسة نماذج كثيرة .

ثم تحديد النظرية التى توجه عملية البحث والتى تشملها مرحلة البحث الثالثة .وهنا يبقى الرد الفينومينولوجي ومبادئه الأساسية محل تساؤل بالنسبة لاستراتيجية صياغة الحكم حول الظاهرة الاجتماعية .

جـ – التصنيف الى أنواع وأجناس وفئات .

يتم فى ضوء الدراسة المقارنة والعملية لأسباب التباين تطبيق النظرية والوصول إلى القانون العام ، وذلك ما تشير إليه مراحل البحث التالية عند دوركايم .

د– الدراسة المقارنة والعملية لأسباب التباين ، والتى على أساسها يقوم الباحث بجهد وصفي وتفسيرى للوصول إلى القانون العام . وذلك ما اشتملت عليه المرحلة الخامسة من مراحل البحث عند دور كايم ، والتى تشير إلى :

هـ– محاولة اكتشاف أى قانون عام قد يظهر أثناء هذه المراحل التى بدأت بنقد الاتجاهات النظرية ثم تحديد الإطار التصورى للبحث القائم على وصف الأنماط السوية بعد دراسة نماذج عديدة وتصنيفها إلى أجناس وأنواع. ثم تطبيق هذا الإطار التصورى الذى ينتهى للمرحلة الأخيرة من البحث باكتشاف القانون العام (1) .

ورغم تأكيد "جون ركس" على ان المنهج السسيولوجى عند دوركايم كان غير محدد إلا أن محاولة دوركايم المنهجية فى علم الاجتماع تعتبر بمثابة تأكيداً على أهمية رسم الاستراتيجية المنهجية لعلم الاجتماع ، وذلك لتأكيده

---

(1) Durkiem, E., The Rules of Sociological Method, 1950, P.25., See: Rex, J., Op.cit.,PP.4 -5.

على أن الأسلوب العلمى لفهم الحالات السوية يتمثل فى اكتشاف الصورة النمطية للسمات الرئيسية للحالات موضوع الدراسة ، وصياغة نمط يجمع كل هذه السمات النمطية . وبذلك تحدد الغرض الوضعى الأساسى لاستراتيجية دور كايم المنهجية للوصول إلى درجة من التعميم .

وإن كان دور كايم قد نظر للنمط الشائع Average Type كمنهج مفضل فى علم الاجتماع لتحقيق القياس ، والوصول إلى تعميمات مع الالتزام بالوقائع قدر الإمكان . وذلك لاستحالة دراسة كل حالة امبيريقية على حده . فإن "ماكس فيبر" قد استخدم النموذج المثالى Ideal Type ، أو النموذج النظرى الخالص الذى يصيغه العالم ، والذى ينبثق عن الوقائع ، ويعتبر الهدف الأساسى منه هو التفسير (1) .

ومن ثم تطرح مشكلة صياغة النظرية فى علم الاجتماع وعلاقتها بعمليات الوصف والتفسير والوصول إلى تعميمات تطرح نفسها على بساط البحث باعتبارها جوهر الاستراتيجية المنهجية لعلم الاجتماع الذى لا يقتصر على مجرد تعريف الظواهر وتصنيفها ، والبحث عن أسباب تباينها ، والذى وقف عنده دوركايم رغم اهتمامه بالكشف عن القانون العام الذى يحكم المجتمع ، والذى اتسم بقدر من الغموض . فى الوقت الذى يعتبر فيه العلم بجانب ذلك نسقا من القوانين .

وهنا تطرح مشكلة الوصول إلى التعميمات فى علم الاجتماع ودور الاستدلال الاستنباطى والاستدلال الاستقرائى والرد الفينومينولوجى فى تحقيق تلك التعميمات .

وإذا كان الاتجاه الامبيريقى المتطرف يتخذ من استقراء المحسوسات والخصوصيات مدخله للوصول إلى البديهيات الأكثر عمومية (القضايا الأولية) فى حين أن أنصار الاتجاه النظرى الخالص يبدأون بقضايا عامة ،

---

(1) Rex, J., Ibid, P.10.

يتخذونها فروضاً توجه سير البحث ، وعملية التفسير ، والوصول إلى تعميمات فى مستوى القوانين .فإن الحل الفينومينولوجي سوف يحقق المصاهرة بين التصورات والإجرائية وصولاً إلى الفهم العلمى .

إذ أن الانفصال بين الاتجاه الكمى والاتجاه الكيفى فى البحث قد كشف عن تناقص المدخلين فى الوصول إلى القضايا العامة ، وأسلوب اختبارها ، والمستوى الذى يمكن أن تعتبر عنده تلك التعميمات قوانين عامة ثابتة نسبياً .

ونسبية القوانين فى علم الاجتماع هنا تستند إلى ماذهب إليه "جوفمان" من أن القاعدة المنهجية الأولى فى بناء العلم تتمثل فى رفض قبول أية قضية فى بناء العلم لا تخضع للتحكم والضبط الامبيريقى [1] .

والمطالبة بان تكون القوانين محققة بصورة مطلقة ، تؤدى الى رفض هذه القاعدة . ومن ثم لا يجب اعتبار القوانين حقائق ثبتت صحتها بصورة نهائية ، وذلك لأن القوانين العلمية لايمكن التحقق من صحتها بشكل مطلق .

وما جعلنا نؤكد على نسبية القوانين فى علم الاجتماع هو تأكيد "شليك" Schlick على ضرورة اعتبار القوانين بمثابة قواعد وتوجيهات لإجراءات البحث لكى يسير فى مسالكه نحو الحقيقة ، واكتشاف القضايا الصادقة ، وليمكنه التنبؤ بظهور أحداث معينة . ولن تتعارض نسبية القوانين تلك مع معطيات الرد الفينومينولوجى .

وذلك بعينه ما دفع بكارل بوبر Popper للتأكيد على أن الأحكام العلمية قابلة للاختبار والتفنيد . وأن الأحكام غير العلمية هى التى لاتخضع للاختبار والتفنيد. وهذا النوع الأخير من الأحكام لايقبله العلم . وفى ضوء هذا الموقف المنهجى يخرج "بوبر" النظرية الفرويدية ، والنظرية الماركسية ويعتبرهما ذوات طبيعة لا علمية ، لاعتقاد أنصارهما بأنهما يقدمان قاعدة

---

(1) Rex, Op. cit., P.17.

مساعدة لتفسير إخفاق التنبؤات النظرية ، وأنهما لا تخضعان للاختبار ، لأن تنبؤات قضاياهما خارج نطاق التفنيد (1). وذلك لأن القابلية للتحقق والقابلية للتفنيد وقدرة القوانين على تحقيق ذلك ومواجهته من المعايير المميزة للقوانين العلمية .

وإذا كان ثمة اعتراض يثار على إمكانية تطبيق معيارى القابلية للتحقق والقابلية للتفنيد falsifiability لتنبؤات القوانين السسيولوجية نظرا لتنوع الظواهر الاجتماعية المرتبطة بتنوع الثقافات ، الأمر الذى يسلب هذه القوانين صفة التطبيق العام ، وذلك ماحاول "لندبرج" الاعتراض عليه عندما أكد أهمية رسم استراتيجية منهجية واضحة ومحددة تحقق ذلك ، فالفيزياء فى نظره لاتدعى أن قوانينها تطبق بصورة عامة ، ولكنها تشير إلى حالات تجريبية محدودة للغاية ومع ذلك فالفيزياء لا يقتصر تصورها على مجال تطبيقها ، إلا أنها لا تصف سلوكا يحدث فى أى مكان غير خاضع للضبط ، ولهذا فإن عمومية تطبيقها فى المجال العلمى ترجع لابتكار أدوات قياس دقيقة تقيس درجة انحراف المواقف الطبيعية الفعلية ، عن الظروف المثالية المحددة ، فى الصياغة النظرية للقانون . (2)

ومع ذلك فإن لأى مجتمع قوانينه الخاصة فى الفيزياء ، ولكل جماعة ثقافية قوانينها السسيولوجية الخاصة بالمثل . غير أن الخصوصية الثقافية للقوانين السسيولوجية لا تنفى وجود قوانين سسيولوجية عامة تتناول الظواهر السلوكية الأكثر عمومية ، والتى توجد فى كافة الثقافات ، ويمكن اختبارها بتحديد قواعد الاستراتيجية المنهجية التى تحقق الضبط الامبيريقى والتى تمكن من توفير الإجراءات المنهجية السليمة لإمكان قياس درجة انحراف الظواهر السلوكية الفعلية فى الثقافات المختلفة عن الظروف المثالية

---

(1) Popper, The Logic of Scientific Discovery , 1956.
(2) Lundberg, Foundations of Sociology , 1939, P.140.

المحددة فى الصياغات النظرية للقوانين السسيولوجية العامة التى تتناول الظواهر العامة .

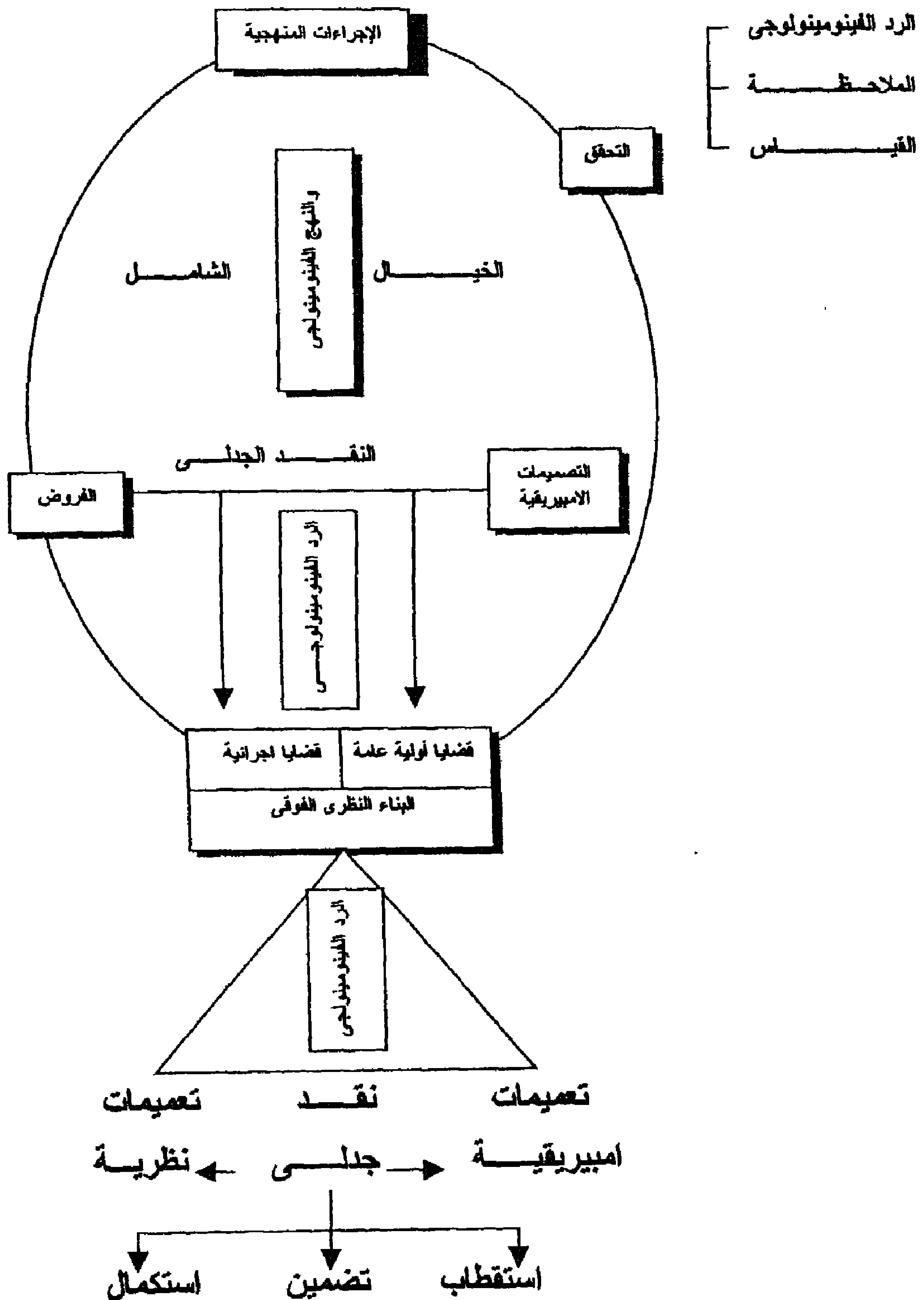
وإن كان لندبرج قد قصر حل هذه المشكلة على مجرد تحديد مقاييس التباين التى تصف كل صور التباين فى الفئات الأساسية نفسها فإن ذلك لايحل المشكلة وحده ، إذ أن رسم استراتيجية منهجية عامة للبحث فى علم الاجتماع تمكن من تحقيق الضبط والتحكم بالإضافة لمقاييس التباين تلك ، والتى يمكن ان تواجه مشكلة القوانين العامة ، وصور التباين المرتبطة بالثقافات الخاصة بكل مجتمع فى علم الاجتماع . ويتمثل ذلك فى المنظور الفينومينولوجى واستراتيجية الرد المنهجى الفينومينولوجى .

٢- الاستراتيجية المنهجية لإقامة البرهان العلمى على صحة التعميم :

وإذا كنا قد واجهنا مشكلة القوانين العامة فى علم الاجتماع وإمكانية تطبيقها فى المجال العلمى ، بابتكار استراتيجية منهجية تحقق معيار القابلية للتحقق مع ابتكار المقاييس الدقيقة التى تقيس درجات انحراف الظواهر السلوكية فى الثقافات المختلفة عن الظروف المثالية التى تتضمنها الصياغة النظرية للقوانين العامة ، بمعنى الوصول إلى مقاييس للتباين التى تصف جميع التغيرات التى يمكن ان توجد فى فئات الظواهر الأساسية والعامة بالنسبة لثقافات المجتمعات المختلفة ، يتبقى أمامنا معضلة الوصول إلى التعميمات العامة أو القوانين العامة فى علم الاجتماع فى ضوء الاستراتيجية المنهجية لدراسة الظواهر الاجتماعية فى ضوء التجريبية الفينومينولوجية المعاصرة والتى يمكن إيضاحها بالرسم التالي :

شكل توضيحى لاستراتيجية المنهجية لدراسة الظاهرة الاجتماعية

وصياغة النظرية المفسرة لها



وقبل أن نحدد أسلوب مواجهة التنوع النسبى للظواهر الاجتماعية طبقا لتنوع ثقافات المجتمعات ، وكيفية قياس انحراف الظواهر الخاصة بتنوع الثقافات عن ظواهر السلوك الأكثر عمومية ، والموجودة فى جميع الثقافات ، نناقش بإيجاز استراتيجية علم الاجتماع المنهجية التى تهيىء الظروف المناسبة للتجريب الفينومينولوجى بأنماطه المختلفة .

إذ أن البناء النظرى التحتى (١) Theoretical Infrastructure والذى يتمثل فى التعميمات التى تنهض عليها النظريات المختلفة فى علم الاجتماع ، وكذلك النماذج النظرية المثالية والشائعة ، والتعميمات الامبيريقية التى تقوم على معطيات الدراسات الكمية فى علم الاجتماع . وفى ضوء التحليل الجدلى بطرقه المختلفة المتمثلة فى الاستقطاب والتضمين والاستكمال (٢) ، أى بوضع التعميمات النظرية والكمية فى استقطاب مع بعضها لإظهار جوانب الاختلاف وجوانب الالتقاء فيما بينها ، ثم فى ضوء جدل التضمين الذى يكشف عن أبعاد التكامل البنائى ، وكذلك فى ضوء جدل الاستكمال الذى يكشف عن مدى التساند الوظيفى فيما بين تلك التعميمات يمكن على أساس الرد الفينومينولوجى والاستقراء للوصول الى تعميمات نظرية أكثر عمومية تمثل البناء النظرى الفوقى Theoretical Super Structure ، الذى يستكمل باستنباط القضايا الإجرائية الأقل عمومية ، والتى تتكامل بنائيا وتتساند وظيفيا مع القضايا التجريدية الأكثر عمومية ، فى تكوين النظرية العامة القابلة للتحقق والاختبار وذلك لقابلية القضايا التجريبية لاستنباط الفروض الإجرائية المتنوعة منها بردها لأصولها . وبذلك تكون الفروض الإجرائية متصلة بالتعميمات النظرية الكمية للبناء النظرى التحتى ، والتى صيغت فى ظروف ثقافية مختلفة من خلال القضايا الإجرائية للبناء النظرى الفوقى ، والتى تولدت عن القضايا الأولية الأكثر عمومية (التجريدية) للبناء النظرى الفوقى . وبذلك يتحقق اتصال البناء النظرى الفوقى بقضايا النظرية العامة

(1) Gouldner, Op. cit., PP.46 - 49.

(٢) دكتور سيد على شتا ، نظرية علم الاجتماع ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣.

(التى تتناول الظروف المثالية المحددة للظواهر السلوكية الاجتماعية الأكثر عمومية) بالظواهر السلوكية الخاصة بثقافات المجتمعات من خلال اتصالها بالبناء النظرى التحتى ، الذى ينهض على التعميمات النظرية والكمية الأكثر ارتباطا بالثقافات الخاصة بالمجتمعات البشرية المتنوعة . والتجريد أو الصياغة للقضايا العامة هنا تنهض على الصفات المشتركة أو الانتماءات للتعميمات الامبيريقية والنظرية للبناء النظرى التحتى . وعندما تستنبط الفروض الإجرائية من القضايا الإجرائية الأكثر تنوعا عن القضايا الأوليبة تبدأ هنا المعالجة المبدئية لانحراف الظواهر السلوكية الخاصة بثقافات المجتمعات المتنوعة عن الظواهر الثقافية العامة . وبتعيين الإجراءات المنهجية الفينومينولوجية بما فيها من تحديد لنوع الدراسة والمدخل المنهجى وأسلوب الدراسة وأدواتها والتى تمكن من إجراء التجارب الفينومينولوجية وملاحظة الانحرافات القائمة بين الظواهر السلوكية الخاصة ، والظواهر السلوكية العامة خلال مرحلة التحقق من الفروض . ومن ثم تصدر التعميمات الامبيريقية الملاءمة للوضع الثقافى الذى أجريت فيه الدراسة ، والذى تم اختبار الفروض الإجرائية فى سياقه . وبمضاهاة التعميمات الامبيريقية بتعميمات الفروض الإجرائية . وتعميمات القضايا الإجرائية للبناء النظرى التفسيرى الفوقى ، وتعميمات القضايا النظرية الأولية للبناء النظرى الفوقى يمكن تحديد صور التباين والانحرافات فى المواقف الفعلية فى المجتمعات من الظروف المثالية للظواهر السلوكية العامة ، التى تضمنها البناء النظرى الفوقى .

وهنا يمكن إدراج هذا التباين والانحراف ضمن القضايا الإجرائية للبناء النظرى الفوقى المتنوعة والقابلة لشمول تلك التنوعات فى الظواهر السلوكية. فضلا عن إمكانية مراجعة صياغة القضايا الأولية للبناء النظرى الفوقى فى ضوء تلك التعميمات الامبيريقية ، بحيث يتحقق للبناء النظرى الفوقى درجة أعلى من الشمول النسبى ، وباستمرار عملية البحث فى ضوء

استراتيجية الرد الفينومينولوجي مما يمكن من رفع مستوى الشمول والعمومية فى ضوء التعميمات الامبيريقية المستخلصة من دراسة الظاهرة السلوكية فى ثقافات متنوعة .

وبذلك يتحقق لنا مواجهة معضلة إيجاد الظروف التجريبية الضرورية لاختبار القوانين السسيولوجية ذات الصبغة المثالية ، وتحديد صور الانحراف بين الظواهر السلوكية العامة وفئاتها المتباينة فى الثقافات الخاصة بالمجتمعات . ومن ثم تحقق الاستراتيجية المنهجية لعلم الاجتماع بهذه الصورة مواجهة معضلة التباين بين الظواهر السلوكية العامة وتعميماتها، والظواهر السلوكية المتضمنة لبعض صور الانحراف فى المواقف الفعلية للنماذج الثقافية للمجتمعات المتنوعة . كما إنها تحقق لنا إيجاد الظروف التجريبية الملائمة لاختبار القوانين السسيولوجية العامة. والتى تكفل تنمية عمومية تلك القوانين بالصورة التى تمكن من صياغة النظرية التفسيرية فى علم الاجتماع . بعد إدراج مختلف صور التباين فى المواقف الفعلية للثقافات المختلفة ضمن القضايا التجريبية ، فى سياق تلك النظرية التفسيسرية .

وإذا كان هناك فريق من علماء الاجتماع قد سعى لتحقيق هذا المستوى من العمومية رغم اختلاف مداخلهم المنهجية لتحقيقها ، وذلك ما حدث بالنسبة لأنصار الاتجاه الوضعى الذين ساعدت دراساتهم لحالات كثيرة على أن يقدموا بعض التعميمات الاستقرائية Inductive Generalizations . فإن هناك فريق آخر منهم تناول مجموعة خاصة من بيانات البحث ، ويرى إمكانية تفسيرها بواسطة مجموعة من المبادىء الخاصة بصورة نسبية . وهى نظرية المبادىء متوسطة المدى Middle Principles والتى اقترح روبرت ميرتون ضرورة جعلها هدفا رئيسيا للبحث المعاصر . والتى اعترف بأنها محور اهتمامه الخاص [1]، وهى التى يسميها بالنظرية متوسطة المدى .

---

(1) Merton, R., Social Theory and Social Structure, U.S.A , The Free Press , 1962 , PP. 5 - 6.

كما أن فريقا منهم يحاول بلوغ الوسائل التى تمكنه من رؤية مجال البحث ككل باستخدام صياغات نظرية عامة ، على نحو ما فعل بارسونز فى صياغته لنظرية النسق الاجتماعى ، وتحديده لمتغيرات النمط الخمس باعتبارها أدوات تصورية للتحليل ، والتى تمكن بها من مواجهة قضية الثنائية عند عالم الاجتماع الفرنسى اميل دوركايم بالنسبة لنظرية مجتمع التضامن الآلى والمجتمع العضوى ، وعالم الاجتماع الألمانى (تونيز) ونظريته عن المجتمع المحلى (الجماعة) والمجتمع الكبير .

ثم جاء أخيرا فريق يرفض تلك المحاولات باعتبارها لا تمكن من الوصول لصياغة نظرية عامة لعلم الاجتماع ، أو للوصول الى تعميمات عامة . ويؤكد أنصار هذا الاتجاه على ضرورة صياغة القوانين النظرية العامة على أساس التوفيق بين الاتجاهات النظرية الموجهة أيديولوجيا ، كما فعل "فان دن بيرج" فى محاولته للتوفيق بين المادية الجدلية والوظيفية فى علم الاجتماع ، وصولا لصياغة النظرية التفسيرية العامة على أساس الالتقاء بين تلك القضايا ، واستبعاد ما بين النظريتين من قضايا متعارضة [1]. وهى المحاولة التى رفضها واحد من أنصار هذا الاتجاه الأخير وهو "ولترولس" والذى حاول ان يقيم النظرية التفسيرية العامة على أساس التكامل بين المنظورات النظرية الإحدى عشر فى علم الاجتماع .

ورغم المآخذ التى يمكن ان تؤخذ على تلك المحاولات سواء على مستوى المدخل المنهجى لهذه الصياغة ، أو على مستوى التعميم الذى تحققه تلك الصياغة . ومدى ما حققه من عمومية . إلا أنها قد لفتت الانتباه لأهمية الأفكار التى عرضها "جون ركس" عام ١٩٦١ فى مؤلفه مشكلات النظرية السسيولوجية وما تضمنته تلك الأفكار من تأكيد واضح على ضرورة تحقيق نسق القوانين العلمية الخاصة بالأنساق الاجتماعية ، وربط كل هذه المستويات المختلفة للدراسة بعلاقات محكمة مع بعضها . وذلك بغية

---

(1) Van Den Berghe,Op. cit., PP. 695 - 705.

الوصول إلى قوانين شاملة قابلة للتفنيد ، وجعل علمية علم الاجتماع مستندة إلى قبول هذا الهدف الذى يمكن تحقيقه على المدى البعيد الذى سيوصله إلى إمكانية صياغة نظرية تفسيرية عامة ، والتى اعتبرها "جون ركس" ذات دلالة بالغة الأهمية فى الوقت الراهن (١) .

ورغم تأكيد "جون ركس" على أهمية صياغة النظرية السسيولوجية العامة، إلا أنه لم يحدد معالم الاستراتيجية المنهجية لتحقيق هذه الصياغة واكتفى بالتأكيد على ضرورة ربط اتجاهات الدراسة فى علم الاجتماع ببعضها لتحقيق هذا الهدف . وذلك ما حدا "بفان دن بيرج" للقيام بمحاولته لصياغة النظرية العامة فى علم الاجتماع على أساس التوفيق بين قضايا النظرية الجدلية ، وقضايا النظرية الوظيفية ، مستندا إلى ما بين بعض قضاياهما من التقاء . ولما كانت هذه الفكرة لاتفى بمضمون تأكيدات "جون ركس " على ضرورة ربط مستويات الدراسة المختلفة بعلاقة محكمة ، فقد قام "ولتر ولس" بمحاولة لوضع استراتيجية منهجية على أساس التكامل بين المنظورات الاجتماعية المختلفة فى علم الاجتماع فى عام ١٩٦٧ فى مؤلفه النظرية السسيولوجية (٢) .

إلا أن محاولات التكامل والتوفيق لم يحالفها التوفيق فى الوصول إلى تعميمات تتمتع بالثبات النسبى وتقبل النمو والتحقق ، وإن كانت قد مهدت الطريق أمامنا لرسم معالم الاستراتيجية المنهجية لصياغة النظرية التفسيرية فى علم الاجتماع ، على أساس التحليل الجدلى ، والرد الفينومينولوجى الذى يساعد على تحقيق وظيفتى الوصف والتفسير لنوعية الظواهر ، وكيفية عملها فى الماضى والحاضر ، والتنبؤ بالكيفية التى سوف تحدث أو تعمل بها تلك الظواهر فى المستقبل (٣) . أما عن النظرية العامة لعلم الاجتماع والتى تحدد الاستراتيجية النظرية والمنهجية لمعالجة ظواهر الواقع

(1) Rex, Op. cit., P.26.
(2) Wallace, W., Op. cit., PP. 1 - 25.
(3) Smith, H. W., Strategies of Social Research, N. J.: Prentice Hall Inc ,1975. P.30

الاجتماعى فهى مستوحاة من الرؤية الفينومينولوجية لظواهر الحياة اليومية ويؤكد ذلك التوجه قناعة بارسونز بالمفاهيم الفينومينولوجية كأساس للنظرية العامة لعلم الاجتماع ومحاولات كل من " ميلز " و " جولدنر " للخروج من أزمة علم الاجتماع على أساس فينومينولوجى .

خامساً : الاستدلال العلمى والصياغة النظرية :

يستند الاستدلال العلمى لمنطق علم الاجتماع التطبيقى الذى يقيم الحكم العلمى على أساس معطيات التجريبية المعاصرة وإخضاع الحكم للاختبار والقياس التجريبى . ومن ثم يخضع الاستدلال بصوره المختلفة الاستنباطى والاستقرائى لمعطيات التجريب ، وذلك يتسق مع المنطق العلمى لأسلوب التفكير العلمى فى صياغة التعميم أى فى الصياغة النظرية وخاصة بالنسبة للمجتمع وظواهره ، حيث يكون للتغير حضوره الذى يؤثر على الثبات المطلق للحكم . وبذلك تكون احتمالية الحكم والتعميم وصحة الصياغة النظرية هنا هى الأساس الذى يستند إليه الاستدلال العلمى فى الصياغة النظرية ، وإخضاع الحكم العلمى والتعميم العلمى حول المجتمع وظواهره للتجريب الفينومينولوجى ، وفى ضوء ذلك نتناول :

- مبادىء الاستدلال المنطقى فى الصياغة النظرية
- نماذج الاستدلال المنطقى
- الاستدلال المنطقى والنظرية العلمية
- والمعرفة العلمية والاستدلال المنطقى

وذلك تمهيداً لمعالجة التجريب الفينومينولوجى فى علم الاجتماع .

١- مبادىء الاستدلال المنطقى فى الصياغة النظرية :

وتتمثل أولى المبادىء المنطقية التى تحكم عملية الاستدلال فى رغبتنا لأن نبدأ بالصدق . أو بالواقع ، لكى يكون أساساً للمناقشة العلمية حول

الموضوع المعطى . ولكل من الصدق ، والواقع ، قواعده التى تحدد نوع الخطوات التى تتبع . والتى يستند إليها أى من أنواع الاستدلال . وعلى أساس هذه القواعد تتحدد نقطة البداية التى تقودنا إلى الاستنتاج . إذ أن استنتاجا معينا يؤدى لاستنتاج آخر . وإذا كانت نقطة البداية لاستدلال الصدق تتمثل فى أن نبدأ بمسلمات العلم مثلا . أو القضايا الأولية للنظرية نزولا لقضايا المستوى الأدنى والفروض الإجرائية ، التى تتسق مع طبيعة الواقع ، وتساعد على تناوله فإنه إذا ما بدأنا بالواقع بهدف الوصول إلى تعميمات امبيريقية ، يمكن تعميمها لمستويات أعلى تكون بصدد نوع أخر من أنواع الاستدلال وهو الاستدلال الاستنباطى . فى حالتى الاستدلال تلك يكون الرد الفينومينولوجى قاعدة أساسية للفهم أو التفسير .

ومن المبادىء الأساسية الأخرى التى تحكم عملية الاستدلال ، كون العلم الحقيقى ذو نشاط معقد ، يرجع فى أساسه لوجود العديد من النظريات التى تعبر عن نماذج مختلفة للاستدلال العلمى . وأصدقها الاستدلال المرتبط بالرد الفينومينولوجى وهنا نبدأ بالنموذج المنطقى للاستدلال .

٢- نماذج الاستدلال المنطقى :

ومن ثم تتمثل اشكال الاستدلال المنطقى ونماذجه فى :

- نموذج الاستدلال الاستنباطى Deduction
- نموذج الاستدلال الاستقرائى Induction

أ- الاستدلال الاستنباطى :

ينهض الاستدلال الاستنباطى على أساس ان التنبؤ يستند لمقدمات كبرى وهو يبدأ من مبدأ التجريد وصولا للواقع العينى [1] .

وذلك كأن يقول انه كلما زادت الحرارة زاد العمل الكيمائى .

(1) Ferman , Gerald S. and Levin Jack, Social Science Research , N.Y.: John Wiley & Sons , 1975. P.25.

- وأن زيادة الحرارة يزيد النشاط الكهربائى .

- ومن ثم يمكن القول ان العمل الكيمائى يسبب النشاط الكهربائى .

بمعنى أنه إذا كانت " أ ": تؤدى إلى "ب" و " أ " تؤدى إلى "ج" .

إذن يمكن القول بأن " أ " تؤدى إلى " ج "

وهذا النوع من الاستدلال الرياضى يشير لإمكانية التتابع فى عملية الاستدلال ، والذى يمثله نموذج الاستدلال الاستنباطى المرتبط بنسق التفكير العلمى ، وهو يرتبط بشكل واضح بالمسلمات التى ينهض عليها العلم .

والمثال التالي يوضح ذلك :

الحرارة أ العمل الكيمائى ب والنشاط الكهربائى ج

وإذا كان أ > ب

واذا كان أ > ج

إذن ب > ج

ويستند الاستدلال الاستنباطى هنا لمبادىء أساسية ثلاثة تتمثل فى :

- المبدأ الأول ويتمثل فى التراكمية

ويعنى أن المعرفة العلمية تنمو بالإضافات التى يحققها اكتشاف الوقائع المستقلة .

- ويتمثل المبدأ الثانى فى : الاستنباط بمعنى انه يوجد شكل للاستدلال الذى يتم بواسطته استنتاج القوانين من الوقائع المثبتة .

- والمبدأ الثالث يتمثل فى : أمثلة البرهان بمعنى أن درجة اعتقادنا فى صدق القوانين مؤكد بعدد من الأمثلة للقوانين (١) .

وذلك لأن درجة اعتقادنا فى صحة القانون مرتبطة بعدد من الأمثلة

---

(1) Harre, R., Op. cit., P.42.

الملاحظة فى الظاهرة التى يصفها القانون ذاته . كما أن تعميم القوانين يستند إلى منطق مؤداه أنك إذا استنتجت القوانين من الوقـــائع المتراكمـــة فـــانك تستطيع استنتاج الوقائع ثانية من القوانين . إذ أن مضمون القوانيـــن ليـــس سوى تلك الوقائع . وبذلك يقوم الاستدلال الاستنباطى على أساس التحـــرك من المفاهيم والمصادرات الأولية ، أى من المستوى التجريدى إلى المســتوى الإجرائى باشـــتقاق القضايا الإجرائية ، والتـــى تمـــهد للفـــروض القابلـــة للاختبـــار [1] .

ب- الاستدلال الاستقرائى :

ويمثل هذا الشكل النموذج الثانى للاستدلال المنطقى . وهو يعكس وجهـــة النظر الوضعية فى الاستدلال ، حيث تستمد النظرية مقومـــات بنائـــها مـــن استقراء الوقائع ، ولهذا الاتجاه أساسه الرياضى ، حيث يعتمد التنبؤ والتفسير على الاستنتاج من الجزء وصولا إلى الكل ، فإذا قبلنـــا أ ، ب ، ج كنتـــائج أمكن الوصول إلى حكم تفسيرى أو تنبؤى . وفى ضوء هذا المنطق يكـــون بناء النظرية استقرائيا [2] . وبذلك يؤكد هذا الاتجاه على التفاعل بيـــن بنـــاء النظرية والوقائع . حيث تبدأ عملية بناء النظرية من الوقائع العينية ، وصولا للتجريد . بمعنى ان نتحرك من الحقائق والملاحظات المحددة لعرضها مـــن خلال مفاهيم وقضايا تجريدية [3] . فى حين ان الاتجاه الاستنباطى لا يقيـــم للتفاعل بين النظرية والوقائع وزنا .

ويتخذ الاستدلال الاستقرائى مستويات مختلفـــة . مـــن حيـــث اســـتقراء الوقائع. فقد يكون الاستقراء تاما للوقائع ، وبذلك يصدر الحكم فى صـــــورة يقين مطلق لا يقبل الاحتمالية . وقد يكون الاستقراء ناقصا فيصدر الحكم فى صورة يقين إحتمالى . بمعنى انه فى حالة الاستقراء التام يتم حصر جميـــع

---

(1) Ferman & Levin , Op. cit., P.25.
(2) Harre. R., Op. cit., 53.
(3) Ferman & Levin, Ibid., P.24.

المفردات الجزئية التى يستند إليها الحكم بحيث يصدر الحكم دون أن يكـــون هناك احتمال لأى تعديل أو تبديل فيـــه ، نظـــرا لان جميـــع الجزئيـــات أو المفردات التى يتم التعميم بناء عليها قد تم حصرها .

وهذا النوع من الاستقراء قد يتم فى بعض الحالات التـــى تكـــون فيـــها الظواهر ذات خصائص متماثلة فى كافة الظروف والأحـــوال . بمعنـــى أن عناصرها تكون ثابتة ، فالحكم بان الحديد يتمدد بالحرارة وينكمش بـــالبرودة يستند لأساس استقرائى ، ولكن الاستقراء هنا تام نظـــرا لتمـــاثل عنـــاصر الظاهرة المدروسة وثباتها . إلا ان هناك حالات أخرى ثبت فيها عدم صحـــة الحكم المطلق ومنها الحكم بأن الذرة لا تتجزأ اســـتنادا لحـــالات الاســـتقراء للمفردات الواقعية التى استند إليها هذا الحكم . ثم ثبت بعد ذلك أن مفـــردات الاستقراء لم تكن تامة وان الاستقراء لم يشمل جميع مفـــردات الظـــاهرة . وذلك بعد ان ثبت تفتت الذرة وشمولها على عناصر أخرى هى النيـــترون ، البروتون ، الألكترون .

ومن ثم يؤكد العلم على الاستقراء الناقص باعتباره نموذجـــا للاســـتدلال الاستقرائى العلمى نظرا لاتساقه مع منطق احتمالية الحكم العلمى . بمعنى ان الحكم العلمى هو الحكم الاحتمالى وان اليقين العلمى هو اليقين الاحتمـــالى . وهذا الحكم الاحتمالى يناسب الوقائع الاجتماعية الثقافية والشخصية .

ومن ثم يمكن القول بان الاستقراء التام لا يمثل نموذج الاستقراء العلمـــى لأنه يتسق مع منطق الأحكام المطلقة واليقين المطلق . الذى يفترض إمكانيـــة العقل البشرى فى السيطرة التامة على جميع مفردات الظاهرة وظروفـــها . وهذا ما لا يمكن تصوره سواء فى نطاق الظواهـــر العضويـــة أو مـــادون العضوية أو ما فوق العضوية (الظواهر الاجتماعية والثقافية) ، إذ يصعـــب على الباحث أن يحقق السيطرة التامة على كافة عناصر الظاهرة ، ومفرداتها والظروف المحيطة بها ، واحتمالات تغيرها والعوامل المتحكمة فـــى هـــذا التغير .

وإذا كان تصور الاستقراء التام من الأمور الغير ممكنة ، فلا يمكن أيضاً تصور إمكانية إصدار أحكام مطلقة لا تتسق مع منطق الواقع وظروفه وتعقيداته . ولهذا يعتبر الاستقراء الناقص النموذج المناسب لنسق التفكير العلمى لأن الأحكام العلمية احتمالية ، وتخضع لمراجعات الواقع . وطالما أن الواقع لايمكن السيطرة عليه بشكل تام ونهائى ، فلا يمكن تصور إمكانية إصدار حكم . أو تعميم أو صياغة تنبؤ يتمتع بيقين تام ، ونهائى حول ظواهر هذا الواقع . وبذلك يؤكد العلم على احتمالية الحكم ، ونسبية اليقين . ويتخذ من الشك سبيله لاكتشاف حقائق الواقع وتوفير المعرفة المتراكمة حول تلك الحقائق ، لدعم درجة اليقين فى الحكم الذى نصدره ، والتنبؤ الذى نصيغه حول الظواهر .

٣- الاستدلال المنطقى والنظرية العلمية :

تتضمن النظرية العلمية مجموعة من القضايا الأولية العليا . ومجموعة من القضايا الإجرائية الدنيا . ولكى تكتسب هذه القضايا فى مجملها خاصية النظرية تتطلب توفير مجموعة من الخصائص التى تشير لضرورة اتساق هذه القضايا وتتابعها وقابليتها للاشتقاق، والرفع ، والرد ، مع تنوعها وعدم تناقصها .

وتشير خاصيتى الاتساق ، والتتابع لاستناد بناء النظرية لمسلمات العلم الأساسية ، والتى تتمتع بدرجة عالية من اليقين . فى حين ان قابليتها للاشتقاق والرفع تشير الى ان صياغة النظرية والتحقق منها يعتمدان على نموذجى الاستدلال المنطقى . فالقابلية للاشتقاق تعنى إمكانية استنباط القضايا الدنيا من القضايا العليا . واستنباط الفروض الإجرائية من القضايا الدنيا . وذلك لجعل النظرية قابلة للتحقق والاختبار . فى حين ان قابلية القضايا للرفع يشير لإمكانية استقراء القضايا الإجرائية والتى تمثل حالات تجسيد القضايا العليا فى الواقع . وتشير قابلية الرد لإمكانية الكشف عن الأصول ، أى الماهيات .

وبالنسبة لتنوع تلك القضايا مع عدم تناقضها فذلك تحكمه مسلمات العلم والاستدلال الرياضي . سواء كانت هذه المسلمات ضمنية تشير لوجود نظام معين في الكون تحكم عملياته وأحداثه . أو كانت إضطرادية تشير إلى أن تساوى أو تعادل ظروف حدوث الظاهرة يؤدى لتساوى الحدوث . أو كانت حسية تشير إلى أن المعرفة تقف عند حدود خبرة الإنسان ، وتعتمد على ما تنطبع به حواسه . وأن الاختلاف فى قيمة المعرفة يرتبط بالاختلاف فى نوع التجريدات ، ودرجة إنطباقها على الخبرات الحسية [1]. وذلك يؤدى لقبول مسلمة منطقية مؤداها : أن الإحكام الاحتمالية تقع فى نطاق العلم . وأن الأحكام المطلقة تخرج عن نطاق العلم ، وتأتى فى المستوى الميتافيزيقى .

وبذلك يشكل الاستدلال الاستقرائى إحدى نماذج بناء النظرية العلمية ، حيث يتم صياغة عناصرها ، من مفهوم وتعريف وقضية على أساس استقراء المفردات المرتبطة بهذه العناصر فى إطار المعرفة الامبيريقية . وطالما ان النظرية تتسم بطابع التحقق ، فإن إجراءات التحقق تستند لنموذج الاستدلال الاستنباطى من التعميمات الأولية المرتبطة بالعناصر المختلفة ، إلى التعميمات الإجرائية بالصورة التى تجعلها قابلة للتحقق والقياس .

وبذلك تستند صياغة النظرية العلمية إلى قبول المفردات المستنتجة من الوقائع المفردة . كما أن تطويع الصياغة النظرية للتجريب الفينومينولوجى يستند إلى استنباط الفروض الإجرائية من القضايا الأولية ، بالصورة التى تمكن من اختبار النظرية وإخضاعها للتجريب الفينومينولوجى . التى ماتزال مفاهيمه وإجراءاته واستراتيجيته بعيدة عن يد باحثينا .

٤- المعرفة العلمية :

يأتى الحديث حول المعرفة العلمية فى دائرة الابستومولوجى Epistemology ، حيث نحاول تحديد أنواع المعرفة المتحصلة باتباع منهج

---

(١) دكتور عماد الدين إسماعيل ، المنهج العلمى وتفسير السلوك ، القاهرة ، مكتب النهضة المصرية ، ١٩٧٠م ص ٤١ - ٥٤ .

معين ، عند تناول نوع معين من الموضوعات . تلك المعرفة التى تمكننا من صياغة بعض الأفكار حول نوع معين من الوقائع . ويعتبر هذا الجانب من أهم أجزاء الدراسة الواقعة فى نطاق فلسفة العلم ، حيث تستهدف التمييز بين المعرفة المكتسبة بالتعلم ، والمعرفة المكتسبة عن طريق الملاحظة . والواقع ان مثل هذه الدراسة تستهدف الإجابة على بعض التساؤلات ، التى تستفسر عما إذا كانت جميع المعرفة فى نهاية مطاف التحليل معرفة نظرية ؟ ومما لاشك فيه أن هذا التساؤل سوف يقودنا بالضرورة للحديث عن نظرية الاستدلال فى جانب ، ونظرية المفهوم فى جانب أخر .

(أ) حدود المعرفة العلمية :

تقتضى مناقشتنا لحدود المعرفة العلمية ان نتخذ موقفا جدليا من التساؤلات المتعلقة بحقيقة ما نعرفه ؟ وما إذا كانت معرفتنا به معرفة مطلقة أم احتمالية ؟ وما حدود الاحتمالية فى معارفنا ؟

فالمعرفة العلمية سواء كانت مصاغة فى نظرية كاملة ، أم فى نظرية لم يكتمل بناؤها بعد هى فى أساسها معرفة امبيريقية . بمعنى أنها تستند إلى الوقائع الفعلية . وإذا ما تساءلنا عن حقيقة ما نعرفه فى الظروف والأحوال المختلفة ؟ وعما إذا كانت معرفتنا العلمية مسحوبة من ملاحظاتنا لما يحدث فى عالمنا ؟ وإلى أى حد يمكننا القول بأننا نعرف كل شيء حول الوقائع فى الزمان والمكان بمختلف ظروفهما ؟ وذلك لأنه من غير الممكن ملاحظة توزيعها وصور حدوثها فى مختلف الأزمنة ، ومختلف الأمكنة . فإننا نكون قد طرحنا هنا أولى صور الشك فى إمكانية شمول ملاحظاتنا لجميع مفردات الوقائع [1] ، المرتبطة بالموضوع الذى نلاحظه ، وذلك ما يجعلنا نذهب إلى أن المعرفة العلمية ذات طابع إحتمالى ، بمعنى أن الأحكام العلمية ليست مطلقة، وإنما هى أحكام احتمالية . وهنا يحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت

---

(1) Harre, R., Op. cit., P.7.

النظريات تقدم لنا نوعا خاصا من المعرفة يختلف عن تلك المعرفة التى نحصل عليها عن طريق الملاحظة والتجربة ؟ وعن نوع المعرفة التى نحصل عليها باتباع تلك الإجراءات المنهجية .

(ب) المعرفة الامبيريقية والمعرفة المجردة :

تندرج دراسة الإجراءات المنهجية فى نطاق فلسفة العلم أيضا . حيث يتم بحث الاختلاف القائم بين أنواع المعرفة التى نحصل عليها باستخدام تلك الإجراءات المنهجية ، والتى نبرهن بها على الأحكام التى تتضمنها النظرية فى ضوء المعطيات الامبيريقية ، التى تقدمها تلك الإجراءات . وهنا تثار قضية العلاقة بين المعرفة الامبيريقية التى نكتسبها عن طريق الملاحظة والتجربة وبين المعرفة المجردة التى تتضمنها النظرية (1) .

وإذا كان العلم يبدأ بنظرية وينتهى منطقيا بنظرية فذلك يعنى أن المعرفة المجردة هدف للعلم . وإذا كان الوعى العلمى يستند إلى المعرفة الامبيريقية التى تمثل النشاط العلمى فما هو إذن موقع تلك المعرفة الامبيريقية من المعرفة المجردة . فالنظرية أداة العلم لفهم الواقع وظواهره ، ومن ثم يسعى العلم لرفع كفاءة تلك الأداة بما يجعلها صالحة لفهم أبعاد الواقع . وسبيل العلم فى ذلك هو جعلها مستندة إلى المعرفة الامبيريقية فى صياغتها . وذلك يعنى أن المعرفة المجردة المصاغة فى نسق نظرى لا تتضمن أحكاما مطلقة لأن المعرفة الامبيريقية لاتغطى حدود المكان والزمان .

ولهذا تكون المعرفة المجردة فى شكل نظرية ، معرفة احتمالية نظرا لأنها قائمة بصفة أساسية على نسبية المعرفة الامبيريقية التى تحكمها حدود الزمان والمكان ، سواء بالنسبة لطبيعة الظاهرة المدروسة ، أو لطبيعة الخبرة المتاحة لخلفيات ثقافية محكومة بحدود الزمان والمكان أيضا .

وبذلك تقوم علمية النظرية أو التجريدات العلمية على منطق احتمالية

(1) Harre R., Ibid., P.8.

المعرفة . وهى ما يسعى العلم دائما للبرهنة عليها بتأكيد خاصية التراكمية للمعرفة العلمية . وذلك لأن هذه المعرفة تنمو بإضافة الحقائق المفردة الجديدة التى يكتشفها العلم (1). فى حين أن المعرفة اللانهائية والتى تتمتع بيقين مطلق معرفة إلهية تخرج عن حدود ونطاق العقل البشرى المحكوم بعوامل الزمان والمكان .

وهنا تبرز نقطة هامة تشير إلى أن النظرية تتضمن فى نسقها تساوقا بين التنبؤ والتفسير . وهذا يؤكد أن التنبؤ ببعض الأحكام الجديدة (العلاقات)،وبالطبع الوقائع الجديدة يتم الوصول إليها عن طريق الاستقراء (2) . وذلك لأن التنبؤ والتفسير عملية منطقية رغم أنهما مختلفان من حيث كون التنبؤ يحدث بعد أن يكون التفسير قد تم فعلا . وقبل ان نقدم تفسيرا لما حدث تعد المعرفة الامبيريقية أساسا لهذا التفسير الذى تقيم فيه الأحكام التنبؤية . وإذا كان التفسير يتضمن وصفنا للوقائع وميكانزمية الحدوث وأسبابه ، فإن ذلك ليس كافيا للتنبؤ بما سوف يحدث تماما . ولهذا فان التفسير ممكن دائم ، فى حين ان التنبؤ لا يكون ممكنا دائما ، لأنه غير معروف ، ولا يمكن معرفته بصورة نهائية حتى يحدث . وهذا ما يقره منطق الاستدلال الاستقرائى (3) . ومن ثم يسعى العلم دائما للتحقق من التنبؤات المجردة عن طريق المعرفة الامبيريقية. وهذا ما يستند إليه منطق احتمالية المعرفة العلمية المرتبطة بنسبية المعرفة وتراكمها . بحكم نسبية المعنى فى سياق العالم الاجتماعى . والتى تقتضى فهم الخبرة وتعبيرات الأفعال ومقارنتها فى السياقات المختلفة .

(جـ) المعرفة العلمية والاستدلال المنطقى :

إذا كانت النظرية تضم عدداً من القضايا الشرطية المستندة لنسق

---

(1) Harre R., Op. cit., PP. 42 - 59.
(2) Harre R., Ibid., P.56.
(3) Harre R., Ibid., P.56.

الاستقراء [1]. إلا أن النظرية العلمية لا تقف عند حدود التثبت بالاستقراء ، فرغم أن هذه القضايا تستند إلى الاستقراء ، إلا أنها في وضع تجريدى يجعلها متجاوزة لحدود الوقائع المفردة ، التى تم استقرائها منها . وهذه البناءات المجردة لا تنهض دليلا على جعل النظرية علمية لان وجود النسق الاستقرائى بين القضايا الشرطية التى تصف لامكانية التغير فى الوقائع واحتمالاته ليس بكاف ولكن تحقيقها هو الذى يكسبها قيمة الصياغة العلمية. ونظراً لأن تلك القضايا المجردة تتسم بالعمومية فإن إخضاعها للتحقق مباشرة أمر صعب . ومن ثم تبرز أهمية النسق الاستنباطى لتوليد القضايا الإجرائية من تلك القضايا الأولية وبالصورة التى تجعل النظرية قابلة للتحقق والاختبار .

وإذا كانت الأشكال المثالية للاستدلال تزودنا بالإجراء الأولى المعقول ، الذى يمكن به صياغة القضايا والفروض حول الظاهرة ، إلا أنها إذا ما قدمت باعتبارها تقدير منطقى جامع مانع للجانب الرشيد المتعلق بالمنهج العلمى تكون غير معقولة ، وذلك لأنها لا تقدم لنا المنهج الكامل الذى يساعدنا على اختبار الفروض وتفسير الوقائع . كما ان التأكيد على احتمالية المعرفة العلمية لا يكفى لتحديد المنهج العلمى ، وذلك لأنها تترك أيضا عملية الاكتشاف العلمى فى حالة معتمة ، نظرا لأنه لاتوجد قواعد استدلالية للمناهج الرشيدة التى تجعل النظريات والفروض تحت السيطرة ، وبالصورة التى تساعد على تأكيد موضوعية المعرفة القائمة على الدقة والثبات والشمول ، واللازمة لبناء النماذج النظرية (التخيلية) . فذلك يقتضى الاعتماد على المبادىء التى تحكم الطريقة الرشيدة للتجريد والمقارنة والقياس ، والتى تتوفر بصفة أساسية فى المدخل الرياضي [2] والمدخل الفينومينولوجى

(1) Harre R., The Principles of Scientific Thinking , London , McMillan ,1970. PP.14 - 15.

(2) Harre R., The Philosophy of Science , Op. cit., P.56.

باعتباره المنظور النظرى العام للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة .

سادساً : نسق التفسير العلمى :

يشكل التفسير العلمى محور اهتمام العلم ، ليس لكونه غاية فى حد ذاته ، ولكن لكونه وسيلة أساسية للعلم ولعلم الاجتماع التجريبي أيضا ، لتحقيق الفهم العلمى للواقع وظواهره وبالتالى يمكن على أساس إصدار تنبؤاتنا حول تلك الظواهر ويعتبر التفسير هنا بالنسبة لعلم الاجتماع التجريبى محور الاهتمام لأنه يسعى لتحقيقه على أساس تجريبى لضمان اتساقه مع واقع المجتمع البشرى وظواهره . ومن ثم يضع له استراتيجية متكاملة للصياغة العلمية لضمان نمائية هذا النسق بما يكفل اتساقه مع طبيعة الواقع الاجتماعى المتغير ، وذلك ما يتكفل به الفصل الرابع من هذا الجزء أما هذا البند فيختص بمنافسة التفسير العلمى فى سياق علمية علم الاجتماع التجريبى وذلك بتناول الموضوعات التالية :-

- التفسير بين الغاية والوسيلة .
- عناصر البناء التفسيرى .
- خصائص البناء التفسيرى لنسق التفكير العلمى .

١- التفسير بين الغاية والوسيلة :

يقودنا التساؤل عن ماهية المعرفة ، التى يتوخاها اى علم حول الوقائع ، والظواهر بأنواعها المختلفة ، لمناقشة اجابات العلم عن التساؤلات المتعلقة بماذا What ولماذا Why وكيف How بالنسبة لواقعة ما من الوقائع . حيث تستهدف ماذا ؟ تقديم وصفا تفصيليا للوقائع لتحديد خصائصها العامة . والعناصر التى تتكون منها . والسمات المميزة لكل عنصر من تلك العناصر ، بالإضافة لتحديد خصائص العلاقات القائمة بين تلك العناصر من حيث كونها علاقات طردية أو عكسية ، فى حين أن الإجابة عن لماذا ؟

تستهدف تفسير وجود هذه الخصائص ، والعلاقات ، وتحديد العوامل التى تتحكم فيها ، وتشكل طبيعة العلاقة القائمة بين العناصر . أما الإجابة عن كيف ؟ فتستهدف تفسير العملية التى تم بها الحدوث للظاهرة ، اى التى توفرت بها هذه الخصائص ، وتلك العلاقات ، بتحديد درجات تشبع الخصائص بالعوامل ، وتشبع العوامل ببعضها ، فى مرحلة الحدوث المختلفة للوقائع والظواهر .

والواقع أن أى من تلك الإجابات يقتضى توفر مستوى معين من البيانات ومعالجة معينة لها . ويستهدف تحقيق غاية معينة من غايات العلم [1]. وإذا كان التنبؤ Prediction غاية نهائية للعلم ، فان تحقيق هذه الغاية يعتمد على المستوى التفسيرى الذى يحققه العلم للوقائع والظواهر التى يتناولها . بمعنى أن التفسير هنا وسيلة العلم الأساسية لتحقيق التنبؤ .

ومن ثم أفاض فلاسفة العلم فى شرح وتحديد العلاقة القائمة بين التفسير والتنبؤ . وفى ذلك يذهب البعض إلى أن التفسير والتنبؤ يكونان نفس الظاهرة غير ان التنبؤ يسبق الحوادث فى حين أن التفسير يأخذ مكانة بعد وقوع الحوادث . أما البعض الآخر فيذهب إلى أن التفسير والتنبؤ عمليات مختلفة فى أساسها [٢].

والواقع أن تحديد العلاقة بين التنبؤ والتفسير يرتبط بالإجابة عن السؤال لماذا ؟ والسؤال عن كيف ؟ إذ أن التفسير المرتبط بلماذا يأتى بعد الحدوث أى بعد وقوع الحدث الذى يسبقه التنبؤ ، فى حين أن التفسير المرتبط بكيف يتضمن فى بعض جوانبه تفسير كيفية وقوع الحدث . وهذا الجانب يأتى بعد التنبؤ أيضا .

أما الجانب المتعلق بتفسير كيفية الحدوث واحتمالاته فى المستقبل . فذلك يسبق التنبؤ ، ويمثل الأساس الأولى الذى يرتكز عليه التنبؤ بحدوث الوقائع

(1) Bailey, Kenneth, D., Op. cit., P.31 - 32.
(2) Bailey, Kenneth, D., Op. cit., P.32.

فى المستقبل وقد جعلت هذه العلاقات المتداخلة بين التفسير والتنبؤ من التفسير غاية من غايات العلم ، رغم أنها فى الأساس وسيلة للتنبؤ سواء كان هذا التفسير بعد وقوع الحوادث أو سابقا لوقوع الحوادث وخاصة ما يتعلق من التفسير بتحديد الكيفية التى يحتمل بها هذا الحدوث فى المستقبل . وعند هذا المستوى يكون التفسير وسيلة من وسائل العلم لبلوغ غايته فى التنبؤ .

والواقع إن الإجابة عن السؤال لماذا وكيف يقتضى أن تسبقهما الإجابة عن ماذا حدث حتى تسأل لماذا هذا الحدث ؟ وكيف حدث ذلك ، فلا يمكن أن نسأل عن أسباب حدوث ظاهرة والكيفية التى حدثت بها ونحن لا ندركها . بمعنى أن إدراك الحدوث شرط أساسى لتفسيره .

وبذلك تكون الإجابة عن ماذا حدث أساس لتفسير الحدوث ، والإجابة عن ماذا حدث يتعلق بوصف الظاهرة (أى وصف ماذا حدث) وصفا مفصلا بتحديد خصائص الظاهرة وعناصرها وطبيعة العلاقات الطردية أو العكسية ، التى تربط تلك العناصر ببعضها . وهنا يكون الوصف وسيلة العلم لتحقيق غايته من التفسير ، حيث نحاول تفسير الظاهرة أو الحادثة بتحديد العوامل التى أدت إلى هذا الحدوث ، للإجابة عن لماذا . وتحديد العملية التى تم بها هذا الحدوث للإجابة عن كيف حدثت الظاهرة [1].

وبذلك يتخذ العلم من الوصف وسيلة لاكتشاف الوقائع والحوادث بتحديد خصائصها ، والعناصر التى تشتمل عليها ، وطبيعة العلاقة التى يرتبط بها حدوث الظواهر ، أى لتفسير الظواهر والحوادث واكتشاف عواملها ، والعمليات [2] المرتبطة بها . أى أن كل من الوصف والتفسير يستهدفان اكتشاف خصائص حدوث الظواهر ، وعواملها وعملياتها بهدف فهمها .

ويوجد اتفاق وإجماع بين العلماء على أن الفهم هدف أولى معلن

---

(1) Bailey , Kenneth, Op. cit., P.31 - 32.

(2) Cole, Stephen , The Sociological Method, Chicago: Rand McNally College Publishing Company 1972. PP.30 - 32.

للعلم [1]. ولكى يحقق العلم هذا الهدف الأول يقوم بوظيفتى الوصف والتفسير . واذا ما انجز العلم وظيفته يكون قد حقق هدفه فى الفهم . وتحقيق العلم لوظيفتى الوصف والتفسير تستهدف الإجابة على أسئلة محددة تتمثل فى ماذا ؟ ، ولماذا ؟ وكيف ؟ بغرض تحقيق الفهم Understanding كهدف أولى معلن . واذا ما ارتبط هذا الفهم وبنى على الوقائع المتعلقة بالظاهرة تحقق للعلم هدفه الضمنى المتمثل فى الوعى العلمى Scientific Consciousness ، وإذا ما تحقق للعلم هدفه الأولى وهدفه الضمنى أمكنه تحقيق هدفه النهائى المتمثل فى التنبؤ Predication وهذه هى أهداف العلم المتفق عليها بين المتهمين بفلسفة العلم وبتحليل بنائه المنطقى [2].

٢- عناصر البناء التفسيرى :

أ- علاقة التفسير بعناصر البناء النظرى للعلم :

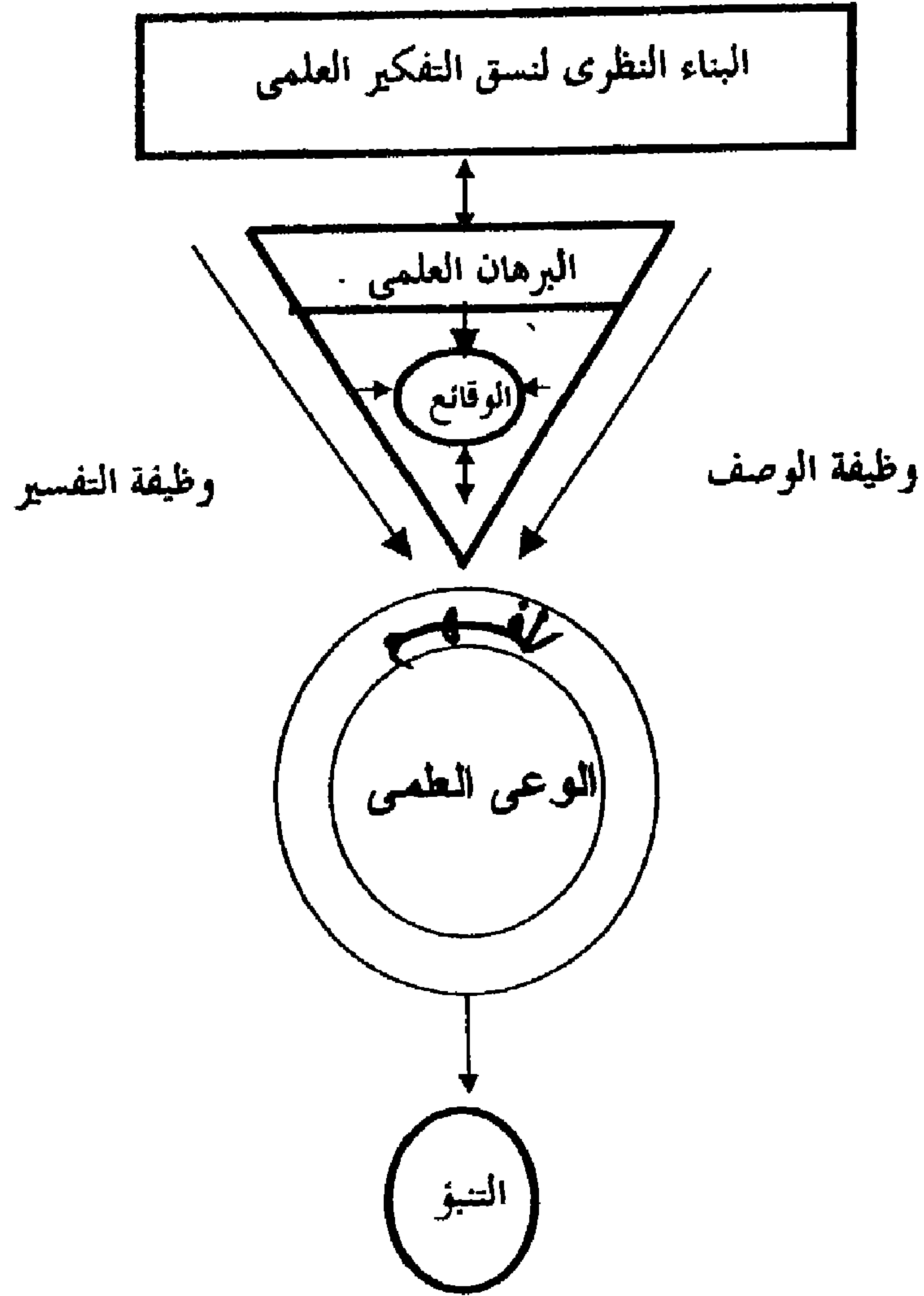
يسعى العلم لتحقيق الفهم المستند على الوعى العلمى ، وذلك بكشف الوقائع من خلال وصفها بتحليل عناصرها وتحديد طبيعة العلاقة التى تربط تلك العناصر ببعضها . مع تحديد السمات والخصائص التى يتسم بها كل عنصر من عناصر الظاهرة التى يتناولها وتفسيرها بتحديد العوامل المتحكمة فيها ، وتحليل أبعاد العملية التى تحدث بها الظواهر وتفسيرها بتحديد العوامل المتحكمة فيها ، وتحليل أبعاد العملية التى تحدث بها الظواهر .

وإذا ما قام العلم بوظيفتى الوصف والتفسير أمكن تحقيق هدفه النهائى المتمثل فى هذا الحدوث او تحديد مراحل العملية التى يتم بها هذا الحدوث . وفى ضوء ذلك يعتمد البرهان العلمى على مدى أداء العلم لوظيفتى الوصف والتفسير . وذلك ما يوضحه الشكل التالي :

---

(1) Bailey K., Ibid. P.32.

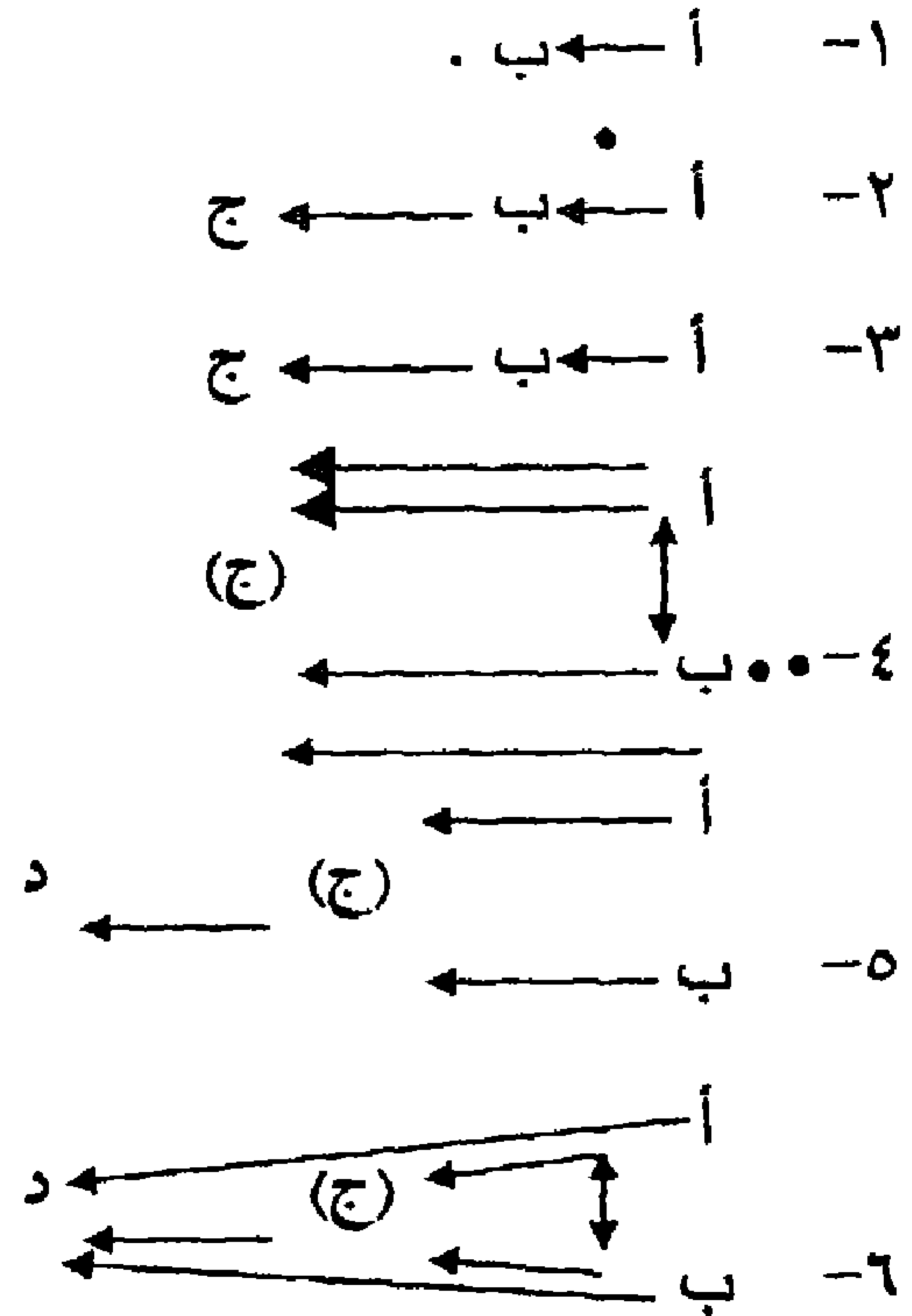
(2) Zusman . Marty , Scientific Explanation in Perspective . In Mahmoudi & parlin . Op. cit., P.14.



وبذلك يتضح أن منطق البرهان العلمي للبناء النظرى يعتمد على مدى أداء العلم لوظائفه الأساسية . فعن طريق الوصف يكتشف العلم بوسائله العالم الامبيريقي . وهذا هو عالم البيانات التى تقبل الملاحظة ، والتى يمكن أن يلاحظها أى إنسان يمتلك قدرا من المعرفة التى تمكنه من بحث تلك الظواهر . ومن ثم يمكن الإجابة عن (ماذا) أى عما هو قائم ، فى حين أن الوظيفة الثانية للعلم والتى تخدم بدورها الفهم فتتمثل فى التفسير أى الإجابة عن (لماذا) ، (وكيف) على ان يكون هذا التفسير امبيريقيا أيضا . حيث تطرح العلاقات السببية والوظيفية لتفسير البيانات . وهذا الجانب غير

ملاحظ او غير مدرك بالنسبة لاى شخص . وإنما يمكن تحديده عن طريق المعرفة العلمية المتوفرة للشخص ، بحيث يكون قادراً على قياسها وتحديد العوامل المرتبطة بالظاهرة .

وتتمثل أنماط العلاقات التفسيرية التى يتضمنها البناء النظرى والتى تشكل قضاياه فيما يلي :



حيث يشير النمط الأول للعلاقة السببية المباشرة بين المتغير (أ) والمتغير (ب) فى حين أن النمط الثانى للعلاقة يشير إلى علاقة المتغير (أ) بالمتغير (ج) من خلال المتغير الوسيط (ب) .

- • – علاقة سببية (من طرف واحد)
- • – علاقة وظيفية (علاقة تساند واعتماد متبادل)

ويمثل النمط الثالث وجود العلاقة المباشرة والعلاقة الوسيطة بين المتغير (أ) والمتغير (ج) . وبالنسبة لنمط العلاقة الرابع : فهو يشير لعلاقة المتغير

(ج) بالمتغيرين (أ ، ج) من خلال العلاقة التبادلية بين (أ ، ب) . وبالنسبة للنمط الخامس للعلاقة بين المتغيرات فهو يشير لتوفر الأنماط الثلاثة للعلاقة وتفاعلها معا حيث تؤثر (أ ، ب) من خلال العلاقة المتبادلة بينهما على المتغير (ج) كمتغير وسيط والذى يرتبط بدورة بعلاقة سببية بالمتغير (د) . فى حين ان نمط العلاقة السادس يتضمن أشكال العلاقة التى تضمنتها أنماط العلاقات الخمس المشار إليها وبذلك فهو اكثر الأنماط تعقيداً فى البناء النظرى لنسق التفكير العلمى .

والعلاقات الست المشار إليها بين المتغيرات مشروعة لقضايا البناء النظرى لأنها تسمح بالتنبؤ . فى حين أن العلاقة الصفرية التى تفترض عدم وجود علاقة بين المتغيرات لا تدخل فى البناء النظرى ، ولا تشكل أى قضية من القضايا ، ولكنها تلعب دوراً فقط فى عملية البحث وذلك عند استخدام الإجراءات والأساليب الإحصائية فى تحليل العلاقة المفترضة بين المتغيرات وذلك عندما تكون الإجراءات الإحصائية من النوع الذى يسمح باختبار الفرض الصفرى [1] .

وإذا ما أدى العلم وظيفتى الوصف والتفسير وهو بصدد الكشف عن الحقائق المرتبطة بالوقائع والظواهر التى يتناولها [2] أمكن تحقيق فهم علمى مبنى على البيانات الواقعية المرتبطة بالظواهر ، ومن ثم يستطيع العلم تحقيق هدفه النهائى المتمثل فى التنبؤ ، بالكيفية التى تحدث بها الظواهر فى المستقبل ، والعوامل التى تتحكم فى هذا الحدوث . ولا يعنى ذلك التنبؤ بالحدوث التام ، ولكنه يعنى فقط احتمالية الحدوث بدرجة يقين عالية إذا ما توفرت الظروف والأحوال والأوضاع التى بنى عليها التنبؤ . وقد جعلت هذه العلاقات المتداخلة بين التفسير والتنبؤ من التفسير غاية من غايات العلم رغم انها فى الأساس وسيلة العلم للتنبؤ ، سواء كان هذا التفسير بعد وقوع

(1) Lin, Nan , Foundations of Social Research , N.Y. : McGraw-Hill Book Company, 1976. P.24.
(2) Cole, Stephen , Op.cit.,PP. 29 - 35.

الحوادث أو سابقاً لوقوع الحوادث ، وخاصة ما يتعلق من التفسير بتحديد الكيفية التي يحتمل بها هذا الحدوث في المستقبل . وعند هذا المستوى يكون التفسير وسيلة من وسائل العلم لبلوغ غايته في التنبؤ .

والواقع ان الإجابة عن السؤال لماذا وكيف يقتضي أن يسبقهما الإجابة عن ماذا حدث ، حتى نسأل لماذا حدث ، أو كيف حدث ذلك ، فلا يمكن أن نسأل عن أسباب حدوث الظاهرة ، والكيفية التي حدثت بها ، ونحن لا ندركها . بمعنى أن إدراك الحدوث شرط أساسي لتفسيره . وبذلك تكون الإجابة عن ماذا حدث أساس لتفسير الحدوث ، والإجابة عن ماذا حدث يتعلق بوصف الظاهرة (أي وصف ماذا حدث) وصفاً مفصلاً بتحديد خصائص الظاهرة وعناصرها وطبيعة العلاقات الطردية أو العكسية ، التي تربط تلك العناصر ببعضها . وهنا يكون الوصف وسيلة العلم لتحقيق غايته من التفسير ، حيث نحاول تفسير الظاهرة أو الحادثة بتحديد العوامل التي أدت إلى هذا الحدوث ، للإجابة عن لماذا . وتحديد العملية التي تم بها هذا الحدوث للإجابة عن كيف حدثت الظاهرة [1] .

وبذلك يتخذ العلم من الوصف وسيلة لاكتشاف الوقائع والحوادث بتحديد خصائصها ، والعناصر التي تشتمل عليها ، وطبيعة العلاقة التي تربط هذه العناصر ببعضها وذلك لتحديد العوامل التي أدت لهذا الحدوث . والكيفية التي تم بها حدوث الظواهر ، أي لتفسير الظواهر والحوادث واكتشاف عواملها ، والعمليات [2] المرتبطة بها . أي أن كل من الوصف والتفسير يستهدفان اكتشاف خصائص الحدث والظواهر ، وعواملها وعملياتها بهدف فهمها .

ويوجد اتفاق وإجماع بين العلماء على أن الفهم هدف أولي معلن

(1) Bailey , Kenneth , Op. Cit ., P.31-32

(2) Cole, Stephen , The Sociological Method , Chicago: Rand McNally College Publishing Company , 1972. PP.30 - 32.

للعلم [1] . ولكى يحقق العلم هذا الـهدف الأول ليقوم بوظيفتى الوصف والتفسير . وإذا ماأنجز العلم وظيفته يكون قد حقق هدفه فى الفهم . وتحقيق العلم لوظيفتى الوصف والتفسير تستهدف الإجابة على أسئلة محددة تتمثل فى ماذا ؟ ، ولماذا ؟ ، وكيف ؟ بغرض الفهم Understanding كهدف أولى غير معلن . وإذا مارتبط هذا الفهم وبنى على الوقائع المتعلقة بالظاهرة ، أمكننا إقامة البرهان . وبذلك يتضح أن منطق البرهان العلمى للبناء النظرى يعتمد

على مدى أداء العلم لوظائفه الأساسية . فعن طريق الوصف يكتشف العلم بوسائله العالم الامبيريقى . وهذا هو عالم البيانات التى تقبل الملاحظة ، والتى يمكن أن يلاحظه أى إنسان يمتلك قدراً من المعرفة التى تمكنه من بحث تلك الظواهر .

ومن ثم يمكن الإجابة عن (ماذا) أى عما هو قائم ، فى حين أن الوظيفة الثانية للعلم والتى تخدم بدورها الفهم فتتمثل فى التفسير أى الإجابة عن (لماذا) ، (وكيف) على أن يكون هذا التفسير أمبيريقيا أيضاً . حيث تطرح العلاقات السببية والوظيفية لتفسير البيانات . وهذا الجانب غير ملاحظ أو غير مدرك بالنسبة لأى شخص ، وإنما يمكن تحديده عن طريق المعرفة العلمية المتوفرة للشخص ، بحيث يكون قادراً على قياسها وتحديد العوامل المرتبطة بالظاهرة .

وإذا كانت هذه هى وظائف العلم وأهدافه المعلنة ، فإن ثمة هدف ضمنى للعلم يتمثل فى الوعى العلمى . وهو على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة

(1) Bailey K., Ibid, P.32.

لدرجات اليقين المتوفرة فى الاحتمالات التى تنطوى عليها تنبؤاتنا حول الظواهر . وذلك لأن الوعى العلمى يعتمد على التعمق فى تطبيق المعرفة العلمية وربطها بالبيانات الواقعية . فما نكتشفه بواسطة العلم يمثل الحقيقة فى حين أن مانعيشه فى حياتنا يمثل إعتقادنا حول مانعيشه .

ومن ثم فإن تنمية الوعى العلمى بالمجتمع بمثابة هدف أساسى للعلم . وإن كان هذا الهدف ضمنى وغير معلن . وتنمية الوعى العلمى على هذا النحو يستهدف إحلال المعرفة العلمية محل كلا من الأساطير والمعتقدات والاتجاهات التى تشكل ذواتنا الداخلية لكى تكون الحقيقة الامبيريقية والبيانات العلمية أساس تفسيرنا للعالم دون أن تكون خبراتنا ومعارفنا التى تنطوى عليها معتقداتنا أساس لهذا التفسير . وبحيث يكون تفسيرنا كما لو كنا لانعرفه أو لانعلم بخبراتنا عنه شيئا ، فنحن لانعرف العالم الحقيقى ، ولكننا نعلم عالم المعتقدات التى تعلمناها حول العالم . ولكى نطور الوعى العلمى بهذه الصورة علينا أن نتعلم كيف نسأل عن كل شىء يقع من حولنا ، ويحيط بنا . وكذلك ينبغى أن نتعلم كيف نتخذ من الشك فى الموقف الطبيعى والرد وجدلية الاستقطاب والتضمين والاستكمال سبيلا للوصول للتفسير والفهم الجديد لعالمنا المعقد وتحقيق ذلك يعتمد على مدى اتخاذنا من المدخل الفينومينولوجى ومبادئه وإجراءاته المنهجية سبيلنا لتحصيل المعرفة وتحقيق الفهم لعالمنا [1] .

---

(1) Zusman, Marty, Op. cit., P.15.

ب - *العناصر البنائية للتفسير :*

يتضمن التحليل التفسيرى على نحو مـــاذهب " ســتيفين كــول " ثلاثــة عناصر ، يرى أنها عامة وأن جميع العلوم تؤيدها ، وتتمثــل هذه العنــاصر في :

العنصر الأول وهو مانسميه بالمتغير التابع وهو يتمثل فى الحـــدوث أو الواقعة التى حدثت والتى يرتد تفسيرها ، ولذا سمى بـــ " المتغــير التــابع " Dependent Variable ، وفي هذه الحالة تمثل الظواهر التــى تدرســها جميــع العلوم متغيرات تابعة .

فى حين أن العنصر الثانى للتفسير يتمثل فى العوامل المســببة . وهــى ماتسميها جميع العلوم بالمتغير المستقل Independent Variable . فجميع العلــوم تنظر للمتغيرات التى تسبب الظواهر على أنها متغيرات مستقلة .

والعنصر الثالث فى التحليـــل التفســيرى يســمى متغــير تفســيرى Explanatory Variable أو عامل الاختبار . وهو يتعلق بالإجابة عن لماذا أثــرت المتغيرات المستقلة على المتغيرات التابعة بهذه الكيفية أى الإجابة عن كيــف حدث هذا التأثير ؟ . ورغم أن " ستيفين كول " أراد بتحديده لهذه العنـــاصر التى يتضمنها التحليل التفسيرى أن يبرز الحالات العامة الأساسية فى نظره . إلا أن بعض العناصر التى يتضمنها التحليل التفسيرى قد تساعد كثيراً فـــى تحديد العنصر الثالث " عامل الاختبار " المتغير التفسيرى . فى حين يمثـــل العنصر الرابع المضاف للعناصر الثلاثة التى حددها " ستيفين كول " المتغير الوسيط Intervening Variable وهو المتغير الذى يأتى فى وضع المتغير التـــابع بالنسبة للمتغير المستقل ، وفى وضع المتغير المستقل بالنسبة للمتغير التـــابع

ولكن بحكم وضعه بين المتغير المستقل والمتغير التابع فإنه لايكون ممثــــلا لأى منهما . وذلك لأنه يشكل بعدا تحليليا في حـــد ذاتـــه بالنســبة للتحليــل التفسيرى . ومن ثم فهو يدل على حالة مميزة فى البناء التفسيرى [1] . أمـــا العنصر الخامس المضاف لعناصر البناء التفسيرى التى حــــددها "ســتيفين كول " فيتمثل فى الاعتماد المتبادل بين المتغيرات وبعضـــها ، أى المتغــير الوظيفى Functional Variable ويعكس هذا العنصر حالة التأثير المتبادل بيـــن المتغيرين بمعنى أن لكل من المتغيرين مردوده التأثيرى بالنســبة للمتغــير الآخر .

والأشكال التالية توضح العنصر الأول والثانى والرابع والخــامس أمــا العنصر الثالث وهو متغير الاختبار فيتحدد على المستوى التفسـيرى حيــث يكشف عن سبب تأثير متغير معين على متغير آخر . والكيفية التى يحـــدث بها هذا التأثير .

العنصر الأول والثانى : (متغير مستقل) أ ←—— (متغير تابع) (ب)

العنصرالرابع : متغير مستقل أ ←—— (متغير وسيط) (ب) ← متغير تابع (ج)

العنصر الخامس : (متغير وظيفى) أ ←→ ب (متغير وظيفى)

ومن ثم فإن البرهان العلمى يعتمد على مدى التحقق من أنماط العلاقـــة التى تشكل البناء النظرى للعلم على مستوى البناء التفسيرى وعناصره . فـى حين أن البرهان العلمى للمدخل الفينومينولوجى يتحقق على نحو ما أسلفنا .

(1) Bailey, Kenneth D., Op. cit., P.42.

٣ - خصائص البناء التفسيرى لنسق التفكير العلمى :

فى ضوء التحليل السابق لطبيعة البناء النظرى لنسق التفكير العلمى ومايشتمل عليه من علاقات تفسيرية ، ولعناصر البناء النظرى ، ومدى اتساقها مع العلاقات التفسيرية على مستوى البناء النظرى ، نسعى لتحديد الخصائص المميزة للعلاقات والارتباطات والانتماءات القائمة بين المتغيرات والتى تشكل العناصر الأساسية للبناء التفسيرى . فالعبارات التفسيرية رغم أنها تشتمل على مفاهيم ومتغيرات . إلا أنها تختلف بشكل واضح من حيث نطاقها وتعقيدها .

فالمفاهيم بصورة مبسطة بمثابة تصورات أو مدركات ذهنية . فقد لانستطيع أن نلاحظ بعض المفاهيم بصورة مباشرة ، وذلك مثل مفاهيم العدالة أو الحب أو البناء الاجتماعى ...الخ . وقد تشير المفاهيم لما يمكن ملاحظته مباشرة وذلك مثل الشجرة والمنضدة ، أو الصخرة . وقد تتكون المفاهيم من فئة أو قيمة واحدة فقط . مثال ذلك مفهوم العدالة حيث نتعرف بصورة عامة على وجودها أو غيابها . أكثر من معرفة درجات العدالة ، كما أن العديد م المفاهيم تشتمل على فئات وقيم أو مفاهيم فرعية عديدة . حيث نكون مهتمين بمعرفة أبعادها، واستمرارها . مثال ذلك مفهوم الذرة فهو يحتوى على عدد من المفاهيم الفرعية مثل " البروتون ، والنيوترون ، والالكترون " (١) . والمفهوم الذى يكون له قيمة واحدة دون أن تتغير قيمته يسمى نظامى أو ثابت ، وعادة ماتكون قيم أو فئات المتغير متمايزة كمياً .

---

(١) دكتور سالم مليبارى ، وآخرون ، الكيمياء العامة ، بيروت ، المكتب الإسلامى ١٣٩٨هـ ، ص ٢٦ - ٣٠ .

إلا أن بعض المتغيرات يكون لها فئات متمايزة بواسطة كلمات مميزة أو مصنفة ، أكثر منه بواسطة الإعداد فالنوع متغير ذو فئات متمايزة مصنفة إلى ذكور وإناث [1] .

وعندما نتناول العلاقة بين المتغيرات فإن ذلك يشير إلى أن متغير " أ " مثلا يرتبط بمتغير " ب " . وذلك يعنى أن المتغيران يتغيران معا حيث أن التغيير فى " أ " يصحبه تغيير فى " ب " والعكس بالعكس . كما أن الاختلاف يشير لحالة الارتباط أو التباين فعندما يكون زيادة تغيير " أ " مصحوبا بزيادة فى تغيير " ب " يكون هناك ارتباط بين المتغيرين . فى حين أنه عندما لاترتبط الزيادة فى " أ " بزيادة فى المتغير " ب " يمكن استنتاج أن المتغير " أ " و " ب " غير مرتبطين . ومن ثم فإنهم فى حالة وجود علاقة بين متغيرين يمكننا أن نحدد خصائص هذه العلاقة من حيث قوتها وضعفها . ومن حيث إيجابيتها أو سلبيتها . ومن حيث استقلاليتها أو تبعيتها . ولما كانت هذه الخصائص تسم عناصر التحليل التفسيرى ، فإن تعميق فهمنا للتفسير من خلال تحليلنا لهذه العناصر يحتاج منا تحديد هذه الخصائص على النحو التالى :

أ – العلاقة الإيجابية والسلبية بين المتغيرات :

فى حالة وجود علاقة بين متغيرين يكون من الضرورى تحديد إيجابية هذه العلاقة أو سلبيتها . وتعتبر العلاقة إيجابية بين متغيرين إذا كانت الزيادة فى متغير يتبعها زيادة فى متغير آخر بمعنى أن الزيادة فى المتغير "أ "

---

(1) Bailey, K., Op. cit., PP. 34 - 39.

يتبعها زيادة فى المتغير " ب " . وتعتبر العلاقة إيجابية أيضا إذا كان نقصان المتغير "أ " يتبعه نقصان فى المتغير "ب " . وبذلك تشير العلاقة الإيجابية إلى أن الاختلاف فى المتغيرين يأخذ نفس الاتجاه وهذه الخاصية للعلاقة بين المتغيرين تسمى بالإيجابية أو الطردية . وفى حالة ماتكون الزيادة فى المتغير " أ " مصحوبة بنقصان فى المتغير " ب " أو العكس أى النقصان فى المتغير " أ " مصحوب بزيادة فى المتغير " ب " فإن هذه الخاصية للعلاقة تسمى بالسلبية أو العكسية . ولاتعنى سلبية العلاقة أن ارتباط المتغير أقل من العلاقة الإيجابية ، ولكنها تعنى فقط أن الاختلاف فى المتغيرين يأخذ اتجاها عكسيا .

ب - *قوة العلاقة بين المتغيرين :*

وتحديدنا لخاصتى الإيجابية والسلبية للعلاقة بين المتغيرين لايعنى تحديد قوة الارتباط بينهما . وذلك لأن خاصية الإيجابية أو السلبية تشير لطبيعة تناغم التغير بين المتغيرين فى حين أن خاصية قوة الارتباط بين المتغيرين تتحدد فى سياق التنبؤ أكثر منها فى سياق تناغم التغير . فمعرفة قيمة متغير تمكننا من عمل تنبؤ دقيق بقيمة المتغير الآخر . وذلك فى حالة ارتباط المتغيرين . ولكن فى حالة عدم ارتباط المتغيرين فإن معرفة قيمة المتغير (أ) لاتساعدنا على التنبؤ بقيمة المتغير (ب) وهنا تسمى درجة صدق التنبؤ بقوة العلاقة . والأسلوب الإحصائى العام المستخدم لقياس قوة العلاقة يسمى " معامل الارتباط "corrolation coefficient. فيتراوح مدى الارتباط بين (-١) ، (+١) ، و صفر تعنى عدم وجود علاقة تنبؤية فى حين أن (+١) تعنى أن التنبؤ بدرجة صدق ١٠٠% بالنسبة للعلاقة الإيجابية بين المتغيرين كما أن

(-١) تعنى إمكانية التنبؤ بالعلاقة السلبية بين المتغيرين بدرجة صـــــدق ١٠٠% .

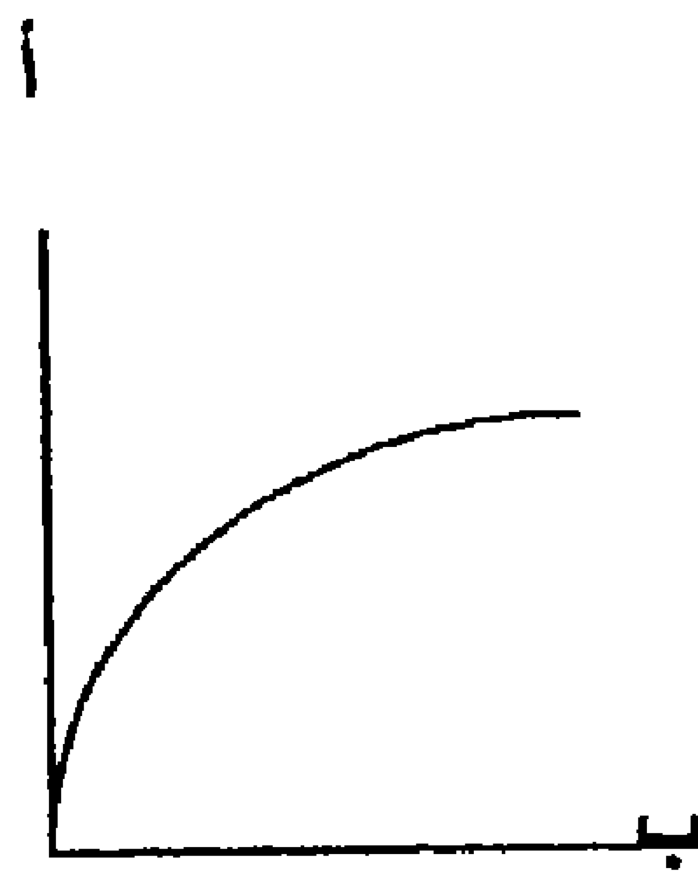
ج - العلاقات الخطية والإنحنائية بين المتغيرين :

تشير العلاقة الخطية لاختلاف منحنى المتغيرين بنفس المعـــدل . وهنـــا تأخذ العلاقة شكلا خطيا . في حين أن العلاقة الإنحنائية تشير إلى أن معـــدل التغير فى قيم متغير معين قد تختلف عن قيم المتغير الثانى [1] ، وهنا تـــأخذ العلاقة شكلا انحنائيا . والشكل التالى يوضح ذلك :

شكل العلاقة الخطية بين المتغيرين



شكل العلاقة الانحنائية بين المتغيرين



وذلك يعنى أنه فى حالة العلاقات الخطية بين المتغيرين يكـــون معـــدل التغير فى قيمة المتغير (أ) بنفس مقدار معدل التغير فى قيمـــة (ب) فـــى حين أنه بالنسبة للعلاقة الإنحنائية يقابل معدل التغير فى قيمة المتغـــير (أ) معدل أقل أو معدل أكثر فى تغير قيمة المتغير (ب) .

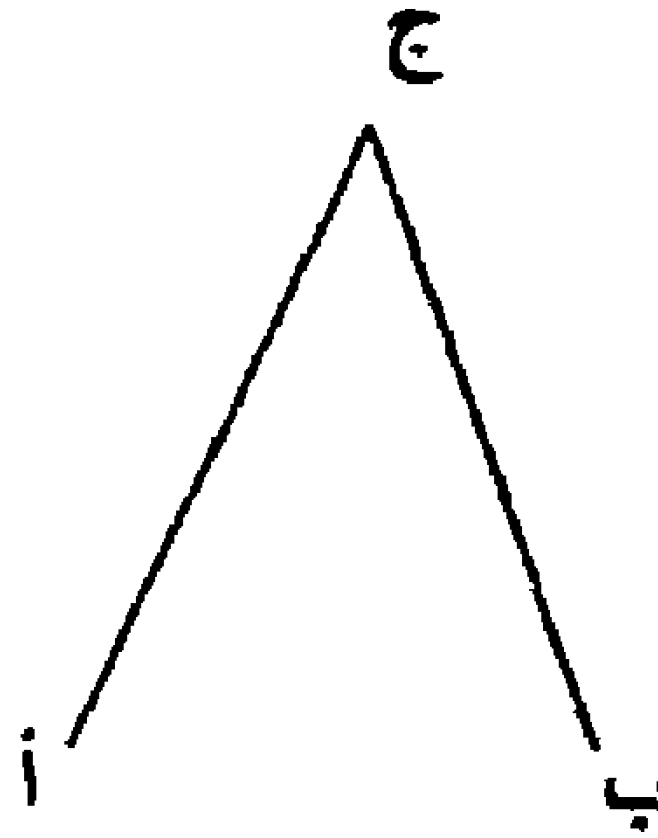
---

(1) Bailey , K., Op. cit ., P.41.

د - العلاقة الظاهرة والعلاقة الكامنة (الخفية) :

قد يجد الشخص أن هناك علاقة واضحة بين متغيرين ثم يكتشف بعد ذلك أن المتغيرين لايؤثران على بعضهما مطلقا رغم أن معدل التغير قيمة كــل منهما واحد وذلك يعنى أن هناك متغير ثالث يسبب المتغيرين ولم ندرســه . وذلك هو سر ظهور تغير المتغيرين معا . وهذه الخاصيـــة تشــير للعلاقــة المتوهمة .

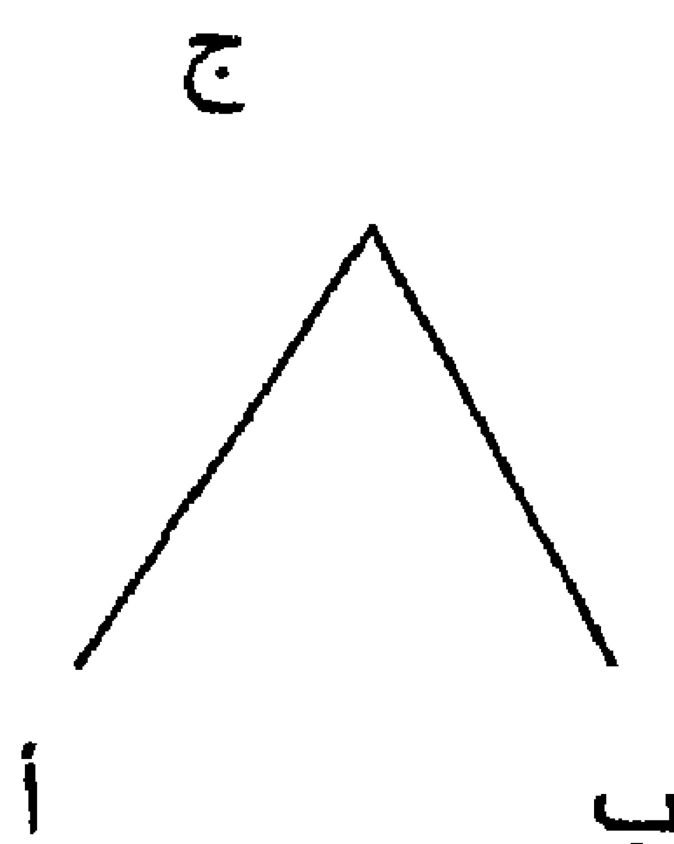
والشكل التالى يوضح العلاقة المتوهمة بين المتغيرين



حيث أن " ج " هو المتغير الذى بسبب المتغير " أ " والمتغير " ب " ولكن مع غياب المتغير "ج" ظهر تماثل معدل تغير المتغــير " أ " والمتغــير "ب" ولذلك تكون العلاقة هنا وهمية . وليست حقيقية . لأن العلاقة القائمة بينــهما مرتبطة بوجود المتغير الذى سببها .

وثمة خاصية ثانية للعلاقة الظاهرة والعلاقة الكامنة تتمثل فــى العلاقــة المتداخلة . فقد تظهر علاقة قوية بين المتغيرين (أ) والمتغير (ب) فى حيــن

أن حقيقة هذه العلاقة ترجع إلى أن المتغير (أ) يسبب متغير ثالث هو (ج) ثم يسبب المتغير (ج) المتغير (ب) ومن ثم ظهرت العلاقة بين المتغير (أ) والمتغير (ب) . والشكل التالى يوضح العلاقة المتداخلة .



ومن ثم فإن الكشف عن المتغير (ج) يظهر العلاقة بين المتغير (أ) والمتغير (ب) . وقد توجد متغيرات خافية يترتب على غيابها تصور وجود علاقة بين متغيرين فى حين أنه قد لاتكون بينهما علاقة أكثر من كونهما نتيجة للمتغير الخفى الذى لم يدرج فى الدراسة . وفى حالة ضبط المتغير الخفى يتضح عدم صحة العلاقة التى ظهرت بين المتغيرين .

الفصل الثالث

موضوعية المعرفة والمنظور الظاهرى
فى
العلوم الاجتماعية

الفصل الثالث

موضوعية المعرفة والمنظور الظاهرى

فى

العلوم الاجتماعية

تمهيد :

يستند المنظور الفينومينولوجي لأساس علمـي مدعـم بالتكامل النظـوي و المنهجي ذلك التكامل الذي يعني الاتساق بين الإجراءات النظرية لتنـاول الظاهرة و الإجراء المنهجي الذي يستعان به في تحديد مسار البحث و تنظيم تناولنا للظاهرة . و هذا لا يتحقق بعملية تكييف مناهج العلوم الطبيعية مـع الأطر النظرية القائمة مثل المادية الجدلية أو الوظيفية ... الخ .

وإنما يتحقق بتلازم الانبثاق النظري المنهجي للنموذج ، و ذلك ما يتحقق على مستوى النموذج الفينومينولوجي ، و هذا التكامل يستهدف الوصول إلـى التناول التجريبي المناسب للظاهرة في ضوء النمـوذج التفسـير و الفـهم المطروح ، و الذي يكون محل إختبار و تجريب ، و يخضع في تطويـره لمعطيات التجريب الفينومينولوجي .

و لكي نبرز اهمية هذا التكامل النظري و المنهجي في علـم الاجتمـاع التجريبي سواء على مستوى النسق النظري أو مستوى الإجراء المنـهجي أو بينهما معا نتناول بعض القضايا التي تتحدد من خلال مناقشتها اهمية الاستناد إلى النسق العلمي للمنظور الفينومينولوجي في دراستنا للمجتمع و ظواهره .

فقد أصبح العلم لغة العصر بين الناس ، و امتد سلطانه إلى آماد واسعة ، و أفاق بعيدة في حياتنا اليومية ، حتى أصبح كل منا يطلقه على تفكـيره ، و فهمه للأمور ، و ذلك إذا ما أراد أن يكسب تفكيره هالة من التقدير . و قـد امتدت هذه الموجة إلى العلوم الاجتماعية التي ذهب أنصارها إلى أنها جـزء

من التقليد العلمي [1] . و ذلك لتأكيد عملية النظم الفكرية لتلك العلوم . و إذا كانت العلوم الاجتماعية تهتم بدراسة مختلف جوانب الأنساق الاجتماعي ، تلك الأنساق التي تستند إلي أساس معياري في توجيه السلوك البشري [2] و تحديد مساره .

و إذا كان علم الاجتماع يهتم بمختلف جوانب الظاهرة المجتمعية ، ألا أن المعرفة العلمية لا يمكن أن تكون حكرا لأي نظام علمي بعينه دون غيره من النظم العلمية ، و ذلك لأن المجتمع و ظواهره المختلفة بمثابة مشروع بحث مشترك بين المؤرخين و الاقتصاديين و علماء السياسة ، و السكان ، و علماء الاجتماع و علماء الأنثروبولوجيا ، و الجغرافيين ، و غيرهم من رواد النظم العلمية الداخلة في دائرة العلوم الاجتماعية [3] . و مع ذلك فإن التخصص أمر ضروري . و رغم أن علم الاجتماع يتناول الظاهرة المجتمعية ألا أنه من أكثر العلوم الاجتماعية تخصصا . و من ثم يقوم النموذج الفينومينولوجي كنموذج علمي يحتذي به بالنسبة لمختلف العلوم الاجتماعية في دراستها لموضوع تخصصها . نظرا لاتساقه نظريا و منهجيا ، و كفاءته لدراسة ظواهر تلك العلوم .

و من ثم تطرح الأسئلة التالية نفسها : كيف يتناول المنظور الفينومينولوجي الظاهرة الاجتماعية بمختلف جوانبها ، ثم يكون علما متخصصا في نفس الوقت [4] ؟ ثم كيف تتحقق لعلم الاجتماع علمية رغم هذا الشمول في تناول الموضوعات الاجتماعية ؟ و إلي إي مدى يستند المدخل الفينومينولوجي في بحوثه للمنهج و التجريب العلمي ؟

---

(1) Smith , H. W., Strategies Of Social Research , New Jersey : Prentic-Hall , Inc., P.1975. P.3.

(2) Varma , Baidva Nath , A New Survey Of The Social Sciences , New York : Asia Publishing House , 1962 . 1 .

(3) Varma , Ibid . P . 73 .

(4) Zetterberg , Pans L ., In Varma , Raidya Nath , Ibid ., P . 59.

و الواقع أنه من الأمور التي جعلت الإجابة على مثل تلك الأسئلة أمـــراً ملحاً ، ذلك الاهتمام المتزايد بالبحث الاجتماعي في العلوم الاجتماعية علـــى مستوى نموذجي للمجتمعات البشرية : المتقدمة منها و الناميـــة . و خاصـــة مجتمعات العالم الثالث التي تمر بمرحلة نمو سريعة . و ماستتبعه حاجة تلك المجتمعات لدراسة السلوك الإجتماعي من زواياه المختلفة مثل زاوية البنـــاء الدافعي للسلوك ، و زاوية الشخصية . و المواقف الاجتماعية ، و العوامـــل الحضارية ، و القوى التاريخية ، بحيث تغطي تلـــك الزوايـــا المستويات الشخصية و الاجتماعية و الثقافية ، لما لذلك من اهمية في توجيـــه عمليـــة التنمية في تلك المجتمعات بما يجعلها تسير في مسارها الصحيح الذي يدعـــم وجود المجتمع . و هنا يثار التساؤل عن كيف يحقق المنظور الفينومينولوجي التناول التجريبي لواقع تلك المجتمعات و ظواهرها .

و لا شك أن تحليل المفردات الاجتماعية يقتضي ربطـــها بالســـياق الاجتماعي العام و تكاملها مع المستويات التحليلية الأخرى ، و ذلك لتحقيـــق الإدراك الكلي للظاهرة الاجتماعية ، و لا شك أن تحقيق هذا الفهم المتكـــامل يستند إلى أن تناول المفردات في العلوم الاجتماعية يتـــم بغـــرض التحليـــل البنائي لتلك المفردات ، على أن يستكمل هذا التحليـــل بـــالتحليل الوظيفـــي الدينامي لعناصر هذه المفردات مع بعضها في سياق النسق الكلي . و التـــي ترتبط وظيفيا ببعضها ، و بهذا النسق الذي يردها و ترجع إليـــه . و بذلـــك يتساند مدخل التحليل البنائي وظيفيا مع مدخل التفاعلية الرمزيـــة ونظريـــة الدور مع المدخل الصراعي في التحليل لتلك المفردات في سياق الكل الـــذي يمثل المنظور الفينومينولوجي و الذي يضم وحده هذه النماذج الفرعية علـــى أساس الرد الفينومينولوجي ، و هذا ما أكـــد عليه كـــل من شلـــز وزنانيكي و غيرهم من علماء الاجتماع عندما ناقشوا قضية التكامل بين المدخل البنائي و المدخل الدينامي ، في دراسة الظاهرة الاجتماعية خلال الحلقة الدراســـية التي عقدت بهذا الخصوص ، و التي أجمع فيها علماء الاجتماع المشـــتركون

في المناقشة علي أن التكامل المنهجي بين التحليل البنائي و التحليل الوظيفي يمكن أن يواجه أخطر قضايا الفكر السسيولوجي التي توجه البحث الاجتماعي في مجال العلوم الاجتماعية و لكن ذلك لا يتحقق إلا في نطاق المظلة الفينومينولوجية و منهجية الرد .

و في ضوء ذلك نناقش القضايا المطروحة للبحث في هذا الفصل بتناول النقاط الأساسية الآتية :

- طبيعة العلوم الاجتماعية ومقتضياتها المنهجية للبحث .
- القضايا العامة المرتبطة بتطوير العلوم الاجتماعية
- القضايا الإجرائية للبحث في العلوم الاجتماعية .
- التحفظات حول المعرة في العلوم الاجتماعية .
- أبعاد التكامل النظري و المنهجي في علم الاجتماع الفينومينولوجي .
- البنائية الوظيفية و التكامل المعرفي في علم الاجتماع الفينومينولوجي .
- السلوكية الاجتماعية و التكامل المعرفي في علم الاجتماع الفينومينولوجي .

وذلك ما نتناوله بشئ من التفصيل فيما يلي :

أولاً: طبيعة العلوم الاجتماعية و مقتضياتها المنهجية للبحث :

تصنف العلوم بصورة عامة إلي مجموعتين هما العلوم الطبيعية ، و العلوم الإنسانية و الاجتماعية . و بالنسبة للمجموعة الأولى فأنها أما أن تكون فلكية أو كيميائية أو فيزيائية .. أما العلوم الاجتماعية فهي سواء كانت علم الاجتماع . أو العلوم الاقتصادية أو السياسية أو التاريخ أو الانثروبولوجيا أو علم النفس ..الخ فأنها تعني جميعها بالإنسان و نتاجه الثقافي و الاجتماعي الذي تراكم عبر التاريخ ، و أصبح يمثل كيانات

أخرى تؤثر علية و تتأثر به . و من ثم فهي تتناول الإنسان ليس علي أنه فرد منعزل عن الآخرين ، و لكنها تتناوله كعضو في جماعة . الأمر الذي يتطلب تناول الإنسان في تفاعله مع روابطه . و ذلك يشير إلى أن العلوم الاجتماعية تهتم بدراسة شبكة التنظيم الاجتماعية ، الأمر الذي يؤكد أن الأنثروبولوجيا و التاريخ و الاقتصاد و السياسة و الأخلاق ليست فروعا متمايزة و منفصلة ، و إنما هي متكاملة مع بعضها . و متبادلة التأثير . و لا تجري بحوثها في معزل عن بعضها . و إنما عندما يقوم العالم الاجتماعي ببحوثه فإنه لا يتقيد بمجال تخصصه و حدوده الفكرية التي تفصله عن العلوم الاجتماعية الأخرى بل يذهب وراء المشكلة و يتعقبها . و ذلك رغم تناوله للمشكلة في أول الأمر . بالاستناد للإطار المرجعي الخاص بتخصصه . مثال ذلك أنه عندما يتناول عالم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا أحد المجتمعات التي لا يعرفها بالدراسة ، فإنه يحتاج بصورة أساسية لتاريخ هذه المجتمعات ، و تنظيمها السياسي ، و بنائها الأقتصادي و أنساقها الثقافية. والاجتماعية ، و المشكلات الأساسية التي يعيشها هذا المجتمع . لأن ذلك يمكنه من تحقيق الفهم الشامل للمجتمع و ظواهره ، و من ثم تفرض طبيعة البحث الاجتماعي على العلماء الاجتماعيين ضرورة التأكيد على وحدة العلوم الاجتماعية . لما لهذا التكامل من دور في فهم المشكلات الواقعية المعقدة . و ذلك دون أن نلغي التخصص في مجال العلوم الاجتماعية ، لأنه يضفي مزيدا من العمق في فهم جوانب الحياة وكشف أغوارها و جذورها الأساسية التي لا غنى عنها في فهم الحياة الاجتماعية مع أدراك أن هذه الجوانب مترابطة و متبادلة التأثير مع بعضها ، و ذلك ما يحققه التأكد على وحدة العلوم الاجتماعية و ترابطها ببعضها و إسهامها مع بعضها لتوفير المعرفة الشاملة و الصادقة و الثابتة حول الواقع الاجتماعي و ظواهره .

و بذلك تكون بحوث و دراسات تلك العلوم معتمدة على بعضها لأن ثمة اهتمام واحد يحركها ، ألا و هو الإنسان الذي يتناوله كل من تلك العلوم

الاجتماعية من زاوية خاصة ، و عند مستوى متمايز عن المستويات الأخرى لبقية العلوم الاجتماعية التي تتناوله (١) . و الجدير بالذكر في هذا الشأن أن هذه هي السمة ، التي تميز العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية و البيولوجية . كما أن ذلك يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من قبل و هو أن العالم الاجتماعي يجب أن يكتسب خبرة و خلفية واسعة . و أن يرى مشاكله من زاوية واسعة النطاق ، أكثر من أن ينحصر في رؤية لها زاوية محدودة النطاق Micro، .

و نتيجة لحداثة العلوم الاجتماعية على نحو ما ذهب "جوبال "M.. Gobal" وبايديا فارما " Raidya Nath Varma فإن ما حققته من تقدم بالنسبة للتكنيكات المستخدمة يحتاج لمزيد من الدعم ، و التعاون بين المهتمين بتلك العلوم . لتحقيق مستوى التحليل المنهجي المتكامل للظواهر التي تقع في نطاق العلوم الاجتماعية . خاصة و أن طبيعة الموضوع الذي تتناوله واحد ، و ذات طبيعة معقدة ، الأمر الذي يقتضي مزيداً من الجهد في مجال التحسين المنهجي للتكنيكات التي تستخدمها هذه العلوم في تحليلها للظواهر الاجتماعية .

وأن تتسع دائرة استخدام المناهج العلمية الأخرى مثل المنهج الفينومينولوجي باعتباره مظلة نظرية و منهجية للعلوم الاجتماعية هذا فضلاً عن ضرورة الاستعانه بأساليب التفكير المنطقي و الخبرة الواعية على نحو ما أكد " ليفنجستون " R. Livingstone في مؤلفة " هندسة التنظيم و الإدارة (٢). و ذلك لضمان تناول الظواهر الاجتماعية من جوانبها الموضوعية و الذاتية إذ أن ذلك من مقتضيات تحقيق المنهج التكاملي في المعرفة و الذي تقتضيه الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية و البشرية (٣). و انطلاقاً من هذا أكدت

(1) Gobal, M. II., An Introduction to Research Procedure in Sciences, N.Y., Asia. Pub. House , 1964. P.12.

(2) Livinfgstone , R., Engineering of Organization and Management , McGraw Rill , 1919.

(٣) دكتور حامد عمار ، المنهج العلمي في دراسة المجتمع ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ ص ١٥.

أعمال " جون جلن " [1] John Gillin على ضرورة تناول الظواهر الاجتماعية البشرية من منظورات عدة أكثر من تناولها في ضوء منظور واحد من العلوم الاجتماعية و هذا لا يعني نفيه للمنظور الواحد و لكن يشير إلى وجوده مع خصوصية كل مجال . إذ أن بعض الأعمال الواردة في مؤلفة (من أجل علم الإنسان الاجتماعي ١٩٥٤) تمكنا من تلمس تأثير كل من علم الاجتماع . و أيضا الأنثروبولوجيا و علم النفس على بعضها . في تناولها للظواهر البشرية . كما أن " ميراكوماروفسكي " أكدت في مؤلفها (رواد العلوم الإنسانية ١٩٥٧) على إسهامات المؤرخين و علماء الاقتصاد و علماء الاجتماع معا ، كما أن هناك بعض الأعمال الفردية على نحو ما حدث بالنسبة " لبيتريم سروكن " P. Sorokin في مؤلفه ، المجتمع و الثقافة و الشخصية ١٩٤٧ ، تسعى لإيضاح الإطار النظري العام للعلوم الاجتماعية [2]. أضف لذلك العديد من الأعمال و الدوريات التي عنت بالعلوم الإنسانية بشكل مفصل . و ذلك في جملته يشير إلى أهميه المنظور الميتوميتولوجي كمنظور علم العلوم الاجتماعية ترجع أليه نظريا و منهجيا .

ثانياً – القضايا العامة المرتبطة بتطور العلوم الاجتماعية :

ذهب " رادها كامال ميكرجي " Radhakamal Makerjee في عرض وجهة نظره في دراسته القيم في العلوم الاجتماعية إلى ضرورة استناد الإطار النظري لدراسة المجتمع و ظواهره على الترابط القيمي الذي يمكن أن يعوض العلوم الاجتماعية عن الوحدة العامة . و ذلك استجابة منه للاتجاه السائد اليوم بين العلماء لاكتشاف وحده المعرفة [3]. و هذه الوحدة في نظره تقوم على المعاني والقيم التي ترتكز على ترابط المعاني الأساسية و التبادل القائم بينها ، و كذلك على مناهج الدراسات الاجتماعية المختلفة التي تدرس سلوك الإنسان و ثقافته .

---

(1) Varma, Ibid., P.221.
(2) Varma, B.N., Op. cit., P231.
(3) Varma, Ibid., P.221.

و بذلك يتضح تركيزه على تحقيق الوحـدة بين العلـوم الاجتماعية [1] ، و هو نفس الأساس الذي استند أليه حامد عمار في تحقيقه لوحدة المعرفة بين العلوم الاجتماعية في فهم الظاهرة الاجتماعية و ذلك بتأكيدة على أن عمليـة التحليل مسألة ضرورية في المنهج العلمي ، و هنا نؤكد على فاعلية التحليـل الفينومينولوجي و أهميته لتحقيق النظرية الكلية ، وانتقلت تصوراتـه إلـى العلوم الاجتماعية و الإنسانية لتفسير المجتمعات الحديثة المعقدة في ضـوء الأنماط الأولية لحياة الشعوب البدائية . بحيث يتدرج التفسير من المركب إلى البسيط في درجات ووحدات تختلف في مجرد علاقاتها و مكوناتها .

و هنا تبرز اهمية هذا المدخل المنهجي القائم على التحليـل الاجتمـاعي عندما يذهب " عمار " إلي حد القول أنه " على هدى هذا المنـهج التحليلـي الذي يسير من البسيط إلى المركب ، يمكـن تفسـير السـلوك الاجتمـاعي للإنسـان ، بدراسة سلوك الكائنات الحية البسيطة " و مع تـأكيد "عمـار" على اهمية المنهـج التكاملـي في المعرفـة في فهم الظواهر الاجتماعيـة والإنسانية ،لإيمانه بفكرة الإدراك الكلي الذي يقوم على أن العناصر المفـردة تستمد معناها من وضعها في وظائف الصورة الكلية بعناصرها المتفاعلة .

و هو هنا يعني بالتكامل . تكامل المعرفة بالفرد الذي تدرسه بالطريقـة التجريبية في ضوء المفردات الأخرى المتصلة به . و فـي ضـوء طـرق المعرفة الأخرى مثل مناهج المعرفة التاريخيـة و أسـاليب التفكير المنطقي و الخبرة الواعية (التي يحققها التجريب الفينوميتولوجي بصوره المختلفة) .

و "عمار" بذلك يؤكد علي ضرورة تحقيق المدخل التحليلي في الدراسـات الاجتماعية للظواهر ، بحيث تهتم تلك الدراسات بـالمتغيرات و العلاقـات القائمة فيما بينها ، و تقديرها على أسس كمية باسـتخدام أسـاليب التحليـل الإحصائي و الفروض الرياضية بهدف فهم السلوك الاجتماعي ، و أحـداث التغيرات الممكنة في ضوء القواعد العلمية التي تمخض عنها التحليل ، و من

(1) Mukerjec, R., Values in Social Science , From Varma, Ibid., P.221.

ثم ينظر للعلوم الاجتماعية مثل السياسة و الاقتصاد ... الخ ، على أنها نوع من التغيير في العلاقات و نسبتها و عناصرها ، و ذلك بعينه ما أدى للنظر إلى العلوم الاجتماعية باعتبارها نوعا من التكنولوجيا أو الهندسة الاجتماعية (١) على نحو ما اهتمت به معظم الدراسات و الدوريات و الكتب التي صدرت في الحقبات الأخيرة حول العلوم الاجتماعية .

و ما ذلك إلا نتيجة للاتجاه الذي يؤكد أن كل علم اجتماع يسهم بتقويم فاعلية الأنماط السلوكية في خلق القيم و تحقيق التطور في القيم المنتظمة ، و من أمثلة تلك القيم البناء الأسري بالنسبة لعالم الاجتماع و البناء الحكومي بالنسبة للعالم السياسية . و جميعها تعامل من قبل العالم الاجتماعي كبيانات موضوعية ، و ذلك لا يصدر حكما على تلك القيم المنظمة ، و إنما بتناولها كما هي . و عليه أذن أن يحلل تأثيرها على السلوك الاجتماعي . و من ثم يعالج هذه القيم كأسباب . و لكن لا يكفي هنا هذا المستوى من التحليل بعيداً عن التحليل الفينومينولوجي .

و بذلك نجد أن البحوث العلمية الاجتماعية تعني كذلك بالنتائج الاجتماعية للسلوك البشري ، و عليها أن تأخذ هذه النتائج السلوكية كبيانات للتحليل . و لهذا فإن العلوم الاجتماعية لا تعني فقط بالقيم كما هي معروضة في النظم المنتظمة للمجتمع و لكنها تعني كذلك بالتقويم للبدائل الأخلاقية . و ذلك طالما أن السلوك ما هو إلا نتيجة لقرارات أخلاقية تتخذ بواسطة الأفراد (٢) .

و هنا تبرز أمامنا بعض القضايا الأساسية التي ارتبطت بتطور العلوم الاجتماعية . و هذه القضايا تتعلق بالجانب النظري من ناحية ، و الجانب المنهجي من ناحية أخرى . و على وجه الخصوص ما يتعلق فيها بالمنظور الفينومينولوجي .

---

(1) Me Cormick , Prnest J ., A. Human Engineering , McGraw Hill , 1957.
(2)Varma , Op . Cit . P. 222 .

أ- القضايا النظرية :

أما بالنسبة للقضايا التي أثيرت على المستوى النظري ، فهي البحث عن الوحدة بين مختلف النظم العلمية للعلوم الاجتماعية ، و تعيين أبعاد العلم الاجتماعي . و قد حاول بعض المهتمين بهذا الجانب أن يتناولوا وحدة العلوم الاجتماعية في سياق مبادئ التكامل ، و صياغتها في إطار عمل موحد .

و قد أدى ذلك ببعض المهتمين بهذه الوحدة لصياغة النظرية العامة General Theory Of Action ، و نظرية النسق المفتوح (١)، و النظريات متوسطة المدى عند "روبرت ميرتون ، و لون فستنجر Leon Festinger(٢) . و الواقع أن أي من تلك المداخل النظرية له قيمته الخاصة به و المتمايزة عن قيم المداخل النظرية الأخرى .

كما أن أي قرار بصحة أي من تلك المداخل لدراسة الظاهرة الاجتماعية في العلوم الاجتماعية يحتاج لمناقشات مطولة ، و مضاهاة بين الكفاءة المنهجية لأي من تلك الاتجاهات في دعم وحدة المدخل النظري في العلوم الطبيعية . تلك الوحدة القائمة على تكامل المعرفة و الفهم السسيولوجي للظواهر الاجتماعية موضوع الاهتمام المشترك بين تلك العلوم الاجتماعية ، هذا بالإضافة إلى مدى كفاءة هذا المدخل النظري و قدرته على التنبؤ في العلم الاجتماعي ، و ذلك أيضاً يحتاج لاستخدام متقدم لأساليب التحليل الإحصائي ، و بذلك يشكل المنظور الفينومينولوجي المظلة النظرية و المنهجية العامة للعلوم الاجتماعية في دراسة الظواهر الاجتماعية .

ب - القضايا المنهجية المتعلقة بالعلوم الاجتماعية :

أشار "فارما" إلى أن القضايا التي تتضمنها مختلف العلوم الاجتماعية .

---

(1) Bertalanffy , Ludving Vous, The Theory of Open System in Physics and Biology Science, Vol. CXI ,1950. See Alsc James G. Miller , " Toward a General Theory for the Behavioral Sciences, Am I'sy .Sep.1955.Reprinted in Leonard D. white (Ed.) The State of the Social Sciences , Chicago.
(2) varma, Op. cit., P.233.

و التي تتضمن فكرة التوحيد بين تلك العلوم ذات طبيعة فلسفية ، و ذات طبيعة واقعية . و من ثم نتناول كل من تلك القضايا منفصلة عن بعضها و ذلك بغرض التحليل .

أولاً : **القضايا الفلسفية** :

و هنا توجد بصورة عامة خمس قضايا أساسية ، متميزة عن بعضها و من حيث نوع التوجيه الفلسفي لكل منها ، في سياق العلوم الاجتماعية . و هي تلك التي نسميها بالنماذج و تتمثل في :

_ الاستنباط المنطقي Logic – Deductive .

_ الجدلي Dialectical .

_ السببي Casual .

_ الإحصائي Statistical .

_ البنائي – الوظيفي .

_ النفسي الاجتماعي .

وهذه النماذج تتسم بالخصوصية المرتبطة بمحدودية المجال .. رغم أن لكل من مداخل النماذج تلك أنصاره و مؤيديه الا أن اختيار أي مدخل منها يعتمد على مجال البحث . و من ثم يظل المنظور الفينومينولوجي النموذج النظري العام للعلوم الاجتماعية فعلم اللغة يهتم باستخدام نموذج الاستنباط المنطقي في حين أن علماء الاجتماع غالباً ما يحصرون أنفسهم في النموذج البنائي الوظيفي . و بالنسبة لمن يلتزمون بالتوجيه المادي التاريخي فأنهم يستخدمون بصورة عامة النموذج الجدلي و قد يستخدم بواسطة علماء غيرهم أيضاً ، وخاصة تلك الطرق الجدلية التي أوضحها "جريفيستش" و المتمثلة في جدل الاستقطاب و جدل التضمين و جدل الاستكمال . أما عن النموذج السببي فهو مركز لمجالات معينه ، مثل علم النفس الاكلينيكي . أما بالنسبة للنموذج الإحصائي فهو أساس للاقتصاد و السكان و قد يحدث أن يتكامل أكثر من اتجاه معا في تناول الظاهرة الاجتماعية في مجال معين

فمثلاً نجد أن النموذج السببي و النموذج الإحصائي يستخدمان في مجال علم النفس الاكلينيكي و البنائية الوظيفية و النفس الاجتماعية في الدراسات الأنثربولوجية للرموز الثقافية و الظواهر الاجتماعية . ويظل النموذج الفينومينولوجي محل إجماع و قبول عام من علماء الاجتماع خاصة و من العلوم الاجتماعية عامة . وهذا ما يشير أليه الآن التفكير النظري في تلك العلوم . و لا شك أن الخلاف و الجدل على اشده في العلوم الاجتماعية حول تلك القضايا الفلسفية ، و بصورة أكثر مما عليه هذا الجدل بالنسبة للقضايا الواقعية .

ثانياً : <u>القضايا الواقعية :</u> و تنقسم إلى ثلاثة أشكال أساسية

_ قضايا تتعلق بالبيانات .

_ قضايا تتعلق بالإجراءات المنهجية

- قضايا تتعلق بالاستراتيجية

وسوف نتناول كل منها على حدة :

و بالنسبة لقضية البيانات فهي تلك المتعلقة بالخبرة الخام . و هذه الخبرة يمكن أن تسجل بواسطة الشخص نفسه ، أو بواسطة الآخرين الملاحظين و الذين يقومون بعملية تصنيفها في فئات ، و تحليلها علمياً . و الواقع أن ثمة بيانات لا يمكن للشخص أن يفهمها مثل تلك البيانات المتعلقة بخبرة الألم و السرور ، و التي يمكن أن تفهم بواسطة الآخرين هذا بالإضافة إلى البيانات التي يمكن تحصيلها عن طريق الفرد ذاته ، و هذه البيانات ذاتية في طبيعتها ،و يختص بمعالجة هذا النوع من البيانات المدخل الفينومينولوجي و المدخل الأثنوميثودولوجي و المدخل الوجودي لعلم الاجتماع . كما توجد البيانات التي يمكن أن نسميها بيانات تصنيفية لنظم مختلفة من الملاحظة ذات المستوى الرفيع . و هذه البيانات موضوعية في طبيعتها و يمكن لهذه البيانات أن ترتبط بالاتجاه الوظيفي و تعتبر البيانات المرتبطة بالمنظور

الفينومينولوجي أكثر اتساقا مع طبيعة الواقع الاجتماعي و الثقافي . و ذلك لأن البيانات التصنيفية تفيد في تنظيم البناءات و تحليل عمليات النسق الاجتماعي الكبير . و من البساطة بمكان أن نرى أنة كلما صار الموضوع أكثر تجريداً كلما احتاج لمزيد من تصنيف البيانات على مستوى عال .

و الواقع أن مشكلة تنظيم البيانات و ترتيبها على المستوى الذاتي كما هي على المستوى الموضوعي لا تزال بعيدة عن الحل . إذ يوجد عدم اتفاق على التعريفات و المفاهيم و المسميات الثقافية ، التي تفيد في التمييز الاصطلاحي الهام و يمكن مواجهة هذه المشكلة بالاستناد للمنهج الأثنوميندولوجي في جمع البيانات .

ولا ريب في أن الجهود المبذولة في مجال التوحيد و التقنين بين العلوم الاجتماعية ، لا تزال في حاجة لإسهامات أكثر لإمكان مواجهة هذه المشكلات التي توجه الدراسات الاجتماعية في معالجتها للظواهر الاجتماعية المختلفة .

ثالثاً : القضايا الإجرائية للبحث في العلوم الاجتماعية وموضوعاتها :

تنقسم القضايا الإجرائية للبحث في العلوم الاجتماعية الى خمس فئات متمايزة من حيث الموضوعات المرتبطة بها والمتمثلة في :

الموضوع

التعميم

الموضوع الخاص بالنظرية والعلاقات بين المتغيرات

المشكلة

النظرية الكبرى

يتعلق الموضوع بأسئلة الصدق للبحث العلمي الاجتماعي وهو ليس من الأمور السهلة التي يمكن ان تبدو على السطح .

وبالنسبة للتعميمات يواجه الشخص هنا بالعديد من المشاكل ، فبالنسبة لمن يعتمدون على النموذج الجدلي ، نجد انهم يقدمون تفسيرات مختلفة في بعض الأحيان لنفس الظاهرة ، اكثر مما يقال بالنسبة لمتبعي الاتجاه الوظيفي. وقد يوجد في نفس التقليد الفلسفي أن الانثروبولوجي قد لا يتفق مع الاقتصادي بصورة عامة . ولكن الأمر المتفق عليه ان المدخل الفينومينولوجي يحقق مستوى الإتفاق العلمي المطلوب بين العلوم الاجتماعية.

وبالنسبة لقضية العلاقات بين المتغيرات فهي تشير القضايا التي تربط بين الإطار النظري والتحقق التجريبي ، وهي التي تسميها بنظريات المدى الوسيط . وهي تعكس التفاعل الحادث بين القضايا الأولية والمعطيات الامبيريقية . والواقع ان العديد من النظريات في مجالات - التنظيمات الرسمية (١) والنمو الاقتصادي (٢) وبناء القرابة (٣) وما شابه ذلك من نظريات تنطوي جميعها تحت هذا العنوان .

وبقدر ما تكون هذه المجالات النظرية والبحثية واضحة أمام الشخص التي يقوم بفحصها ، فان الاتفاق حول تلك الموضوعات النظرية يزداد ويكون أكثر وضوحا . أما بالنسبة المشكلة فتعني اختيار الموضوعات التي قد تؤدي إلى تقسيمات كبيرة بالنسبة العلم الاجتماعي على المدى الطويل ومن الأمور المؤكدة ان تقدم العلم قد اعتمد بشكل كبير في الماضي على اختيار الموضوعات .

وأخيراً فإن قضية النظرية العامة هي الشيء الذي يواجه العلماء الاجتماعيين دائماً . وقد كان ذلك شاغل كل من أوجست كونت وسبنسر وغيرهم من علماء الاجتماع وذلك لأن خلق المقدرة التنبؤية العلم ظلت

---

(1) Simon, Herbet A., Models of Man, New York : John Wiley & Sons, 1957 March, James G. and Simon, Organizations, New York . John Wiley & Sons . Inc., 1958 .

(2) Kuzmets , Simon , Six Lectures In Economic Growth, Glencoe , III inois : the Free Press, 1959

(3) Mordock, George p, Social Structure , New York : Macmillan and Co. 1979 .

الهدف الذي لا يستطيع أي من علماء الاجتماع الهروب منه وهذا ما يشغل المعاصرين من علماء الاجتماع اليوم والذين وجدوا ضالتهم في المنظور الفينومينولوجي الوجودي اليوم .

أما عن قضية تطبيق الاستراتيجية المنهجية على المبادئ الأساسية للعلم الإجتماعي فتتمثل في الوقائع والنظريات لكشف عمل كل منهما وما بينهما من علاقات .

وقد ذهب البعض إلى أن المرحلة الأولى من البحث في العلوم كانت بمثابة مرحلة التاريخ الطبيعي . وذلك ما أكده "تورثورب" ، في مؤلفه منطق العلوم والإنسانيات [1] حيث كانت مرحلة تراكم البيانات ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التحليل والتجريد الذي صيغت من خلاله النظريات ذات القيمة التنبؤية . ومما هو جدير بالذكر ان السؤال عن الوقائع يرتبط مباشرة بالنظرية ، وذلك ما يوضحه مؤشرات "فحص طبيعة الوقائع والتي حددها كل من "كوهين" و"تاجل" على النحو التالى :

- مبادئ التمييز المعينة للمدركات .
- القضايا التي تفسر ما يقدم لنا من الخبرة
- القضايا التى تقرر بصدق الخصائص والسمات المترابطة
- وهذه الموضوعات توجد في الزمان والمكان معا وتقدم بينها علاقات معينة .

ورغم ان هذه المؤشرات تكشف عن طبيعة الوقائع إلا أن النوعين الأولين للوقائع يتضمنان بصورة عامة . بيانات ذاتية في حين ان الاثنين الآخرين نسميها بيانات موضوعية . [2]علاوة على ذلك فان جميع تلك

---

(1) Northrop,F.S.C., the Logic of the Sciences and the Humanities, New York : Macilland and Co. 1977 .

(2) Cohin, Morris , R. & Dgel Ernest , An Introduction to Logic Scientific Method, N.Y.: Harcourt, Brace Company, 1934. PP.217 - 218.

الأنواع الكاذبة لا يمكن ان تحل محل الوقائع الصادقة . ومن ثم تستهدف المحاولات العلمية العديدة القيام بمحاولات تقويمية لتحديد الوقائع الصادقة بسبب التقبل غير النقدي لتلك الوقائع الزائفة . وذلك لضمان صدق الوقائع التي تنهض عليها المعالجات العلمية في مختلف العلوم ، والتفرقة بين ما هو زائف وما هو صادق من تلك الوقائع . وربما تكون استراتيجية النظريات اكثر صعوبة في حلها عن استراتيجية الوقائع ، وذلك مانتناوله بشئ من الشرح ، إذ توجد أربعة استراتيجيات نظرية على الأقل في العلم الاجتماعي اليوم.

وتتمثل أول هذه الاستراتيجيات في : النظريات المعلنة الخام Ad Hoc Theories وهي تصاغ عند البدء في جمع الحقائق ، وهذه النظريات تظل في وضع غير محكم بالنسبة للمفاهيم . وفي اكثر حالاتها ملاءمة نجدها متضمنة في نظريات متوسطة المدى كقضايا فرعية .

وتتمثل الاستراتيجية الثانية في عملية التقنين Codification وهنا يقام اكبر عدد من التعميمات في المجلات المتداخلة وتخضع للتحليل النظري المصاغ في مفهوم التحليل الثانوي Secondary Analysis والواقع ان النظريات متوسطة المدى قد تبرز هذا الإجراء التحليلي والتأليفي .(١)

ومن ثم توجد النظرية البديهية Axiomatic theory بمساعدة المصادرات التي تكون في حكم المسلمات Axioms التي يتضمنها البناء النظري للعام ، وهنا تكون التعميمات أو صياغة القضايا على أساس ترابط كل منها بالأخرى اقصر الطرق لاكتشافها ، والهدف النهائي لهذه الاستراتيجية هو

---

(1) Merton. R., Social Theory and Social Structure , Glenco, The Free Press ,1957. Chapters V, VIII & IX - also : Gross, Neal and others, Explorations in Role Analysis, N.Y.: John Wiley & Sons ,1958.

الوصول الى النظريات العلمية والتي تقوم بالتوجيه المقبل في شرح ظاهر العلوم الاجتماعية (١).

وأخيرا قد تخلق النظريات الكبرى باتباع طريق التقنين أو البديهيات أو أنها تخلق بواسطة المصادرات . وان كانت لا تتولد بصورة نهائية . عن الإجرائيين السابقين إلا أن طريقة المصادرة أقدرهم على تحقيق ذلك (٢).

رابعا : التحفظات المطروحة حول المعرفة في العلوم الاجتماعية :

نتيجة لظروف العلوم الاجتماعية ، ومستوى التقدم الذي حققته بالنسبة للتكنيكات المستخدمة . ونظرا لطبيعة الموضوع الذي تتناوله العلوم الاجتماعية يمكن طرح بعض التحفظات حول المعرفة والبحث في مجال تلك العلوم ، بالمقارنة بالمعرفة والبحث في مجال العلوم الطبيعية إذ أن المعرفة في العلوم الاجتماعية لا تعادل ما يناظرها في مجال العلوم الطبيعية . كما أن التكنيكات المستخدمة في العلوم الاجتماعية لم تصل لنفس مستوى تقدم التكنيكات المستخدمة في العلوم الطبيعية . وذلك ما يؤثر على المعرفة المتحصلة في العلوم الاجتماعية .

وهناك حقيقة أخرى واضحة للعيان ولا يمكن ان نغفلها تتمثل في انه عندما يدرس عالم الاجتماع المجتمع البشري فانه يدرس نفسه ، على عكس الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية ، ومن ثم ذهب "جوليان هكلي" الى ان الإنسان في دراسته على مستوى البحث الاجتماعي ، عليه أن يوفر إجراءات منهجية ملائمة ، تمكنه من القيام بالتطبيقات العملية التي تخضع لتحكمه الكامل . سواء في مسار تلك التطبيقات أو الموضوعات التي تتناولها .

---

(1) Zetterberg, Hans L., On Theory and Verification in Sociology ,N.Y.: The Tressler Press, 1954.
(2) Lewin, Kurt , Field Theory in Social Science , N.Y. : Harpers & Brothers,1951.

كما أن القوانين الطبيعية لا يمكن أن تطبق في الدراسات الاجتماعية ، التي تتناول ردود الفعل البشرية ، والتي تكون عاطفية الى حد كبير ، وعليه أن يتناول أيضا المواقف الاجتماعية التي تتأثر بالأحوال المتغيرة والمختلفة ، والتي تخلق مشكلات جديدة . كما ان الوحدات رهن التحليل الاجتماعي ليست محددة بالقدر الكاف ، أو بصورة مطلقة ، إضافة لذلك فإن طبيعية العلاقات البشرية التي تشكل المشكلة المحددة للبحث الاجتماعي ، وتتأثر ، وتتشكل طبقاً لعوامل مختلفة (ذاتية كانت أم موضوعية) .

ومن السمات الأخرى المميزة للعلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية انها تقدم درجة معينة من المخاطرة ، والتغير في التعميمات . والتي تتأثر باتجاه البحث الاجتماعي في مسالكه التالية .

مسلك البحوث الوصفية على مستوى المسح والتي أصبحت ذات اهمية واضحة في البلدان النامية . ومسلك حل المشكلات بالأساس العلمي والذى صار شائعا ، إضافة إلى أن الأنشطة البحثية تهتم بمواجهة المادة المتاحة ، ولا شك أن هذه الأمور تجعل الباحث يهتم بمعرفة التكنيكات القائمة . ويجتهد لاكتشاف التكنيكات الحديثة لتحسين مفاهيم البحوث ، وكذلك تعريفها بصورة مختلفة لما كانت عليه . وهنا يكون على الباحث توخي الحذر عند اشتقاق تعميماته .

ومن ثم أكد فردريك بانتنج Frederick Ranting انه على الباحث ان يفكر كثيراً على أساس نظري قويم ، وألا يكتفي بمجرد التفكير القليل مقابل العمل الكثير . وسوف تكون أطروحة الفصل التالي البرهان العلمي والصياغة النظرية ورؤية فينومينولوجية ، ومردوداتها المعرفية وما يتوفر لهلا من ثبات وصدق وشمول في مجال علم الاجتماع .

خامسا : أبعاد التكامل النظري والمنهجي في علم الاجتماع الظاهري :

أصبحت فكرة الإدراك الكلي وتكامل المعرفة ، من الموجهات الأساسية للبحث والدراسة في مجال العلوم الاجتماعية عامة ، وعلم الاجتماع التجريبي خاصة . والتكامل المعرفي الذي يتم في إطار منهج التحليل يتمثل في تكامل معرفتنا بالمفرد الذي ندرسه بالطريقة التجريبية في ضوء المفردات الأخرى المتصلة به وفي ضوء الك يتضح لنا أن نتناول التكامل المعرفي في علم الاجتماع التجريبي يتحدد من ثلاثة أبعاد أساسية :

يتمثل أولها في التكامل على مستوى البعد النظري . ويتمثل ثانيها في التكامل على المستوى المنهجي ويتمثل ثالثها في ارتباطهم من حيث الانبثاق والذي يتوفر على مستوى المنظور الفينومينولوجي بالنسبة للعلوم الاجتماعية حيث يتوفر معه شرط الاتساق وفي ضوء ذلك نسير في معالجتنا لقضية التكامل المعرفي في العلوم الاجتماعية .

أ - التكامل النظري :

إن أولى القضايا الموجهة لهذا التكامل . هي تلك التي تشير إلى ضرورة فهم الظاهرة الاجتماعية فهما سسيولوجيا . بمعنى أن نتناولها من جوانبها الثقافية ، وجوانبها الاجتماعية ، وجوانبها الشخصية باعتبارها جوانب ثلاثة متبادلة التأثير ومترابطة مع بعضها . وباعتبارها ظاهرة اجتماعية تربط بعلاقات تساند واعتماد مع بقية الظواهر الاجتماعية في المجتمع . هذا بالإضافة للاتجاه النظرى الواضح للنظرية الفينومينولوجية الوجودية التي تؤكد على ضرورة تحقيق النظرة الشاملة للمجتمع ، أى تناول النسق ككل يتكون من مجموعة من العناصر المتكاملة بنائيا والمتساندة وظيفيا . وبذلك يكون التصور العلمي للمجتمع في ضوء تلك

النظرة على أساس انه نسق للعلاقات بين الأفـــراد والجماعـــات وأنـــواع التجمعات الأخرى .

ومما يساعد على تحقيق هذا التكامل علـــى المســـتوى النظـــري تلـــك الإجراءات النظرية المساعدة التـــي تســـتهدف تحقيـــق وحـــدة المفـــاهيم والنظريات في العلوم الاجتماعية بحيث يكون استعارة أي علم اجتمـــاعي للمفاهيم من المجالات الأخرى المختلفة أمراً ممكنا فضلا عن وحدة المفاهيم التي يقوم عليها المنظور الفينومينولوجي .

ومن هنا أثيرت أهمية تقدير البيانات المفيدة والقضايا النظرية المطلوبة وذلك لتحقيق التحليل العلمي للبيانات والفروض خاصة وأن لذلك اهمية في خلق النظريات التفسيرية والتي تعتبر هدف لجميع العلوم الاجتماعية ، وإذا ما تحقق التكامل بين النظريات والبيانات الواقعية فان جميع معطيات العلوم الاجتماعية تكون ملائمة لصياغة النظرية التي توجه المجال العلمـــي فـــي مجال أي من تلك العلوم الاجتماعية وبالتالي يتحقق فهم الإنســـان للواقـــع الاجتماعي والثقافي والشخصي .

ب - التكامل على المستوى المنهجي

ثمة اتجاهات منهجية أربع توجد على مستوى العلوم الاجتماعية وتتمثل في الاتجاه الموسوعى Encyclopedic والتـــاريخي Historical والتحليـــل الامبيريقي (التجريبي) Emperical والتحليلي Analytic والواقع ان كل مـــن هذه الاتجاهات يتبع مسلكا مختلفا عن مسلك الاتجاهات الأخـــرى ، وهنـــا يؤكد "بايديا فارما" أن تحقيق الوحدة والتكامل في العلوم الاجتماعية يحتـــاج للاتجاه التحليلي والامبيريقي اكثر من احتياجه للاتجاهين الآخرين وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة أن المدخل التاريخي لا يفيدنا بـــأى شـــيء ، وان المدخل الموسوعي غير مفيد بصورة مطلقة ، ولكن ذلك يشير في عموميته إلى أن المدخل التحليلي والامبيريقي يدعم علمية العلوم الاجتماعية في حين

أن المدخلين الآخرين يؤكدان على تناول العلوم الاجتماعية كمشروعات . ولما كنا في حاجة لدعم علمية العلوم الاجتماعية فان التأكيد على الاتجاه التحليلي والامبيريقي يصبح من الأمور الحيوية بالنسبة للبحوث في العلوم الاجتماعية غير أن حضور المنهج الفينومينولوجي والاثنوميثودولوجي مطلبين ضروريين لتحقيق علمية العلوم الاجتماعية وسوف نجد حضورهما كثيرا من القضايا المنهجية لعلم الاجتماع .

ولا شك أن مسألة دعم علمية العلوم الاجتماعية لا تعتمد على مجرد استخدام إجراء منهجي دون آخر ، بقدر ما تعتمد على مدى الكفاية المنهجية التي يستخدم بها أي من الإجراءات المنهجية في مجال البحث الاجتماعي .

ومن القضايا الهامة المنهجية التي اتضحت من خلال الحوار الفكري السسيولوجي قضيتي الخطأ الكامن في التوجيه السسيولوجي . وذلك ما ناقشه "ميرتون وشلز وزنانيكي" وغيرهم من علماء الاجتماع في ندوة علمية عقدت لهذا الغرض (١) لتحديد الخطأ الكامن في التوجيه السسيولوجي والذي يطبع أثره على مختلف البحوث التي تجري في مجال العلوم الاجتماعية .

وهو الخطأ الذي حدده المؤتمرون بالتفاوت والانفصال بين المدخل البنائي والمدخل الدينامي في تناول الظاهرة الاجتماعية . حيث أنها تدرس أساسا على مستوى الثبات بتحليل عناصرها البنائية دون ان يتم تناول التفاعل الحادث بين تلك العوامل ، أو بمعنى آخر دون الاهتمام بتحليل العلاقات الوظيفية القائمة بين تلك العناصر . وأكدوا على ضرورة التأليف بين المدخلين عند دراسة الظاهرة الاجتماعية بحيث ندرسها من جوانبها البنائية ونحللها لعناصر مختلفة تتفق مع فهم كل منها على النحو الذى عليه

---

(١) دكتور السيد على شتا ، الأغراب الاجتماعية في ضوء نظرية التكامل المنهجي ، (تحليل النظرية السسيولوجية من منظور الاغتراب) ، رسالة دكتوراه ، القاهرة، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ .

هذا العنصر ، ثم نستكمل هذا المدخل بتحليل التفاعل القائم بين تلك العناصر وعلاقتها الوظيفية ببعضها . وهنا يتحقق التكامل في دراستنا للظاهرة الاجتماعية بين جانبها الاستاتيكي والدينامي . هذا بالإضافة إلى قضية التكامل المنهجي من حيث نفي التعارض بين مدخل البعد الواحد ، ومدخل الأبعاد المتعددة . بمعنى أننا عندما نتناول ظاهرة اجتماعية معينة ، مثل ظاهرة الاغتراب الاجتماعي Social Alienation والتي تعني الانفصال عن النسق الاجتماعي بصورة أو بأخرى . وهو المفهوم الذي حلله "سيمان" الى خمسة مشتقات أو عناصر مختلفة هي :

الاقوة أو فقدان السيطرة نتيجة لسلب المعرفة وسلب مقدرة التأثير على الوضع المحيط بالشخص .

ومفهوم اللامعنى الذي يشير لحالة غياب الهدف الموجه والمرشد في الحياة . أو نتيجة للحياة النمطية التي تسلب الإنسان وضوح الرؤية بالهدف الذي يضفي على سلوكه وحياته معنا ما من المعاني .

ومفهوم أو عنصر اللامعيارية الذي اشتق من مفهوم الأنومي وهو الانفصال عن المعايير أو صراعها وهو المفهوم الذي استخدمه ميرتون وعولج إجرائيا بأنه يتمثل في ثلاث حالات : صراع المعايير السوية والغير سوية - وحالة غياب المعايير بصورة كاملة ، وحالة غياب المعايير السوية وحضور المعايير الغير سوية .

ثم الاغتراب الاجتماعي الذي يتمثل في الانفصال عن الهدف العام أي انفصال الهدف العام عن الهدف الخاص بحيث يكون سلوك الشخص متجها نحو الهدف الخاص دون العام . وان اندماج الشخص أو أدائه لدوره يرجع الى تشرب العام والاهتمام بتحقيقه بحيث يتحقق الهدف الخاص من خلاله الى الأداء نتيجة الخوف من توقيع الجزاء أو نتيجة لاعتماد الشخص على دخله من الوظيفة .

ثم الاغتراب النفسي أو الذاتي وهو الذي يشير لانفصال الإنسان عـــن شخصيته المتجسدة في ناتج جهده وإبداعاته نتيجة لخروجها مـــن نطــاق سيطرته لسيطرة الآخرين ، ومن ثم لا يملك التصرف في إبداع شـخصيته الذي يعبر عنها وهنا يكون مغتربا عن ذاته الحقيقية [1] هذه جميعها عناصر أساسية للاغتراب . وعندما نتناول مفهوم الاغتراب من مدخل البعد الواحد أي من مدخل الاغتراب كمفهوم عام ، فان ذلك لا يتعارض مـــع مدخـل الأبعاد المتعددة ، أي من خلال تناولنا له من عناصره الخمس وذلـــك لأن مفهوم الاغتراب هو بمثابة تجريد من الخصائص المشتركة بين العنـــاصر الخمس إلى العنصر العام الذي يشتمل على خصائص مشتركة لتلك العوامل وهو مفهوم الاغتراب . وبذلك يتحقـــق التكـــامل فـــي تناولنـــا للظــاهرة الاجتماعية من مدخل البعد الواحد والأبعاد المتعددة . على ألا يفهم من ذلك ان في الإمكان تناول الاغتراب من زاوية البعد الواحد ، مثال ذلك دراســة أي من حالات فقدان السيطرة أو اللامعنى أو اللامعياريـــة أو الاغـتراب الاجتماعي أو الاغتراب النفسي أو بعضها دون شمولها جميعا بالدراســة ، لان ذلك لا يحقق التكامل المنهجي في دراسة الظاهرة الاجتماعية نتيجـــة لإسقاط بعض العناصر من حسابنا في تحليل الظاهرة . في حين ان أي من تلك العناصر يتكامل بنائيا مع بقية العناصر الأخرى في دعم وجود تلـــك الظاهرة . كما انه يتساند وظيفيا مع بقية العناصر الأخرى في دعم وجـــود تلك الظاهرة . كما انه يتساند وظيفيا مع بقية العناصر في توفير شـــروط تواجد مثل هذه الظاهرة الاجتماعية . كما أن هناك تـــأكيد واضـــح علـــى ضرورة استخدام منطق التحليل الرياضي لبعـــض النظريـــات والمنـــاهج الدارجة ، وقد قام " أرنست ناجل [2] بمثل تلك المحاولات كما ان "تـــالكوت

---

(1) دكتور السيد على شتا ، تحليل النظرية السسيولوجية من منظور الاغتراب ، المرجع السابق .

(2) Nagel, Ernest, Logic Without Metaphysics, Glencoe, Illinois : the Free Press, 1956, Ch, 7. & Nagel, The Structure of Science , New York : Harcourt , Brace ,& World Inc., 1961 .

بارسونز" يرغب في ان يرى التحليل الرياضي ينمو في نسقه الاجتماعي [1] وان كان ذلك لم يتم تحقيقه بعد .

غير أن بارسونز قد أكد على أن المنظور الفينومينولوجي بمثابة إطارا مرجعيا لأى إطار دراسة الفعل الاجتماعي فضلا عن تأكيده مع "تيرياكيان" على أن الاتجاه الفينومينولوجي بمثابة أساسا فلسفيا للنظرية العامة لعلم الاجتماع .

سادساً : البنائية الوظيفية والتكامل المعرفي :

ظهرت فكرة البناء الاجتماعي عندما اهتم البعض بدراسة المجتمع ككل ودراسة أي نظام من نظمه في علاقته بنظم المجتمع الأخرى ، لما لهذه النظم من تأثير متبادل على بعضها . وبذلك نجد ان الاتجاه البنائي يستند لمنطق تكامل المعرفة حول المجتمع بدراسته ككل . وعلى هذا الأساس شاع نمو الاتجاه نحو دراسة الأبنية الجزئية الداخلية لأى بناء كلي متكامل ، على أساس معرفة وظائفها وكشف العلاقات المتبادلة التي تربط بين الأبنية الجزئية لهذا الكل ، وذلك لإمكان تفسيرها صحيحا . ومن ثم يمكن القول بان البنائية اتجاه منهجي يقوم على الربط بين أجزاء أي بناء كلي لكشف ما بينها من روابط وعلاقات .

وعندما نتحدث عن البنائية كمدخل منهجي للدراسة في العلوم الاجتماعية فإننا نتناول العلاقات دون الأشياء . ونهتم بدراسة العلاقات والروابط الموضوعية القائمة بين الأجزاء . وبذلك يتحاشى المدخل البنائي الأساسي التجريدي في الاهتمام بذاتية الإنسان على نحو ما فعل "هوسرل" في مدخل الفينومينولوجيا وكذلك "سارتر" والوجوديون وأنصار المادية التاريخية . وذلك لاقتناع أنصار الاتجاه البنائي باهمية تناول العلاقات

---

(1) Parsons, Talcott, the Social System , A General Theory of Action In Roy. R. Grinker, Toward A unifed Theory of Human Behavior, New York : Rasic Books, Inc. 1956.pp.61 – 68.

الموضوعية التي تربط الإنسان مع غيره من البشر . ومن ثم أصبحت البنائية كمدخل منهجي في العلوم الاجتماعية بعامة ، وعلم الاجتماع بخاصة ، بمثابة تحليل للبناء الإنساني أو الاجتماعي وكشف للعلاقات الموضوعية التي تربط شتى أجزاء هذا البناء ببعضها . أي فهم الذاتية الباطنية ، وذلك ما يقرب بين البنائية الوظيفية والتحليل الفينومينولوجي الوجودي للمعاني والذي اصبح اليوم مطلبا منهجيا ضروري لعلم الاجتماع .

وحديثنا عن البنائية كمدخل منهجي هنا يقتضي ان نتناول القواعد الأساسية لهذا المدخل والتي يمكن استخلاصها من تحليلات أشهر مؤسسي هذا الاتجاه وهو "كلود ليفي شتراوس" (١) ، والذي قدم العديد من الدراسات السسيولوجية في هذا الميدان باستخدام المدخل البنائي في معالجته للظواهر التي تناولها في مؤلفاته العديدة (المجتمعات البدائية ، والطوطمية اليوم ، العقل البدائي ، البناءات الجوهرية لصلة القرابة والنسب ، عالم في الطريق إلى الاندثار ، الأساطير ... الخ)

ورغم أن هناك إسهامات واضحة من علماء الانثروبولوجيا وخاصة البريطانيين منهم في إثراء الاتجاه البنائي (٢) إلا أن معالم المدخل البنائي وخصائصه عند شتراوس تكشف لنا بوضوح عن مدى اعتماد تحقيق التكامل المعرفي في العلوم الاجتماعية على هذا المدخل ، في معالجة المجتمع وظواهره ، وذلك ما تأكد بوضوح لدى غالبية أنصار هذا الاتجاه حيث ظهر الاهتمام بالبنائية كمدخل منهجي قبل ان يكون مذهبا جامداً ومغلقاً ، وذلك لأنها منهج تحليلي وتركيبي يتناول شتي أجزاء البناءات الإنسانية والاجتماعية بهدف الكشف عن العلاقات الداخلية ، التي تربط بين

---

(١) يعتبر شتراوس من أشهر مؤسسي البنائية ، وهو فرنسي الجنسية وقد تخصص في الانثروبولوجيا وشغل كرسي الانثروبولوجيا في باريس ، كما عمل مديرا لمعهد الانثروبولوجيا أيضا .

(٢) دكتور احمد أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، الإسكندرية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ . ص ٧ .

مكونات أي بناء . كما انه يهتم بالشكل الكلي و العلاقات العامة التي تربط الظواهر الاجتماعية ببعضها .ومن ثم يؤكد المدخل البنائي على ضرورة تناول المكونات الجزئية على أساس التقائها مع الشكل الكلي في وحدة مترابطة تحكمها علاقات محددة ومتبادلة ليس لأى منها أولوية على أخرى وهنا يتسق المدخل البنائي مع التحليل الفينومينولوجي الذي يهتم بفهم المعانى التى تقوم على الذاتية الباطنية للواقع الاجتماعى .

وبذلك يحقق المدخل البنائي التكامل بين الجزء والكل . ذلك التكامل الذي يخلع على الجزء والكل معناه . وذلك يعني ان العناصر الجزئية لأى بناء ليست ذات معنى في حد ذاتها . وفي حالة انفرادها وإننا نخلع عليها هذه المعاني عندما ترتبط هذه الإجراءات بالعناصر الجزئية الأخرى في علاقات منتظمة وثابتة . ومن ثم أصبحت الأولوية في البنائية للعلاقات دون الأشياء . وذلك لان هذه العلاقات هي التي تحدد وظيفة تلك الأشياء وتضفي عليها معانيها المختلفة ، كما أنها تجعل لكل شيء بناءه المتكامل والذي يرتبط بدوره مع الأبنية الأخرى بعلاقات أكثر اتساعا.

وذلك لان كل بناء مثل اللغة والمجتمع والأنساق .. الخ بمثابة العلاقات التي تجمع بين الأجزاء المتعددة ، وهي التي تحدد طبيعة هذه الأبنية ووظائفها والدور التاريخي والاجتماعي لهذه الأبنية .

ولما كان اكتشاف هذه العلاقات القائمة بين الأجزاء وبعضها ، وبينها وبين الكل الذي يضمها جميعا وبين البناء الكلي وغيره من البناءات الكلية الأخرى . يفيد في ترتيب تلك العلاقات بين هذه العناصر بمستوياتها المختلفة والارتقاء بأدائها الوظيفي ، فقد اصبح المدخل البنائي ذات أهمية معينة في العلوم الاجتماعية . والتي تستهدف تحقيق التقدم والارتقاء للمجتمع البشري .

وبذلك يمكن تحديد أسس التحليل البنائي في العلوم الاجتماعية والتي تدعم المعرفة وتحقق تكاملها على النحو التالي :

- تحليل البناء لعناصره الجزئية ، وكشف العلاقات الموضوعية التي تربط هذه العناصر ببعضها وإعادة تركيبها في بناء جديد يكون اكثر تقدما وارتقاءً من البناء الكلي السابق .

- الكشف عن الماهيات الكامنة خلف كل بناء ، والتي تتمثل في العلاقات الموضوعية القائمة بين عناصر هذا البناء وأجزائه .

- التأكيد على الصفة الإنسانية التي تعتبر في ضوء هذا الاتجاه أساس دراسة أي بناء . وبذلك تبرز النزعة الإنسانية في الاتجاه البنائي .

- ومن ثم تتكامل أسس التحليل البنائي مع أسس التحليل الوظيفي لتحقيق تكامل المعرفة . وذلك لان أسس التحليل الوظيفي تستخلص من القضايا الوظيفية التالية (١) .

- النظرة الكلية للمجتمع ، باعتباره نسقا يحتوي على مجموعة من الأجزاء المتساندة وظيفيا لبلوغ النسق لأهدافه .

- استناد العملية الاجتماعية لتعدد العوامل الاجتماعية وتبادل التأثير .

- رغم ان التكامل لا يكون تاما على الإطلاق ، إلا أن الأنساق الاجتماعية تخضع لحالة من التوازن الدينامي ، الذي يشير لقيام حالة الاستجابة التلاؤمية للتغير الخارجي والتي تعززها ميكانيزمات التلاؤم والضبط .

- إن التوترات والانحرافات والقصور الوظيفي ، يمكن ان تقوم داخل النسق غير أنها تحل نفسها بنفسها وصولا للتكامل والتوازن .

- وان التغير يحدث بصفة تدريجية تلاؤمية .

---

(١) دكتورة فادية عمر الجولاني ، التغير الاجتماعي في المجتمع الحضري في ضوء النظرية الوظيفية الاجتماعية . رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٧٦ م ص ١٨٨ - ١٩٤ .

- وان التغير يأتي نتيجة للاختلاف الوظيفي للعناصر بالإضافة ، الى التغيرات الخارجية والتجديد والإبداع من جانب أفراد المجتمع ، وجماعاته .

- وان العامل الأساسي والهام في خلق التكامل الاجتماعي . يتمثل في الاتفاق العام على القيم .

وبذلك يتضح لنا أن الاتجاه الوظيفي يؤكد على التبادل الوظيفي ببين عناصر البناء ومكوناته ، كما انه يبرز الطابع الاجتماعي للتحليل الوظيفي لهذه العناصر ، والذى يتمثل فى طبيعة التأثير والأداء الوظيفى لهذه العناصر ، أى أنه يؤكد على الوظيفة الاجتماعية . وذلك ما يمكن استخلاصه من القضايا الوظيفية السابقة والتي تبرز بوضوح أسس التحليل الوظيفي التالية :

- الكشف عن التساند الوظيفي بين عناصر النسق وأجزائه ، والتي تجعل النسق يبلغ أهدافه .

- تحديد الماهية الكامنة في تلك الوظائف ، والتي تتمثل في تبادل الأداء الوظيفي بين تلك الأجزاء . وهذا التبادل هو الذي يضفي على الوظيفة الاجتماعية معناها ومغزاها بالنسبة للنسق الاجتماعي الكلي .

- التأكيد على الصفة الاجتماعية لوظيفة العناصر ، والقائمة على فكرة التبادل والتساند مع بعضها .

وبذلك تتكامل أسس التحليل البنائي مع أسس التحليل الوظيفي لتحقيق الفهم الكامل للأنساق الاجتماعية . وذلك يعني أن تحقيق تكامل المعرفة في العلوم الاجتماعية يتحقق بمدى اعتمادنا على المدخل البنائي الوظيفي في دراسة النسق الاجتماعي وعناصره لأن أسس المدخلين يحققان تكامل التناول للنسق . من حيث جوانبه الإنسانية التي يحققها التحليل البنائي ، وجوانبه الوظيفية التي يحققها التحليل الوظيفي . لعناصر النسق ومكوناته

في العلوم الاجتماعية . وهذا التحليل يقع في نطاق التحليل الفينومينولوجي التي يتوجها بفهم العلاقات والمعاني التي تقوم عليها الذاتية الباطنية ويغطي التحليل الفينومينولوجي نطاقات الحس العام ومخزون المعرفة والمعاني التي تقوم عليها الذاتية الباطنية والعلاقات بين أطرافها (الأنا ، الأنت ، النحن) ..الخ وهي متغيرات أساس تحقيق الفهم للواقع الاجتماعي .

سابعاً : التفاعلية الرمزية والتكامل المعرفي في علم الاجتماع التجريبي :

وقد جاءت التفاعلية الرمزية كامتداد للسلوكية الاجتماعية عند كل من ماكس فيبر ، وجورج هربرت ميد ، ومن اقطابها بلومر ، وجوفمان وجارفنكل . وهي تعكس النظرة المحدودة النطاق للمجتمع ، والتأكيد على أن المجتمع موجود داخل الفرد ، وانه يحدد مفهوم الفرد عن ذاته باعتبارها ذات دينامية نشأت من خلال التبادل والتفاعل . كما أنها تؤكد على معنى الظاهرة الاجتماعية والسياق الاجتماعي والتفاعل الاجتماعي ، وتؤكد أيضا على أن المجتمع نسقا ديناميا متطورا ومنبثقا عن التبادل الاجتماعي والتأويلات الفردية للواقع الاجتماعي . وبذلك تنظر التفاعلية الرمزية للمجتمع على انه متواجد داخل الفرد ، وفي تأويلاته للواقع .

كما أنها تؤكد على التفاعل الاجتماعي والمكونات الأساسية المتمثلة في الفاعل ، والأداء ، والواجهة ، وجماعات النشاط . وان البناء الاجتماعي يقوم على التفاعل والتوقعات ويعمق ذلك أيضا تحليل المعنى الذي يساعد على فهم الأفعال .

وأيضا على تبادل المعلومات وتعتبر التأويلات الاجتماعية عملية تبادلية . والتفاعلية الرمزية بذلك تؤكد على الاستقراء الميكروسكوبي كمدخل لتحليل الواقع الاجتماعي ، وعلى أهمية استخدام الملاحظة الذاتية للبيانات والاعتماد على المنهج الانثرومينودولوجي فضلا عن كونها تمهيد لاستخدام المنهج الفينومينولوجي .

وهي تنظر للظاهرة الاجتماعية على انها انعكاسا للعملية التأويلية المتأصلة في ديناميات التفاعل الاجتماعي ، كما أن التفاعلية الرمزية تؤكد أيضا على أن التفاعل الاجتماعي قوة ذاتية لتنظيم ذاته وتعقيل القوي ، وهذا هو الأساس العام للتنظيم الاجتماعي .

وبذلك يتكامل مدخل التفاعلية الرمزية مع مدخل البنائية الوظيفية ليقدم تمهيدا للتناول الفينومينولوجي للظاهرة الاجتماعية وذلك لان النظرية التفاعلية الرمزية تؤكد على :

- الوحدات الصغرى مقابل الوحدات الكبرى للاتجاه البنائي الوظيفي
- والاستقراء في مقابل الاستنباط المنطقي للبنائية الوظيفية
- والنزعة الفردية مقابل المجتمعية للبنائية الوظيفية
- كما أنها تؤكد على ان المجتمع والنظم الاجتماعية تنبثق عن التفاعل الاجتماعى والتأويلات الاجتماعية والتبادل الاجتماعي .

وبذلك تحقق النماذج النظرية البنائية الوظيفية والصراعية الراديكالية الاجتماعية على تكامل التناول للظاهرة الاجتماعية والتمهيد لاتخاذ المنظور الفينومينولوجي أساسا مرجعيا عاما ومن حيث المنهجية تحقق التكامل أيضا حيث أنها تؤكد على التجريبية . والاستدلال الاستنباطي والاستقرائي التاريخي وتمهيد لتطبيق الرد الفينومينولوجي .

وبذلك يمهد هذا التحليل لانبثاق الاهتمام بالاتجاه الفينومينولوجي كإطار نظري ومنهجي عام لعلم الاجتماع وذلك ما أكده تالكوت بارسونز عندما اعتبر المنظور الفينومينولوجي إطاراً مرجعيا لأى إطار لدراسة الفعل الاجتماعي ، كما أنه أكد مع نيرباكيانت على ان المنظور الفينومينولوجي بمثابة أساس فلسفى للنظرية العامة لعلم الاجتماع .

وبذلك يكون التوجه الى التجريبية الفينومينولوجية بنماذجها المختلفة اجراءاً منهجيا اساسيا لعلم الاجتماع التجريبي .

الفصل الرابع

البرهان العلمى والصياغة النظرية برؤية ظاهرية

- تمهيد :
- أولا : مستويات البرهان العلمى
- ثانيا : مداخل البرهان العلمى
- ثالثا : استراتيجية البرهان العلمى وعناصره
- رابعا : النظرية التفسيرية والبرهان العلمى

البرهــان العلمى والصياغة النظرية
برؤية ظاهرية

تمهيد :

شغلت قضية البرهان العلمى اهتمام العلماء والمفكرين منذ زمـــن بعيـد . وذلك عندما أرادوا أن يقيموا برهانهم على أسس علمية تتفق مع طبيعة النظـــم العلمية التى يهتمون بالعمل فى مجالها . ويرجع هـــذا الاهتمـــام فـــى أساســـه لاعتبارات أساسية تتعلق بطبيعة البرهان الفلسفى الـــذى يتخــذ مــن المنطــق الصورى قاعدة أساسية لإقامة البرهان ، الأمر الذى يجعل هذا البرهان متجاوزاً لطبيعة الوقائع من ناحية، ولكون البرهان على صحة نظرية أو خطئـــها يبـــدأ منطقيا بمرحلة الصياغة النظرية ، وينتهى منطقياً بالتحقق من النظرية من ناحية أخرى . [1] وذلك ماتحققه الفينومينولوجيا الوجودية اليوم والتـــى جعلـــت مـــن الفلسفة علماً كليا دقيقا للعلوم الاجتماعية.

وبذلك تمكن مشكلة البرهان الأساسية فى مدى تحقيقه للمصاهرة بين النظرية والبيانات ، ومدى إقامة البرهان على سلامة العملية التى تتم بها هذه المصـــاهرة ، خلال المرحلة المتعلقة بجعل المفاهيم والفروض النظرية قابلة للقياس[٢].

ولما كان المنهج العلمى أساسا لإقامة البرهان ، والتحقق من مهمـــــة بنـــاء النظرية ، وقابليتها للتحقق ، فان معالجة قضية البرهان العلمى تأتى دائما فـــــى سياق معالجة البناء المنهجى للعلم ، وذلك لإيضاح فاعلية المنهج العلمى فى دعم المبادئ المتعلقة بإقامة البرهان العلمى.

وفى ضوء ذلك نتناول القضايا المتعلقة باقامة البرهان العلمى مـــن خـــلال معالجة الجوانب التالية :

---

(1) Cole, Stephen , Op. cit., P.35.
(2) Bailey, K., Op.cit., P.43

-مستويات البرهان العلمى .

- مداخل البرهان العلمى.

- استراتيجية البرهان وعناصره.

- النظرية التفسيرية والبرهان العلمى.

- الرد الفينومينولوجى والبرهان العلمى.

أولا : مستويات البرهان العلمى :

يمكن اتخاذ الأساس الذى نعتمد عليه فى صياغة النظرية باعتباره مستوى من مستويات إقامة البرهان العلمى . وعندما تتم عملية صياغة الفروض . والقضايا التى تقوم عليها النظرية يبدأ المستوى الثانى للبرهان على مدى اكتمال عناصر ومقومات صياغة النظرية . ومن حيث اتساق القضايا وتتابعها وتنوعها دون ان يكون بينها أى تعارض أو تناقض، والواقع أن هذا المستوى من البرهان يستند إلى مسلمات العلم الأساسية التى تتضمنها النظرية ، والتى يتولد عنها فروض صورية تتعلق بالاتساق ، والتتابع ، والتنوع ، وعدم التناقض بين قضايا النظرية . وعند هذا المستوى يكون البرهان المقام صوريا . وذلك لأن الفروض المتولدة عن مسلمات النظرية فروضا [illegible]رية لا تخضع للاختبار ، والتحقق الامبيريقى . وعندما يتحقق هذا المستوى من البرهان يأتى المستوى الثالث للبرهان العلمى على صدق النظرية أو عدم صدقها . ومن ثم نمهد لمعالجة مستويات البرهان الثلاثة الأولى ، وما بينها من تكامل بنائى وتساند وظيفى بمناقشة استراتيجية النماذج المختلفة للبرهان العلمى على صحة أو خطأ النظرية ، على مستوى الصياغة ، ومستوى التحقق ، وذلك تمهيدا لمناقشة مقومات البرهان العلمى إلى مستوى النموذج الفينومينولوجى .

فقد تبدو عملية صياغة واختيار الفروض من النظرة الأولى أنها عملية سهلة بسيطة ، إلا أن مقتضيات التناول العلمى والتحليل الدقيق الذى يستند

إليه البرهان تكشف عن صعوبة العملية ودقتها ، وذلك لأنها تتضمن إجراءات أساسية ، لإقامة المصاهرة بين النظرية والبيانات . والمزج بينهما تحقيقا للأساس المنطقى للبرهان العلمى . فبينما يكون التفسير عملية ذهنية تصورية فان اختبار صحة التفسير والبرهنة عليه تتطلب ملاحظة وتحليل للبيانات ومقارنة بين المفترض ونتائج التجريب . وهذه العملية فى حد ذاتها تتطلب عبور الفجوة القائمة بين الصياغة التصورية وبين التحقق الامبيريقى من تلك الصياغة . وذلك بالتحديد الاجرائي للمفاهيم والفروض التصورية بما يجعلها قابلة للاختبار والتحقق الامبيريقى . ومن ثم يكون التمييز بين المستوى التصورى والمستوى الامبيريقى مسألة هامة .فما نعنيه بالظاهرة الامبيريقية تلك الظاهرة التي يمكن دراستها واستقرائها بوسائل ملموسة مثل الملاحظة واللمس والسمع والشم أى بالمعايشة . فى حين أن الإطار التصورى الامبيريقى يتضمن مفاهيم نظرية يمكن ملاحظتها امبيريقيا مثل مفهوم الحشد . هذا بالإضافة لبعض المفاهيم المجردة والتى يصعب ملاحظتها وقياسها مباشرة مثل الاغتراب والتسلطية والذكاء والمعنى والذاتية الباطنية....الخ.

وحول تلك القضية طرحت العديد من المحاولات التى تستهدف إقامة البرهان العلمى من منظورات مختلفة ، تمثلت بصورة مجملة فى ثلاثة مداخل تقليدية استهدفت معالجة صياغة الفروض واختبارها . وهى المدخل التقليدى الكلاسيكى ومدخل النظرية المحققة والنزعة الإجرائية . اضافة للمدخل الفينومينولوجى الذى تمتد أصوله النظرية المنهجية إلى البدايات المبكرة لعلم الاجتماع[1].

ثانياً: مداخل البرهان العلمى :

١- المدخل الكلاسيكى للبرهان (Classical Approach)

(١) دكتور السيد على شتا المنهج العلمى والعلوم الاجتماعية ، الإسكندرية مكتبة الإشعاع ، ١٩٩٧م .

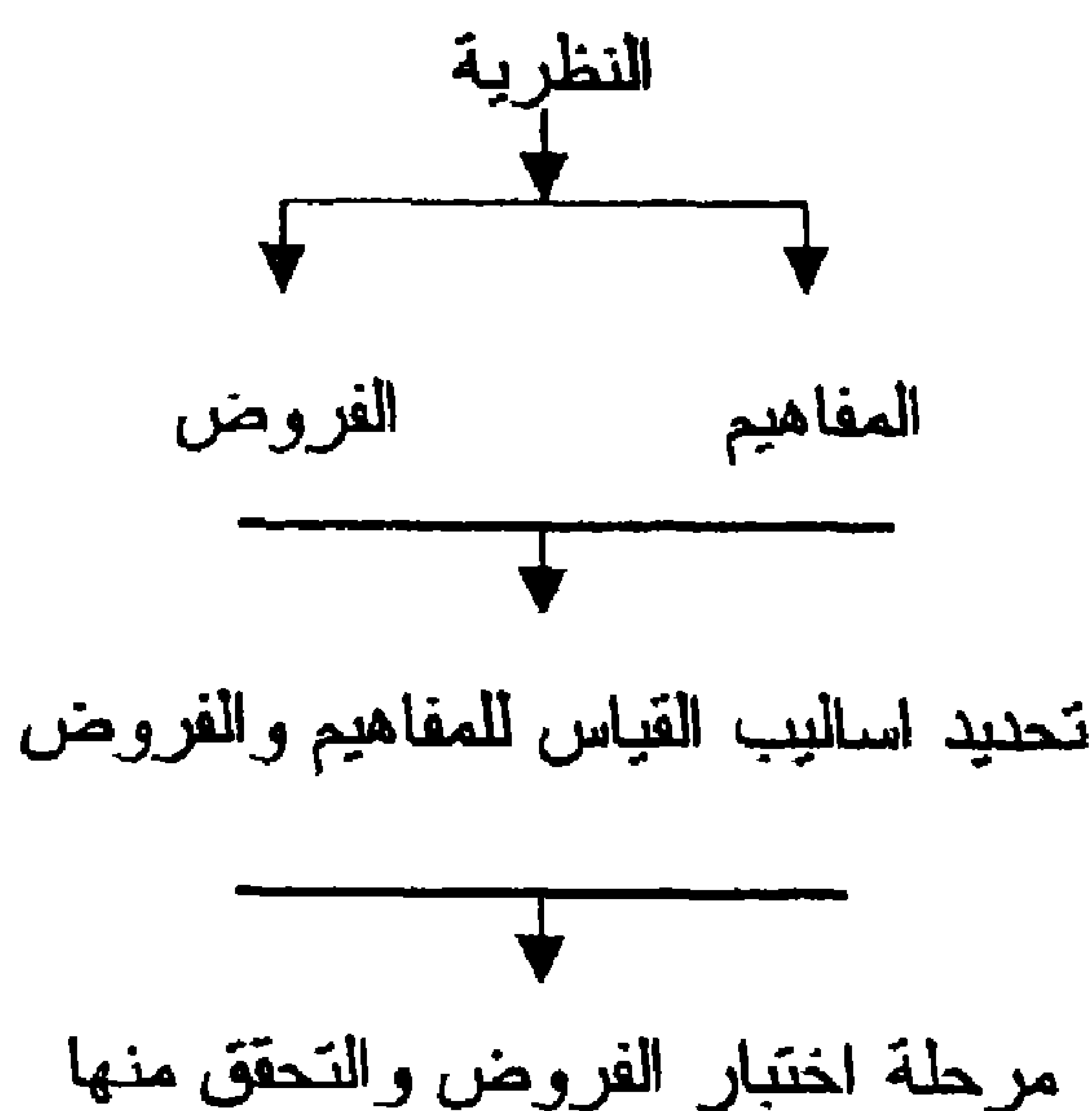
يتضمن المدخل الكلاسيكي ثلاثة مراحل متمايزة حيث يتم فى المرحلة الأولى تعريف المفاهيم وكتابة القضية التي تقرر العلاقة بين المفاهيم والعمل هنا يتم على المستوى النظرى . وهذه المرحلة أساسية وأولية بالنسبة لهذا المدخل . أما المرحلة الثانية فتهدف عبور الفجوة بين المستوى النظرى والمستوى الامبيريقى . حيث يتم تحديد طرق وأساليب قياس المفاهيم امبيريقيا ، وبذلك تتضمن هذه المرحلة صياغة الفروض القابلة للقياس والتى ترتبط بالمقاييس الامبيريقية لمفهومين.

أما المرحلة الثالثة والاخيرة فتتضمن جمع وتحليل البيانات بغية التحقق من الغرض والبرهنة على صحته او خطئه (٢).

وبذلك يكون مدخل النموذج التقليدى للصياغة نظرى ، ويقيم برهانه على صحة الصياغة النظرية من خلال التحقق الامبيريقى للنظرية .

ومن ثم يحقق النموذج التقليدى للبرهان المستوى الثالث المتمثل فى التحقق الامبيريقى من صحة أو خطأ النظرية.

وتنطلق هذه النظرية من المستوى النظرى الى المستوى التطبيقى والشكل التوضيحى التالى يبين ذلك :



(2) Lovell, L., Op. cit., P.44.

٢- مدخل النظرية المحققة Grounded Theory

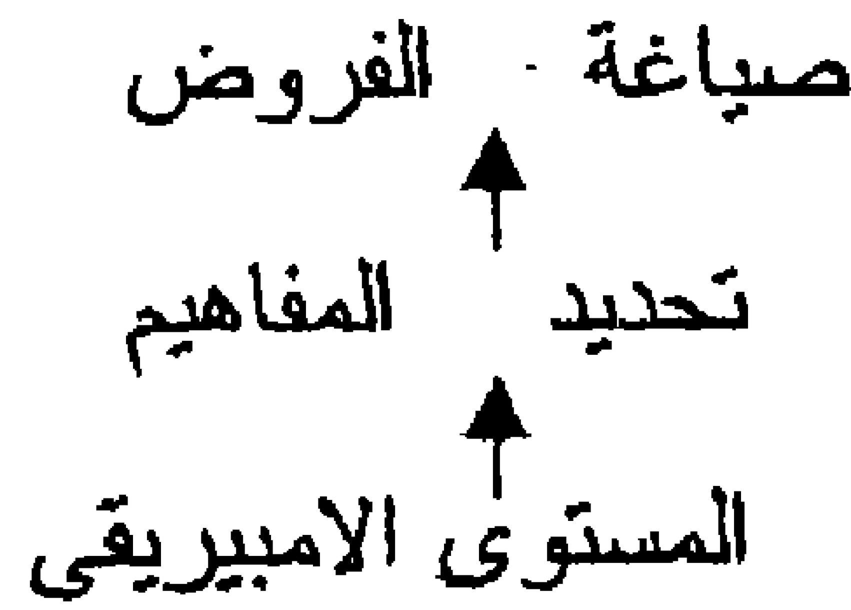
وهى النظرية التى يتم اكتشافها أو تعميمها من البيانات أكثر من التجريدات ويتم تطوير النظرية المحققة عن طريق:

أ - النزول إلى ميدان العمل بدون فرض.

ب - وصف ما يحدث.

ج - صياغة التفسيرات حول الظاهرة المعطاه ، وحول ما أدى للحدوث على أساس الملاحظة .

وقد قدم كل من " جلنر " ستراوس " تحديداً للنظرية المحققة على أساس أن الوصول إليها لا يتم فى فراغ وإنما يستند إلى البحوث . بمعنى أن فروض النظرية تتولد من البيانات. وتقوم على المفاهيم التى تتوفر فى البحث. وهذه النظرية تنطلق من المستوى الامبيريقى وتنتهى إلى المستوى النظرى استنادا إلى منطقها القائم على أن المفاهيم تتولد عن طريق البيانات الامبيريقية .



وبذلك تبدأ النظرية المحققة البيانات وتحديد المفاهيم ثم تنتهى الى صياغة الفروض.

٣-مدخل النزعة الاجرائية Operationalism

يشير هذا المفهوم للعمليات المتبعة فى قياس المفهوم . وقد عرف هذا المفهوم أساسا بواسطة "ب . برجمان " ويطلق على اتباع برجمان ومؤيديه اسم الإجرائيون والمتطرفون لأن مدخلهم للبرهان العلمى مدخل إجرائى متطرف إذ انهم يرفضون على نحو ما فعل لندبرج وجود أى متغيرات لا تقبل القياس.

وفى ذلك يذهب لندبرج إلى أن الإجرائية ليست طريقة لتعريف المفاهيم.

ولكنها عملية تتبع بعد ان تكون المفاهيم قد عرفت مثال ذلك إذا سأل أحد عن ماهية الذكاء ، تكون الإجابة على ذلك أن الذكاء هو ما يقيسه مقياس الذكاء.

٤-مدخل التجريبية الفينومينولوجية

وهو يبدأ بالرد الفينومينولوجى وتعليق الخبرة المباشرة وذلك للوصول إلى ماهية الظواهر المدروسة فى ضوء المفاهيم ومؤشرات التحليل الفينومينولوجى ومؤشراته الإجرائية ثم مقارنة الماهيات بعد الرد بالصورة التى عليها الظاهرة مضافا إليها الأمور العرضية . ويقوم البرهان على أساس تجريبى مقارن متخذا من الرد والتأمل والخيال الفينومينولوجى ومسائله لإقامة البرهان .

مقارنة بين نماذج البرهان الأربع

يتضمن الجدول التالى مقارنة بين المدخل الكلاسيكى ومدخل النظرية المحققة ومدخل النزعة الإجرائية للبرهان . إضافة إلى مدخل الرد الفينومينولوجى.

مداخل إقامة البرهان العلمي

المتغيرات / نماذج البرهان	مدخل صياغة النظرية	مراحل البرهان: الصياغة النظرية	مراحل البرهان: تحديد المؤشرات الإجرائية	مراحل البرهان: التحقق الامبيريقى	توفر مراحل البرهان	تكامل عناصر البرهان	نقد النموذج
مدخل الكلاسيكى	صياغة النظرية على أساس تصورى نظرى	تعريف المفاهيم صياغة القضايا صوريا	تحديد طرق قياس المفاهيم وصياغة الفروض القابلة للقياس الامبيريقى	جمع البيانات وتحليلها للتحقق من الفرض	وضوح مستويات البرهان الثلاثة دون توفر جميع متطلباتها العلمية . تنطلق من إطار نظرى إلى التطبيق	توفر عناصر البرهان دون اكتمال شروطها	التفاوت بين المفهوم المجرد وقياسه
مدخل النظرية المحققة	صياغة النظرية على أساس امبيريقى اجرائى	النزول إلى العمل الميدانى بدون فرض	وصف ما يحدث	صياغة التفسيرات حول الحوادث والظواهر على أساس الملاحظة	تدمج المرحلة الثانية والثالثة للمدخل الكلاسيكى وتأخذ فقط الفروض والمتغيرات التى تكشف البيانات من فائدتها. "تنطلق من المستوى الامبيريقى إلى النظرى "	لاتتوفر عناصر البرهان	التأكيد على مفاهيم المشاهدة الإجرائية يحد من قوة التعميم وصلاحيته .
مدخل النزعة الإجرائية	صياغة النظرية على أساس اجراءات قياس المفاهيم	استخدام المفاهيم التى عرفت إجرائياً واستبعاد المفاهيم التجريدية	تحديد المقاييس الكمية لقياس المفاهيم الإجرائية	تنفيذ عمليات قياس المفاهيم	تدمج المرحلة الأولى والثانية للمدخل الكلاسيكى فى مرحلة واحدة وتبدأ من التعريف الإجرائى للمفهوم ومرحلة القياس	لاتتوفر عناصر البرهان	عدم شمولها للمفاهيم التجريدية التى لاتخضع للقياس يحد من إسهامها فى تطوير النظرية
مدخل الرد والتعليق الفينومينولوجى	صياغة النظرية على أساس الرد والتجريب الفينومينولوجى	تحديد الماهيات فى ضوء المفاهيم وعلى أساس التعليق والرد الفينومينولوجى	تحديد المؤشرات الإجرائية وأساليب التحليل الفينوزمينولوجى	التحقق التجريبى والمقارنة	تعليق التصور النظرى المقبلى والكشف بالرد عن الماهيات ثم تخضعها للمقارنة مع المفاهيم القبلية . (النسق النظرى مفتوح بوجه العمل الامبيريقى ويتطور فى ضوئه)	تتوفر عناصر البرهان حيث يقوم على أساس الربط بين الرد والتجريب	صعوبة توظيف الإحالة التخيلية والتأمل الفينومينولوجى فى مراجعة المفاهيم والتصورات

يتضح من تحليل نماذج البرهان الأربعة من حيث مدخلها للبرهان ومنطلقها لصياغة النظرية وإجراءات التحقق وربطها بين المستوى النظرى والمستوى الامبيريقى يتضح من كل ذلك ان نماذج البرهان الثلاثة الأولى تتفاوت عن بعضها كما أنها تتفاوت عن النموذج الفينومينولوجى من حيث كفاءتها المنهجية في تحقيق البرهان العلمى لأنها تتفاوت من حيث مدخلها وما توفره من مستويات البرهان كما أنها لا تحقق الاتصال العلمى بدقة بين المستوى النظرى والمستوى الامبيريقى فى اى من مستويات البرهان . كما هو حادث بالنسبة للبرهان الفينومينولوجى .

ورغم أن المدخل الكلاسيكى يحقق البرهان العلمى من خلال مراحل ثلاثة تبدأ بالمستوى النظرى حيث يتم تحديد المفاهيم وصياغة القضايا المبدئية التى تقرر علاقات معينة بين تلك المفاهيم.

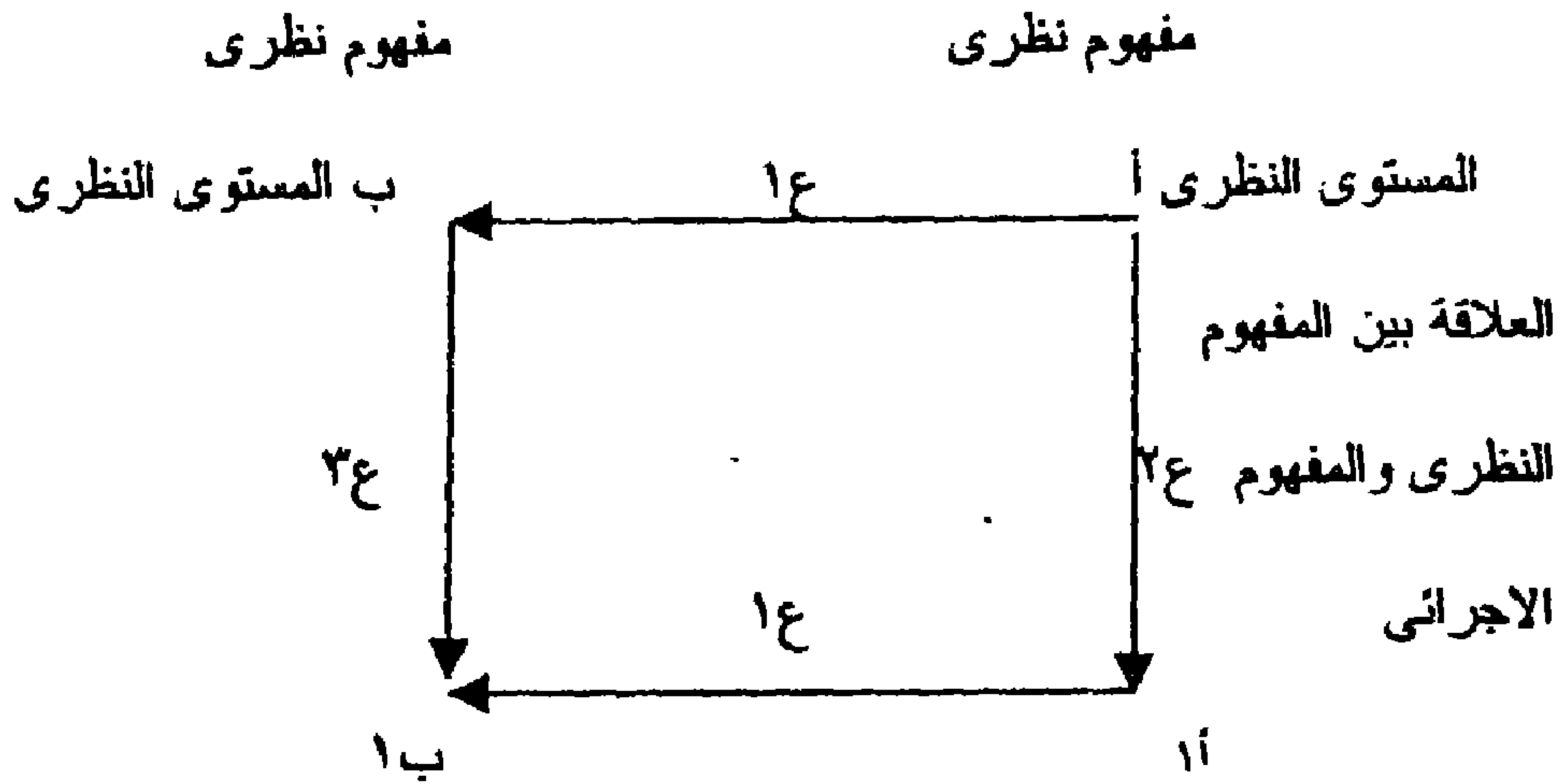
ويتم فى المرحلة الثانية محاولة تخطى الفجوة بين المستوى النظرى والمستوى الامبيريقى عن طريق إيجاد أساليب لقياس المفاهيم اجرائيا ثم تأتى المرحلة الثالثة والأخيرة فى البرهان بجمع البيانات وتحليلها وتمحيص الفروض فى ضوئها .إلا أن صياغة المفاهيم والفروض يتم فى المرحلة الأولى على المستوى التصورى النظرى فقط ، دون أن تؤخذ فى الاعتبار المعطيات الامبيريقية . ودون عقد حوار جدلى بين المعطيات الامبيريقية ومقتضيات الصياغة النظرية لاستخلاص المفاهيم والفروض من خلال عملية الجدل بين المعطيات الكيفية والمعطيات الكمية كما هو حادث بالنسبة للنموذج الفينومينولوجى .

وبذلك تكون عملية الصياغة تلك محدودة النطاق بحدود التصور النظرى حول الوقائع . كما ان تحديد طرق قياس المفاهيم والتحقق من الفروض لا تتوفر فيه المقومات الأساسية لتحديد المؤشرات الإجرائية للمفاهيم والفروض بما يجعل المفاهيم والقضايا النظرية خاضعة للقياس وحتى تحديد هذه المؤشرات يقتضى أن تكون العناصر النظرية للمفهوم والقضية متضمنة فى العناصر الإجرائية

ومتسقة معها. بحيث يشمل القياس جميع الدلالات النظرية للمفـــهوم والقضيــة وذلك ما يحققه النموذج الفينومينولوجى.

كما أن تمحيص المفاهيم والفروض فى ضوء المعطيات الامبيريقية لا يؤدى وظيفته بالنسبة للأنساق النظرية المغلقة إذا ما كانت أساسية لتوجيه عملية البحث وإجراءاته . وذلك لان الالتزام بنظرية فى حد ذاتها يقتضى الالتزام بـــإجراءات منهجية معينة تؤكد عليها النظرية ، وذلك يضع حدودا معينة علـــى المعطيــات الامبيريقية كما أن الأنساق النظرية المغلقة لا تتيح الفرصة للبيانات والمعطيـات الامبيريقية للتعديل والتطوير فى مفاهيمها وقضاياها . التى صنفت نظريا فقط ، بذلك تقتصر فاعلية البيانات والمعطيات الامبيريقية مـــن حيــث المراجعــة . والتعديل وعدم التقيد بقوالب منهجية معينة فـــى التنــاول . علـــى الإطــارات التصورية التى لا تتوفر لها مقومات النظرية إلا بعد التحقق منــها . والبرهنــة على مفاهيمها وقضاياها فى ضوء المعطيات الامبيريقية وطالما أن الصياغـــات التصورية تكون محدودة النطاق لاستنادها فى مرحلة الصياغة على معطيـــات الكيف دون الكم فان احتمالات البرهنة عليه وإكسابها مقومات النظرية لا يتوافر لهـــا اليقين الكافى .

والشكل التالى يوضح مدخل النظرية الكلاسيكية للصياغة النظريـــة (بنــاء الفروض والتحقق).



مؤشر قياس المفهوم المستوى الامبيريقى مؤشر قياس المفهوم

(التعريف الاجرائى) (التعريف الاجرائى)

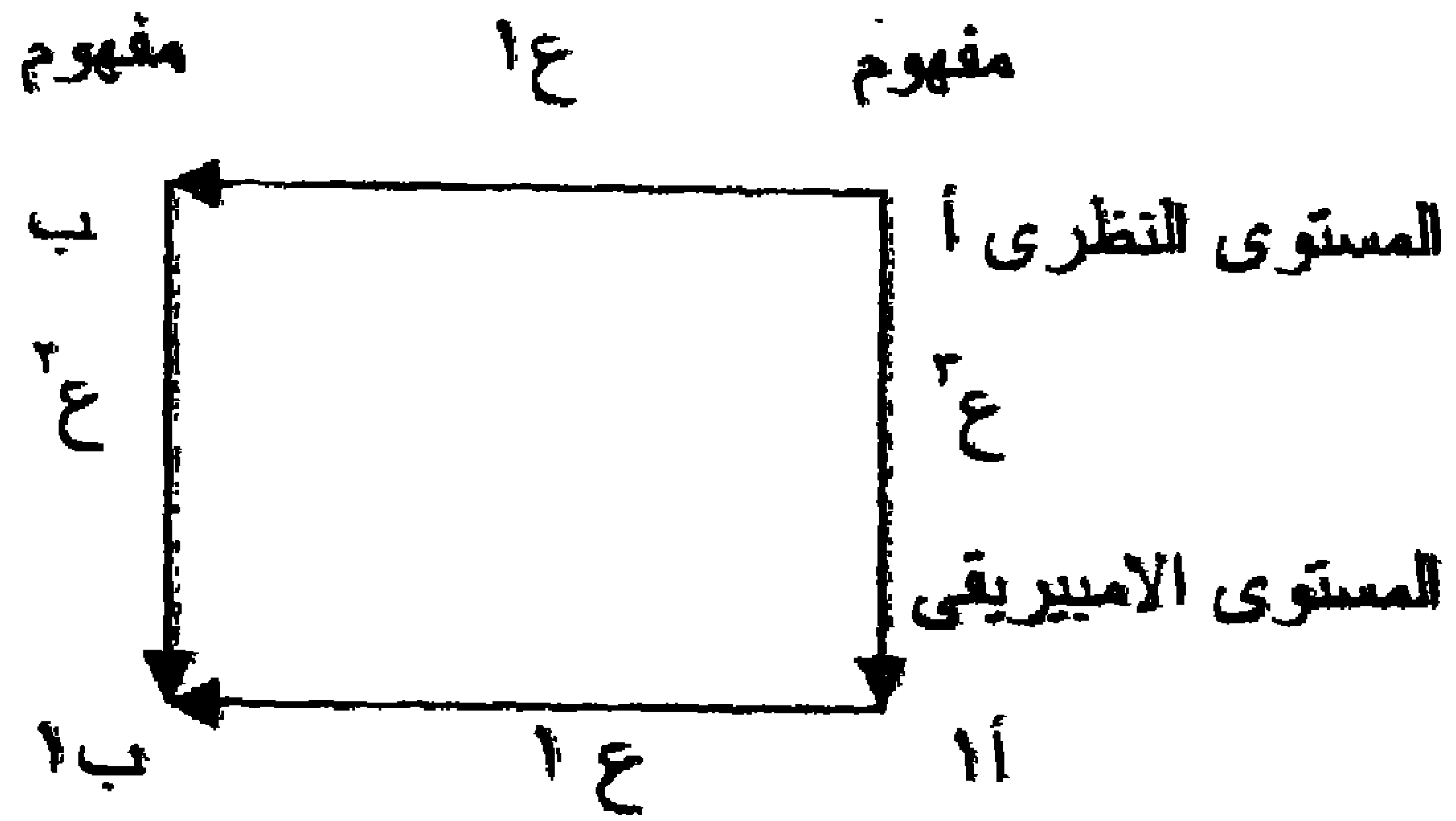
وتحديد العلاقة بين أ١ ، ب١ يعتمد على الدلالة الامبيريقية (أ١) بالنسبة لـــ (أ) وب١ بالنسبة لـــ (ب) .

وهنا يمكن التناول الاجرائى للعلاقة بين أ ، ب على المستوى الامبيريقى أ ١ ، ب١.

وتأتى النظرية المحققة لتؤكد على المفاهيم والفروض التى تتوفر فى البحث الذى يرتبط بها وذلك ما أوضحه " ستراوس " " وجلاسر " لاعتقادهما بأن ذلك يعظم من قيمة النظرية . فلا يكفى فى نظرهما التحقق من النظرية القائمة والبرهنة على صحتها امبيريقيا بالبحث وانما يجب ان تقوم النظرية على المفاهيم والقضايا المستخلصة من العمل الامبيريقى.

وبذلك نجد ان مدخل النظرية المحققة للصياغة النظرية امبيريقيا . فى حين ان المدخل الكلاسيكى لصياغة النظرية يؤكد على الأساس التصورى النظرى.

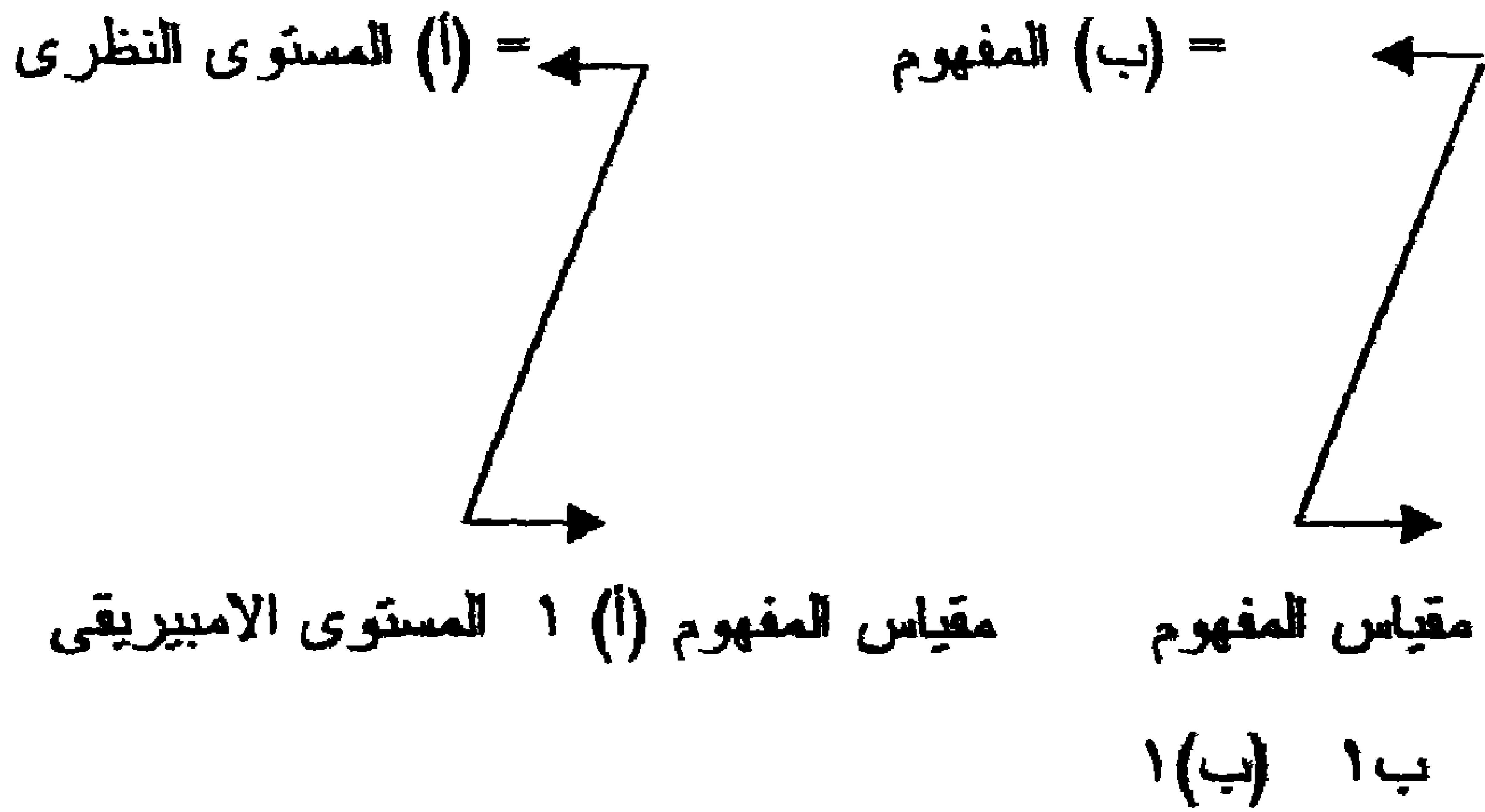
و الشكل التالى يوضح مدخل النظرية المحققة فى الصياغة النظرية.



حيث يلاحظ انه عندما تكون جميع المفاهيم مصاغة علـــى أســـاس توجيـــه ملاحظة البيانات ، لا يكون هناك خطأ القياس ، مع ان نقص خطأ القياس هنا قد يتعلق فقط بالوقت والمكان الذى تجرى فيه الدراسة فقد لا يكون قابل للتعميم.

وإذا أراد الباحث أن ينمى الفرض المستخلص من النظرية المحققة فى بحث جديد فيمكنه الاستفادة من مرحلة التحقق الامبيريقى للمدخل الكلاسيكى فى حيـث أن و " برجمان " فى تعريفه للنزعة الإجرائية عام ١٩٤٨. لا يؤكد أنها تشـــير للعمليات المنفذة أو التى تتبع فى قياس المفهوم إنما يؤكد على أن المفهوم الـذى يعرف هو تلك المفهوم الذى تم قياسه . وبذلك يكون مدخل النزعة الإجرائيـــة مدخلا برجماتيا (عملى). لأن تعريف المفهوم لا يخرج عن نطاق قياسه . وان المفهوم الذى لا يتم تعريفه بقدر كاف لا يستخدم فى البحث ولذلـــك لا يضيـــع الباحث وقتا فى استخدامه.

والشكل التوضيحى التالى يبين العلاقة بين المستوى النظـــرى والمســـتوى الامبيريقى من منظور النزعة الإجرائية.



وبذلك نجد أن المستوى النظرى موجود على مستوى النماذج الثلاثة [1] على نحو ما أوضحناه ومن تحليل الاستراتيجيات المختلفة لصياغة الفروض والتحقق منها تبين ان استراتيجية المدخل الكلاسيكى للبرهان العلمى تقوم على أساس تعريف المفاهيم أولاً وافتراض العلاقة بين تلك المفاهيم ثم تحديد طرق وأساليب قياس كل مفهوم ثم جمع البيانات أخيراً واختبار الفروض.

ويقوم استراتيجية النظرية المحققة للبرهان والتى روجت بواسطة كل من "جلازر " وستراوس" عام ١٩٦٧ على أساس البدء بملاحظة الظواهر قبل بناء أى فرض حولها . وفى ضوء ذلك تكون مفاهيم الدراسة وفروضها التى تقيم علاقات بين المتغيرات مشتقة امبيريقيا من فحص البيانات الفعلية فى حين أن استراتيجية النزعة الإجرائية للبرهان العلمى تقوم على أساس أن المفهوم لا يمكن تعريفه مستقلا عن مقياسه . وبذلك يتحكم المقياس فى تحديد المفهوم وصياغة الفروض بشكل مطلق عند الإجرائيين ، في حين أن مدخل النظرية المحققة لا يحصر نفسه بمقاييس معينة للمفاهيم رغم أنه لا يستخدم من المفاهيم إلا ما يقبل القياس.

---

(1) Bailey, K.D., Op. cit., PP.43 - 48.

وبذلك يتضح ان مستويات البرهان العلمى لا تتوفر بصورة متكاملة فى مداخل نماذج البرهان الثلاثة الأولى وذلك رغم أن كل منها يعالج جانبا معينا من جوانب البرهان العلمى ومن ثم تشكل البرهان الفينومينولوجى مستقبل العلوم الاجتماعية وذلك ما سوف تعالجة من الان فصاعدا .

ثالثا : استراتيجية البرهان العلمى

١ - البرهان العلمى بين الوصف والتفسير :

الوصف والتفسير نمطان أساسيان للبحث بالنسبة لأى علم من العلوم طبيعيا كان أم اجتماعيا . وليس هناك أساس واضح بالنسبة للاعتقاد السائد بين البعض بان البحوث الوصفية لا تقيم الأساس العلمى للبرهان وذلك لأن البرهان الوصفى له مستوياته ومتطلباته الأساسية للبرهان العلمى كما أن اكتشاف عناصره الظاهرة وماهيتها وأنماط العلاقة القائمة بين تلك العناصر وتحديد المفاهيم المرتبطة بتلك العناصر والعلاقات إحدى مستويات البرهان العلمى .

لأن تلك المفاهيم والعلاقات منطوية تحت النماذج الفنية للنظرية ، ومن ثم لا تستقيم البرهنة على صحة النموذج التفسيرى الواضح للنظرية . بدون البرهنة على النماذج الضمنية ، وذلك لان النموذج التفسيرى يستند فى أساسه على النموذج الضمنى الوصفى للنظرية وذلك ما تحققه النموذج الفينومينولوجى.

فالاعتقاد الشائع بين الناس عن خصائص الأشياء والظواهر قد تكون الخصائص الوصفية ولا تشكل الخصائص الحقيقية لتلك الظواهر والتى يكشف عنها الرد الفينومينولوجي وذلك ما نوضحه بالمثال التالى :

فما نعرفه عن قطعة الصخر بأنها تتكون من ذرات رملية متماسكة لا يعبر عن عناصر قطعة الصخر والمادة التى تربط بينها فقد تكون قطعة صخر معينة مكونة من مواد معدنية معينة ، وبنسب متفاوتة أدت الى تماسك هذه المواد المكونة لها ، ومن ثم فإن معرفة نوعية هذه المواد ونسبتها يدخل ضمن الموضوع ، كما أن إثبات النسب المفترضة للمواد المكونة لقطعة الصخر

والبرهنة عليها يعتمد على إجراء تحليلات أساسية لتلك العناصر لوصفها وتحديد خصائصها.

وهذا المستوى من البرهان الوصفي ركيزة أساسية للبرهان التفسيرى الذى يستهدف التعرف على العوامل التى تتحكم فى وجود تلك العناصر بهذه النسب والتى قد تزيد من قوة التماسك بين تلك العناصر . أو تؤدى إلى ضعفها وهذا المستوى التفسيري يدخل ضمن نطاق البرهان التفسيرى لما نفترضه حول العوامل المتحكمة فى تكوين قطعة الصخر والمؤدية للتماسك فيما بينها.

وعلى مستوى علم الفيزياء كان الاعتقاد السائد لفترة أن الذرة أصغر وحدة وأنها لا تتضمن عناصر أخرى وعندما تقدمت الوسائل التكنولوجية وأنتجت الوسائل التى تمكن الإنسان من التحكم فى الذرة . ثبت عكس الاعتقاد الشائع بين العلماء بالنسبة لعدم تفتت الذرة لعناصر أخرى . وتمكن العلماء من تحديد العناصر المكونة للذرة والمتمثلة فى البروتون والنيوترون والألكترون وتبين ان خصائص العناصر الثلاثة للذرة مختلفة وهى منفصلة عن خصائصها وهى متحدة فى نواة الذرة [١]

وهذا المستوى من البرهان الوصفى معقدا ، كما أنه مختلف عن البرهان التفسيرى الذى يستهدف التحقق من العوامل المقترحة ، والتى تتحكم فى الذرة وعناصرها وهى متوحدة فى نوعية الذرة من ناحية . وهى في حالة انشطار عن بعضها من ناحية أخرى ، كما ان مستوى البرهان التفسيرى هنا يعتمد على مستوى البرهان الوصفى ويستند إليه.

وفى علم الاجتماع تجرى البحوث الوصفية لكشف ماهية الظواهر الاجتماعية ووصفها لمعرفة كيفية السلوك الفعلى ، وماذا تكون عليه حقيقة المجتمع فقد يسعى عالم الاجتماع لمعرفة عدد طلبة الجامعة الذين يقرأون الصحف أو الذين يشاهدون برامج التليفزيون . وقد يسعى العالم أيضا لمعرفة ما

---

[١] جروم دز روزنبرج ، الكيمياء العامة ، ترجمة القاهرة ، مؤسسة الأهرام ١٩٧٧، ص ٣٤٥.

إذا كانت الظروف الاقتصادية للزنوج في أمريكا قد تحسنت في الحقبات الأخيرة أم لا فجميع هذه الدراسات لها نفس الهدف المتمثل في اكتشاف الحقائق الاجتماعية ولا شك ان اكتشاف مثل هذه الحقائق قد يكون بهدف البرهنة على صحة فروض المطروحة سلفا أو للتحقق من صفات وخصائص تضمنتها المفاهيم التي صيغت على أساسها تلك الفروض الوصفية السابقة والتي قد تشير إلى :

إن نسبة عالية من طلبة الجامعة يقرأون الصحف ويشاهدون برامج التليفزيون . وان الظروف الاقتصادية للزنوج تحسنت في الحقبات الأخيرة في أمريكا... الخ . فمثل هذه الفروض وصفية والتحقق منها يتم على مستوى الوصف المتمثل في اكتشاف الحقائق الاجتماعية المرتبطة بهذه الفروض . وإذا كان مستوى الوصف هنا بسيطا فثمة حالات أخرى يكون فيها البرهان الوصفي اكثر تعقيدا مثال ذلك عندما يفترض أحد العلماء أن المرض أو الموت يتأثران بالأوضاع الاجتماعية . بمعنى أن العوامل البيولوجية لا تتحكم وحدها في مثل تلك الأحوال . وفي مثل هذه الحالة يكون البرهان على مثل هذا الفرض على مستوى الوصف ولكن الوصف هنا لا يستهدف اكتشاف خصائص يمكن تلمسها وإنما يستهدف اكتشاف علاقات غير مدركة بصورة مباشرة.

وقد تضمنت دراسة " ساموبل استوفر " وفريقه ، خلال الحرب العالمية الثانية ، والتي نشرت في أربعة مجلدات بعنوان " الجندي الأمريكي " مستوى آخر من البرهان الوصفي حيث اتخذت الدراسة من بعض الأمور المتعارف عليها منطلقاتها الأساسية بهدف التحقق من صدق هذه الأمور المتمثلة في :

- إن من يتمتع بمستوى تعليمي أفضل ، اكثر تعرضا للأمراض النفسية ممن هم أقل تعليما (فمن المعروف أن المثقفين أكثر عصبية وأقل ثباتا واستقرارا من العاديين).

- وأن معنوية ذوى الخلفية الريفية كانت افضل خلال حياتهم العسكرية ممن هم ذوى خلفية حضرية (وقد كان ذلك متوقعا نظرا لان الريفيين متعودين على العمل ومعتادين على معايشة البيئة والظروف الصعبة).

- وأن تحمس الجنود البيض لأن يصبحوا : ضباطا دائمين أكثر من تحمس الزنوج (وذلك لان الظروف الاجتماعية التى ينشأ فيها الزنوج تجعل طموحاتهم أقل من البيض كما أن الزنجى لا يشعر بالأمان وهو يعطى أوامره للرجل الأبيض) .

- وأن الجنود القادمين من الجنوب اكثر تحملا للطقس فى جزيرة جنوب البحر الحارة من الجنود القادمين من الشمال (وذلك أكثر بداهة نظرا لظروف الجنوب الحارة وتعودهم عليها) . وقد تبين من الدراسة التى أجراها أستاذ علم الاجتماع بجامعة هارفارد " ساموول استوفر" وفريقه أن نتائج الدراسة أتت بما هو عكس هذه الأمور البديهية ، والتى اتخذت منها الدراسات منطلقاتها للتحقق والبرهان حيث ثبت من الدراسة :

- أن من يتمتعون بمستوى تعليمى أفضل من الرجال ، ظهرت عليهم أعراضا مرضية نفسية اقل ممن هم اقل تعليما .

- وأن الرجال ذوى الخلفية الريفية ، لم تكن روحهم المعنوية أحسن ، من ذوى الخلفية الحضرية خلال حياتهم العسكرية.

- وأن الزنوج كانوا أكثر تحمسا من البيض ليصبحوا ضباطا دائمين فى الجيش.

- وأن الجنود القادمين من الجنوب لم يكونوا أحسن تكيفا مع طقس الجزيرة من الجنود القادمين من الشمال . وبذلك تأكد من دراسة "ساموول استوفر "

وفريقه أن البرهان الوصفى فى علم الاجتماع يستهدف التحقق من بعض المعتقدات الشائعة حول السلوك البشرى .[1]

وهو البرهان الذى يحققه الفينومينولوجيا كخطوة أولى وإذا كان البرهان الوصفى يستند إلى التحقق مما هو قائم بالفعل وما يتسم به من خصائص وسمات ، فإنه لا يمكننا من الإجابة عن لماذا توجد الأشياء بهذه الصورة التى هى عليها على مستوى الوصف . وذلك لأن الإجابة على مثل هذا السؤال أى على لماذا يشكل نمطا آخر من أنماط البرهان العلمى ، وهو البرهان التفسيرى ، وإن كان النموذج المعلن للنسق النظرى للعلم قد احتل وضعا خاصا بالنسبة للبرهان العلمى ، فذلك لأنه يطرح بصورة معلنة على مستوى النظرية والعبارات التنبؤية والتحقق من التنبؤات وهى العناصر الأساسية للبرهان العلمى ، والتى ترتبط بعناصر التحليل التفسيرى الخمس المتمثلة فى المتغير التابع ، والمتغير المستقبل والمتغير التفسيرى (عامل الاختبار) والمتغير الوسيط . ومتغير الاعتماد المتبادل (المتغير الوظيفى) فلكل من عناصر التحليل التفسيرى الخمس تلك حضور بمستوى معين بالنسبة لعناصر البرهان العلمى بمعنى أن متغيرات التحليل التفسيرى يتم البرهنة عليها على مستوى النظرية ، كما أنها تعالج على مستوى العبارات التنبؤية وتخضع للتحقق والاختبار على المستوى الامبيريقى ، وبذلك فهى معلنة وواضحة على مستوى الصياغة النظرية والعبارات التنبؤية وإجراءات التحقق منها . ومن ثم اكتسبت وضعا مميزاً بالنسبة للبرهان العلمى على مستوى جميع العلوم وهذا ما يحققه التحليل الفينومينولوجى بعد الرد والمغايرة التخيلية .

٢ - عناصر البرهان العلمى ومراحله :

(1) Stouffer, Samuel & Others, The American Soldiers Studies in Social Psychology in World War II, 4 Vols., Prinception , Princeton University Press, 1949.

رغم أن العلم يبدأ بنظرية وينتهي منطقيا بنظرية وأن النظرية تشير للنموذج التفسيرى المعلن للعلم والقائم على العلاقات المصاغة بين المفاهيم ، إلا أن هذا الجانب المعلن والذى يتناول العلاقات لا يدرك إدراكا مباشرا.

كما هو الحال بالنسبة للنموذج الضمني الذى يشكل الفروض الوصفية للنظرية . كما أن إدراك العلاقات التفسيرية لا يتحقق بدون توفير الوعى العلمى القائم على المعرفة الامبيريقية التى تدعم الفهم العلمى لتلك العلاقات ذلك الفهم الذى يعتمد بدوره على التفسير الذى يقدمه العلم للظاهرة . وبقدر ما يكون الفهم قائما على الوعى العلمي يكون التنبؤ باحتمالات حدوث الظاهرة أمرا ممكنا ومن ثم أصبح غرض العلم تطوير تفسيره بالصورة التى تجعل معطياته ممكنة الحدوث.

وبذلك لا يقتصر البرهان العلمى على مجرد التحقق من العلاقات التفسيرية ولكنه يبدأ بمرحلة صياغة النظرية وتحديد العلاقات التنبؤية والتحقق من تلك التنبؤات . بمعنى أن البرهان العلمى يتم من خلال عناصره الأساسية المتمثلة فى النظرية ، والعلاقات التنبؤية ، وتحقيق التنبؤات وممارسة الرد الفينومينولوجى .

وإذا كانت النظرية أداة العلم لإيضاح الرؤية بأبعاد الواقع فإنها تمثل البداية المنطقية للعلم ويمثل ما هى نتيجته أو خلاصته ، وذلك لأنها تمثل النموذج الذى يساعدنا على تفسير العلاقات ، وعمل التنبؤات حول مستقبل تلك العلاقات. فعندما نقيم علاقة بين متغيرين نكون قادرين على عمل التنبؤات حول مستقبل تلك العلاقات عند تفسيرها . وعندما تكون تلك العلاقات مختبرة تكون النظرية قادرة على عمل التنبؤات بعد جمع البيانات التى تساعد على التحقق من تلك العلاقات التى تتضمنها النظرية .

ومن ثم يمكن القول بان النظرية ما هى إلا تفسير مرتكز على الحقيقة .

وذلك لأنها أى النظرية تبدأ بالعلاقات التى تتنبأ بالحدوث الذى يمكن تحقيقه بالبيانات التى تجمع حول تلك العلاقات . وإذا ما اتبع المدخل العلمى فى جمع هذه البيانات يكون الباحث فى وضع من تحقيق البرهان العلمى وإيضاح صدق العلاقات أو عدمه بالحقيقة الامبيريقية وهذه هى العملية التى تشكل النظام العلمى للعلم [١]. والذى يستند لمقولة مؤداها ان التفسير العلمى الذى يمكن قبوله يتمثل فى التحقق الامبيريقى للتنبؤات [٢]وأن الفهم العلمى لماهية الظاهرة يعتمد على الرد الفينومينولوجى .

وإذا كان البرهان العلمى لا يعنى بالضرورة التكميم ، إلا انه يعنى على أية حالة أن تكون المعطيات التى نصل إليها قابلة للتكرار ، بمعنى أن ما يكتشفه يمكن لأى شخص آخر يستطيع تطبيق المنهج العلمى (الرد – الرفع) أن يكتشفه وأن يصل إلى نفس النتائج التى وصلنا إليها وإلا لن يكون هناك علما حقيقيا .

ومن ثم اصبح تحديد عناصر البرهان ومراحله فى سياق نسق التفكير العلمى من المسائل الأساسية التى يقتضيها تحليل البناء المنطقى للعلم.

رابعا: النظرية التفسيرية (الإيضاحية) والبرهان العلمى :

يتحقق البرهان العلمى على مستوى النظرية بمستويات مختلفة تتمثل فى البرهان على مستوى الصياغة النظرية . واكتمال صياغة النظرية والتحقق الامبيريقى للنظرية.

١- البرهان العلمى على مستوى الصياغة النظرية :

يقام البرهان العلمى على مستوى الصياغة للقضايا التى تنهض عليها النظرية ، بمعنى أن عملية سحب تلك القضايا والأساس الذى تستند إليه يمثل مستوى من مستويات البرهان العلمى . وإذا كان المدخل الكلاسيكى لصياغة

---

(1) Zusman, Marty E., Op. Cit., P.17.
(2) Zusman, M.E., Ibid., P.18.

النظرية يتخذ من الأساس العقلى مدخله لصياغة القضية بمعنى ان صياغة القضية تتم في المرحلة الاولى على المستوى النظرى في حين ان النظرية المحققة والنزعة الاجرائية تتخذ من الواقع ومتطلباته أساسا لصياغة القضية.

فان إقامة التأليف بين المدخلين في صياغة القضايا التى تقوم عليها النظرية الإيضاحية يشكل في حد ذاته مستوى من مستويات البرهان العلمى على صحة القضية ، وذلك بأن نقيم بين المدخلين جدلا على أساس ما بينهما من استقطاب واكتمال وتضمين ؟ فعلى مستوى الاستقطاب نكشف عن أوجه الاختلاف بين معطيات المدخلين بالنسبة لقضية معينة ومن حيث الاستكمال نكشف عما بينهما من تكامل بنائي . ومن حيث التضمين نكشف عما بينها من تساند وظيفى في أبعاد الظاهر أو الوقائع التى تطرح للدراسة . وهنا تتحقق المصاهرة الجدلية بين ألمدخل الكيفى والمدخل الكمى في صياغة النظرية الإيضاحية . وذلك لأن لكل من المدخلين أساسه المعرفى الخاص لإدراك الظاهرة والتعبير عن معطيات تفكيره حولها . إذ أن المدخل الكيفى يتخذ من الاستدلال الاستنباطى وسيلته للتعبير عن الظاهرة في حين ان المدخل الكمى يتخذ من الاستدلال الاستقرائى وسيلته للتعبير عن الظاهرة . وبذلك يستند البرهان في هذا المستوى من الصياغة النظرية إلى منطق المصاهرة والتأليف بين أسلوبى التعبير عن معطيات التفكير حول الظاهرة أى المصاهرة بين معطيات الاستدلال الاستنباطى ومعطيات الاستدلال الاستقرائى . فعلى أساس هذا التأليف تتحدد درجة صدق المعطيات التى تستند إليها معطيات النظرية الإيضاحية حول الظاهرة . بالاستناد إلى أسلوب الاستدلال الاستقرائى لمعطيات الكيف ومعطيات الكم حول الظاهرة ومن ثم تتم عملية صياغة النظرية من خلال عدة مراحل تتمثل أولها في الاستدلال الاستقرائى بين معطيات كل من الكيف والكم على حدة . وفى الخطوة الثانية تتم علمية التأليف بين معطيات الاستدلال الاستنباطى على مستوى الكيف ومعطيات الاستدلال الاستقرائى على مستوى الكم .

لاستخلاص عناصر النظرية التفسيرية من خلال المصاهرة بين معطيات الكم والكيف وذلك على النحو التالى :

مستوى البرهان بالمرحلة الأولى من صياغة النظرية الإيضاحية وفيها يتم تحليل معطيات كل نظرية من النظريات ومعطيات كل دراسة من الدراسات الكمية باتباع منهج الرد الفينومينولوجى إلى عناصرها الأساسية المتمثلة فى :

المفاهيم :

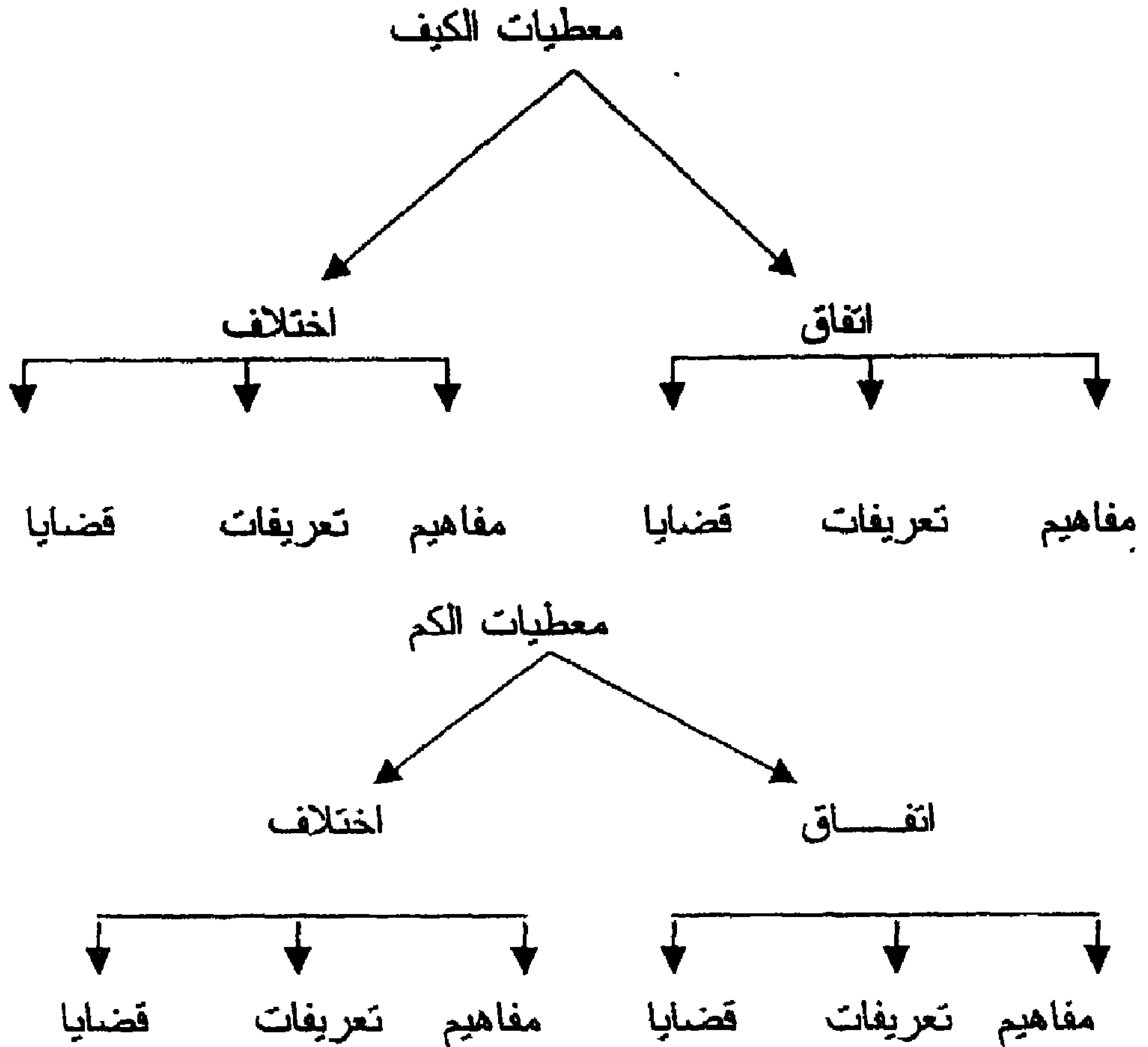
التعريفات :

القضايا :

مثال ذلك بافتراض أن لدينا معطيات نظريات ثلاث على مستوى الكيف ، ومعطيات دراسات تطبيقية ثلاث على مستوى الكم حول ظاهرة من الظواهر يتم عناصرها على النحو الذى يتضمنه الجدول التالى :

معطيات الكيف	معطيات الكم
* عناصر النظرية رقم (١) :	* معطيات الدراسة رقم (١) :
- المفاهيم	- مفاهيم
- التعريفات	- تعريفات
- القضايا	- قضايا
- عناصر النظرية رقم (٢)	- معطيات الدراسة رقم (٢)
- المفاهيم	- مفاهيم
- التعريفات	- تعريفات
- القضايا	- قضايا
- عناصر النظرية رقم (٣)	- معطيات الدراسة رقم (٣)
- المفاهيم	- مفاهيم
- التعريفات	- تعريفات
- القضايا	- قضايا

وبالاستعانة بالطرق الجدلية فى عملية التأليف بين معطيات كل من النظريات ; كل من البحوث على حدها نصل لمستوى من البرهان بالنسبة لكل من معطيات الكيف ومعطيات الكم على حدها. وذلك على النحو التالي :

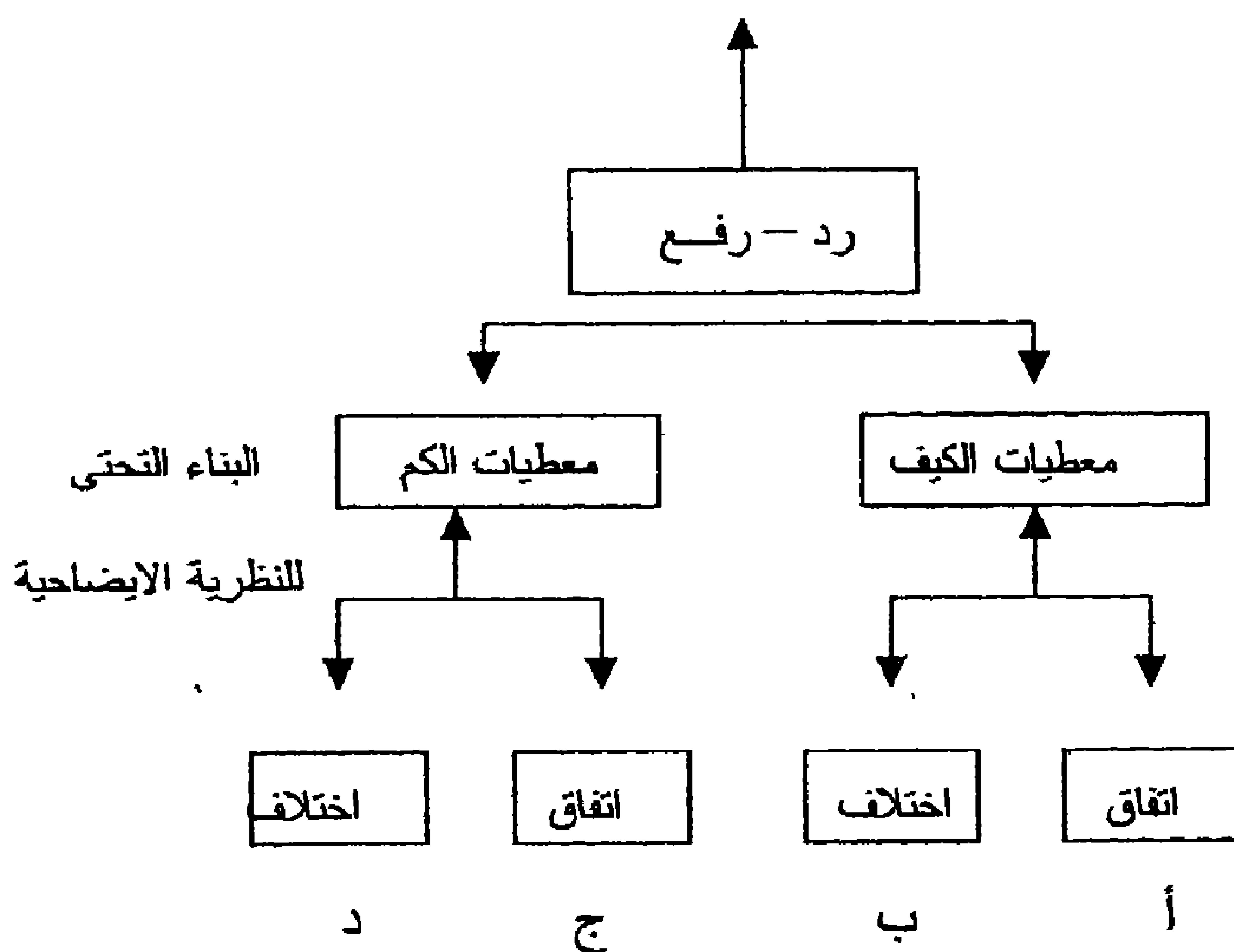


وفى المرحلة الثانية من البرهان نأخذ معطيات التحليل الجدلى على مستوى كل من النظريات الكيفية والدراسات الكمية.

لإقامة مستوى ثانى من التحليل الجدلى بين معطيات الكيف ومعطيات الكم وذلك على النحو التالى :

	١	٢	٣	٤	٥	٦
قضايا	أ جـ	أ جـ	أ د	أ د	ب د	ب د
مفاهيم	أ جـ	أ جـ	أ د ب جـ	أ د ب جـ	ب د	ب د
تعريفات	أ جـ	أ جـ	أ د ب جـ	أ د ب جـ	ب د	ب د
العنصر	١	٢	٣	٤	٥	٦
مستويات العنصر	اتفاق	اختلاف	اتفاق	اختلاف	اتفاق	اختلاف

البنـــاء الفـــوقى للنظريـــة الإيضاحية



٢- البرهان الصورى على اكتمال عناصر النظرية وتوفر مقومات صياغتها:

للنظرية شروط ومواصفات أساسية يتحدد على أساسها كفاءة البناء النظــرى فى تفسير الواقع وإيضاح الرؤية بأبعاده . ومن ثم لانكاد نجـــد مؤلفــا حــول

النظرية يخلو من طرح بعض الشروط الضرورية والواجب توفرها فى البناء النظرى لكى تتوفر له المقومات الضرورية للصياغة . وما من تعريف للنظرية لا يشير بصورة ضمنه أو ظاهرة لخصائص النظرية وشروطها فتعريف " اسكدمور " يؤكد على الاتساق بين قضايا النظرية ، كما أن تعريف " تيماشيف " للنظرية يحدد معنى النظرية من خلال شروطها فالنظرية عبارة عن مجموعة من القضايا التى تتوفر فيها الشروط التالية : أن تتسق القضايا مع بعضها ، وأن تكون القضايا فى صورة تجعل اشتقاق التعميمات واستنباطها ممكنا...الخ.

وبذلك يتضمن تعريف " تيماشيف " للنظرية شرطى الاتساق والتتابع أى الاشتقاق على أساس استنباطى . هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه بعض التعريفات الأخرى من ضرورة توفر الاتساق بين عناصر النظرية من حيث مستويات الصدق .بالإضافة لشرط تنوع القضايا دون تعارضها . وجميع هذه الشروط تستند لمسلمات العلم الأساسية المتمثلة فى الاتساق ، والتتابع ، والتنوع وعدم التعارض . وهى ليست محلا للاختبار والتحقق الامبيريقى لأن الخبرة لا تلائم عملية التحقق من مدى صدقها أو بطلانها. إلا أن البرهنة على صحة البناء النظرى فى ضوء هذه المسلمات مسألة ضرورية للتأكد من صحسة الصياغة واكتمال عناصرها . وقيام الرابطة والاتساق بين القضايا ، وتنوع هذه القضايا بما يجعلها متسقة مع طبيعة الواقع . وتتابعها بالصورة التى تجعل مشتقاتها من القضايا الإجرائية صالحة لفهم الواقع .

ولما كانت الخصائص والعلاقات التى تؤكدها مسلمات العلم بالنسبة لنسق النظرية لا تقبل التحقق الامبيريقى بصورة مباشرة ، فإن التحقق منها والبرهنة عليها يستند إلى الاستدلال الرياضى الذى تشير إليه بعض معادلاته مثل (س + ص) (س – ص) = $س^٢ - ص^٢$

وذلك ما يستند إليه التحقق من الفروض الصورية ، والبرهنة على صحة النظرية ، واكتمال عناصرها وتوفر خصائصها.

وفي ضوء ذلك نجد ان البناء الفوقي للنظرية الإيضاحيـــة يشـتمل علـــى عناصر النظرية الثلاثة المتمثلة في المفاهيم والتعريفات والقضايا المتتابعة كمـــا انه يحقق منطق الاتساق . من حيث مستويات الصدق بين تلك العناصر.

وكذلك الاتساق بين القضايا المتتابعة من حيث درجة الصدق . أضف لذلـــك كونها تنطوى على قضايا متنوعة لأن أساسها متنوع ، ومصدرها متباين بيـــن الكيف والكم ، ونظرا لأن هذا التنوع يستند لمنطق الاتفاق فانه لا ينطوى علـــى تناقض لأن مستويات الاتفاق تحدد تفاوت القضايا وتنوعها من حيـــث درجـــة صدقها وقدرتها على فهم الواقع واستيعابه.

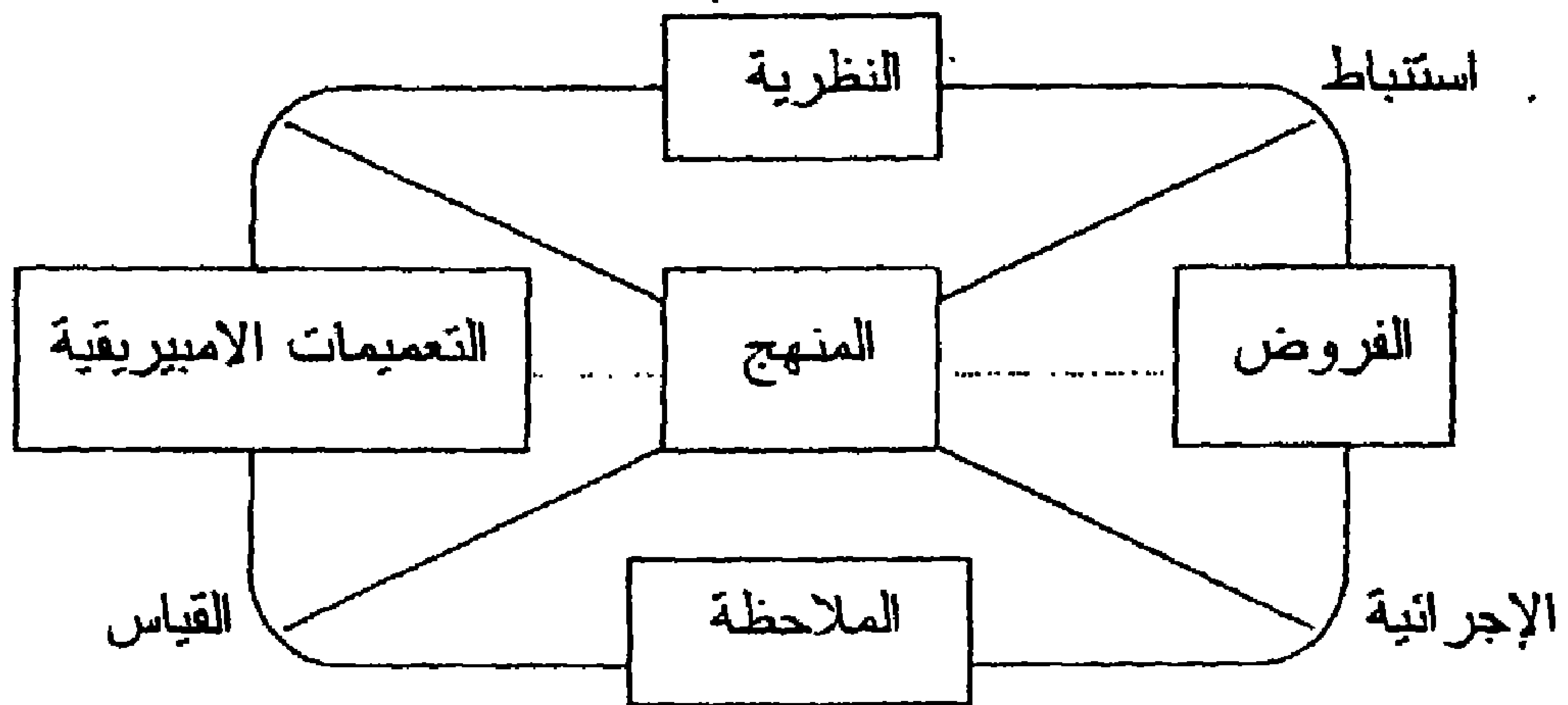
كما أن قابلية البناء النظرى الفوقي للاشتقاق والاستنباط يساعد في الوصـول إلى المستوى الإجرائي لتلك القضايا ، بمعنى أنه يساعد على تحقيـق العنصـــر الثاني للبرهان والمتمثل في التحقق من التنبؤات النظرية والبرهنة عليها . وبقدر ما يتحقق من برهان على صحة الفروض الصورية المتعلقة باكتمال عنـــاصر النظرية ، وترابط قضاياها ، واتساقها وتنوعها مع عدم تناقضـــها ، بالإضافـــة لقابلية تلك القضايا لتوليد فروض إجرائية ، بقدر ما يمكن تحقيق العنصر الثالث للبرهان العلمي والمتمثل في التحقق من تنبؤات النظرية.

٢- البرهان العلمي والتحقق الامبيريقي من الصياغة النظرية :

يأتي التحقق الامبيريقي من تنبؤات النظرية في المستوى الثـــالث للبرهـــان العلمي . والذى نعتبره ركيزة أساسية لدعم علمية المعرفة ، وسلامة الصياغـــة النظرية إذ أن ثمة اتجاه واضح في التراث على أن البرهان العلمي على مستوى التحقق من تنبؤات النظرية يستند إلى المنهج ، فهو وسيلة العلـم للتحقـق مـــن النظرية ومن ثم اتخذ " ولس " منه نقطة ارتكاز لعملية التحقق مـــن النظريـــة ، مبتدأ بالاستنباط المنطقي للفروض من قضايا النظريـــة ، ثـم القيـام بـــالعمل الإجرائي لتحقيق الملاحظة العلمية وإجراءات القياس . وذلك للوصـــول إلـــى

التعميمات الامبيريقية والتى على أساسها يتم الاستقراء المنطقى لمعطيات العمل الاجرائى . الذى يستند إليه فى قبول النظرية أو رفضها أو التعديل من وضعها.

وذلك ما يوضحه الشكل التالى :



وبذلك تبدأ عملية التحقق والبرهان على قضايا النظرية ، بالاستنباط المنطقى للفروض من النظرية ، وتنتهى بالاستقراء المنطقى من التعميمات الامبيريقية ، والمراجعة النظرية.

وإذا كان نموذج " ولس " يخضع النظرية للمراجعة الامبيريقية فذلك يرجع لقناعته بأن التحقق الامبيريقى من النظرية أساس للبرهنة على صحة النظرية أو خطئها . ونظرا لأنه يجعل من استقراء التعميمات الامبيريقية أساسا لتنمية النظرية فذلك يعنى انه يؤكد على البناء النظرى المفتوح.

ويأتى نموذج " نان لين " للبرهان على النظرية من خلال عملية التحقق مشيرا إلى خضوع البناء النظرى التجريدى لمراجعة التحقق الامبيريقى وذلك يجعله يتفق مع " وليس " فى تأكيد سمة انفتاح البناء النظرى ورفضه للانساق المغلقه.

ويبدأ نموذج " نان لين " بالتأكيد على اعتماد البناء النظرى التجريدى على قضايا تجريدية عليا وقضايا دنيا تتولد عن القضايا العليا . وتسمح باستنباط

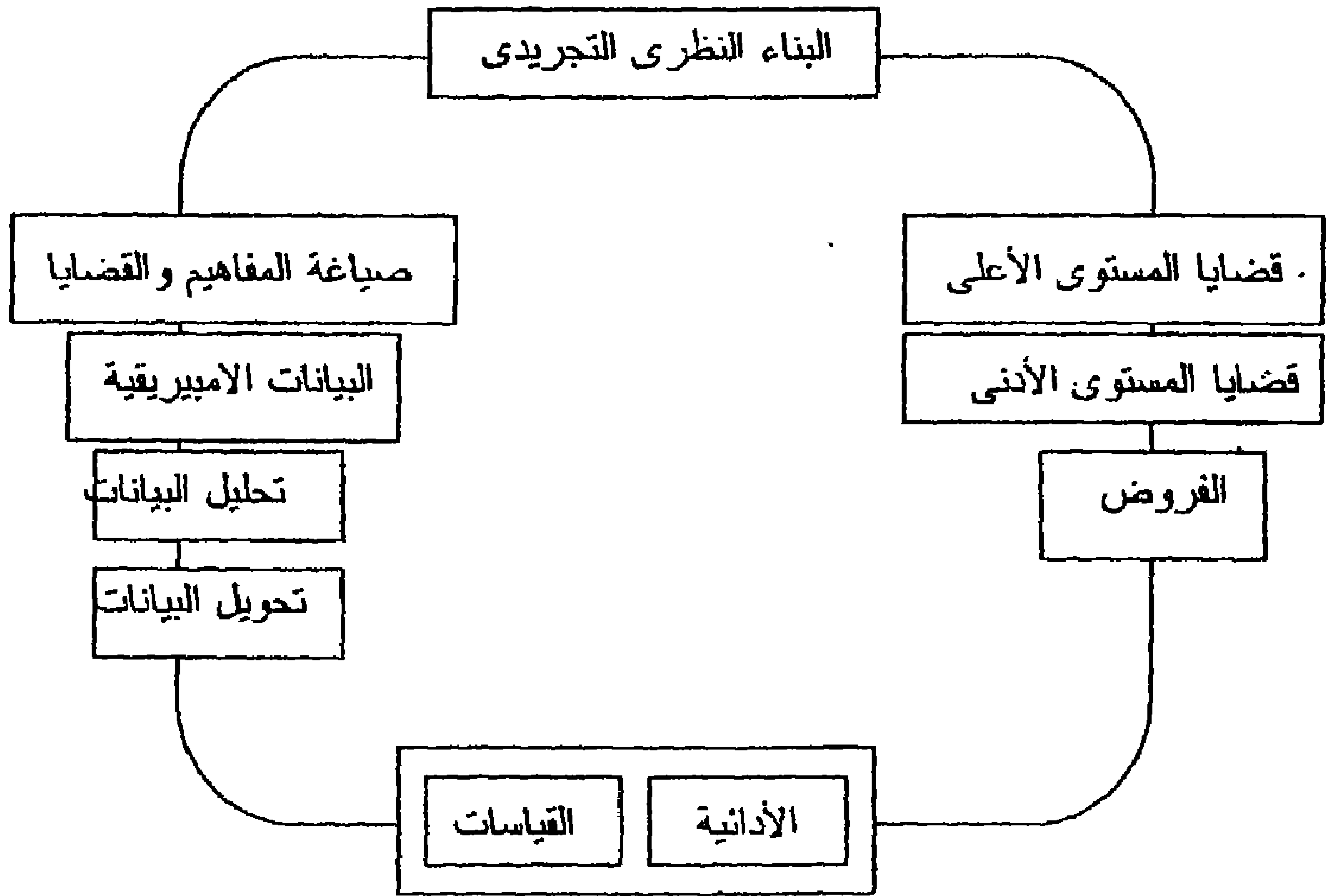
الفروض الإجرائية . تلك الفروض التى تخضعـــها للملاحظـات الامبيريقيـة للأنشطة الاجتماعية الأصلية . بالاستناد إلـى أدوات قياسـية تناسـب طبيعـة الموضوع .وبعد تحول الملاحظات إلى بيانات تبدأ عملية تحليل البيانــات فـى ضوء الفروض المستنبطة من قضايا البناء النظرى الدنيا.

واستنادا لهذا التحليل يتم استقراء التعميمات من البيانات الامبيريقية والتـى يتم فى وضوئها صياغة المفاهيم والقضايا لمراجعة البناء النظرى التجريدى.

ورغم ان نموذج " لين " يتفق مع نموذج " ولس " من حيث جعـل عمليـة صياغة النظرية مستندة إلى قابليتها لاستنباط الفروض الإجرائية ، من قضاياهـا المتتابعة من حيث مستوى العمومية وقابلية قضاياهـا للمراجعـة فـى ضـوء المعطيات الامبيريقية ، إلا أنه لم يحددا مرحلة الصياغة النظريـة الأولية .

ولذلك لم تتوفر كافة مستويات البرهان العلمى لنموذج أى منهما . وإن كـان البرهان على مستوى التحقق واضح ، وبصورة خاصة لدى " لين " إلا انـه لا يوفر لنا التكامل بين مستويات البرهان العلمى.

والشكل التالى يوضح نموذج " نان لين " للتحقق من الصياغـة النظريـة وإقامة البرهان على قضايا النظرية.



الملاحظات

والأنشطة الاجتماعية

ورغم أن كل من " ولنز ولس" و " نان لين" يشير إلى استنادهما لمنهج علمى فى عملية التحقق إلا أن أى منهما لم يقنن الإجراءات المنهجية بالصورة التى تجعل مسار عملية التحقق محدد من حيث الخطوات المنهجية.

كما أن مراجعة البناء بمعطيات التحقق المتمثلة فى التعميمات الامبيريقية ليس لها قاعدة واضحة . أو موازين محددة تحكم القضية التى يتم تعديلها وتحدد حجم هذا التعديل الذى إضافته التعميمات الامبيريقية أو تساعد على رد القضايا والمفاهيم لأصولها.

ومن ثم يأتى نموذج البرهان العلمى على مستوى التحقق الامبيريقى من النظرية الإيضاحية مستند لإجراءات منهجية واضحة ومحددة لإسهامات التحقق

الامبيريقى . بالنسبة لقضايا النظرية ومفاهيمها وتعريفاتها إلا أنها لا توفر المفاهيم والقضايا لأصولها .

فعلى مستوى الإجراءات المنهجية يتم بعد تحديد الفروض . تحديد نمط الدراسة ونوعها بمعنى هل الدراسة وصفية أم تفسيرية .وذلك يحكمه طبيعة الفروض المطروحة .

فإذا كانت الدراسة وصفية يتم تحديد نوع الدراسة من بين الدراسات الوصفية المتمثلة فى الدراسات الانثروبولوجية – الدراسات الاستطلاعية ، الدراسات التقويمية ، الدراسات التتبعية ، الدراسات التوثيقية ، الدراسات التصنيفية أما إذا كانت الدراسة تفسيرية فيتم تحديد نوع الدراسة وما إذا كانت إجرائية أم تجريبية أم أنها تؤلف بين النوعين معا .

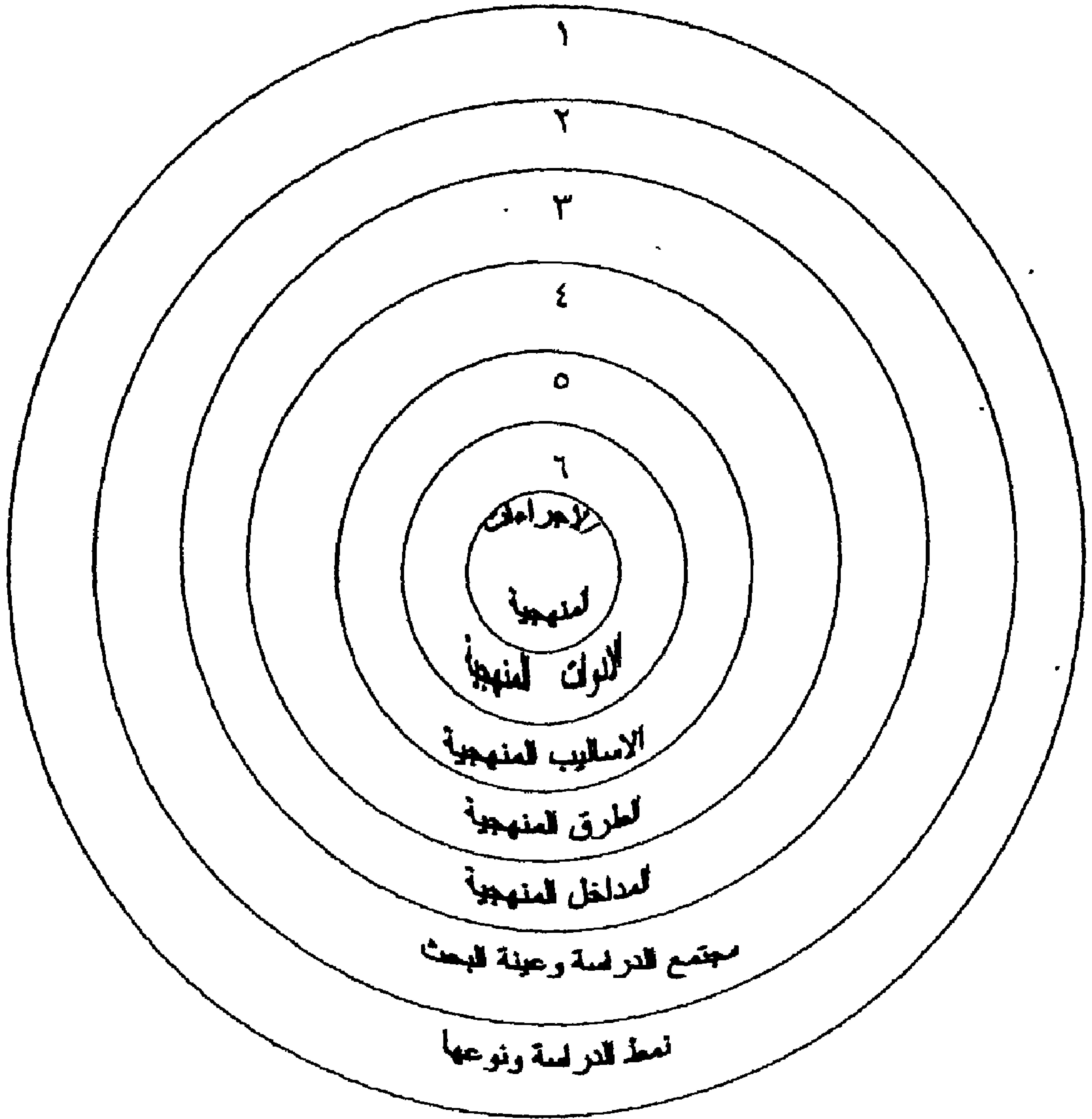
وبعد هذه المرحلة يتم تعيين مجتمع الدراسة الاصلى وعينة البحث المسحوبة منه، ثم فى ضوء نوع الدراسة وعينة البحث يتم تحديد المدخل المنهجى للدراسة ، وما إذا كان المدخل يتضمن المداخل المتطورة والتى تحقق المصاهرة بين الذات والموضوع وهى التى تقتضيها طبيعة الظواهر الاجتماعية مثل المدخل الانثروبولوجى ، والمدخل الفينومينولوجى ، الاثنوميثودولوجى .

وإذا كان المدخل موضوعيا فيعين نوعه وما إذا كان تاريخيا أم تجريبيا أم رياضيا أم مقارنا.

وعلى أساس نوع المدخل المنهجى يحدد المنهج الذى تتبع قواعده فى عملية المعالجة وبعد تحديد المدخل يتم تحديد الأسلوب المنهجى للدراسة وما إذا كان الأسلوب متمثلا : فى المسح أو دراسة الحالة . أو تحليل المضمون أو القياس وبعد تحديد الأسلوب يتم تحديد أدوات البحث وما إذا كانت استمارة بحث أو مقابلة أم ملاحظة أم مقاييس.

وبعد ذلك يتم صياغة أدوات البحث بما يجعلها فى حالة لياقة منهجية مع طبيعة الدراسة وفروضها .

والشكل التالى يوضح تتابع الإجراءات المنهجية للتناول الإجرائى :

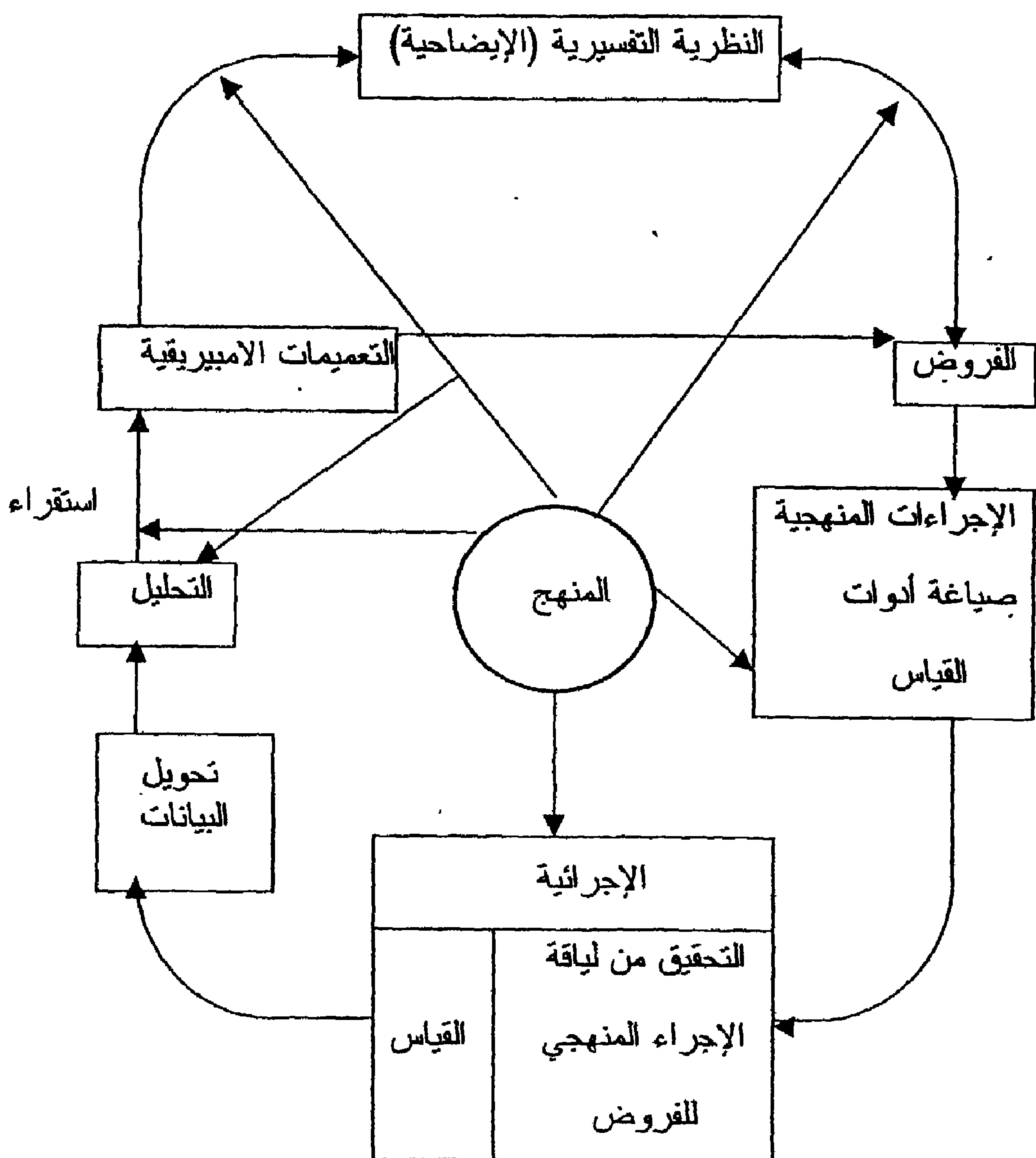


وتقنين الإجراءات المنهجية يفيد فى ضبط عملية التحقق من النظرية والبرهان على صحتها .

ويجعل من الميسور لباحث أخر استخدام الإجراءات المنهجية للتحقق من النظرية مع التحكم فى الظروف المماثلة لظروف التحقق السابقة ، وتعيين الفروق فى ظروف إجراء أى تحقق لاحق من النظرية وبالتالى يمكن معرفة مصدر التعديل أو التطوير فى البناء النظرى التجريدى بالاستناد إلى الرد الفينومينولوجى.

وبعد تحديد الإجراءات المنهجية على هذا النحو تبدأ مرحلة الإجرائية وهى التطبيق للأدوات على عينة الدراسة . ثم مرحلة تحويل البيانات . يليها مرحلة التحليل ثم التعميمات الامبيريقية وأخيرا مراجعة الفروض بالتعميمات. ومراجعة قضايا النظرية ومفاهيمها وتعريفها بالتعميمات الامبيريقية ، على أساس هذه المراجعة يتم إعادة ترتيب وضع القضية والمفاهيم والتعريفات فى بناء النظرية الإيضاحية (التفسيرية) واتخاذ موقف معين واضح منها وذلك إما بتبنيها فى حالتها التى هى عليها أو تحويلها لمستوى أعلى أو أدنى فى البناء النظرى للنظرية الإيضاحية.

وذلك ما يوضحه الشكل التالى :



ويستند البرهان العلمى على مستوى التحقق من النظرية إلى الاستدلال الاستنباطى للفروض من القضايا الأولية للنظرية وإلى الاستدلال الاستقرائى من التعميمات الامبيريقية لمراجعة الفروض والقضايا الأولية للنظرية الإيضاحية وبذلك تصاهر النظرية التفسيرية بين نمطى الاستدلال المنطقى (الاستنباط ، الاستقراء) كما أنها تقيم وزنا للرد والرفع الفينومينولوجى وبتكرار هذه العملية

يتم تعديل عناصر النظرية من مستوى لمستوى آخر أدنى أو أعلى إلى أن يحقق قدرا من الثبات النسبي لعناصر النظرية الإيضاحية وعند هذا المستوى تصبح النظرية الإيضاحية بمثابة نظرية تفسيرية عامة للعلم بالنسبة لظاهرة معينة حيث تكون خصائصها العامة والخصائص النسبية قد تبلورت من خلال عمليات التحقق الرد والرفع الفينومينولوجي.

٤ – النظرية التفسيرية (الإيضاحية) وتكامل عناصر البرهان العلمي ومستوياته إذا كان البرهان العلمي يستهدف تحقيق مستوى من اليقين في الحكم أكثر ثباتا ودقة ، إلا أن ذلك لا ينفي احتمالية الحكم لأن الأساس المنطقي لهذا اليقين هو الاستقراء في مختلف مستويات البرهان . وبذلك فالبرهان هنا يتسم بخاصية الاحتمالية ، وان كانت درجة اليقين فيه عالية إلا أن الحكم ليس مطلقا ومن ثم يتحقق البرهان العلمي لاحتمالية الحكم ودرجة اليقين . وذلك ما يوضحه متصل الرد والرفع الواصل بين النماذج الثلاثة لمستويات البرهان العلمي ومتصل الرد الذي تراجع في ضوئه التعميمات الامبيريقية وصياغة عناصر النظرية الإيضاحية .

وفي حالة البرهان الفينومينولوجي الذي تستند إليه في صياغة النسق النظري التفسيري تعتمد على منهجية الرد الفينومينولوجي وجدلية الرفع والتضمين للمفاهيم والقضايا.

الشكل التالى يوضح نموذج البرهان الفينومينولوجى على مستوى النظرية التفسيرية على أساس الرد الفينومينولوجى وجدية الرفع :

مفاهيم
مفاهيم
مفاهيم
النظريات الكيفية
نظرية (١)
قضايا
تعريفات
نظرية (٢)
قضايا
تعريفات
نظرية (٣)
قضايا
تعريفات

مفاهيم
مفاهيم
مفاهيم
الدراسات الامبيريقية
دراسة دائرة (١)
تعميمات
تعريفات
دراسة دائرة (٢)
تعميمات
تعريفات
دراسة دائرة (٣)
تعميمات
تعريفات

الرفع الفينومينولوجى
الرد الفينومينولوجى

نموذج البرهان على مستوى الصياغة

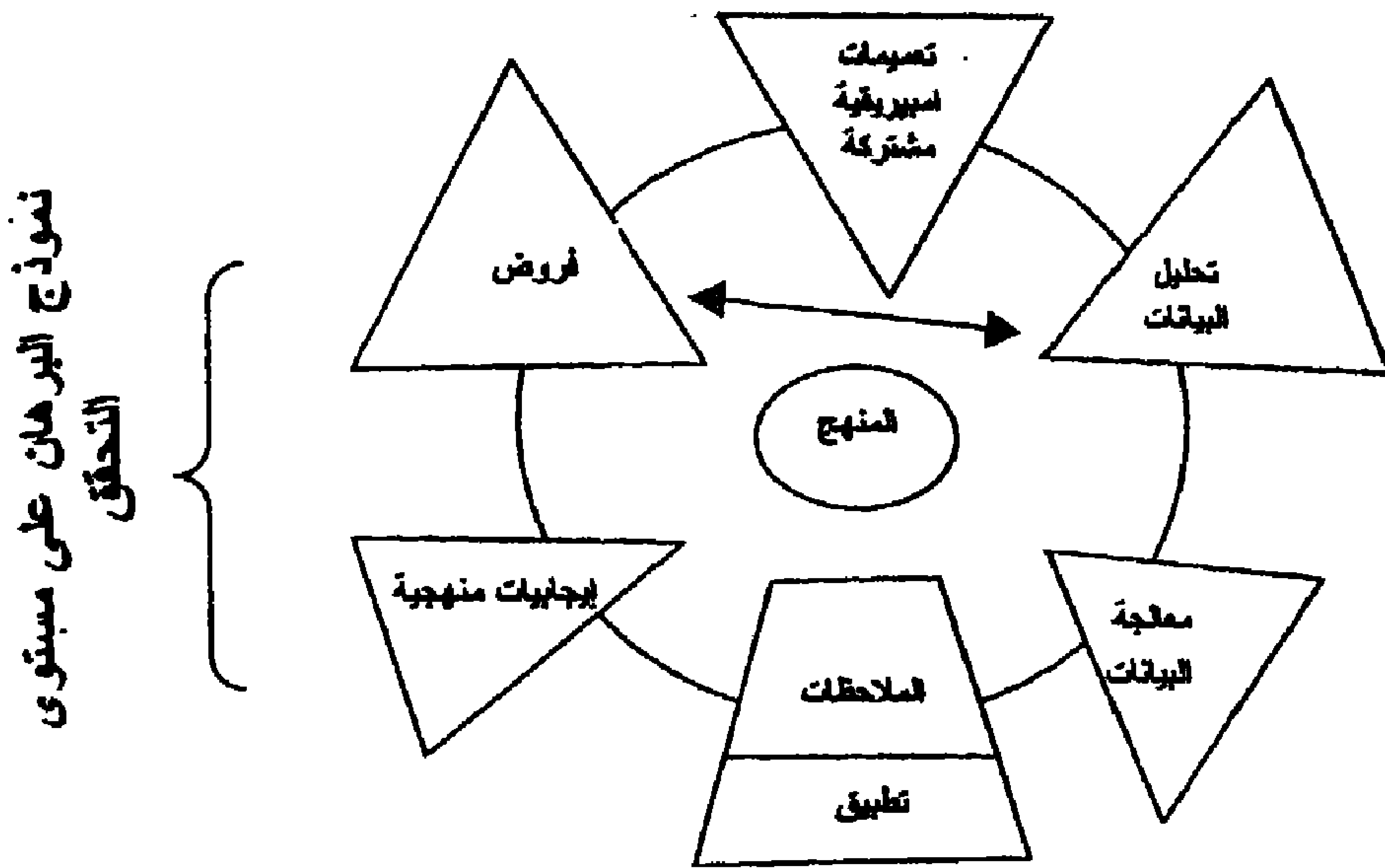
قضايا
تمرينات
مفاهيم

أ ب جـ د

	١	٢	٣	٤	٥	٦
مفاهيم	أ جـ	أ جـ	أ د ب جـ	أ د ب جـ	ب د	ب د
تمرينات	أ جـ	أ جـ	أ د ب جـ	أ د ب جـ	ب د	ب د
قضايا	أ جـ	أ جـ	أ د ب جـ	أ د ب جـ	ب د	ب د
	اتفاق	اختلاف	اتفاق	اختلاف	اتفاق	اختلاف

نموذج البرهان الصورى

استنباط استقراء



وفى ضوء الخطوات المنهجية التى تتخذها علمية صياغة النظرية الإيضاحية (التفسيرية) فى ضوء النموذج الفنيومينولوجى يتضح أن مستويات البرهان العلمى تتحقق بكاملها خلال عملية صياغة النظرية الإيضاحية . وذلك لأن مرحلة الصياغة تتخذ من الرفع وسيلتها للوصول إلى القضايا الإيضاحية التى يتضمنها البناء النظرى الفوقى . كما أن هذه القضايا مسحوبة من البناء النظرى التحتى بجانبيه الكيفى والكمى حيث يعقد الحوار الجدلى بين النظريات وكذلك بين البحوث . ثم يعقد الحوار أيضاً بين القضايا والمفاهيم والتعريفات النظرية وبين القضايا والمفاهيم والتعريفات الكمية . وعلى أساس الاتفاق والاختلاف فيما بينها يتحدد المستوى التعميمى لأى من القضايا المفاهيم والتعريفات وبذلك تأتى قضايا النسق النظرى الإيضاحى مصنفة فى مستويات من العمومية فى ضوء الحوار بين معطيات الكيف والكم للبناء النظرى التحتى.

أما بالنسبة لمستوى البرهان الصورى على مستوى عناصر البناء النظرى الفوقى فذلك ما يمكن إقامته نظراً لتتابع القضايا حسب مستويات عموميتها وصدقها من ناحية ، كما أن تتابع مستويات القضايا من حيث التعميم يحقق بدوره عدم تناقض قضايا النظرية الإيضاحية إضافة لذلك فإن إقامة البرهان فى تنوع القضايا يمكن تحقيقه نظراً لشمول قضايا النسق الإيضاحى على تلك

القضايا المسحوبة من نظريات متعددة دون أن يقوم بينها تعارض أو تناقض وذلك لوضعها فى مستويات من العمومية .

وبالنسبة لإقامة البرهان على مستوى التحقق الامبيريقى نجد أن إمكانية سحب فروض من قضايا النسق الإيضاحى تساعد على التحقق الامبيريقى من تلك القضايا واختبار الفروض المستنبطة من القضايا الأولية . ومراجعة تلك الفروض والقضايا المسحوبة منها بمعطيات الاختبار الامبيريقى على أساس الرد . تتحقق الصلة بين مستويات البرهان وذلك لإمكانية مراجعة قضايا البناء النظرى التحتى بتلك المعطيات الامبيريقية عن طريق الرد أيضا . وبذلك يتحقق التساند والتكامل بين مستويات البرهان للنظرية الإيضاحية فى ضوء النموذج الفينومينولوجى لما تتيحه لنا من ارتباط ، واتصال بين مستوى الصياغة والقضايا الأولية ومستوى التحقق .

الفصل الخامس

الذاتية والموضوعية برؤية ظاهرية

- تمهيد :
- أولاً : الموضوعية ومؤشراتها القياسية
- ثانياً : الذاتية ومؤشراتها القياسية
- ثالثاً : النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية فى علم الاجتماع
- رابعاً : الظاهرية وقضية الموضوعية والذاتية فى علم الاجتماع التجريبى
- خامساً : التأليف بين الذاتية والموضوعية وموضوعية المعرفة

الفصل الخامس
الذاتية و الموضوعية
برؤية ظاهرية

تمهيد :

استحوذت قضيتي الذاتية Subjectivity والموضوعية Objectivity على اهتمام فلاسفة العلم عامة ، والمنظرين وعلماء المناهج في علم الاجتماع خاصة [1] . وإذا كان الاهتمام بالذاتية والموضوعية قد تزايد بشكل ملموس منذ تأسيس علم الاجتماع ، على يد عالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت ، وحتى الوقت الراهن ، فذلك يرجع في أساسه لطبيعة الظواهر التي يعالجها هذا العلم ، وارتباطها المباشر بالبشر ، والذين يشكلون محور اهتمام علم الاجتماع من ناحية ، ولرغبة علماء الاجتماع الدائمة في تحصيل المعرفة الدقيقة والصادقة حول المجتمع وظواهره ، بالإضافة لرغبتهم الدائمة في دعم النظام العلمي لعلم الاجتماع ، لإمكان توفير هذه المعرفة من ناحية أخرى .

ومع أن قضيتي الموضوعية والذاتية من أقدم القضايا التي واجهها الإنسان ، وذلك لأنهما يتعلقان بأسلوب تفكيره ، ومدى صدق معرفته ، وسمو موقفه كإنسان بين عالم الواقع ، والمعرفة المتحصلة لديه ، حول هذا الواقع . فإن ما يثار من حوار حولهما بين المعاصرين من علماء الاجتماع ، قد بلغ اشده ، وذلك لأنهم يسعون بشكل مباشر لتحديد الكيفية التي يمكن عن طريقها أن نحصل على معرفة موضوعية حول الواقع الاجتماعي . ومن ثم اتخذ الحوار حولهما مسالك متعددة ومتباينة . فمن العلماء من عالج الموضوعية باعتبارها مقابلة بشكل متعارض مع الذاتية [2] . وذلك لأن الموضوعية تقوم على الوقائع التي تقبل الملاحظة الموضوعية للسلوك الظاهر ، في حين أن

---

(١) دكتور السيد على شتا ، المنهج العلمي والعلوم الاجتماعية ،الاسكندرية ، مكتبة الإشعاع ،١٩٩٧.

(2) Diesing, p., Objectivism Versus Subjectivism, Philosophy of Science, 1966. Vol. 33.N 1-2. P .124 .

الذاتية تقوم على الاستبطان . وذلك ما أشار إليه "جونار ميردال" بالتعارض القائم بين ما هو فردي وبين ما هو عام ومتكرر . كما اتجه البعض في معالجته لمشكلة الذاتية والموضوعية في علم الاجتماع ، لرسم معالم استراتيجية منهجية لتحقيق الموضوعية في علم الاجتماع (١). غير أن هناك فريقاً من المعنيين بمعالجة مشكلتي الذاتية والموضوعية في علم الاجتماع ، يؤكد على ضرورة إلا تعتبر الذاتية كمدخل معين للنظرية السسيولوجية ، وأنه ينبغي أن ننظر إليها باعتبارها جزء من المدخل السسيولوجي ومتكاملة معه (٢). وقد ترتب على تأكيد البعض على الموضوعية ، وكيفية تحقيقها ، وتأكيد البعض الآخر على الذاتية واعتبارها جزءاً من المدخل السسيولوجي مكملا له ، ومتساندا في أدائه الوظيفي . إثارة البعض لقضية الثنائية تلك باعتبار كل من الذاتية والموضوعية طريقتان مختلفتان للمعالجة النظرية للإنسان وتنظيماته الاجتماعية (٣). وهذا ما رفضه المنظور الفينومينولوجي لعلم الاجتماع .

وبذلك نجد أنفسنا أمام تنوع فكري في معالجة قضيتي الذاتية والموضوعية من ناحية ، وتنوع في استخدام الموضوعية ، واثارة قضية الثنائية في المدخل السسيولوجي من ناحية أخرى . وذلك ما يدفعنا لمعالجة قضيتي الذاتية والموضوعية بتناول الجوانب التالية :

- الموضوعية ومؤشراتها القياسية
- الذاتية ومؤشراتها القياسية
- النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية من المنظور الفينومينولوجي.
- الوضع الراهن لقضية الموضوعية رؤية فينومينولوجية
- الذاتية والموضوعية من المنظور الفينومينولوجي .

---

(1) Hutcheon , Pat Duffy , Sociology and the Objectivity Problem , Sociology and Social Research , 1970. Vol.54 ,No.2. P.153.
(2) Fenton, C. Stephe, The Myth of Subjectivism as a Special Method in Sociology, The Sociological Review ,1968, Vol.16, No.3. p.333.
(3) Skidmore , Op. cit., P.24.

أولاً : الموضوعية ومؤشراتها القياسية

تتمثل أبعاد القضية المطروحة حاليا ، وهي الموضوعية في علم الاجتماع وإمكانية تحقيقها في دراسة المجتمع البشري ، وفهم ظواهره ، في مدى الاختلاف القائم على مستوى النوع والدرجة اللتين تتحقق بهما الموضوعية في النظم المعرفية المختلفة . أما بالنسبة لاختلاف نوع الموضوعية فذلك يتعلق بالتساؤل عما إذا كان هناك موضوعية في الفكر الفلسفي ، وموضوعية في التفكير النظري في علم الاجتماع ، أو موضوعية على مستوى المعالجة المنهجية في علم الاجتماع أيضا ، وعما إذا كانت هذه الأنواع من الموضوعية تختلف عن الموضوعية القائمة في العلوم الطبيعية ، أم أن الموضوعية قضية واحدة لا تختلف باختلاف المواقف ونوع المعرفة والنظم المعرفية ، وان اختلافها يتمثل في درجة تحقيقها فقط في أي من مستويات التفكير والعمل العلمي المختلفة ؟

وتتمثل بعض الأبعاد الأخرى المرتبطة بقضية الموضوعية ، في أنه إذا ما تأكدنا من أن الموضوعية في العلوم الطبيعية تختلف في درجتها عن الموضوعية في التفكير النظري والمنهجي لعلم الاجتماع ، فهل تدخل الذاتية في التفكير على مستوى العلوم الاجتماعية ، وعلم الاجتماع ، بقدر ما تختفي في مجال العلوم الطبيعية . وإذا ما تحقق غياب الثنائية والموضوعية استنادا إلى الدرجة التي تتوفر بها الموضوعية ، فهل تختلف الموضوعية في درجاتها على المستوى المنهجي ، والمستوى النظري ، بحيث يمكن القول أن الثنائية قائمة على مستوى التفكير النظري في علم الاجتماع ، بدرجة اكثر مما هي عليه بالنسبة للتفكير المنهجي .

وإذا ما صح ذلك يكون الاختلاف في درجات تحقيق الموضوعية مرتبطا بتفاوت تداخل العنصر البشري في عملية التفكير ، وتحصيل المعرفة ، بحيث يمكن القول بان الموضوعية في العلوم الطبيعية لا يوجد فيها العنصر الذاتي ، في حين أن وجود العنصر الذاتي أمر ممكن وقائم في العلوم

الاجتماعية عامة ، وعلم الاجتماع خاصة . وان كان ذلك يتم بدرجات متفاوتة فيما بين التفكير النظري ، والتفكير المنهجي .

وإذا كانت المناقشات التي دارت حول درجات الموضوعية الممكنة في علم الاجتماع ، والتي صيغت في مصطلحات وأفكار قد تأثرت بالتغير الحادث في طبيعة المعرفة نتيجة لتقدم علوم البيولوجيا والطبيعة ، فذلك ما ترتب عليه إهمال المفاهيم والحقائق السابقة ، وبالتالي تغير موازين الموضوعية ، والتي تؤثر على إدراك الباحث ووعيه بالحقائق التي يحاول قياسها ، وتعطي ملاحظاته معنا جديداً . وذلك ما تتكشف أبعاده من خلال تحليل التراث ومراجعة موازين الموضوعية ، وحدود تحقيقها في مجال عمل علم الاجتماع ، وتحصيله المعرفة ، حول الواقع الاجتماعي ، وصياغة النظريات المفسرة لهذا الواقع . وقد ترتب على اختلاف وجهات النظر بالنسبة لدرجات الموضوعية الممكنة في العلوم الاجتماعية ، إثارة بعض علماء الاجتماع لبعض التساؤلات المتعلقة بصدق Validity ، وفائدة العديد من البحوث التي أنجزت . ونفذت هذه الأيام ، في إطار نظامهم الفكرى وتحت إشرافهم وتوجيهاتهم .

وإذا كان البعض قد اعترض على إمكان تحقيق الموضوعية في العلوم الإنسانية ، لوجود الإنسان كطرف ومتغير في عملية البحث ، الأمر الذي يجعل ضمان حياديته ، أو حتى مسئوليته الأخلاقية تجاه الموضوعية مسألة صعبة ، فان البعض الأخر يرى أن الموضوعية التي نعنيها ليس لها مكان في العلوم الاجتماعية ، نظراً لأن مثالية المعرفة الواقعية ، أو المعرفة الحقيقية ، غير قابلة للتحقيق . وذلك لان الإرادة والقوة والنجاح السياسي ، هي كل ما في الأمر ، بما فيها من أحكام قيمة واضحة . ومن ثم تكون الموضوعية غير ممكنة ، وبالتالي لا يوجد علم يتناول الإنسان .

وقبل أن نناقش هذه المسألة علينا ان نحدد موقفنا من وجهتي نظر أساسيتين : تتعلق إحداهما بقضية المعرفة العلمية ، وإمكان إدخالها في

تفكيرنا الاجتماعي ، وتتعلق ثانيهما بمدى فائدة الموضوعية ، كما حددها الوضعيون Postivists والحدسيون Intuitionists ، ورغم تعصبهم في فهم الموضوعية [1] .

وبالطبع لا يمكننا إيجاد إجابات سريعة ، ومباشرة حول هذه الأسئلة ومن ثم يكون من الأفضل ان نبدأ بمحاولة تحديد ما نعنيه بمصطلح الموضوعية ، على المستوى العلمي ، ومستوى اللغة الدارجة .

وذلك لأنه رغم تكرار استخدام المعنيين بالتبادل حتى من المدرسين ، فان الخلط بينهما غير مجاز ، ونحن بصدد معالجة قضية الموضوعية وتحديد معناها وموازينها ويتمثل المعنى الأول للموضوعية ، في المفهوم الفلسفي التقليدي . الذي يتضمن إمكان وجود الحقائق الواقعية ، أو المعرفة الخارجية ، المستقلة عن العقل الإنساني . أى عقل الملاحظ . وطبقا لهذا الرأي المتعلق بموضوعية المعرفة ، فان هذه المعرفة قد توجد باعتبارها حقائق اجتماعية وتاريخية ، ومن ثم يمكن للباحث ان يكشف عنها بواسطة البحث العلمي [2] .

أما المفهوم الثاني للموضوعية . فيتحدد بصورة عامة بواسطة الدور الذي يلعبه حضور أو غياب التحيز ، والتعصب من جانب الملاحظ . عندما يقوم بعملية الاختبار ، والتوثيق ، وتأويل الوقائع .

وقد تكاثر الجدل حول هذين المفهومين للموضوعية . وخاصة بين وجهتي النظر المتعارضتين حول طبيعة ودرجة الموضوعية الممكنة في العلوم الاجتماعية . إذا ذهب فريق منهم ويضم معظم الوضعيين في تناوله للموضوعية ، مبتدأ بتعريف المعرفة الموضوعية بالمعنى الأول من المعنيين السابقين . مؤكدا على أهمية ، وضرورة استخدام التكنيكات والإجراءات الكمية ، التي تستخدمها العلوم الطبيعية ، في تحصيل معرفتنا حول الواقع

(1) Hutchenon, pat Duffy, op.cit., p. 154 .
(2) Hutchenon, Ibid., p. 155.

الاجتماعي ، وبالنسبة لمشايعي هذا الوضع لا يكون الحياد الأخلاقي من جانب الباحث ممكنا فحسب ، بل أنه ملزما إذا ما أريد تحقيق الموضوعية من وجهة نظر المعتنقين لموقف الحياد .

أما الفريق الثاني ويضم الآن العديد من المفكرين المحدثين ، ممن لهم ميول وجودية . فيبدأ من وضع مختلف تماما يتعلق بفرضيات فلسفية Assumptions ، تهتم بطبيعة المعرفة . وهم يعتبرونها كالذاتية ، بالاعتماد على كيفية تعامل عقل الفرد الملاحظ مع الأشياء التي تواجهه .

وقد ذهب بعض المثاليين Idealists المتطرفون في الماضي ابعد من ذلك للوصول إلى ان المعرفة ليست حول الحقيقة فحسب ، بل هي الحقيقة ذاتها . فليس للمعرفة وجودا منفصلا ، عن الصورة التي يكونها عنها عقل الإنسان . وبالنسبة لأولئك الذين يميلون لوجهة النظر الذاتية اليوم ، فانهم يرفضون ما اصطلح عليه بالنزعة العلمية Scientism ، لأنها في احسن صورها غير ناضجة Naive وفي أسوئها ميكافيلية Machivellian متسمة بالمكر والخداع ، وهم يرفضون للأسس الفلسفية للموضوعية ، ينكرون أي احتمال للموضوعية في سياق إجراءات الباحثين العلمية . وبذلك يذهبون إلى أنه لا فائدة من الحديث حول التحديد والضبط ، وعدم التحيز من جانب الملاحظ ويرون الفهم الحدسي الوجداني للأفعال البشرية ، وفي المواقف الاجتماعية العينية سوف يكشف لنا عن جوهر Essence الوقائع الاجتماعية . ولكن كما اعتمدت جميع وجهات النظر على أهمية قيم الملاحظين ، نجد أن أصحاب النزعة الذاتية يرون أن أى واحد منهم لا يمكن أن يكون مصدرا للتعميمات الصحيحة عن السلوك الإنساني .

وبالإضافة لذلك فانهم يرون انه كما تكمن الحقيقة المطلقة في العقل فقط ، فان مشكلة الموضوعية تكمن في انسجام وتوافق الأفكار ، والتي تفهم ببعض المعاني غير المادية ، وبالمظاهر التي تواجه الشخص من خلال حواسه .

وبالنسبة لبعض الوضعيين في الجانب الآخر نجد ان ما يتضمنه اهتمامهم هو الحقيقة المطلقة للطبيعة . والتي تنتظر الاكتشاف بواسطة ملاحظ خارجي لا يعدو ان يكون ارتباطه بها مجرد مكتشف لمناطق لا تزال مجهولة (١) .

والواقع أن كلا الفريقين يواجه بصعوبات جمة في فهمه للموضوعية . وذلك بسبب مفاهيمه ، وتصوراته العتيقة ، والمضللة حول طبيعة الإنسان ، والعرف (أى الشخص الملاحظ أو القائم بالمعرفة) ، والمدخل العلمي لتحصيل المعرفة .

ومن الجائز أيضا أن تكون مفاهيمهم وتصوراتهم تلك قد أردت بهم لأوضاع غير مثمرة . إذ إن اتباع غاياتهم المنطقية قد جعلهم يرفضون التطبيق النسقي للذكاء لتحصيل المعرفة حول الشئون البشرية .

وفي ضوء التقدم الحديث لعلوم البيولوجيا ، والطبيعة، هل يظل الاعتقاد بان الموضوعية ممكنة فقط عند الدرجة التي يمكننا بها تنظيم عناصر الموضوع بالعد ، ومضاهاة Match ذلك بما انتظم ورسخ على مر الأيام ، كجوهر كائن لما هو خارجي ، لنرى ما إذا كنا قد حققنا التطابق مع الحقيقة الموضوعية ؟

وبالتأكيد لن نحصل على ثمار طيبة شأننا في ذلك شأن وجهة النظر الذاتية ، التي ترى ان المعرفة ذاتية في كليتها . لان كل عقل إنساني يتمتع بالحرية من وجهة النظر تلك لابد وان يتحكم في ترجمته للحقيقة ، أيا كان مصدر هذه الترجمة ممثلا في الأحلام ، أو التخيل ، أو خبرة اليقظة ...الخ .

ومهما كانت مفيدة أو لا ، فان وجهات النظر تلك حول الموضوعية ، مازالت في حاجة إلى جهد كبير منا للوصول إلى درجة من التحديد حول كيفية معالجتها ، على نحو يسهل معه تطبيقها في علم الاجتماع .

. (1) Hutchenon, Op. cit.,P.156.

والواقع أن أنصار وجهتي النظر تلك يصرون على إدخال بعض العناصر الغامضة وغير المادية بين القائم بالمعرفة وبين البيئة التي يسعى لمعرفتها ، وإذا ما استبعدنا هذه الأساطير النظرية الموروثة عن الماضي ، تصبح الموضوعية أساسية في البناء المعرفي وبتعبير بسيط فهي تدور حول العلاقة بين عملية تحصيل المعرفة أو بين نظام المعرفة وبين الواقع الخارجي الذي نحاول معرفته . والمعضلة الأساسية هنا تتمثل في ان الإنسان عنصر، وجزء من الموضوع الذي يدرسه ، سواء كان هذا الموضوع أشياء تحدث في المجتمع أو يتعلق بتكوين الصخور ...الخ .

ولكن إذا ما رغبنا الادعاء بأننا نعمل كبناة للمعرفة Knowledge Builders اكثر من كوننا علماء لاهوت ، علينا إذن ان نواجه المشكلة بأمانة ، ولا نستمر في تجنبها والتمسك بصور مطلقة مثل "العقل" أو الأفكار ، تلك الصور التي ليس لها أساس مادي ، والتي تحصرنا في معارف مطلقة مشتقة من فرضيات غير مختبرة (١) .

ومع ذلك فنحن الآن أمام ثلاثة نتائج بكل تعقيداتها وصعوباتها التي تحملها . طالما قبلنا هذا المدخل الجرئ الجديد ، والضروري بالنسبة لمشكلة الموضوعية . فقد ثبت ان المنظرين قد فشلوا تماماً في تحقيق الدراسة الملائمة لهذه المشكلة . وهذه النتائج التي يمكن استخلاصها من الحوار السابق على النحو التالي :

- النتيجة الأولى : تمثلت في المشكلة القديمة التي حاول المثاليون ، والوجوديون أن يجدوا لها حلاً بالرجوع إلى الذاتية ، وتهتم بمدخل الباحث وتصوره وتنظيمه للموضوع الذي يتناوله . وباختصار تمثلت في الإطار المرجعي للباحث أو تأثير وجهة نظره على المعرفة التي يحصلها . وهي الرؤية التي تطورت اليوم في مدخل الفينومينولوجيا الوجودية .

---

(1) Hutchenon, Op..cit., P. 156.

- أما النتيجة الثانية : فتتمثل في التفاعل الحادث بين المعارف أو القائم بتحصيل المعرفة وبين الموضوع الذي يسعى لدراسته ، وتحصيل المعرفة حوله . فالباحث لا يدرس شيئا لا يعتبره هو جدير بالدراسة والاختبار ، كما أن نتائج البحث تختلف باختلاف المشكلة المبحوثة ، ومصدر الاستجواب ، وشخصية الباحث ومركزه . والواقع ان قضية الصدق هي نفس الشيء بالنسبة للعلوم الطبيعية ، والعلوم الاجتماعية ، إلا أن المشكلة تكمن أساسا في مدي توفر درجة الموضوعية . فإذا كانت المشكلة محلولة بالنسبة للعلوم الطبيعية إلا أن الحال يختلف في العلوم الاجتماعية . وذلك لدخول الباحث طرفا في المشكلة باعتباره جزءا أو متغيراً هاماً في هذا العالم المادي ، الذي يسعى لمعرفته ، ولكونه اكثر واقعية من الموضوع الذي يدرسه .

- أما الجانب الثالث لمشكلة الموضوعية فتتمثل في أننا نواجه بصعوبة اكبر تتمثل في التأثير المترتب على المعرفة ، التي حصلنا عليها أثناء البحث . وهذا الوضع يقتضي منا ان نوفر درجة عالية من الموضوعية في المعرفة المتحصلة عن طريق البحث نظرا لما لها من تأثير بالغ على جوانب الحياة الفعلية . وبذلك تزداد أهمية الموضوعية في هذه الحالة .

أما إذا كان المقصود من المعرفة بالحقيقة الاجتماعية مجرد تحسين العدسات كي نستطيع الرؤية بصورة افضل لما هو كائن بالخارج . وبحيث تكون مرتبة ترتيبا جيدا ، فان موضوعيتنا هنا تكون اقل خطراً وضرراً .

والواقع أن الظروف الحالية التي يمر بها تاريخ البشرية تؤكد على مدى تأثير معرفتنا على عملية بحثنا عن الحقيقة ، كما أنها تحدد نظرتنا للأمور وتقويمنا لها . والاهم من ذلك كله ان معرفتنا تحدد شكل المستقبل الذى ينتظرنا وتوقعاتنا له ، ولذا فهي تلعب دوراً واضحاً في توجيه سلوكنا ، وتحديد مساره نحو المستقبل الذي نتوقعه .

وعند هذه النقطة علينا أن نراجع أنفسنا ، و ألا نقتصـر علـى مجـرد التعرف على المشكلة . فان ذلك لا يعني بالضرورة توفير المقـدرة العلميـة لحل مشكلة النظر المختلفة حول الموضوعية قد وجدت منذ أزمان بعيدة سبق بعضها نشأة علم الاجتماع كما أن تناول مشكلة الموضوعية في علم الاجتماع ظهرت بوضوح عند أقطاب علم الاجتماع الكلاسيكي ، ونالت من الحوار مـا لا يقل عن أهم القضايا وأخطرها في علم الاجتماع . ومـع ذلـك لا تـزال المشكلة قائمة حتى يومنا هذا . وقبل أن نطرح وجهة نظر معينة في الكيفيـة التي يمكن أن نحقق بها درجة عالية من الموضوعية في علم الاجتماع يجـب أن نتناول قضية الذاتية بهدف تحديد بعض القضايا التي أثيرت حولها ، حتـى نتبين وضع الموضوعية في مقابل الذاتية ، وما إذا كانتا في حالتي استكمال ، وتضمين أم أن في الإمكان لأى منهما أن يستقطب الآخر ، وبالتالي ما هـي الأسس والشروط العلمية التي نستند إليها لتوفير قدر من الموضوعيـة فـي العلوم الاجتماعية . وما مدى تحقيق المنظور الفينومينولوجـي لموضوعيـة المعرفة في العلوم الاجتماعية .

ثانيا : الذاتية ومؤشراتها القياسية :

إن دراسة مشكلة الذاتية هنا ، لا تعني ان هناك مدرسـة معينـة قائمـة بذاتهـا ، أو أنها مدخل خاص للنظرية السسيولوجية وإنما نتناولها باعتبارها جزءاً متكاملاً مع المدخل النظرى . والواقع أن لمثل هـذه النظـرة لقضيـة الذاتية تاريخها الطويل في علم الاجتماع ، إذ أننا نلمس ذلك عند كـل مـن "دلتاى" و "ماكس فيبر" و "توماس" و "مانهايم" . وغيرهم من السسيولوجيين ، والواقع أن أحد مظاهر وجهة النظر الذاتية يتمثل في الاعـتراف بعنـاصر الوعي Consciousness لدى الإنسان بصورة مختلفة سواء كان وعيا منطقيـا، أو اجتماعيا ، أو تفهما لدرجة ان النظرية السسيولوجية تواجه نفسها مباشـرة بفكرة أن الإنسان يعي العالم الذي يعيش فيه ، ويعـي معـاني وأغـراض عماله . ومن ثم عرضت النظرية لوجهة النظـر الذاتيـة بشـكل واضـح

ومباشر ، وإذا كان "فيلهلم دلتاي" قد ذهب إلى أن مهمة علم الاجتماع تبدوا في البحث عن المعاني المرتبطة بالظواهر الاجتماعية ، والصور الكلية التي توضح معنى الفعل والثقافة فإن "دلتاي" بذلك يؤكد على الجانب الذاتي ، أي على الوعي الذاتي باعتباره أسلوبا من أساليب الفهم . والواقع أن ما دفع "بدلتاي" للتأكيد على قضية الفهم ، أساليب الفهم . والوعي الداخلي هو اعتقاده بأن المنهج العلمي ، والذي يتمثل في البحث عن القوانين العامة ، ليست له أهمية ، لأن تلك القوانين ليست بذات أهمية في العلوم الاجتماعية من وجهة نظره . وإنما الأهم من ذلك هو الفهم .

كما ان "ماكس فيبر" قد تعرف على حقيقة الوعي الذاتي لدى الأفراد كما تعرف عليه "دروكايم" من قبله أيضاً . ثم جاء "كارل مانهايم" من بعده ليؤكد فكرة الحقيقة المطلقة ، نظراً لاعتقاده في وجود أناس خارقين للعادة هم الذين يسقطون عن أنفسهم عقبات ماضيهم ، ويتوقون للحرية الموجودة في بعض المعاني المطلقة ، مثل الخير والحق .

ورغم أن كل من هؤلاء قد كشف عن الجانب الذاتي في النظرية السسيولوجية إلا أنهم جميعاً قد اهتموا بقضية الموضوعية ، ورسموا لها الحدود . وقدم كل منهم إسهاماً معيناً يحاول من خلاله تحقيق المعرفة العلمية بالاستناد إلى بعض الشروط الموضوعية . لكي تكون المعرفة ذاتية خالصة ، وبصورة تبعدها عن الواقع الفعلي .

ثالثاً : النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية في علم الاجتماع التجريبي :

ثمة سبب وجيه لأن نبحث عن إمكانية توفير الموضوعية في تقديم صياغة تصورية حول السلوك البشري . والأمور الموضوعية ببساطة هي الأمور التي يمكن قياسها ، وحسابها ، وملاحظتها وإقامة الرابطة فيما بينها . وهذا يعد تقدما لعالم الاجتماع الذي يرغب في توفير إمكانية العمل الامبيريقي لنظرياته ، واستخدامها في ملاحظة الوقائع التي صاغ نظرياته من أجلها .

ولنقل مع البعض انه لا بديل للموضوعية لتوفير المعرفة العلمية حول السلوك البشري ، ثم نعود للتساؤل : إذا كنا لا نعرف شيئاً عن السلوك البشرى ، فهل يمكننا ان نعرف شيئاً عنه باعتباره شيئاً مجرداً ؟ وإذا كان ما يفعله الناس يعتمد إلى حد كبير على حالتهم العقلية ، أو اتجاهاتهم ، فهل لا توجد هذه الأشياء أي العقل والاتجاه . وإذا ما وجدت فكيف نقيسها ؟

والواقع أن هناك العديد من الدراسات التي حاولت أن تقيس الاتجاه ، كما أن هناك العديد من الدراسات التي حاولت أن تقيس الجانب الذاتي للسلوك بالتركيز على الجوانب الموضوعية للفعل . ومع ذلك لم يكن هناك اتجاهات معينة لدينا . ثم نأتي بأفعال تخالفها ، لاعتبارات معينة لا يعلمها إلا الفاعلين أنفسهم ؟ وإذا كان كذلك فما هي درجة الصدق المتوفرة في قياسنا للجوانب الذاتية ؟ وبماذا نفسر ذلك الواقع المتناقض ؟ ان الخبرة الذاتية وحدها هي القادرة على تفسير هذا التناقض بين الاتجاه والفعل . أما المنظور الموضوعي فلا يمكنه أن يقدم تفسيراً مؤكداً لهذا التناقض (١)

ولنسق مثالاً آخر لما يمكن أن يعتبر حقائق فعلية وملموسة : يمكننا أن نأخذ إحصاء الوفيات وبيانات الهجرة Immigration ونرسم لها صورة إحصائية لتوزيع الأعمار ، والنوع (الجنس : ذكر - إناث) وتوزيع المهن وحركة الناس من مكان إلى آخر . وهذه الأمور جميعها على المستوى الوصفي Descriptive ولكن عندما نطرح السؤال النظري التالي : لماذا تأخذ هذه الأشياء الموضوعية هذا الاتجاه بعينه ، ولا تأخذ اتجاها آخر ؟ فإن المنظور الموضوعي لا يمكنه أن يذهب بنا أبعد من ذلك الوصف الذي قدمه . إذ أن هذا السؤال وغيره من الأسئلة المتعلقة بالإرادة والاختيار ، والاعتقاد والقيم ، وما إلى ذلك من أسئلة وكلها تخرج من دائرة الأشياء الموضوعية البحتة (المعرفة) .وهي على مستوى الأهمية التي عليها الأشياء الموضوعية ، في فهم الدوافع البشرية التى تعمل ورائها .

---

(1) Skidmore, Op. cit., P.26.

ولهذا استمد الجانب الذاتي قوته ، واكتسب الموقع الذي احتله في علم الاجتماع ، وشغل اهتمام العلماء . حيث دارت مناقشاتهم أساساً حول السلوك الاجتماعي ، والذي علينا ان نفهمه قبل كل شيء في سياق مصطلحاته البشرية . ولذلك من المفيد ان نبدأ بالمعرفة حول ما نعنيه بالجانب البشري في سياق ومصطلحات موضوعية . أما عن الذاتية فإنها تبدأ بمفهوم الإرادة وبياناته الأولية على نحو ما فعل "فرديناند تونيز" في نظريته عن أشكال التنظيمات الاجتماعية المرتكزة مباشرة على أشكال الإرادة تلك . أو نتبع ماكس فيبر . فنحن نرغب فى فهم أنواع التنظيمات الاجتماعية من حيث خصائصها ومشروعيتها في أنواع معينة من الترتيبات الاجتماعية . ولماذا يكون نوع ما منها مقبولا لدى الناس بصورة أكثر من غيره ؟

وسنسلم منذ البداية مع البعض بوجود خطأ ما في وجهة النظر الذاتية إذ أن الأشخاص الذين يهتمون بدراسة التنظيمات الاجتماعية ، يسعون لفهمها في سياق تتعلق بمدى قابلية تلك التنظيمات لتطبيق الجانب الإنساني أي لكي تكون إنسانية . ولكن على نحو ما نناقش من وجهة النظر الموضوعية فلا توجد طريقة مبدئية للتحقق من القضايا التي صيغت حول المجتمع البشري والإنسان في السياقات الذاتية . في حين أن التحقق Verification يعتمد على تناول الجانب المادي الخارجي الذي يكون صادقاً إلى حد ما . وإذا ما كنا نجد أن جوهر النزعة الذاتية هو صياغة تصورية للخبرة الداخلية ، التي يمكن تعيين وجودها بوصفها للآخرين دون أن نستطيع البرهنة عليها كشيء واقعي يمكن للباحث التحكم فيه وإخضاعه للقياس .

وغالبا ما تميل النظرية الذاتية لان تأخذ طابع النمط المثالي ، كما أن النظريات ذاتها يجب ان تؤخذ كعبارات شرطية ، بمعنى أن نقول انه إلى الحد الذي تكون فيه خبرة الإنسان حول عالمه في مصطلحات ذاتية (وذلك مثل النظرية) . فان بعض النتائج يمكن توقعها .

وبعبارة أخرى أنه بمدى ما يصيغ الإنسان خبرته في مصطلحات ذاتيـــة كالنظريات يمكن ان نتوقع نتائج معينة . وفي ذلك يمكن أن نـــأخذ النمـــوذج المثالي للبيروقراطية لماكس فيبر كمثال لذلك . فقد اهتم ماكس فيــبر بفــهم البيروقراطية Bureaucracy كشكل أو جانب من النظام الاجتماعي ، وقد وجـد أن للبيروقراطية خصائص عدة تساعد على تعريف البيروقراطية . ومن ثـــم صاغ نموذجا مثالياً ، وهو بناء عقلي ، يحدد البيروقراطية طبقاً لهذه الصفات الأساسية [1]. وصياغة تلك بوحي من المنظور الفينومينولوجي الذي يوجـــه فكر فيبر .

وقد استنتج ماكس فيبر أن استخدام النموذج المثالي يلائم حالات خاصـــة من التنظيم الاجتماعي . وذهب إلى أننا لا نحاول اختبار النمـــوذج المثـــالي بمعنى أننا نحاول التحقق من النظرية ، وبدلا من ذلـــك نســتخدمه كمرشـد لاكتشاف شيء ما حقيقي في حالة خاصة . والنموذج المثالي هنا يقوم علـــى متغير ذاتي ، ويتطور من خلال الوصف ، وغير قابل للتحقق ، غير انه مفيد ونافع . وفي ضوء ذلك يتأكد بوضوح تام ان عدم فائدته لا تكمن في خطأه أو صحته ولكن في قدرة ماكس فيبر على وصف خبرته بطريقة مكتملـــة فـــي معناها بالنسبة لنا .

والواقع ان النموذج المثالي ليس فرضا ولكنه يتضمن في بنائـــه فرضـــا معينا ، أو عدة فروض . وإذا كنا نصيغ تلك النماذج للاسترشاد بها في تناول شريحة اجتماعية معينة من الواقع ليتحقق وضوح الرؤية بأبعاد هذه الشـريحة وخصائصها فان توفر هذه الخصائص في تلك الشريحة على نحو ما تضمنـه النموذج قد يجعلنا نرفع من مستوى الفروض لنخضعها للقيـــاس والتحقـــق . وحتى مجرد تكرار التطابق بين خصائص النموذج وخصائص الشريحة التـي يتناولها يشير لدرجة ما من التحقق والبرهان على صحة هذا النموذج ، سواء كانت الصياغة الذاتية للنظرية على مستوى الاسترشاد بها أو القياس والتحقق

(1) Weber, Max , Theory of Social and Economic Organization Chapter 3,Part1.

منها ، فقد بات ضروريا أن نراعي في جميع الأعمال المتعلقة بالنظرية السسيولوجية أن نضع في اعتبارنا جانبي الذاتية والموضوعية [١].

وعند هذا الحد نجد أنفسنا أمام ثنائية قائمة في علم الاجتماع عامة وعلى المستوى النظري خاصة . وربما استند البعض لذلك عندما ذهبوا إلى أن علم الاجتماع لا تتوفر له درجة من الموضوعية ترقى به لمصاف العلوم البيولوجية والطبيعية . وذلك طالما أن الموضوعية في العلوم الأخيرة تعتمد على قابلية الفروض للقياس والتحقق .

والرد على ذلك ببساطة هو أننا لم ننكر على علم الاجتماع موضوعيته ولم نسلبه إياها ، وإنما ما أردناه هو إيضاح الكيفية التي تتفاعل بها الجوانب الذاتية مع الجوانب الموضوعية في علم الاجتماع . وعلى المستوى النظري بوجه خاص . والذي يوفره له المنظور الفينومينولوجي .

وقد وضح لنا أن قدرة العالم على ترجمة الخبرة الذاتية ، ترجمة صادقة ، تجعل النظرية اكثر اتساقا مع طبيعة الواقع المدروس في ضوئها . وذلك بدوره يعني أن الخبرة الذاتية إذا ما وفرت لصاحبها المعرفة والوضوح أمكنه ترجمتها أو صياغتها بصور تجعلها اكثر قابلية للتحقق ، هذا فضلاً عن كون الخبرة الذاتية تلك في الأصل محصلة لتفاعل الأشخاص مع الواقع الذي تراكمت حوله المعرفة ، وبذلك فالمشكلة لا تكمن في طبيعة الجانب الذاتي بقدر ما تكمن في قدرة الشخص على صياغة تلك المعرفة صياغة صادقة تعكس كل ملابساتها ، وظروف ارتباطها بالواقع ، وذلك لكي ترقى المعرفة للمستوى الذي يقربها من التحقق ويمكننا من إخضاعها للقياس .

---

(1) Skidmore, Op. cit., P.27.

رابعا : الفينومينولوجيا و قضية الموضوعية والذاتية في علم الاجتماع :

إن المشكلة الأساسية التي تولدت عنها صور الخلاف بين العلماء حول قضية الموضوعية في العلوم الاجتماعية بعامة ، وعلم الاجتماع بخاصة ، تمثلت في المحل الأول : في تعدد وجهات النظر والتي صاحبها تعدد النظريات في علم الاجتماع . وما تتضمنه كل من تلك النظريات من أحكام قيمية مختلف عن بعضها البعض . ومع أن تعدد النظريات كانت مرحلة ضرورية وهامة في تاريخ علم الاجتماع ، نظرا لما لهذا التعدد من أهمية فى التعرف على بعض مجاهل العلم ، إلا أن التعدد في وجهات النظر قد خلف أثراً تمثل في تردد البعض في اتخاذ موقف محدد من قضية الموضوعية في علم الاجتماع ، على نحو ما هو حادث في العلوم الطبيعية . وذلك يرجع إلى أن أى من وجهات النظر المتعددة لم يتوفر لها الصلاحية الكافية لتغطية كافة الاحتمالات الممكنة في عملية التفسير ، ومن ثم اسند هذا القصور لجوانب معينة تمثلت في تأكيد البعض على طغيان الذاتية على النزعة الموضوعية في العلوم الاجتماعية ، وتأكيد البعض الآخر على قضية المحاباة ، والتحيز . والتأثر بالخلفية الثقافية ، والانتماء الفكرى . وعلاوة على ذلك كله تذرع البعض بقصور النظريات في تقديم تفسير علمي للواقع ، وذهب إلى أن خضوع قضايا النظرية للقياس والتحقق شرط الموضوعية في التفسير ، واستناداً إلى ذلك ذهب إلى أن بعض القضايا التي تقوم عليها بعض النظريات الاجتماعية يصعب إخضاعها للقياس ، والتحقق لطغيان الجانب الذاتي عليها ، ومن ثم رأى أن الموضوعية القائمة في العلوم الطبيعية والبيولوجية لا يمكن تحقيقها بنفس المستوى في العلوم الاجتماعية .

ورغم تلك الآثار المتعلقة بإمكان تحقيق الموضوعية ، نتيجة لتعدد النظريات ، وتأخر القطع برأى معين حيال قضية الموضوعية ، وإقامة البرهان عليها . إلا أن ذلك بدوره قد ساعد على كشف القضية الهامة في التفكير النظرى ، والتي أصبحت تطرح نفسها بإلحاح . واتخذت حيالها

مواقف إيجابية ، وذات قيمة علمية لا بأس بها . وهي التي تتمثل في افتقار علم الاجتماع لنظرية عامة . يكون لها دلالة في الوقت الحالي [١] ويمكن عن طريقها تناول اكثر جوانب الواقع اختلافا وتقوم على قضايا محددة يمكن إخضاعها للقياس والتحقق لتحديد مدى قدرتها على التنبؤ الصحيح بالأحداث والسلوك ، والعواقب المترتبة عليها . وذلك لأننا إذا لم نستطع أن نقوم بوضع فروضنا النظرية في موضع الاختبار والقياس مستقلة عن البيانات التي تفسرها . لا يمكننا أن ندعي ان تلك الفروض تتمتع بأدنى درجة من الصدق العلمي .

وإذا كانت النزعة الذاتية تلعب دوراً على مستوى صياغة النظريات الاسترشادية ، والتي تتأثر بقدرة العالم على صياغة خبراته الذاتية في بناء نظري معين تتحدد صلاحيته لنقل هذه الخبرة بمعرفة العالم ، وقدرته على الصياغة الدقيقة . فان ذلك يكون على مستوى التعدد النظري الذي يسبق الصياغة النظرية العامة التي تتناول أكثر جوانب الواقع اختلافا وتنوعا . والتي تقوم على قضايا محددة قابلة للقياس والتحقق . الذي يرفع كفاءتها العلمية في التنبؤ حول الواقع الاجتماعي ، وصور السلوك ، والأحداث الجارية بداخله . واحتمالات حدوثها وقد مهد ذلك لتنشيط المحاولات الإيجابية لصياغة النظرية العامة . والتي بدأت بالمحاولات التأليفية والتاريخية التي قام بها لفيف من علماء الاجتماع أمثال "ولتروس" و "فان دن برج" و"الفن جولدنر" وغيرهم من علماء الاجتماع والتي لم نقطع بصمتها بعد .

وبدون أن نقطع بالرأى حول صلاحية هذه النظريات - إذ أن اتخاذ مثل هذا القرار يسبقه محاولة إيجابية لإخضاع مثل تلك المحاولات النظرية للقياس والتحقق والاختبار للتأكد من الكفاية العلمية التي تتمتع بها قضاياها في عملية

(1) Rex, John, Key, Problem of Sociological Theory . London : Routedge & Kegan Paul , 1970 Ch. 1

أنظر أيضاً الترجمة العربية لهذا المرجع ، دكتور محمد الجوهرى وآخرون ، مشكلات أساسية فى النظرية السسيولوجية ، الإسكندرية ، دار المعارف ، ١٩٧٣ ص ٦٤.

التفسير - نعود لنؤكد أن مثل تلك المحاولات رغم أنها تدعم الاتجاه نحو النظرية العامة في علم الاجتماع، تلك النظرية التي تتوفر فيها كل شروط الموضوعية، إلا أنها لا تنفي إمكانية تحقيق قدرا من الموضوعية بين النظريات المتعددة، وذلك لأن القضايا التى تتناولها تلك النظريات تدخل في صياغة النظرية العامة، وبالتالي لابد أن تمر بمرحلة من القياس، والتحقق الأولى لتأكيد صلاحيتها التنبؤية، وقدرتها على التفسير الخارجي. أما القياس والاختبار الذي نعنيه (على مستوى النظرية العامة) لتلك القضايا، فيتعلق بالتحقق من اتساقها الداخلي في البناء النظري العام من ناحية والتحقق من كفايتها التنبؤية وقدرتها على تقديم التفسير العلمي. وهي على هذا النحو من الصياغة الجديدة من ناحية أخرى.

وإذا كانت الموضوعية في العلوم الطبيعية والبيولوجية بقدر ما ترتبط بإمكانية القياس و الاختبار للقوانين العلمية، تتأثر أيضا بالوسائل الفنية والإجراءات المنهجية لمعالجة الواقع المادي وتفسيره، فان الموضوعية في علم الاجتماع تعتمد أيضا بالإضافة إلى إمكانية إخضاع قضايا النظرية السسيولوجية العامة للقياس والاختبار، بالتكنيكات المنهجية، والإجراءات المنهجية، التي يستعين بها الباحث في تناول الواقع، وتقديم تفسيرات علمية في ضوء تلك النظرية العامة.

ومن ثم وقبل أن نتناول شروط تحقيق الموضوعية في النظرية السسيولوجية، لرفع كفايتها في تناول الواقع، وتقديم التفسير العلمي للأحداث، والفعل الاجتماعي، والتنبؤ باحتمالات المستقبل لصور الأحداث الاجتماعية والسلوك البشري، نتناول موقف بعض العلماء من قضية تحقيق الموضوعية في علم الاجتماع.

فقد سعى الوضعيون في علم الاجتماع وخصوصا أوجست كونت ودوركايم لتأكيد شيئية الظاهرة الاجتماعية، شأنها في ذلك شأن بقية الظواهر الطبيعية. وهما يذهبان إلى أنه بتطبيق الإجراءات المنهجية العلمية في

دراسة الظواهر تطبيقا صحيحا ، يمكن دراسة الحياة الاجتماعية ونظمـــها ، دراسة موضوعية . وقد كان لرأي الوضعيين هذا ردود فعل من بعض علماء الاجتماع ، والظواهر الطبيعية . ويعتـــبر "فلـــهلم دلتـــاي" Wilheim Dilthay (١٨٣٣ - ١٩١١) أول من تصدى لاتجاه الباحثين في العلوم الاجتماعية فـــي أوربا في الفترة ما بين (١٨٨٠ - ١٩٠٩) ، والذين يؤكدون أن تقدم العلـــوم الاجتماعية مرهون بتقريب مناهجها من مناهج العلوم الطبيعية التي نجحـــت نجاحا كبيرا في تحقيق درجة عالية من الموضوعية ، وقد نشر دلتاى ســـنة ١٨٨٣ أى في غضون فترة التفكير الإيجابي في علم الاجتماع كتابه بعنوان : (مدخل للعلوم الإنسانية) يفرق فيه بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الإنســـانية . حيث أكد أن معرفة الأمور الإنسانية تقوم على الفهم لا على التفســير ، فـــى حين أنها أى المعرفة فى العلوم الطبيعية تقوم على التفسير لا على الفـــهم ، ودلتاى هنا يؤكد أن عناصر الموضوع في العلوم الطبيعية تأتينا من الخارج ، عن طريق الحواس ، وبذلك يؤكد على ان منهج المعرفة الذي يناسب العلـــوم الطبيعية هو التجريد والتحليل .ولهذا يتم التفسير في العلوم الطبيعية بالاعتماد على الأسباب والتصورات المجردة . وهذا هو الشكل الذي تأخذه الموضوعية في العلوم الطبيعية ، في حين أن العلوم الإنسانية علوم فكرية وهـــي علـــى خلاف ذلك حيث ندرك موضوعها ونفهمه فورا قبل أن تتـــهيأ لنـــا معرفتـــه العلمية . ودلتاى لا يرى أن هذا الفهم يتم عن طريق العقل والذكاء وحـــده ، ولكنه يتم من خلال جميع قوى النفس الانفعالية أيضا . وبذلك يكـــون الفـــهم مقترنا بميل أو نفور ، حب أو بغض .

وتفرقته هنا تستند إلى قضية أساسية ، تتعلق بان ظواهر الطبيعة غريبـــة عنا . ولذا فان إدراكها يتم عن طريق المعرفة العلمية . في حين أن الأمـــور الإنسانية ذاتية ، وندركها من الباطن . ولذا فالإنسان وعناصر المجتمع عنـــده من نمط واحد . وطالما ان الإنسان يعيش حياته الداخلية ويدرك نفســـه مـــن الباطن ، فانه يستطيع ان يتصور حياة الآخرين الداخلية ، وأن يفـــهم حيـــاة

المجتمع من الباطن ، لأنه يشهد شبيه الظواهر الحية في نفسه . وفي نطاق التجارب النابضة يمارس الإنسان مثلها في حياته الداخلية ، وبذلك يعتمد علم الاجتماع على الفهم لا على التفسير الذي تعتمد عليه العلوم الطبيعية .

ومن ثم ذهب دلتاى على نحو ما ذهب "ريكرت" Rickert في ألمانيا وكروس Croce في إيطاليا . إلى حد القول بأن المعرفة في العلوم الإنسانية تقوم على الفهم الذاتي . ولذا فهي واقعية فردية ، في حين أن المعرفة في العلوم الطبيعية تقوم على التفسير الذي تعتمد فيه على الأسباب والتصورات المجردة . وبذلك تكون مهمة علم الاجتماع عند "دلتاى" متمثلة في البحث عن المعاني ، والصور الكلية للفعل والثقافة ، وفهمهما .

والواقع أن أساليب الفهم عند دلتاى متمايزة عن أساليب العلم . فالفهم أساس عنده في تكوين المعنى عن دراسة لغة أجنبية أو دراسة ثقافة أجنبية ، أو فترة تاريخية ، والتي تتكون من خلال تجميع بعض أجزاء الصورة الكلية ، التي توضح له معنى الفعل والثقافة ويورد "جون ركس" مثالاً يوضح فيه أساليب الفهم عند "دلتاى" بالشخص الذي يريد أن يتعلم لغة أجنبية ، فهو لن يستطيع أن يفهم شيئا ، ولكن عندما تتضح له العلاقة بين الأشياء والمواقع ، وتتضح له الرموز اللفظية التي تعبر عن هذه الأشياء والمواقف بصورة تدريجية ، فانه يدرك معنى الكلام ويصير مفهوما له . وبالمثل عند قيام عالم الاجتماع بدراسة ثقافة أجنبية ، أو فترة تاريخية ، فإنه يعتمد على الفهم بتجميع أجزاء الصورة الكلية التي توضح له معنى الثقافة والأفعال وهنا يبدأ عمل المنظور الفينومينولوجي لدى "دلتاى" .

وبذلك يذهب دلتاى إلى أن المهارات التي يحتاج إليها عالم التاريخ ، أقرب ما تكون إلى مهارات الشاعر منها لمهارات العالم ، وذلك لأن المنهج العلمي والمتمثل عنده في البحث عن القوانين العامة ، لا أهمية له في العلوم الاجتماعية ، لأن القوانين التي يبحث عنها ليست بذات أهمية في هذه العلوم .

وقد انتقل علم الاجتماع القائم على الفهم لا على التفسير الى ماكس فيبر ، إذ انه يرى أن علم الاجتماع قريب من علم التاريخ لأنه يدرس الحياة الاجتماعية في حقيقتها الواقعية ، ولكنه على خلاف التاريخ يجعلنا نفهم هذه الحقيقة . ويتم ذلك بإيضاح معاني الأشكال الاجتماعية كما تتمثلها أذهان الأفراد . ورغم أن "ماكس فيبر" اهتم بعلم اجتماع التفهم الذى اهتم به "دلتاى" إلا أن تناول ماكس فيبر للفهم متعارض مع دلتاى في موقفين ، تمثل اتجاه فيبر الأول في تأكيده بأن ثمة شكلاً من أشكال الفهم أن يقام بأسلوب لا يتعارض بالضرورة مع مناهج العلم . أما اتجاهه الثاني فيتعلق بأن العلوم الاجتماعية لا تنهض على التعميمات المجردة واتجاهه هنا جاء نتيجة لاعتقاده بان عالم الاجتماع مسئول عن تقديم تفسيرات مناسبة على مستوى المعنى ، ومسئولة أيضاً عن تقديم تفسيرات علمية مناسبة . وبذلك يكون على عالم الاجتماع أن يعين النماذج المثالية التي ليست معاني كلية مجردة من الواقع وليست تصورات وسيطة كما يتصورها الاحصائيون بل هي مجرد تصورات فكرية حاصلة بجمع بعض الصفات وحذف بعضها الآخر ، وتوليد بعض الجوانب حتى الوصول إلى صور فكرية متماسكة تستبدلها بالواقع المختلط . وبذلك يبدأ علم الاجتماع عنده بفهم علاقات الأشخاص بعضهم ببعض . وليست كل علاقة قائمة بين شخصين اجتماعيين علاقة اجتماعية بالضرورة ، ولكن تكون اجتماعية إذا ما وجهت توجيها يكون ذا دلالة بالنسبة لسلوك الغير . فليس اصطدام راكبي سيارتين بسلوك اجتماعي ، ولكن محاولة الخصام بعد الحادثة هو ما نعنيه بالسلوك الاجتماعي .

وبذلك تتجسد معالم الرؤية الفينومينولوجية لدى ماكس فيبر . ويمكننا أن نفسر موقف ماكس فيبر الأول الذى يشير إلى أن هناك شكلاً من أشكال الفهم ، ويتم بأسلوب لا يتعارض مع مناهج العلم ، بالاستناد إلى فكرة النماذج المثالية . وليكن النموذج الرشيد للفعل عند مدخلنا لهذا التفسير . حيث أن المرء يؤلف بين وسائله تأليفاً معقولاً لبلوغ غاية قد فكر فيها . ويمكننا في

هذا الوضع أن ننظر لعملية الفهم بأنها العملية التي يضع الشخص بمقتضاها فرضه ثم يحاول تفسير أى فعل بإرجاعه إلى غاية يبتغي الفاعل تحقيقها بوسائل مشروعة . وصياغة هذه الفروض هنا يتم في صورة ذاتية . وآراء فيبر هنا قائمة في المحل الأول على فهم الأفعال الرشيدة من هذا النوع الذى ذكرناه مبتدءاً في تفسير أى فعل في ضوء هذه المعاني الرشيدة . ثم عليه أن يستمر في صياغة أنماط تفسيرية أخرى يفسر في ضوئها الانحراف عن هذا النمط الرشيد . وهذا الاتجاه يساعدنا لتفسير الثقافة بصورة تتجاوز نزعة دلتاى المثالية نسبيا في فهم الثقافة .

وإذا كان الأمر ميسراً بالنسبة لهذا النوع من الأفعال الرشيدة ، فإن الحال يختلف ويصبح أكثر تعقيداً بالنسبة للغايات التي يسعى إليها الفرد ، والتي لم يفكر فيها ، ولكنه يجدها ذات قيمة خاصة مستقلة عن إمكان نجاح تلك الغاية والتي تكون بهذه الصورة غير رشيدة . غير ان الشخص يؤلف بين الوسائل التي تؤدى إليها تأليفا معقولا . أو أنه يخضع لعواطفه وانفعالاته فى صياغة وسائله ، والأعمال التى يعملها أو أن يخضع لسلطان العرف والعادات الراسخة الجذور في الحياة الاجتماعية .

ومن هذه النقطة يتحدد موقف فيبر الثاني من قضية الموضوعية إذ يرى أنه إذا كان مبدأ الاختبار في العلوم الطبيعية يقرر أن الظواهر المتكررة هي الظواهر الجديرة بالدراسة ، فان مبدأ الاختبار في العلوم الاجتماعية من الضروري أن يكون مبدأ التلاؤم مع القيمة . بمعنى أننا ندرس الظواهر التي تحقق قيم معينة توجه أفعالنا .

إذن فمعنى الأحداث الثقافية يمارس توجيها قيميا لهذه الأحداث وذلك لأن مفهوم الثقافة مفهوم قيمي . وبذلك يصير الواقع التجريبي عند فيبر ثقافة مادمنا نربطه بأفكار قيمية . ومن ثم تتضمن الثقافة جوانب الواقع التي تحتوى لى قيم معينة تجعلها ذات معنى بالنسبة لنا ، وعليه يهمنا من الواقع ذلك الجزء المرتبط بالقيمة ، والذي ترجع أهميته إلى أنه ينيط اللثام عن علاقتنا به

لارتباطه بقيمنا . وبذلك فالمعنى هنا لا ينطابق مع القوانين العامة ، لأنه كلما ارتفع مستوى التعميم قل تطابقه مع المعنى المرتبط بالأحكام القيمية ، وسماتها الفردية .

وفيبر هنا يبرز نقطة هامة ، تتعلق بان وجود أحكام قيمية متصارعة لا ينفي موضوعية علم الاجتماع . فإذا كانت تفسيراتنا غير كافية على مستوى نسق المعنى ، فإنها يمكن أن تكون كاملة على مستوى نسق العلة ... حيث يكون إدراك معنى الفعل فرضا مسبقا يسير بمقتضاه البحث ، فإذا لم توجد غاية يمكن الرجوع إليها في عملية التفسير لا يمكن أن تقوم للتفسير قائمة . وبذلك تجعل علاقة الفعل بالغاية منه حقيقة اجتماعية وثقافية وهي التي ترجع إليها العلاقة في عملية التفسير .

وإذا كان فيبر قد ذهب إلى وجود فروض ذاتية ، إلا انه يؤكد أهمية وضع هذه الفروض موضع الاختبار وهي مستقلة عن البيانات المراد تفسيرها وذلك لتقديم تفسيرات كافية من الناحية العلمية ، حتى يمكننا تفسير العلاقة العلمية بين تغير السلوك وبين إطار بناء دافعي Motivational Structure خاص . والذي يتمثل إطاره المرجعي في المنظور الفينومينولوجي كما ذهب "بارسونز" .

أما كارل مانهايم فقد نحى منحي ماكس فيبر ودلتاى من حيث الاهتمام بالموضوعية ، ورفض المدخل الوضعي الذي يسعى لتناول الحقائق الاجتماعية بالإثبات واليقين ، شأنها شأن حقائق العلوم الطبيعية . وذهب إلى أنه يستحيل النفاذ للواقع الاجتماعي من خلال المدخل الوضعي . ومن ثم أكد على أهمية تبصر عالم الاجتماع وتفهمه من خلال المشاركة في العملية الاجتماعية . كما انه افترض ضرورة إدراك الموقف في شموله لكي تضمن تفسيراتنا ما أسماه "مانهايم" بالتقيمات . غير أن "جون ركس" ينتقد "مانهايم" في هاتين النقطتين أى التبصر والإدراك الشامل ، إذ أنه يعتقد أن مانهايم كان محقا بالنسبة لما أشار إليه حول الإرادة الموجهة الحرفية لكي يفهم ان السلوك مرتبط ، بأغراض الفعل . كما أنه من خلال فكرته حول التبصر ومشاركة

عالم الاجتماع في العملية ، استخلص نتيجة هامة مؤداها أننا نعي غاياتنا عندما نتعارض مع غايات الآخرين المختلفة عنا . والتي تجعلنا نرتد إلى ذاتنا ونعيها كأشخاص لهم دوافع معينة . وفي ضوء فكرته عن اليوتوبيا والأيديولوجية ، يمكن أن نعرض قضية الموضوعية عند مانهايم بطريقته الخاصة ، إذ يتساءل : أننا نواجه بتفسيرين للنسق الاجتماعي أحدهما الأيديولوجية وما يرتبط به من محافظة على الوضع الاجتماعي ، والثاني اليوتوبيا وما يرتبط به من صور المناهضة للوضع الاجتماعي . وفي ضوء هذين التفسيرين يتساءل عن الحقيقة العلمية الموضوعية بقضية تفسير النسق الاجتماعي فالأيديولوجية واليوتوبيا عنده أشكال حقيقية للمعرفة السسيولوجية وذلك يشير عنده إلى أن نتائج الأبحاث تتناقض مع بعضها ، وأن طريقنا لتحقيق الموضوعية في علم الاجتماع يتمثل في ضم هذه النتائج بعضها مع بعض ، وذلك لان الصدق عنده يكتمل في ما يتحقق بتجميع الصدق الجزئي لمعتنقي الأيديولوجية واليوتوبيا ، وذلك بعينه ما دفعه للقول بأهمية الفهم الشامل الكلي للنسق الاجتماعي .

أما الطريقة الثانية لتحقيق الموضوعية عند "مانهايم" فتتمثل في معرفتنا للحكم القبلي الذي يوجه عمل عالم الاجتماع ، وبذلك "فمنهايم" يؤكد أن وظيفة عالم الاجتماع المتخصص في علم الاجتماع المعرفي تتمثل في كشف نوايا الاجتماعيين والتعرف على علاقة مدخلهم بوضعهم الاجتماعي في تناول الحقائق ودراستها وذلك للتعرف على الصدق النسبي لعملهم . وفي ضوء ذلك يذهب مانهايم إلى أن تحقيق الموضوعية يتم بتدعيم المعرفة من وجهات نظر مختلفة ، والتعرف على الأحكام القبلية لعالم الاجتماع ، والتي توجه عمله ، وتحدد طريقته في عملية التفسير .

أما جينار ميردال فيتفق مع "مانهايم" في الرأى بأن التخلص من التحيز في العلوم الاجتماعية مسألة صعبة لا تحل باللجوء إلى الحقائق والمناهج الإحصائية في تناول تلك الحقائق ودراستها . ومن ثم يذهب "ميردال" إلى

ضرورة تحديد عالم الاجتماع لمقدماته سلفا دون الادعاء بصدق نتائجه على المجتمع . ومن ثم يؤكد على أن علم الاجتماع التطبيقي يبدأ بتحديد الغايات النوعية الموجودة قبلا ثم يحاول بعدها ان يحدد نوع العوامل الموجودة في الموقف ، والتي يمكن اعتبارها وسائل لتحقيق هذه الغايات . ولذلك تعتمد الموضوعية في نظره على تحديد عالم الاجتماع لمقدماته سلفا . وبذلك يذهب إلى أنه لا حاجة بنا لتقديم مقدمات قيمية لا يتمسك بها الباحث . وكذلك نجده يؤكد على توازن القوى وإمكانية تحديد هذا التوازن موضوعيا .

وفي ضوء ذلك نجد أن أعمال كل من "ماكس فيبر" و"كارل مانهايم" و"جونار ميردال" تؤلف معا تراثا منهجيا واحدا . يتأكد لنا من خلاله أن انساق العلاقات الاجتماعية ليست مجرد حقائق ، وإنما على الحقائق أن ترتبط بغرض أو غاية . ولما كانت الغايات متعددة ومتنوعة ، فيمكننا تحديد الموضوعية من خلال نتيجتين أساسيتين يمكن استخلاصهما من أعمال أنصار الفهم والمقدمات المسبقة . وتتمثل أولى هذه النتائج في أن تحديد مجال البحث يساعد على تحديد معيار الصلاحية من خلال الأحكام القيمية ، وفي هذا المجال تتحدد الموضوعية عن طريق تحديد مقدمات الباحث القيمية بوضوح وصراحة ، والإعلان عنها سلفا . والنتيجة الثانية تتمثل في أن تطور النسق الاجتماعي يعتمد على توازن القوى خلف الغايات المتعارضة . وبذلك يمكننا تحديد مجرى التطور تحديدا موضوعيا ، لان فكرة توازن القوى تخضع للتحديد الموضوعي على شريطة أن تحدد غايات الجماعة تحديدا واضحا .

ولم تكن هذه فحسب ردود الفعل المباشرة للتفكير الذي خلص إليه كل من أوجست كونت : واستكمله من بعده دور كايم فيما يتعلق بموضوعية علم الاجتماع ، بالاستناد إلى كون الظواهر الاجتماعية أشياء تخضع لمنهج العلوم الطبيعية ، من حيث التقدير والقياس والتحقق . فقد ساعد تفكير "ادموند هوسرل" Edmund Husserl (١٨٥٩ – ١٩٣٨) ووجودية "ماتن هيجر" Martin Heidegger (١٨٨٩) وكارل ياسبرس Karl jaspers (١٨٨٣) ، على التفريق

بين طبيعة الظواهر الإنسانية ، والظواهر الطبيعية . حيث انـــهم عـــارضوا بصورة مباشرة شيئية الظواهر الاجتماعية . لأنهم يعتبرون الظواهر الإنسانية ذات طراز من الوجود يختلف عن وجود الظواهر الطبيعية ، ولذلك يبلغـــها الباحث بالفهم لا بالتفسير .

ولنعرض للمدخل الفينومينولوجي في تناول الظواهر الاجتماعية بشـــيء من الإيجاز . فالفينومينولوجيا تعمد إلى تعيين الماهيات الاجتماعية . وتـــرى أن كل تصور ، شعور بشيء ، وليس للشعور وجود مستقل عن الشيء الـذى نشعر به ، وبذلك يكون كل موضوع يتأمله الفكر ، لا يمكن تأمله إلا باعتباره على علاقة بذات الشخص المتأمل حين يلوح الموضوع لوجدانه ، وضميره ، وشعوره . وبذلك فالصفة الاجتماعية للظواهر بدلا من أن تكون شيئا خارجيا بالنسبة إلى الضمير أو الشعور ، لا تبدو للشـــخص إلا بتجربتـــه الباطنيـــة الحيـــة .

وفي ذلك يقول هوسرل أن كل ما يوجد بالنسبة إليَّ لا يمكـــن أن يســـتمد معناه الوجودي إلا مني أنا وفي نطاق ضميرى . وبذلك يرد هوسرل الوجـود الاجتماعي إلى الذات العارفة . أى بحضور الشيء نفسه لا صورته العقليـــة أمام الشعور عند التفكير فيه و "هوسرل" هنا يعتمد في تحصيل المعرفة علـــى فكرة البداهة الأصلية فالبداهة عنده ليست البداهة التي نلتقي بها في الواقعيـــة الساذجة وليست كذلك البداهة العقلية التي نلتقي بها عند ديكارت والتي تتمثـل في فكرتنا الواضحة عن الشيء ، وإنما البداهة غير العقلية أو السابقة علـــى المعرفة العقلية ، والتي توجد في حالة معية مع الشعور في اللحظة التي يتجه فيها لإدراك الشيء نفسه فيجده ماثلاً أمامه في حالة من البداهة .

وهوسرل بذلك يريد أن يكون الحكم مرتبطا بالموضوع الذي صدر منه ، على أن يكون في ذهننا أن الموضوع الذي أصدرنا حوله الحكم موجود أمامنا في التجربة وجودا سابقا قبل الحكم . و"هوسرل" بذلـــك يؤكـد أن المدخـــل الفينومينولوجي في دراسة الظواهر الاجتماعية ينبهنا إلى وجود حياة ســـابقة

على حياة التأمل العقلي ، والي وجود معطيات سابقة على المعطيات العقلية . وتوجد في حالة معية معها .

وبذلك تكون التجربة عند "هوسرل" في الواقع الاجتماعي هي التجربة التي نلتقي فيها بموضوعات حية ، واقعية تكون حاضرة أمام الذات الحية المندمجة في الواقع . وهذه الذات الحية مختلفة عن الذات العاقلة ، أو العارفة ، لأنها مصدر التجربة الحية . وبذلك يتصف المدخل الفينومينولوجي بحضور الطبيعة أو العالم أمام الوعي أو أمام التجربة الحية دون أن يكون للعقل دور حيادى فيها .

وقد قال هوسرل بهذه الفكرة ، أي فكرة اتجاه الوعي نحو العالم واتخاذه موضوعا له ، يبعده عن تأمل ذاته ليقف موقفا وسطا بين الذاتية والموضوعية ، أو بين المثالية العقلية والواقعية الوضعية . وقد أثرت فكرة هوسرل ومدخله الفينومينولوجي على الفكر الوجودى عند "هيدجر" و"ياسبرز" و"مارسل " و"سارتر" فحاولوا أن يقدموا الحلول الموضوعية لمشكلة العلاقة بين الشعور والعالم الخارجي متخذين من الفينومينولوجيا منهجهم الأساسي .

وهوسرل بمدخله الفينومينولوجي هذا يأخذ موقفا وسطا بين الذاتية والموضوعية ، فهو يعترف بموضوعية العالم ، وبقيامه سابقا على معرفتنا له ، ثم يذهب إلى أن مدخل الظاهرات (الفينومينولوجيا) لا يمكن أن يفهم إلا على أساس رد العالم إلى الذات ، فهذا الرد عنده هو الذى يعطي للعالم معنى (عن طريق فصل الشعور) فلا يكفي عنده أن يدرك الشعور العالم ماثلا أمامه ، بل لابد من أن يحاول إعطاءه معنى ، ولن يتسنى له هذا إلا برد العالم إليه .

وذلك لأن "هوسرل" لا يدعي بأن العالم من خلق الذات العارفة كما يذهب أنصار الاتجاه الذاتي العقلي ، ولا ينظر إلى العالم الاجتماعي على انه وجود مستقل مثل الظواهر الطبيعية ، ولكنه يكتفي فقط بوصف العالم من خلال

التجربة الحية ، التي يعيشها الشعور في هذا الوجود الاجتماعي . وبذلك يؤكد على قيام المواقف الاجتماعية التي يكون الإنسان ملتحما فيها مع الحياة الواقعية ، وذلك يحقق في نظر "هوسرل" وجوداً وبداهة موضوعية تسبق البداهة العقلية . وهي أساس لجعل بداهة الحكم العقلي ممكنة ، وبالتالي تساعدنا على إلقاء ضوء على الأحكام العقلية . وبذلك يؤكد "هوسرل" على وجود معطيات موضوعية سابقة على معطيات الوعي، وتستند إليها الأحكام العقلية أو معطياتنا العقلية حول الموضوع .

وبذلك تتحدد خطوات المدخل الفينومينولوجي في تحقيق موضوعية المعرفة في ما يلي :

(أولا) : إدراك الوجود في حالة بكارته الأولي أي قبل أن تدخل عليه أحكام العقل .

(ثانيا): والخطوة الثانية تتمثل في مرحلة الرد Reduction حيث يتم رد العالم الخارجي إلى الذات لإدراك الوجود الاجتماعي من خلال التجربة الحية ومعايشة الإنسان لها ، من خلال المواقف الاجتماعية .

(ثالثا) : وأخيراً إصدار التعميمات أو الأحكام العقلية على هذا الوجود الاجتماعي بالاستناد الى موضوعية الوجود ، وخبرة المعايشة الذاتية الحية ، ومعايشة الوعي لها ، من خلال المواقف الاجتماعية ، التي تساعد على التحام الإنسان بالواقع الاجتماعي .

وقد حاول سارتر التأكيد على فكرة المواقف والالتحام بين الإنسان والوجود الاجتماعي ، من خلا تلك المواقف ، وهو بذلك يذهب إلى أن إدراك الظواهر ليس مجرد تفكير بعيد عن الواقع ، كما أن هذا التفكير أيضا ليس تفكيرا تجاوزيا (ترنسند نتاليا) يملي على الواقع شروطه . وإنما هو تفكير أو

شعور قائم في مواقف اجتماعية ، تحقق هذا التلاحم بين الإنســـان والواقــع الفعلي للظاهرة .

وبذلك نجد أن سارتر يرى أن الحقيقة ، حقيقة مواقف تقوم على الالتحـــام المباشر بين المفكر والوجود ، وتهتم بالفكرة السابقة على التأمل العقلي حـول الظاهرة . وذلك ما يوضحه بجلاء بقوله إن كل ما يوجد بالنسبة إليَّ لا يمكن أن يستمد معناه الوجودى إلا مني أنا وفي نطاق ضميرى ووجداني وحدسي .

وقد أثرت هذه التيارات الفكرية الألمانية حول موضوعية العلوم الإنسانية وذاتيتها ، على المفكرين الفرنسيين أنفسهم . فذهـــب "جــول مونـــرو"Jules Monnerot في كتاب بعنوان (ليست الظواهر الاجتماعية بأشياء) إلـــى حــد القول بأنه لا يمكن للباحث الاجتماعي ان يكون حياديا كما تصوره "دور كايم" وذلك لأنه إنسان وجد في أحوال معينة ، وفي تاريخ معين ، وهـــو لـــهذا لا يمكن أن يفهم حقيقة الحياة الاجتماعية إلا بأن يحياها .

أما اندرى امار Ander Amar في مقالة له بعنوان "حول التمـــاس طريقـــة منهجية للعلوم الإنسانية" فنجده يفرق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية من حيث درجة تأثير الإنسان بطبيعة الظاهر التي يتناولها ... وهو في ذلك يذهب إلى أن العلوم الإنسانية تدرس الظواهر التي يكون الإنســـان فيـــها المؤثـــر والمتأثر وبذلك يفرق بينها وبن الظواهر الفيزيولوجية التي يكون فيها متـــأثرا فقط ، وعن الظواهر الفيزيائية التي يكون فيها الإنسان مشاهدا وملاحظا لـــها فقط .

وهو في ذلك يذهب إلى أن تقدم العلوم الطبيعية في الوقت الحاضر ارتبط بملاءمة مناهج تلك العلوم لها ، ومن ثم استطاع الإنسان أن يسيطر بمعرفتـــه على الطبيعة . في حين ان العلوم الإنسانية لم تهتدي بعد للمنـــاهج الملائمـــة لهـــا ، والتي تجعل معرفتها موضوعية ، بالدرجة التي يتمكن الإنسان بها من أن ينظم علاقات الناس بعضهم ببعض تنظيما صحيحـــا . ويســيطر عليـــها

سيطرة علمية . وبذلك فانه يرجع عدم تقدم العلوم الإنسانية بصورة كافية إلى عدم تمكن الباحثين من العثور على مناهج مناسبة لطبيعة الظواهر التي تتناولها تلك العلوم .

وهو بذلك يذهب إلى أن على الباحثين محاولة العثور على هذه المناهج الملائمة ، ولابد في البحث عن هذه الطرائق المنهجية من التفريق بين الظاهرة الإنسانية والعقل الإنساني ، فالعقل متصل بحريتي وهو عبارة عن تدخلي في العالم وتأثيري فيه . أما الظاهرة فهي فعل ، وقع وظهر ، وانفصل عني .

وبذلك يصبح الفعل ظاهرة بحدوثه وانفصاله عني ، وظهوره في الواقع . وتصبح الظاهرة فعل بإدراكي لها واطلاعي عليها . ولو لم اكن سبباً في إحداثها . ومن ثم يذهب "اندرى امار" إلى أن الظاهرة والفعل يتعلقان بموقفي الفكرى ، حيث أنظر إلى الماضي فأجد الظاهرة ، واشعر بالحاضر وأحياناه فأقوم بالأفعال .

فالظاهرة توجد في العالم الخارجي ، غير أنها صدرت عن الفعل ، وهو بذلك يذهب إلى أن الحياة جميعها عبارة عن انتقالا من الفعل إلى الظاهرة ، ومن الظاهرة إلى الفعل . وبذلك يرى "امار" أن العلوم الطبيعية تعتمد على ظواهر المادة ، أو من ثم تكون فكرة الظاهرة فيها أساسية . وعليه يتناول الباحث فيها أحكام الوجود المادى . لا أحكام القيم . في حين أن العلوم الإنسانية تقوم على قضايا إنسانية ، تستند في مصادرها إلى أفعال . لا إلى ظواهر ، ولذلك فهي تعتمد أحكام القيمة اكثر من اعتمادها أحكام الوجود . إذ أن كل فعل نقوم به له معنى يتصل بماضينا ، وحاضرنا ، ومستقبلنا ، أى بشخصيتنا . فإذا جردنا قضايا الإنسانية من معانيها وغايتها ، التي تضمن وحدتها وتماسكها ، نكون بذلك قد عريناها من حياتها النابضة ، وتناولناها كجثة هامدة ، لا حراك فيها ، ولا تفصح عن ماهيتها الحقيقية .

وهو لذلك يرى أن الاعتماد على مناهج العلوم الطبيعية في تناول الظاهرة الاجتماعية لا يحقق الموضوعية في معرفتنا ، ولا يمكننا من السيطرة بتلك المعرفة على وجودنا الاجتماعي . وإنما علينا أن نبحث عن مناهج جديدة تناسب القضايا الإنسانية ، ولا نتناولها كأشياء ، بل باعتبارها حقيقة نابضة بالحياة ، ومتضمنة لأحكام قيمية معينة ، ومعاني معينة ، تمارس تأثيرها على أفعالنا .

وعليه فان "امارا " قد أقام التفرقة بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية واعتبر موضوعية الظاهرة الاجتماعية غير موضوعية الظاهرة في تحقيق الموضوعية ، في تناول الظاهرة الاجتماعية وقدم النصيحة للباحثين عن مناهج تكون صالحة لتناول الظاهرة الاجتماعية ، وتحقيق الموضوعية في ما نحصله من معرفة حولها .

وفي ضوء ذلك الحوار السابق يتضح أمامنا أن فهم الظاهرة الاجتماعية بصورة موضوعية يختلف عن موضوعية الظاهرة الطبيعية . ورغم تأكيدنا على وحدة المنهج العلمي إلا أن تناول الظاهرة الطبيعية في إطار المنهج العلمي الذي نطبقه على الظاهرة الطبيعية ، يعنى أننا ننظر إلى الظواهر الاجتماعية بنفس النظرة التي نتناول بها الظاهرة الطبيعية ، علماً بأن الظاهرة الاجتماعية عبارة عن حقيقة واقعية نابضة بالحياة ، لأنها تتصل بفعل الإنسان ، وبأحكامه القيمية ، وتؤثر فيها ، وتتأثر بها ، على نحو ما أوضح "اندري امارا" .

زمن ثم يقتضي تناولنا لها ان نفهمها في صورتها الكلية . ومن خلال تفاعلها معنا ، وتفاعلنا بها ، إن إدراكنا لمعنى الظاهرة يعتمد على مجموعة من الإجراءات التي نحقق بها فهم هذا المعنى . فنفهم علاقتها أي علاقة الظاهرة بأفعالنا ، وعلاقة أفعالنا بها ، وما تتضمنه من أحكام قيمية تؤثر على أفعالنا ، ثم نحدد السبيل لتحصيل المعرفة التي تمكننا من السيطرة على النسق الاجتماعي ، وتنظيم الوجود البشري . وذلك لكي نفهم معنى أفعالنا ، وتكون

الصورة الكلية لمعنى الظاهرة في حياتنا . وذلك تمهيداً للوصول إلى القضايا الإنسانية الملائمة لطبيعة الظاهرة الاجتماعية ، والتي يمكن أن توجهنا لتفسير تلك الظاهرة في ضوء نسق المعنى ، والعلاقات العلية والوظيفية ، التي تتضمنها تلك الظاهرة .

وبذلك يكون هناك مستويين من التفسير تفسير باطني يدور حول فهم المعنى الكلي للظاهرة الاجتماعية أى فهم الذاتية الباطنية وتفسير خارجي يتناول العلاقات العلية والعلاقات الوظيفية ، وربما هنا ما يكشف عنه ذلك التقدم الذي حدث بالنسبة لطرائق تحليل العلاقات ، والتحليل العاملي ، ومباحث السسيومترية و القياس الاجتماعي لو أخضعناه مستقبلا لاستراتيجية المنهج الفينومينولوجي .

خامساً : التأليف بين الذاتية والموضوعية وموضوعية المعرفة :

من خلال الحوار السابق يتبين لنا انه من الضروري لجميع الأعمال النظرية السسيولوجية أن تأخذ في اعتبارها جانبين متعارضين هما الذاتية والموضوعية . وحتي مناقشتنا لأى منهما من الضرورى أن تتم من خلال الجانب الأخر . وذلك لكي نقدم التفسير الواضح والصادق للواقع الاجتماعي. ولن يتحقق ذلك على مستوى العلوم الاجتماعية عامة ، وعلم الاجتماع خاصة إلا ومن خلال منظور علمي انبثقت نظريته ومنهجيته بمعية تتسق مع الواقع الاجتماعي والثقافي والشخصي ، وذلك ما يحققه المنظور الفينومينولوجي .

وقد كان للحوار الدائر بين علماء الاجتماع في ألمانيا قضية الموضوعية في علم الاجتماع تأثيرها على واحد من الفلاسفة الاجتماعيين في أمريكا الذين تأثروا بالمنظور الفينومينولوجي وهو "جون ديوى" [(1)](١٨٥٩ - ١٩٥٢) فاهتم " ديوى " بقضية الموضوعية على نحو ما اهتم بها علماء الاجتماع في المانيا ، إلا أنه رفض الحلول الجزئية التي قدمها المذهب التاريخي ،

(1) Dewy, John, The Theory of Inquiry , N.Y. : Henry Holt and Company . Inc., 1938.

والوضعية الجديدة والوجوديون . وقد ذهب "جون ديوى" إلى أن مفتاح الموضوعية في تناول الواقع الاجتماعي يكمن في الطبيعة المعقدة الموجودة في عمليات المعرفة ، والتقييم والفعل .

فللإنسان في نظره معتقداته المتحصلة لديه عن طريق البحث العلمي ، حول عمليات بناء الأشياء ؛ ولديه أيضا معتقداته عن القيم التي تنظم سلوكه ، ومن ثم تكون المشكلة كامنة في إمكانية الإجابة على كيفية تداخل هذين الجانبين للاعتقاد بطريقة مثمرة وفعالة . وقد رفض "ديوى" الثنائية بين عالم الواقع وعالم القيمة ، وان كل منهما يحتاج منهجا للتحقق . وهو يتفق مع مانهايم في ذلك . ومن ثم يضع الأمور في نصابها ويحصر المسئولية في الفرد صاحب المعرفة ، والعمليات التي يقدم من خلالها فروضه سواء كانت رمزية أو واقعية ، والتي من خلالها يقيم فعله بما يقابله من نتائج . وهنا يؤكد "ديوى" على ضرورة صياغة الفروض المتعددة التي توضع تحت الاختبار على أن تكون شاملة لجانبين يتعلقان بالنفي والإثبات . وذلك لأنه يعتقد أن التفكير الاجتماعي الواقعي هو على وجه الدقة طريقة المشاهدة التي تميز الظروف المعاكسة ، والظروف المساعدة في موقف قائم بالقياس إلى الغاية المقترحة .

١ - ومعني ذلك أننا في صياغتنا للنظرية التفسيرية الشاملة علينا أن نقيمها على قضايا سالبة وقضايا موجبة ، أي قضايا نفي وقضايا إثبات ، وذلك يشير إلى أن الإنسان في الصياغة الشاملة ، يستند لمنطق الواقع الاجتماعي وظروفه ووعينا بهذا الواقع . ويقتضي ان يتضمن الاختلاف بالإضافة إلى جوانب الاتفاق بين القضايا ، فالاتساق المنطقي هنا مستندا للواقع وظروفه ، وطبيعة التفكير الاجتماعي ، وطبيعة الظروف الاجتماعية المتغيرة ، والتي تتحرك لتخلق وضعا من الأوضاع سيكون مختلفا عن الوضع الراهن بصورة ما ، كما ان الغرض من الملاحظة هنا هو التفرقة بين العوامل المعاكسة ، والمساعدات (الايجابية) وذلك لان كل ظاهرة اجتماعية

هي في ذاتها مسار من تغيرات يتبع بعضها بعضا ، ومن لا مندوحة من وجود قضايا وصفية نحدد بها تتابع الحوادث على صورة فريدة .

وديوى يؤكد على الفرق القائم بين مادة البحث في العلوم الطبيعية والبحث في العلوم الاجتماعية . فلا مندوحة لنا عن الأحكام التقويمية ، والتي نصوغها في فروع معينة حول الواقع الاجتماعي . والخطأ الذي يلاحظه ديوى بالنسبة للأحكام القيمية كونها خارج نطاق البحث نفسه ، وتفرض عليه ، ولا تقرر في عملية البحث ذاتها . وبما تقتضي به تلك العملية ، وذلك يرجع لزعمهم بأن غايات معينة لها قيمة بحكم طبيعتها نفسها ، وان قيمتها تلك لا يجوز الجدل فيها . وذلك بدلا من أن يجعلوا الغايات هي التي تقرر على أساس الظروف القائمة ، من حيث هي عوامل مساعدة ، أو معاكسة .

ومما يحسم هذه المشكلة ويحقق لنا قدرا من الموضوعية في تفسيرنا دون التحيز لوجهة نظر بعينها دون أخرى ، وهو شمول النظرية السسيولوجية لفروض شاملة للنقيضين ، ويتحدد في ضوء معطيات البحث أي منهما ، هو المساعد وأيهما هو المعاكس ، فذلك يضمن لنا درجة من الموضوعية في التفكير النظرى .

وبذلك لا تكون محاولة "فان دين بيرج" التأليفية بين عناصر الالتقاء في النظريات الكلاسيكية لصياغة نسق نظري شامل محققة للموضوعية المستهدفة في علم الاجتماع ، لأنها استبعدت عوامل لاختلاف القائمة فيما بينها ، والتي يحسم فاعلية أي منها هي عملية البحث نفسها ومعطياتها .

وموقفنا في هذا المجال بالنسبة للشرط الأول من شروط تحقيق الموضوعية في النظرية السسيولوجية ، ويتسق مع وجهة نظر جون ديوى المتعلقة بالشروط المنطقية الثلاثة التي لا مندوحة منها للجانب العقلي من المنهج العلمي ، والتي تتمثل في :

أ - صفة المدركات النظرية من حيث هي فروض .

ب - أن لهذه الفروض مهمة توجيهية في رسم طريــق المشــاهدة وفــي التحول العلمي الذي تحول به آخر الأمر إلى ما قد كان قائمـــا أول الأمر من ظواهر .

جـ - أن هذه الفروض تختبر وتراجع مراجعة متصلة على أساس النتائج التي تتمخض عنها تلك الفروض ، عندما نطبقـــها علـــى الوجـــود الاجتماعي الفعلي (١).

فصياغة المدركات العقلية ذات الأثر فـــي قضايـــا صريحـــة ، يحفزنـــا لتمحيص معانيها ، على أساس العواقب التي تؤدى إليها هـــذه المدركـــات . وتلك الصياغة الصريحة تفدينا في موازنة الفروض المختلفة موازنة نقدية في ضوء معطيات اختبارها في تناول الواقع الاجتماعي الفعلي ونحن متحـــررون من أي تحيز شخصي أو ثقافي . ومستندين إلى المنظور الفينومينولوجي فـــي دراسته .

٢ - أما الشرط الثاني في تحقيق الموضوعية في النظرية السســـيولوجية فيتمثل في أن من مبادئ تحقيق الموضوعية في النظرية السسيولوجية وضوح وجهة نظر القائم بعملية المعرفة ، وذلك بأن يعلن مقدماته مسبقا ، بما يمكـــن من اختبار المعرفة المتحصلة من وجهة نظره ومناقشتها . وهنا يذهب "جونار ميردال" إلى أن تحقيق الموضوعية يتم من خلال الصياغة الواضحة من جنب الملاحظة الواضحة من جـــانب الملاحظة لإطار عمله الخـــاص . وقد اتخـــذ " فيركميستر" هذا الموقف . ولذا يقول أن تحقيق الموضوعية لا يتأتي فقـــط عن طريق إهمال القيم التي ينغمس فيها العالم الاجتمـــاعي ، بـــل بوضعـــها كعناصر في البحث المقترح ، بحيث تصاغ فـــي فـــروض توضـــع تحـــت الاختبـــار ، على أن يحتكم في صدق هذه النتائج لدرجة الإجماع بين العلمـــاء على صدق اختبار تلك القضية .

---

(١) جون ديوى ، المرجع السابق ، ص ٧٦٨ .

٣ – ومن شروط تحقيق الموضوعية في النظرية السسيولوجية التجمع النسبي للفروض المثبتة ، على ان يكون معلوما ان ظروف الحياة الاجتماعية متغيرة . ولذا يكون في الاعتبار دائما احتمال ظهور عوامل أخرى جديدة تناهض هذا التجمع النسبي ، على أن يكون هذا الاحتمال مدرجا في إطار الصياغة النظرية للقضايا وذلك يعنى أن إدراج القضايا المختلفة من الضرورى أن يستوعب هذا التجمع . وأيضاً صور التغير المحتملة . أى أنه عندما يتم فحص ثبات فرض في البناء النظري يكون لحساب تأكيد فرض مدرج في نفس البناء .

٤ – إن وحدة المنهج العلمي رغم أصالتها ، وما يتمتع به من منطق ، لا تنهض دليلا على التطبيق الحرفي للمنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . وكما أن أخذنا بالمنهج الفينومينولوجي لا ينفي التزامنا بالطريقة العلمية لنسق التفكير العلمي .

وإذا كانت المناهج الدارجة قد أثبتت نجاحا في العلوم الطبيعية فلا يغيب عن خاطرنا تقدم الأدوات الفنية التي يستعان بها بجانب هذه المناهج ، مثل المنظار التلسكوبي وغيره من الأدوات البصرية ، وغير البصرية التي يستعان بها في تطبيق تلك المناهج وهي أي تلك الادوات لا يمكن استخدامها في العلوم الاجتماعية ، ومن ثم أصبح من الضرورى الاستعانة بتكنيكات منهجية متقدمة تساعد عالم الاجتماع على معالجة موضوعه بالتعليق والرد الفينومينولوجي والمغايرة التخيلية ، والتأمل وتكشف الجهود البحثية المبذولة عن إمكانية تطبيق المنهج العلمي تطبيقا ناجحا مستقلا حيث يمكن استخدام أسلوب تحليل العلاقات ، بدلا من مجرد الاعتماد على النسب المئوية ، والاهتمام بالتحليل العاملى ، والقياس الاجتماعي ، وغيرها من الأساليب والأدوات التي تساعده على تطبيق المنهج العلمي بصورة أفضل مما هو قائم حاليا بتوجيه فينومينولوجي.

٥ - أن تكون أية صياغة مستندة لمنطق الرد الفينومينولوجي والدفع الجدلي بحيث يمكن التحكم فيه ، والقيام بعمليات الاختبار . فليس مجرد الاجتهاد لصياغة قضايا أو فروض ينهض دليلا على صدق نظريته . فأى صياغة لا تستند لمنطق فينومينولوجي تظل مجرد وجهة نظر لا تجد من الدلائل ما ينهض على صحتها ، طالما أننا لا نستطيع أن نتحكم فيها ونخضعها للقياس والاختبار بما يحقق الفهم والتفسير .

٦ - أن ننظر للموضوعية على أنها ذات معنى إذا ما تناولناها باعتبارها نموذجا خاصا يساعد الباحث في تحقيق المعرفة ، أو الدراسة الدقيقة . وتمكنه من أن يكون على اتصال واضح ودقيق بزملائه من خلال نسق علمي عام يمثله المنظور الفينومينولوجي .

وبحيث لا تكون مجرد اجتهادات متناثرة لم تصل بعد للاتفاق على مدى صحتها وإمكانية تحقيقها . فإذا ما صارت نموذجا خاصا نعمل من خلاله ، سوف تساعد على ان نسير في الطريق الذي يناسب عالم الاجتماع في مجال بحثه للظواهر الاجتماعية . وقياسا على ذلك فان صياغة النماذج الموضوعية حول المشكلات التي يتناولها عالم الاجتماع في إطار النظرية السسيولوجية العامة على درجة من الأهمية ، بحث يكون هناك خيط فكرى متصل يربطه بزملائه ، ويوجه مسار بحثه . على ان تخضع هذه النماذج للاختبار للتعرف على مدى أهميتها في فهم الواقع الاجتماعي وتوجيه مسار الأحداث الاجتماعية ، بما يخدم البشرية في عملية تطورها وتقديم الفهم والتفسير الموضوعي لمجرى الأحداث والأفعال البشرية ، بحيث تشمل هذه التفسيرات العلاقات العلية والعلاقات الوظيفية القائمة بين الظواهر والأفعال .

وفي ضوء ما سبق من فهم لقضية الذاتية والموضوعية يتأكد لنا أن التجريبية الفينومينولوجية لعلم الاجتماع تحقق التأليف بين الذاتية والموضوعية على مستوى التصوير النظرى لتناول الواقع الاجتماعي

الثقافي ، والتصور المنهجي لإجراءات تحصيل المعرفة حول الظواهر الاجتماعية واللذين انبثقا بمعية تتسق مع طبيعة الواقع الاجتماعي .

أما بالنسبة للتأليف بين الذاتية والموضوعية على مستوى التصور النظرى للتناول فيأتي النسق العلمي الفينومينولوجي الوجودى لعلم الاجتماع بعملية التأليف تلك من خلال الانتماءات الوظيفية التي يقيمها بين منظورات البنائية الوظيفية التفاعلية الرمزية ونظرية الدور والتبادلية الاجتماعية والفينومينولوجية الوجودية والاتجاه القياسي والتحليلي في عملية تناول الظاهرة الاجتماعية .

أما بالنسبة للتأليف بين الذاتية والموضوعية على مستوى التصوير المنهجي لإجراءات الفهم وتحصيل المعرفة حول الظواهر الاجتماعية فذلك ما يحققه بإقامة التجريب المتقن (التجربة المنضبطة بالمعايشة والتجريب التاريخي بجانب التجريب الفينومينولوجي المعاصر والذي يعزز معطيات المناهج الذاتية (الفينومينولجية والاثنوميثودولوجية) بجانب تعزيز معطيات المداخل المنهجية الموضوعية في عملية تفسير الظواهر مع ضبط الرؤية الذاتية والتفهم الثقافي في عملية تفسير الظواهر وتحقيق موضوعية المعرفة حول تلك الظواهر بمنهجية ملائمة لطبيعتها .

٧ - أن تقوم النظرية السسيولوجية العامة على المبادئ النظرية والمنهجية للمنظور الفينومينولوجي الوجودى لانبثاقها بصورة تتسق مع الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع البشري . ولكونها ليست مجرد أيديولوجيات محاور أنصارها تعزيز وضعها باتخاذ مناهج العلوم الطبيعية أساساً لها .

٨ - أن تخضع معطيات البحوث والمنظورات النظرية حول الواقع الاجتماعي للإجراءات المنهجية الفينومينولوجية التي تكفل الكشف عن جوهر تلك المعطيات والانتماءات القائمة فيما بينها والتي تشكل رؤى متسقة مع النسق العلمي الفينومينولوجي لعلم الاجتماع .

الفصل السادس

مدخل الظاهرية التجريبية
في
علم الاجتماع

- تمهيد :
- أولا : تعريف بالظاهرة وسياقها الفكرى
- ثانياً : المفاهيم الرئيسية للمنظور الظاهـري
- ثالثا : النقـد الظــاهري للتجـــريبية التقليديـــة

الفصل السادس
مدخل الظاهرية التجريبية
في علم الاجتماع

تمهيد :

تتحد معالم مدخل الظاهرية التجريبية في علم الاجتماع من خلال مجموعة المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها المنظور الظاهري ومقولاته النظرية والمنهجية الأساسية التي تحدد معالم النسق العلمي للمنظور الظاهري وموقفه من التجريبية التقليدية في علم الاجتماع ونقده للنماذج الأيديولوجية التفسيرية التي يستند إليها علم الاجتماع الكلاسيكي في نظرته للواقع الاجتماعي والثقافي وتفسيره لظواهره الاجتماعية والثقافية والشخصية والعمليات الاجتماعية المرتبطة بالتفاعل الدائر داخل النسق الاجتماعي وفي سياق ذلك نتناول معالم مداخل الظاهرية التجريبية من خلال الموضوعات التالية :

- تعريف بالظاهرية وسياقها الفكري .
- المفاهيم الرئيسية للمنظور الظاهري .
- النقد الظاهري للتجريبية التقليدية .

أولا : تعريف بالظاهرية وسياقها الفكري

يتألف مصطلح الفينومينولوجيا (الظــاهراتى) Phenomenology مــن مقطعين يشير أولهما Phenomeno لمعني الظاهرة ، ويشير ثانيها logy لما معناه علم على مستوية عال من التجريد . وبذلك يشير المصطلحان معا إلــى ما معناه علم الظواهر .

وقد اشتقت كلمة فينومينولوجيا Phnomenology بالإنجليزية من الكلمــة الإغريقية Phainein والتي تعني يظهر أو يكشف عـــن . وبذلــك تعنــي الفينومينولوجيا بمعناها العام ، الدراســة العلميــة المنظمــة للظواهــر ، أو للمظاهر appearancess المرتبطة بتلك الظواهر .

والفينومينولوجيا بهذا الاشتقاق من الكلمة الإغريقية توضح من أين أتــت الظاهرة والمعاني التي تبدو ، أو تظهر مرتبطة بها .

والمتبع لمصطلح الفينومينولوجيا في التراث الفلسفي يدرك أنه قد ظـــهر بدلالات مختلفة ارتبطــت باســتخدام المفــاهيم المتعلقــة بالفينومينولوجيــا كمنظــور . ومنهج منذ ظهور المدرسة الظاهرية العربية على يد أبــو داود (٢٠٠ - ٢٧٠ هـــ) ورواجها على مستوي العالم العربــي علــى يــد ابــن حزم(٣٨٤ - ٤٥٦هــ) - (٩٩٤ - ١٠٦٤ م) .

وبذلك يشتمل مصطلح الفينوميتولوجيا على كثير من الدلالات الفكريــــة المرتبطة بالعرف الفلسفي والعلمي . وذلك ما ساهم في حياته مفاهيم المنظور الفينومينولوجي وبلورة قضاياه النظرية والمنهجية التي جعلته محل اهتمام من قبل المهتمين بالعلوم الاجتماعية عموما ، والمتخصصين في علم الاجتمــاع خصوصا واستنادهم إليه كمدخل منهجي لمعالجــــة الظواهــر الاجتماعيــة والرجوع إليه كإطار مرجعي عام ، على نحو ما فعــل تــالكوت بارســونز عندما اعتبر المنظور الفينومينولوجي إطارا مرجعيا لأي أطر دراسة الفعــل الاجتماعي في علم الاجتماع ، وجعله يؤكد مـــع " ثيرباكيـــان " علـــى أن

المبادئ والمفاهيم التي تقوم عليها الفينومينولوجيا هي أساس قيـام النظريـة العامة لعلم الاجتماع .

ومما يؤكد ذلك التوجه كون مرجعية الاتجاهات النقدية في علم الاجتمـاع عند هيرماس كممثل لمدرسة فرانكفورت ، وزجيملز فـي طرحـه للخيـال السسيولوجي ، وعند الفن جولدنر في طرحه لعلم الاجتماع التأملي ، ولـدى قطب النظرية النقدية المعاصرة جورج أو نيل ، والذي بدأ معهد الدراسـات الاجتماعية والفينومينولوجيـة المتقدمـة . ولكـي نمـيز بيـن المنظـور الفينومينولوجي وغيره من المنظورات الفكرية الأخرى التي يهتم بالظاهرة ، والتي تدعي أنها تساعد في تحديد البناء الأساسي لخبرة الوعي ، علينـا أن نجيب على التساؤلات التالية :

* ما هي الكيفية التي تحدد بها الفينومينولوجيا الخبرة الواعية ، والتي تميزها عن غيرها من المنظورات الفكرية إلى التي تهتم بالظاهرة أيضا ؟

* ما هي الظاهرة البشرية التي تهتم بها الفينومينولوجيا ؟

* كيف تصل الفينومينولوجيا إلى تلك البناءات الأساسية لخبرة الوعي ؟

* ما هي المفاهيم الأساسية التي تنهض عليها الفينومينولوجيا ودلالات كـل منها ؟

* ما هي قضايا الفينومينولوجيا الأساسية والتي تشكل المبـادئ الأساسـية للمنظور الفينومينولوجي ؟

* ما هي القواعد المنهجية التي يقوم عليها التجريب الفينومينولوجي ؟

ما هي العلاقة التي تربط قضايا ومبـادئ المنظـور الفينومينولوجـي النظرية و المنهجية بالمنظورات الأخرى والتي تحدد في ضوئها علاقة تلـك المنظورات كمنظورات فرعية بـالمنظور الفينومينولوجـي العـام لعلـم الاجتماع ؟

وفي ضوء تلك التساؤلات وفي سياق الإجابة عليها نستعرض معالم التجريبية الفينومينولوجية في علم الاجتماع .

ونبدأ رحلتنا مع المنظور الفينومينولوجي الوجودي منذ عام ١٩٧٢ م عندما عرضناه كمصدر رئيسي للنظرية السسيولوجية وعالجناه على أساس أنه الصيغة النظرية العامة للنظرية السسيولوجية التي تنتقي في نطاقها مفارقات الاتجاهات النظرية الرئيسية في علم الاجتماع (١) .

وقد أكدنا على أن أسباب القصور الذى لابس النظرة المعرفية لكل من الاتجاهين التجريبي والعقلي في علم الاجتماع ، أنهما لم يستندا إلى تصور سليم للظواهر الاجتماعية التي تؤلف الواقع الاجتماعي ، ويحوي كل أبعادها وعناصرها ، ومستوياتها وصور ارتباطها بعضها بالبعض الآخر. (٢)

ومن ثم أقمنا الأساس المنهجي لعلم الاجتماع على أساس تفادي جوانب القصور التي اشتمل عليها كلا الاتجاهين الرئيسين في علم الاجتماع (الوظيفي ، والصراعي) ومن ثم جاء فهمنا للتجريبية في علم الاجتماع مؤكدا على التفاعل بين الجوانب الذاتية الموضوعية على أساس حسن الفهم والاستبطان . الذي يقيم التفاعل بين الذات والموضوع على أساس الأخذ و الحضور المستمر للذات أمام الآخر وللآخر أمام الذات (٣). معتبرين العالم نفسه (العالم الاجتماعي والثقافي) بمثابة المرآة التي يلتقي فيها الوعي بذاته أو يتعرف فيها على ذاته (٤) .

---

(١) دكتورة السيد علي شتا ، الاغتراب الاجتماعي في ضوء نظرية التكامل المنهجي رسالة دكتوراه ، مكتبة جامعة القاهرة ١٩٧٣ ، ونظرية الاغتراب ، الرياض ، مكتبة عالم الكتب ١٩٨٤ ص ١٩٦ ، ٣٠٩ .

(٢) دكتور السيد شتا ، الإغتراب الاجتماعي مرجع عام ١٩٧٣ . نظرية الإغتراب مرجع سابق ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٣) دكتور السيد شتا ، نظرية الإغتراب ، مرجع سابق ص ٤٢٠ .

(٤) دكتور السيد شتا ، الإغتراب الاجتماعي ١٩٧٣ مرجع سابق .

ونحن بذلك ننحو بالوعي الذاتي منحى مغاير لمنحى هيجل الذي يذهب إلى أن الوعي لا يكون وعيا فرديا إلا إذا استدمج في داخله الوعي بالعلم ويرجع ذلك لكون هيجل كان يهدف الوصول بالوعي إلى أن يعرف نفسه متوحداً مع العالم في وحدة واحدة او في تلك الوحدة الأولية التي كانت بينه وبين العالم قبل أن يحدث الانفصال بينهما [١] .

وبذلك تنهض فينومينولوجية هيجل على منهجية منطقية تتمثل في قانون الرفع الذي تجعل الصراع بين الذات والموضوع والذي لا يقف عند حد إلا إذا اندمج الأفراد المتنازعون في مجتمع أعم هو الأمة[٢].

وهيجل هنا يميل الوعي الذاتي إلى وعي بالآخر . في حين أن الوعي الذاتي الذي نؤكد عليه في سياق الذاتية الباطنية هو حضور الوعي الذاتي بمعية مع الوعي بالآخر . لأن الوعي الذاتي هو وعي الذات بشيء آخر يستطيع معه أن يتأمل ذاته والآخر .

وقد ترتب علي فينومينولوجية هيجل المثالية التي تناولت عوالم مثالية وترعرعت إلى التصورات المطلقة التي تؤكد على أن كل واقع معقول وكل معقول واقع ، وتجريبية جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ودافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) التي ترى أن التجربة هي التي تكون المعاني في الذهن .

ظهور ردود فعل رافضة من اتجاهات مختلفة منها الاتجاه الحدسي الذي يؤكد على المعرفة الحدسية التي تؤكد على كل موجود شخصي فردي معاش حقيقة كموضوع . رافضة بذلك التصورات العامة والماهيات التي تخفي في وجودها ما هو فردي . بمعنى أنها ترفض الأنساق المجردة التي لا يجد فيها الفرد العائش مكاناته .

---

(١) نظرية الإغتراب ١٩٨٤ مرجع سابق ص٤٢١ .

(٢) دكتور السيد شتا ، نظرية الإغتراب ١٩٨٤ ص ٤٨ .

ورغم أن أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) بنزعته الوضعية شكل رد فعل قوي لفينومينولوجية هيجل المثالية وأكد على الفرق بين الفلسفة والعلم الذي يدرس الوقائع إلا أنه تأثر بالتصورات المطلقة والكلية فأخذ بفكرة المجتمع المطلق . والتي انتهت به إلى فينومينولوجية هيجل المطلقة والوضعية المستندة على وقائع التجربة وبذلك جاء بديل الميتافيزيقا عند كونت بموقف يجمع بين وضعية مستندة على المعرفة العلمية والتجربة الكلاسيكية وفينومينولوجية تجاربه ويمثلها المجتمع .

ويأتي اهتمام دلتاى بالفهم والحياة (العالم الإنساني) بمثابة إعلان عن "أننا في نهاية التفكير الميتافزيقي في قابله التفكيرى ، وأننا في نهاية الفلسفة العلمية ذاتها ، وفلسفة الحياة هي بالتالي التي ينبغي أن تظهر"[١]

ومن ثم تعتبر الحياة (العالم الإنساني) عند دلتاى التجربة الإنسانية أوانها ما نستوعبه عن طريق التجربة والفهم ، وأنها تمثل ما هو معروف لنا من الداخل وإنها أي الحياة ما لا يمكن أن تذهب وراءه وتتجاوزه فهي أي الحياة المجال الكلي للحياة البشرية وإبداعاتها وتجلياتها ، وهي بذلك حياة البشر بتنظيماتهم الاجتماعية وإنجازاتهم الحضارية .

ومن ثم ذهب دلتاى إلى ضرورة أن لا تفهم الحياة عن طريق الذات المتعالية ، أو عن طريق معايير قبلية وذلك ما جعل دلتاى يتخذ موقفا من نظريات كل من أوجست كونت وسبنسر [٢] في علم الاجتماع والدراسات الإنسانية.

كما أنه قلب المبدأ التجريبي الذي يشير إلى أن المعرفة تقوم على التجربة مؤكد أن المعرفة الفردية للحياة تنبثق من تعميمات تم جمعها بواسطة طريقة مكافئة للاستقراء ، حيث يزداد عدد الحالات التي يقوم

(1) Dilthey w ., Present – Day Culture and Philosophy , Selected Writings , (edi trans) Rickman H . P . Cambridge university Press , 1976 . P . 114 .
(2) Dilthey , w., Introduction to Human Studies, Rickman , Op . cit ., P. 1[illegible] .

عليها الاستقراء في مجرى الحياة بصورة مستمرة ، وهي تعميمات تختلف عن التعميمات العلمية . مع تأكيده على أن الموقف الفردي الذي يصبغ المعرفة الشخصية للحياة يصححه ويوسع من نطاقه التجربة المشتركة ، تلك التجربة المشتركة التى يعنى بها المعتقدات المشتركة التي تظهر لدى جماعة من البشر .

ودلتاى هنا يعرف المعتقدات بأنها تقريرات أحكام القيمة وقواعد السلوك وتعريفات ماهو خير ، وأنها تتميز بكونها نتاج الحياة المشتركة ومن ثم هي تنطبق على حياة الأفراد أو كما تنطبق على حياة المجتمعات البشرية [1] .

وذلك ما جعل دلتاى يذهب إلى أننا إذا نظرنا إلى البشرية عن طريق الإدراك والمعرفة فإنها لا تكون إلا واقعة فيزيائية يمكن تفسيرها عن طريق العلوم الطبيعية ، ولكن من حيث أن الإنسان يفهم ويختبر الحالات الإنسانية ويقدم تعبيرات لهذه الخبرة (تعبيرات اصطلاحية ، وانفعالية ، وتعبيرات الأفعال) فإن البشرية تصبح موضوعا للدراسات الإنسانية .

ومن ثم أكد على الفهم المستند إلى الاستبطان والتعبيرات [2] بصورها المختلفة بما فيها تعبيرات الأفعال .

وبوحي من فكر دلتاى هذا جاءت فينومينولوجية "هوسرل" (١٨٥٩ - ١٩٣٨) [3] كرد فعل نقدى قوى مضاد لفينومينولوجية هيجل المثالية ووضعية أوجست كونت التي رفضها من قبله فلهلم دلتاى . حيث ذهب هوسرل إلى أن الفينومينولوجية لا تجعل من الأشياء الخارجة وأنها موضوعا للدراسة كما هو الحال بالنسبة لعلم الطبيعة ، وإنما ترى

(1) Dilthey , W., An Introduction to The human Studies, Rickman , Op. cit., P . 179
(2)Dilthey , The Development of Hermeneutico , Rickman, Op. cit.. P. 248 .
(٣) دكتور السيد علي شتا ، المنهج العلمي والعلوم الاجتماعية ، الإسكندرية ،موسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣ ص٣٠٦ - ٣٢٥ .

الفينومينولوجيا أنه لا سبيل لنا إلى تعقل الأشياء الخارجة في استقلال جسمنا وشعورنا اللذين ندرك بواسطتهما تلك الأشياء . وإنه عندما نكون بصدد تأثير حسي ما فإننا نحياه باعتباره حضورا مشتركا للأشياء أمام الذات وللذات أمام الأشياء . " فكل وعي هو وعي بشيء " عند هوسرل وذلك يعني أن الذات تتجه دائما نحو موضوع .

وذلك ما يفسر لنا انصراف هوسرل عن تحليل الحالات الباطنة للشعور باعتبارها مظاهر ذاتية تعبر عن عالم شخصي قائم بذاته لكي يسهم بدراسة الذات الحية المشخصة في علاقتها بالحقيقة الواقعية التي تتجه نحوها بالضرورة .

ومن ثم تشير فينومينولوجية "هوسرل" إلى إمكانية قيام تجربة فينومينولوجية حدسية بماهيات الأشياء [1] ، موضوعية تتعلق بحقائق الذات التي تتوصل إليها بعملية الرد التي تقوم على حذف الوجود الخارجي والعمليات النفسية السيكولوجية الأخرى التي تخفيها . وذلك بعينه ما جعل فينومينولوجية هوسرل تؤكد على أن ماهية الإنسان سابقة على وجوده .

في حين أن التجريبية الوجودية المعاصرة عند سارتر تأخذ منحنى مغاير لفينومينولوجيا هوسرل حيث لا يعترف سارتر بأن ماهية الإنسان سابقة على وجوده مؤكدا على أن وجود الإنسان سابق على ماهيته . وذلك لقناعة سارتر بأن الإنسان هو الذي يصنع ماهيته باختياره الحر ، وبالصورة التي يريد أن يكون عليها . فالأديب يصنع من نفسه أديبا بإنتاجه والشجاع يصنع من نفسه شجاعا بأفعاله والجبان يصنع من نفسه جبانا بسلوكه .

---

(1) دكتور/ السيد شتا ، علم الاجتماع الفينومينولوجي ، المكتبة المصرية ، مركز الإسكندرية ،تحت الطبع .

ومن ثم يتحدد موقف الوجودية من قضيتي الماهية والوجود بتأكيدها على أن الماهية يصنعها الوجود الإنساني بحرية واختيار لنفسه [1]، وبذلك يكون " الإنسان مشروعا لنفسه " في الوجودية المعاصرة . وذلك ما كشف عنه هيدجر عندما ذهب إلى أن الوجود تجاوز نحو المستقبل .

وبذلك نجد أن الوجودية في ردها على مثالية هيجل قد تأثرت بفكر دلتاى وبالمسار الفينومينولوجي عند هوسرل حيث استندت إلى التجربة الحسية أو الوجدانية وأكدت على أن الواقع الذي نتناوله التجربة هو واقع الإنسان العائش ، ومن ثم جاء رفضها لموقف هيجل من الفرد الذي اعتبره جزءا مهملا من ذلك الكل . مستندة بذلك على أن الفرد موجود فعلا وأن حياته وفكره مشدودان إلى شيء لا يمكن فهمه بالعقل كما زعم هيجل ، وأن الفرد ليس كلا معقولا .

وبذلك تبرز فينومينولوجية الوجودية في تأكيدها على انه لكي نستطيع الاتصال بالله علينا أن نشعر أولا أننا منفصلون عنه وأننا أفراد مخطئون ، لأننا بهذا الشعور نعي وجودنا الحقيقي .

وبذلك يأتي رفض الاتجاه الوجودى للتقاليد المثالية عند هيجل الذي تعلق بفكرة الوجود المطلق والمعرفة بالتصورات والماهيات ، مؤكدا على اتجاه الوجودية نحو الوجود الفردي الواقعي الذي يتجلى في الشعور بالخطيئة عند كير كيمارد ، وفي القلق عند هيدجر ، وفي اليأس عند " ياسيرز " ، الذى يذهب إلى أن الوجود الإنساني وجود في موقف أي في مواجهة ما يقف في وجه حرية الإنسان ، ونحن في كل موقف نرد عليه ونستجيب له بما تقتضيه مصلحتنا ، في حين أن المواقف القصوى التي لا تتغير والتي تقف أمام إرادتنا والتي تتعلق بالحياة والموت فإننا نسلم بها ونفهمها على أنها هي التي تعطي معنى لوجودنا .

---

(١) دكتور / السيد على شتا – علم الاجتماع الوجودى ، والمنهج الفينومينولوجى ، الإسكندرية ، المكتبة المصرية ، مركز الإسكندرية – تحت الطبع .

ونحن بذلك نواجه تلك المواقف بإخفائها عن أنفسنا وعندما نعي هذه المواقف بوضوح نرد عليها باليأس ، وهنا نصبح عين ذواتنا ، وذلك بتغير فى وعينا بالوجود نتيجة للمواجهة بين ذواتنا وتلك المواقف القصوى .

وبذلك يكون مفتاح الوجودية ومنبعها في اللامعقول ، والعبث ، والقلق ،واليأس وغير ذلك من التجارب المؤلمة التي تأتي في مواجهة المواقف القصوى التي نسلم بها والمتعلقة بالحياة والموت .

أما عن الرؤية الفينومينولوجية عند "ميرلوبنتي" فهي تتعلق بالإدراك الحسي حيث نجعل من موقف الإنسان في العالم الموضوع الأول لكل دراسة وجودية كما أن الفينومينولوجية الوجودية عند ميرلوبونتي تكشف عن اعترافه بالعالم المدرك ويعتبره الوسط الطبيعي الذي تتجلى فيه كل أفكاري وإدراكاتي الحسية ، وأن الإنسان موجود في العالم ولا يعرف نفسه إلا في داخل العالم . وذلك ما جعل ميرلو بونتي يذهب إلى أنه قضي علينا بالمعنى بدلا من الحرية عند سارتر ، ويرجع ذلك في نظره لوجود معنى لكل شيء وإنه ليس علينا إلا أن نتوصل إلى وصف معاني الأشياء أو ماهياتها .

ويسوقه ذلك الفهم الفينومينولوجي الذي فيه روح فهم المعنى لدى دلتاى إلى التأكيد على أن وجوده في العالم ووجودي مع الآخرين هو عين ما أحياه لأنني أشارك في هذا العالم دون أن أمتلكه ودون أن استوعبه بكامله .

مؤكد على أن الحرية رغم أنها صميم الوجود الإنساني إلا أنها ليست في حاجة إلى دليل أو برهان لأن مجرد حضور الذات أمام نفسها ينطوي على الحرية ، ما دام أن من شان الذات دائما أن تعلو على معطيات التجربة بمجرد تفكيرها في هذه المعطيات .

وإذا كان هوسرل يذهب إلى أن "الأنا" المتعالى يقوم بوصف وتحليل الأفعال القصدية للوعي الخالص فلأنه قد نظر إلى الذات المتعالية على أنها

هى التى تخلع على العالم اليقين ، وتضفي عليه شرعية وجوده ، ومن ثـم أصبح الوعي الداخلي بشتى أفعاله المحور الأساسي لوصف العالم الخارجي وفهم حقيقته وحدس ماهياته .

وقد اخذ هوسرل عن "برنتانو" (١٨٣٨ - ١٩١٧) مفهوم قصدية الوعي الذي أسس على مبدأ الإحالة المتبادلة بين الوعي الداخلي والموضوعـــات الخارجية ، حيث نجد "برنتانو" يذهب إلى أن لكل تجربة جانبا نفسيا يتمثـل في العقل ، وجانبا موضوعيا يتمثل في الشيء ، وكل منهما يتجه إلى الأخر ويتكامل معه وبذلك يصف "برنتانو" القصدية على أنها العلاقة بين الـــذات والموضوع كما تبدو في فعل الإدراك ، وهنا يؤكد " برنتـــانو " علـــى أن القصدية تشير إلى خاصية الشعور عندما يتجه نحو الشيء ليدركه .

وإذا كان "برنتانو" قد ركز فى دراسته لأفعال القصدية على ارتباطـــها بموضوعات الإدراك القائمة في العالم الخارجي فإن ادموند هوســـرل قـــد عمل على تطوير هذا المعنى القصدي البسيط ووسع استخدامه في تحليـــل فعل الإدراك العقلي ، واهتم بدراسته بصورة أكثر ليس من حيث ارتباطـــه بموضوعات العالم الخارجي ، وإنما من حيث صلته بالشـــعور الداخلـــي ، وأفعاله القبلية .

ومن ثم أصبح التحليل القصدى للتكويـــن الشـــعورى عنـــد هوســـرل منحصرا في دراسة عمليات الربط والتأليف وحدس الماهيـــات ، وغيرهـــا بطريقة أكثر عمقا وخصوبة عما كانت عليه القصدية عند "برنتانو" .

وكان لموقف "دلتاى" من مثاليه هيجل والتطبيق لمناهج العلوم الطبيعيـــة في دراسة المجتمع والثقافة والتاريخ ، ومعارضته للاتجاهين مـــع التـــأكيد على فهم المجتمع والثقافات والتاريخ يتطلب طرق منهجية خاصة تؤدي إلى فهمها فهما حقيقيا مع توجهه إلى أن تحقيق ذلك لا يتم إلا بالحدس التعاطفي

والاهتمام بفهم المعنى ، حيث أن ذلك يؤدي في نظر " دلتاى " إلى تحقيق الفهم الدقيق للثقافة والتاريخ والمجتمعات .

وقد أثر هذا التوجه بوضوح على فكر"هوسرل" وتوجهه الفينومينولوجي الذي عارض به مثالية هيجل ووضعية كونت والتجريبيين من قبله أمثال جون لوك وهيوم حيث ذهب الأخير في مؤلفه الخاص بالطبيعة البشرية وملائمة المنهج التجريبي لدراستها .

وإذا كان هوسرل قد تصور أنه لم يأخذ عن دلتاى الكثير من أفكاره ، فإن أفكار دلتاى عينها هي التي أثرت على توجه تلاميذ هوسرل أمثال ماكي شلر ومارتن هيدجر وجعلتهم ينعطفون بالاتجاه الفينومينولوجي عن مسار "هوسرل" .

وقد كان تأثير دلتاى على ماكس فيبر فيما يتعلق بالفعل والمعنى والمنهج المناسب لدراسة الثقافة والتاريخ والمجتمع والمشتمل في التأويل كان لهذه الجوانب التأثير القوى على هوسرل واتجاه الفينومينولوجيا من خلال فيبر الذي تأثر بفكر "دلتاى" المتعلق بهذه الجوانب .

وتأثر بها من بعده صفوة من علماء الاجتماع ومعظم المهتمين بالمنظور الفينومينولوجي كإطار مرجع عام للعلوم الاجتماعية ومنهم شوتز ولوكمان ، وبيرجر ..... الخ .

فقد أخذ فيبر عن دلتاى التوجه الذي يؤكد على أن فهم الحياة الاجتماعية الثقافية يحتاج فعلا إلى مناهج خاصة تمكننا من استيعاب المحددات والمعاني في الفعل الاجتماعي .

وبهذه المعاني يكون اهتمام علم الاجتماع بالتأويل والفهم التعاطفي للأفعال الإنسانية ضرورة تفرض نفسها علينا عندما نسعى لتحقيق الفهم العلمي للواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع .

ومن هنا أكد ماكس فيبر على أن علم الاجتماع عليه أن يتناول المعاني الذاتية التي يضعها الناس في أفعالهم ، وذلك لأن فيبر على قناعة تامة من أن التفسيرات الاجتماعية يجب أن تكون دقيقة على مستوى المعنى . وأن على الناس أن يوضحوا الأسباب والنتائج . الموضوعة لهذه الأفعال أخذا بعين الاعتبار أن المعنى نفسه واحدا من العناصر المؤدية للفعل.

ومن ثم جاء تعريف ماكس فيبر للفعل بأنه "اجتماعي بالقدر الذي يأخذ فيه المعنى الذاتي بعين الاعتبار سلوك الآخرين وبالتالي فهو موجة في سياق "

وعليه يؤكد فيبر على أن الذاتية تشير إلى المعنى الذي يحمله الفاعل للفعل ، وهو المعنى الذي على عالم الاجتماع أن يصل إليه ويفهمه .

وقد بدأت بلورة التجريبية الفينومينولوجية منذ كتابات هوسرل في مراحل تطوره الفكري حيث نجده يسعى جاهدا ليحقق توسعه للمنهج الفينومينولوجي وبلورة مناهجه سواء على مستوى الرد ، أو القصدية والوعي وواقعية الذات والتحليل الفينومينولوجي . وهوسرل بذلك يسعى لتطوير علم الماهيات أو ما يطلق عليه علم الاستبصار الذاتى للواقع الاجتماعى Eidetic Science أي علم الطبيعة الذاتية للواقع الاجتماعي مع حذف الوجود الفرد وإبطال تأثيره .

وهذا العلم يقوم على الأساس الذي أخبرنا به هوسرل وهو أنه بمجرد التخيل Imagining لأنفسنا كمدرك ، نقطع به جميع الروابط مع الواقعي ، ونتحرك بواسطة التخيل في عالم الممكنات البحتة ، ومن ثم يصل المرء إلى الإدراك للنمط العام Universal type الماهية الخالصة . حيث يرتفع الفعل وموضوع الفعل لمستوى النمط العام . (الماهيات الخالصة) وأيضا للقطب الذاتي . مؤكدا على أن الوعي التأملي للباحث هو بالطبع يمثل في

حد ذاته الذات التجاوزية ، وهي التي تمنح الوحدة والمعنى لعالم الوعي الخاص بها ، وفي هذه الحالة يكون عالم الماهية (١)

وفي آخر مراحل التطور الفكري لهوسرل أكد في كتاباته على أهمية البرهنة على العالم المعاش لكي يكون ذات دلالة عالية بالنسبة للعمل الفينومينولوجي وليكون الرابطة المباشرة بين الظاهرية والفلسفة الوجودية .

ثانيا : المفاهيم الرئيسية للمنظور الظاهري :

عند طرح "هوسرل" المنظور الفينومينولوجي كأساس نظري ومنهجي لعلم الحياة المعاشة كان متأثر في ذلك بفهم دلتاى للحياة وطرح التأويل كأساس منهجي لفهم الحياة المعاشة .على أساس علمي يخلو من التوجهات الأيديولوجية .

ومن ثم بدأ هوسرل في تقديمه للفينومينولوجيا على هذا الأساس بتحديد المفاهيم التي يقوم عليها هذا المنظور وهي :

الاتجاه الطبيعي ، والظاهرة ، والماهية ، والمعنى والقصدية ، والوعي ، والرد ، والتعليق ، والتخيل والتأمل والحدس ، والذاتية الباطنية المتعالية . والتجربة المعاشة والأنا والآخر والنحن .

وجميع تلك المفاهيم هي التي أرام عليها هوسرل نسقه الفينومينولوجي بإطاره النظري والمنهجي . ومن ثم نستعرض كل من تلك المفاهيم بشيء من الإيجاز كمدخل لتحديد القضايا النظرية والمنهجية التي يقوم عليها المنظور الفينومينولوجي .

الاتجاه الطبيعي Natural Attitude

ويترجم هذا المفهوم من قبل الفلاسفة بالموقف الطبيعي على أساس أنه يعبر عن موقف الإنسان في حياته العملية المعتادة . ومن ثم يكون الاتجاه العلمي معبراً عن البحث عن أوجه فيما وراء إدراكنا المعتاد وذلك لأن

---

(1) Suzanne Cunmingham , Op.cit ., P. 11 .

الاتجاه العلمي يبحث بهدف الفهم والتفسير وليس بنفس غـــرض الاتجـــاه الطبيعي .

وينال الموقف الطبيعي أو الاتجاه الطبيعي دعما من أقطـــاب النزعـــة التجريبية أمثال جون لوك [1] . ويتجه دعم "جون لـوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) للاتجاه الطبيعي من خلال قوله "أن اليقين بوجود الأشياء الطبيعية عندمـــا تشهد جوابا بذلك لا يبلغ المدى الذي يمكن أن تصل إليه قدرتنا فحسب بـل يبلغ أيضا القدر الذي نحتاج إليه طبيعيا [2] .

ولوك بذلك يؤكد على أن جوانب "تمكننا من معرفة الأشـياء وغيرهـا وفحصها بحيث يتسنى لنا تطبيعها في استعمالاتنا على أنحاء شتى لمواجهة مقتضيات هذه الحياة " .

وعليه يرى لوك أن الموقف الطبيعي يرتبط بقدرة الإنسان على السلوك العالمي في العالم الطبيعي .

أما "دفيد هيوم" (١٧١١ - ١٧٧٦) فإنه يرى أن العالم الخارجي ما هـو إلا مجموعة من الانطباعات وهو بذلك يتخذ موقفاً مضاداً للاتجاه الطبيعـي الذي يؤمن بوجود الأشياء خارج الذات ومستقلة عنها [3] وهيوم في موقفـه هذا قصر إدراكاتنا على موضوعات أضيق نطاقاً مما يعتقد فـي الموقـف الطبيعي . وهيوم بذلك بالإضافة إلى تأكيده على أن طبيعة الإدراك مغـايرة للموقف الطبيعي فإنه أيضا يحدد نطاقه .

ومن ثم عاب آير (معاصر) على الفلاسفة الذيـن عـالجوا موضـوع الإدراك الحسي تجاهلهم للطابع الاجتماعي لهذا الإدراك الفعال . مشيراً إلى أنه جاز القول عن أي شيء قابل للإدراك وإنه موضوع فيزيائي فلا بد وأن

---

(1) Lock , J., An Essay Concerning Understanding , Book 11, Chapter. 23 .
(2) Lock ,j., Ibid, IV.P.118 .
(3) Hume , D., A Treatment of Human Nature, Selby – Bigge Oxford U.P., P.193 .

تأخذ في حسابنا على أقل تقدير أن يكون من الممكن وصفه بأنه يدرك بواسطة أشخاص مختلفين وأنه يلمس مثلما يرى [١] .

ويأتي موقف المثاليين ليشير لمعارضة واضحة للاتجاه الطبيعي من حيث نظرته إلى العالم الخارجي ، وذلك بإنكارهم استقلال هذا العالم والتشكيلات الموجودة فيه ويعبر كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) عن موقفه من الاتجاه الطبيعي كممثل في تعريفه للمثالية المتعالية وذلك المذهب القابل بأن جميع المظاهر لا يجب أن ننظر إليها إلا على أنها تمثلات لا أشياء في ذاتها. وأن المكان والزمان ليسا إلا الصور الحسية للحدث وليس تحديدات معطاه بوصفها موجودة بذاتها [٢] .

وإذا كانت مثالية كانت المتعالية قد اعترفت بوجود مادة خارجية إلا أنها تشير إلى أن تلك المادة غير متأكد من حيث كونها شيء في ذاته ، مشيرة بذلك إلى أن ما تعرفه من هذه المادة هو ما تخلفه عليها الذات من صور الحساسية والمقولات . بمعنى أنها أي المادة تعرف بوصفها ظاهرة فقط . أي تمثلات . ويرجع اقتصار كانت على فكره التمثلات أي الظواهر لكوننا لا نعرف الإدراكات ، أما بالنسبة لسبب هذه الإدراكات فهو ترجيحي أي احتمالي عند كانت إذا قد يرتبط بعلة خارجية (جسم خارجي) أو ذات باطنية [٣].

وبتسمية كانت الأشياء الخارجية بتمثلات أو ظواهر تتضمنها إدراكاته وقوالبه الذاتية مفترضا أن أصلها قد يكون باطني أو موضوع خارجي .

وعليه نجد أن المثاليين قبل هوسرل يسعون لرد العالم الخارجي إلى الذات بصورة أو بأخرى وأنهم يتفننون في تقسيم قوى الذات بالصورة التي تكفل للذات بعث جميع التمثلات (الظواهر) المتعلقة بالعالم الخارجي .

---

(١) دكتور زكريا إبراهيم ، مرجع سابق ص٤١ .

(2) Kant , E., Critique of Pure Reason P .369 .
(3) Kant , Op. cit., P . 368 .

أما عن اصل هذه الظواهر فنجد المثالية يلتزمون موقف الاحتمالية بين بديلي الجوانب الباطنية أو الموضوعات الخارجية كما فعل كانت . الذي قسم ظواهر العالم إلى نوعين من الظواهر . ظواهر (أشياء) كما تظهر من ناحية . والظواهر في ذاتها أو كما هي في الواقع من ناحية أخرى .

وذلك هو ما استند إليه هيجل إذ ذهب إلى أنه ما دامت الأشياء في ذاتها بمنأى عن قدرة الفعل فإن الفعل يظل مجرد مبدأ ذاتي لا سلطان له على البناء الموضوعي للواقع ومن ثم ذهب هيجل إلى أنه بانقسام العالم إلى ظواهر ذاتية وموضوعية ، وفهم وحس ، وفكر ووجود يبدأ الأساس الإيستومولوجي المعرفي عنده فالعلاقة بين الذات والموضوع (أي تضادهما) في ضوء قانون الرفع تشير إلى صراع عيني في الوجود يحل باتحاد الأضداد منتحيا هذه الصورة التاريخية التي أطلق عليها اغتراب الذهن أو الروح [1] .

وهيجل يشير هنا إلى عالم الأشياء الذي هو نتاج عمل الإنسان ومعرفته ، الذي يصبح مستقلا عن الإنسان ولم يعد الإنسان يتعرف على ذاته من خلالهما (أي من خلال عمله ومعرفته) وفي نفس الوقت يصبح الفكر متشتتا على الواقع .

ومن هذا الموقف الهيجلي الذي يفقد معه الإنسان ذاته . دافع الوجوديون قبل هوسرل ومن بعده عن ضرورة استرداد الإنسان لذاته الحقيقية الأصيلة التي ضاعت منه وسط الناس وفي خضم الحياة اليومية في المجتمع .

وهنا نجد دلتاى يلخص موقف كل من الروافيين وايرينو ، ولينتز وابيينوز ، وشافتشيري وشلنج وهيجل وشليرماخر من ظواهر الكون حيث يرى أن الصبغة الميتافيزيقية العامة لهؤلاء الفلاسفة هي أن :

---

(١) دكتور السيد شتا ، الاغتراب الاجتماعي، مرجع سابق ص ٧٧٣ . نظرية الاغتراب، ١٩٩٣، مرجع سابق .

" جميع ظواهر الكون ذات جانبين ، فإذا نظرنا إليها عن طريق الإدراك الخارجي تكون معطاه بوصفها موضوعات حسية ولكنها تتضمن في نفس الوقت عندما ننظر إليها من الداخل ارتباطات الحياة التي نستطيع أن نعايشها داخليا[1] " .

وتمثل تلك الرؤية في نظر دلتاى المثالية الموضوعية التي تقوم على خبرة الذات لكل حيث يسود التعاطف الكلي ، وفي هذا النمط تمتد حياتنا العاطفية في نوع من التعاطف الكلي وعن طريق هذا الامتداد لذواتنا في تعاطف كل منها الواقع يعتم نشعر بها وبأنشطة نعبر فيها عن ذواتنا وبأفكار عليا ونشيع الحياة في هذا الواقع ، وهنا فإننا نعيد اكتشاف الحالات التي تثار فينا في الواقع .

وفي نظر دلتاى أننا في هذا النمط عندما نوسع معنى الحياة بالتعاطف مع العالم الكلي تزداد علاقتنا بظواهر الواقع وتزداد متعتنا بالحياة ويزداد وعينا بقوتنا .

وهذا في نظر دلتاى هو إطار العقل الذي يشعر فيه الفرد بأنه واحد مع الواقع ، وقريب من كل جزء من أجزائه [2] .

وهذا النمط من رؤى العالم يختلف عن نمط المذهب الطبيعي الذي يرى أنصاره أن الإنسان جزء من الطبيعة ، وإدراك الإنسان نفسه على أنه جزء من الطبيعة يؤدي به إلى الاعتماد على حواسه وممثلو هذه الرؤية كل من ديمقريطس وابيقو ، وبروتا جوراس وهيوم وكونت .

أو الرؤى الثابتة للعالم والتي تختلف عن رؤية المثالية الموضوعية. فتركز على وقائع الوعي باعتبار أن هذه الوقائع هي التي تشكل الوعي

---

(1) Dilthey , W., Thearie du Monde, (tran) Louis Sauzin, Paris, 1946. P .153.

دكتور محمد أحمد ، مرجع سابق ص١٠ .

(2) Dilthey , W ., Ibid ., P .15 .

وهو نمط مثاليه الحرية وهو نمط يركز على سيادة الفعل واستغلاله عبر الوقائع المعطاه ، وأن العقل قوة تفرض نظاما على المادة .

ومن أنصار هذا النمط افلاطون وارسطو ونظرية التوحيد المسيحي ومن ظهور المثالية الفرنسية حتى برجون وفي الصور المثالية حماية عند وليم جيمس . وظهر أيضا في الفلسفة المتعالية الألمانية .

ودلتاى في بحثه عن أنماط الرؤى الخاصة بفهم العالم وفهم الحياة إنما يسعى لكشف عن وحدة الرؤى الخاصة بفهم العالم والحياة . مؤكد أن تعدد الرؤى للعالم وللحياة مرتبط بالحياة والتي يعتبر التعدد إحدى سماتها، وبذلك يرى أن الواقع عامل هام في تكوين تلك الرؤى لأنها تنشأ من اتجاهنا نحو الحياة ولفهم الحياة ومن بنائنا العقلي الكلي (١) .

وفي تمييز دلتاى بين الاتجاهات والنظريات ذهب إلى أن المذاهب تقوم على الاتجاهات في حين أن النظريات تقوم على التجربة .

ورغم تأكيد دلتاى على أن كل نمط من أنماط رؤى العالم المشار إليها سلفا صحيحة من حيث أنها تسجيل لرؤية معينة للعالم في ظروف معينة فإن ذلك يدفع به إلى أن يترتب على ذلك أننا أحرار فى استخدام جميع هذه الأنماط ، وأن يحصل بالتالي على رؤية أكثر كمالا واتزانا وخصوبة عن الحياة عما إذا قبلنا نموذجا واحدا .

وهنا يكشف دلتاى عن توجهه القائم على أساس إعطاء الوحدة للحياة والتي بناء عليها لا تكون في حاجة إلى وجهات نظر متعددة (رؤى متعددة) وإنما تكون في حاجة إلى منظور واحد .

وهنا نجد دلتاى يطرح الفلسفة كعلم يبحث عن تعين كلي . وأنها علم من حيث أنها نظرية للمعرفة . وهذه الوظيفة يربطها بالمجالات المتعددة

(1) Dilthey ,The Types of World in Rickman , Op . cit., P. 141 .

للحضارة كما ترتبط أيضا بالعلوم الجزئية وتشكل الأساس المنطقي للعلوم الجزئية وتربط هذه العلوم من أجل معرفة الواقع [١] .

فالفلسفة عند دلتاى تقدم تفسيرا للنظم الاجتماعية الفعلية كما تصفها وتحللها الدراسات الإنسانية وذلك عن طريق الرجوع إلى بناء الفرد والمجتمع . وبالتالي تصبح الفلسفة قوة داخلية تعمل من أجل تطوير النظام.

ومن هذا المنطلق بدأ هوسرل لاستكمال مشوار "دلتاى" لإرساء الدعائم التي تقوم عليها الفلسفة كعلم يقيني ونهائي . وذلك لاقتناعه بأفكار دلتاى المتعلقة بإمكانية قيام فلسفة علمية بحيث يقف هذا العلم في مستوى أعلى من العلوم الجزئية الأخرى . ومن ثم وجهت جهود هوسرل إلى الفينومينولوجيا لتحويل الفلسفة إليها كعلم يقيني كلي .

وإذا كان الاتجاه الطبيعي يشير إلى ذلك الموقف الذي لا يضع مسألة وجود العالم ومافيه من أشياء محل التساؤل ، وإنما يسلم بالعالم وما فيه من أشياء وظواهر ويرجع إدراكها للحواس المباشرة .

وإذا كان الموقف الطبيعي بذلك يشير إلى نظر الإنسان العادي إلى العالم الخارجي ونسب إلى هذا العالم بما فيه من أشياء وجودا مستقلا عن ذاته .

ولما كان من المفروض في الشيء المستقل أن يظل غير متأثر بالتغيرات الذاتية ، فإن هذا الموقف هو ما يطلق عليه بالإنجليزية Common Sense ويقابله في العربية الحس العام أو ما يسميه الفلاسفة الواقعية الساذجة [٢] .

ومن ثم يأتي موقف ادموند هوسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨) من الاتجاه الطبيعي هذا وأيضا من المذهب الطبيعي في نطاق الموقف من أزمة العلوم

(1) Dilthey , The Essence of Philosophy, Op, cit., P .89 .

(٢) فؤاد زيد ، مرجع سابق ص٧.

الأوربية التي سادت في أواخر القرن التاسع عشر ، حيث كانت تلك العلوم ترتكز على الموقف الطبيعي والتي تضم علوم الكائنات الحية من حيث مالها من وظيفة نفسية فيزيائية وتشمل علم وظائف الأعضاء ،وعلم النفس إضافة إلى العلوم الإنسانية قبل التاريخ وعلوم الحضارات وكذلك العلوم التى يدرس المجتمع الإنساني منها الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع الذي لم يكن قد تدعمت قوائمه بعد .

ويشير الوقف الطبيعي عند هوسرل لموقف الألمان المتجه إلى العالم والذى يتعامل مع العالم باعتباره حقيقة قائمة بذاتها ،ويقبله على ما هو عليه ويندمج فيه وفقا لهذا الأساس .

وهو الموقف الذي أكد هوسرل على ضرورة الخروج عنه كخطوة أولى للتفكير العلمي الفلسفي في الفينومينولوجيا . والذي يبدأ عنده بتعليق الموقف الطبيعي أي وضعه (بين قوسين) وهنا تتجلى دعوة هوسرل إلى قهر الذات الطبيعية عن وعي وحرية كاملة لحساب الذات الخالصة .

وإذا كان دلتاى قد اجتهد لتحرير الإنسان من أي التزام أيديولوجي لما لها من تأثر على حريته وإبداعه ، مؤكدا أن الوعي بوجهات نظر متعددة يوسع رؤيتنا والقول بأن كل موقف مشروط بالزمان والمكان يمكننا من أن نواجه مواقف جديدة بفعل الأخلاق وعليه تكون السببية التاريخية تذييل للحرية الإنسانية والإبداع الإنساني والوعي الذي يجعلنا نواجه مواقف جديدة بفعل خلاق .

وذلك لأن الوعى التاريخى بنهاية كل ظاهرة تاريخية وبكل ظرف من الظروف الاجتماعية أو الإنسانية ... هو الخطوة الأخيرة نحو تحرير الإنسان فعن طريق هذا الوعي يستجمع الإنسان بكل خبرة إلى أقصي حد (١) .

---

(1) Dilthey , Meaning in History , Op. cit ., P. 167 .

وذلك ما جعل هوسرل يتصدى للنزعة الطبيعية تلك والتي تؤدي إلــى تحويل الإنسان إلى ظاهرة طبيعية وإغفال تمايز الوعي الإنساني عن سائر الموضوعات الأخرى التي تقبل تطبيق منهجية العلوم الطبيعية .

كما انه بوحي من رفض دلتاى للتغيير برمته واحدة مــن رؤى العــالم ولتحرير الإنسان من أي توجيه قيمي يربطه بأيديولوجية معينة تحجب عنه رؤية الماهيات الحقيقية ووسع هوسرل من نطاق الموقف الطبيعي ليشــمل مجموع العادات الفكرية التي سادت حتى اليوم ، كما يدخل فيه الفلســـفات والنزعات التي سادت العلوم المألوفة بما فيها الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وعليه يكون موقف هوسرل من الاتجاه الطبيعي مغاير لموقـف النزعات المثالية الأخرى ذلك لأن تعليق العام (الموقف الطبيعي) ووضعــه "بين قوسين" لا يعنى المساس بهذا العالم ووجوده , كما يتمثل للوحي وذلـك لأنه يعطل الموقف الطبيعي بفعل إرادة واقع يستهدف تحقيق نتائج من هــذا التعطيل .

وذلك ما يعبر عنه النص التالي :

"إن ما نعطله هو الوضع العام الذي ينتمي إلى ماهية الموقف الطبيعــي فنحن نضع بين أقواس كل ما يتضمنه هذا الوضع فـــى مجــال الوجــود وبالتالى كل العالم الطبيعي الذي هو دائما هناك بالنسبة إلينا والذي هو ماثل ولا يكف عن أن يظل هناك بوصفه واقفا بالنسبة إلى الوعي .... وهـــو أمر يدخل تماما في نطاق قدره حريتي، لا أنكر إذن هــذا العــالم ..... ولا أضــع وجــوده موضــع شــك .... وإنمــا أمــارس التعليــق (Epoche) الفينومينولوجي الذي لا يمنع على الاطلاق من كل حكم منصب عل الوجود في الزمان والمكان" [1] .

---

(1) Husserl , E., Ideas : in Pure Phenomenology ,1915.

مع كتاب أفكار ، ترجمة د . محمود رجب ،مخطوطة جامعة القاهرة ، ص ١٩١.

ويرجع تعليق هوسرل للموقف الطبيعي على هذا النحو لكون الموقف الطبيعى يشغل الوعي وينسية ذاته ويجعله يضع في الأشياء وفي موضوعات العالم وفي أفكاره عن هذه الموضوعات ، وذلك ما يجعل الوعي يتباعد عن ذاته ويصبح مغتربا عنها . وذلك ما جعل هوسرل يذهب إلى أن ارتباط الوعي بالموقف الطبيعي يجعله في حالة سذاجة واستسلام لوجود الأشياء . وعليه سعى هوسرل لاسترداد الوعي لذاته بأسلوب التعليق للموقف الطبيعي والرد المنهجي الذي يجعلنا نخسر العالم لكى نكسبه من جديد .

وباتباع هوسرل لمبدأ التعليق ومنهج الرد يستبعد مجموع العادات الفكرية التي سادت ، والتعرف على الحواجز الروحية التي تضربها هذه العادات حول أفق تفكيرنا وهدم هذه الحواجز من أجل الوصول بحرية عقلية كاملة للمشكلة الحقيقية التي تستقضي تحديدا شاملا والتي يكون من الممكن بلوغها بعد تحرير أفق تفكيرنا من جميع جوانبه .

وعندما نقول الأشياء في ذاتها والذي رسم معالمه هوسرل فإنه يعني ذلك الذي قصده هوسرل بالعودة إلى الظاهرة ، ويعني هوسرل بالظاهرة ما يكون موضوعا للرد الفينومينولوجي ، و الذى تخلصه أو نخلصه من الواقع الذي ينسب له من قبل الوعي الساذج [(1)].

الماهية والتجريبية الظاهرية :

عندما طرح هوسرل المنظور الفينوميتولوجي كأساس نظري ومنهجي عام لعلم الحياة المعاشة طرح معه مفهوم يرتبط بطبيعة الظاهرة التي يدرسها من ناحية ومنهجية الرد والمغايرة التخيلية التي يقوم عليها المنظور من ناحية أخرى .

---

(1) Spiegelberg ,H., the phenomenological Movement : Oulumer 1811 . The Hague Martinus Nijhoff, Eugene, 1971. P.722 .

أما عن مفهوم الماهية essence وهو يشير إلى الجوانب المشتركة بين الأفراد كالمعاني والتوقعات ...... وهي بذلك ليست معنا مجردا ، ولكنها بحكم صفة الثبات التي تتميز بها (أي من حيث تحقيقها العيني) بمثابة كيان الموضوع نفسه ، وأن هذا الكيان أو الكل يقوم كجوهر وكوحدة علية ، ومن ثم تدرك الماهيات في تجربة حدسية معاشة أي أنها ترى رؤية حدسية.

والماهية عند هوسرل هي الشيء نفسه " كمعطى أصيل " . ويعتبر مصطلح الماهية واحد من المفاهيم المستخدمة في نظرية علم الاجتماع ، وهو المصطلح الذي قدمته الفينومينولوجية الأوربية في مجال الدراسات الأمريكية . ومن ثم نجد "سفرين مرين" يذهب في مؤلفه المنظور الإنساني في علم الاجتماع إلى أن مفهوم الماهية هذا سوف يطبق على المفاهيم المتمثلة في : الجماعات الأولية ، والنظم الاجتماعية ، والقيم ، والمجتمع ، والدين ، والجمال والأخلاقيات وغيرها من محاولات دراسة الظواهر التي يعني بها علم الاجتماع [(١)] .

وإذا كان هوسرل قد سعى لتعليق المعارف والأحكام المتوفرة لدينا حول الظواهر بغية الوصول إلى الماهيات الخالصة التي تقوم عليها الفلسفة كعلم يقيني ونهائي . فإن الوجوديين قد اتخذوا من الفينومينولوجيا منهجهم لتعليق تلك الماهيات واستبعادها بقصد الوصول إلى الحدس بالوجود الشخصي .

ومن ثم نجد أن هوسرل قد امتنع بإمكان قيام فلسفة علمية موضوعها حدس بماهيات خالصة وموضوعية ، وهذه الماهيات عنده هي الحقائق المتعلقة بالذات والتي تصل إليها كعملية الحديث والتعليق للوجود الخارجي والعمليات السيكولوجية الأخرى ، التي تخفي تلك الحقائق عنا . وهنا يتضح كيف يؤكد الفينومينولوجي على أن ماهية الإنسان سابقة على وجوده .

---

(1) Bruyn , Severyn , The Human Perspective in Sociology , N. Jersey , Prentice - Hall , Inc., 1966. P .44 .

في حين أن وجودية سارتر لا تقر بأن ماهية الإنسان سابقة على وجوده ، وذلك لأنه يرى أن وجود الإنسان هو الذي يسبق ماهية الإنسان ، وذلك لأن الإنسان ، هو الذي يضع ماهيته باختياره الحر لما يريد أن يكون عليه . ويسوق لنا سارتر أمثلة على ذلك بقوله أن الشجاع هو الذي يصنع من نفسه شجاعا بسلوكه ، كما أن الجبان يصنع من نفسه جبانا بتصرفاته، والأديب يجعل من نفسه أديبا بإنتاجه وأعماله . وعليه يؤكد سارتر أن الماهية أي ماهية الإنسان يصنعها الوجود الإنساني بحرية واختيار لنفسه ، وعليه يكون الإنسان مشروعا لنفسه .

وعليه نجد أن تهتم الوجودية بالواقع الإنساني وحده لا بالماهيات والتصورات التي اهتم بها هوسرل والذي قدم بفينومينولوجيته آخر فلسفة ماهوية تتفق مع الفلسفات الماهوية الأخرى على أن الماهيات سابقة في وجودها بصورة ما عن الوجود وأساسية له .

إذ أن الماهية عبارة عن النموذج الذي يبني عليه الأفراد . تصرفاتهم وسلوكهم ... الخ . مثالهم في ذلك مثال المهندس قبل أن يقيم بيتا فإنه يتصور صورته أولا في ذهنه أو في شكل مخطط ثم يعمل على تحقيق تلك الصورة وتنفيذ مخططها في الواقع ثانية .

وعليه تكون العلاقة بين الماهية والوجود قائمة على أساس أن الماهية تأتي أولا كقاعدة في عقل ما ثم يأتي الوجود مضافا إليها محققا لها.

وهذا هو الأساس الذي بنى عليه أقطاب الاتجاه الفينومينولوجي بدءا من فلهلم دلتاى وحتى شوتز ومن بعد الفينومينولوجيين من علماء الاجتماع أمثال بارسونز والذين اتخذوا من الأنماط الصورية التي تقوم على ما يشترك فيه الأفراد وباعتبارها معبرة عن إدراكنا للجانب الذي يشترك فيه الأفراد وهو الماهية مثال ذلك . أنماط التعبيرات عند دلتاى ، و المتمثلة في التعبيرات الاصطلاحية ، والتعبيرات الانفعالية ثم تعبيرات الأقوال .

وهي التي يربط فهمها بحقيقتين . تتمثل الأولى في مجال العقل الموضوعي . وهو الذي تتجسد فيه أفكار ومشاعر ومقاصد الكائنات البشرية التي أوجدته . وهو الذي يعرفه دلتاى بالصورة المتعددة التي يتموضع فيها فى عالم الحواس كل ما يتمسك به الأفراد بوجه عام . (١)وإنه بذلك الواسطة التي يتم فيها فهم الآخرين وتعبيراتهم وأنه أي العقل الموضوعي هو الذي يقدم العون للذات الفردية بحيث يكون وضعها للتعبيرات في سياق عام أمرا ميسرا عليها (٢) .

وتشير الحقيقة الثانية المرتبطة بفهم التعبيرات بأنماطها الثلاثة التي حددها دلتاى إلى علاقتها بأنماط الفهم بصورتيه الأولية والعليا .

وتتمثل الصور الأولية لفهم التعبيرات في تفسير تعبير مفرد من تعبيرات الحياة على أساس أنه معبرا عن واقعة عقلية دون محاولة رؤية هذه الواقعة في علاقتها بالحياة الكلية للذات التي تظهر فيها وذلك ما عبر عنه دلتاى بقوله ، إننا في حالة الصورة الأولية لفهم التعبيرات "لا نرتد إلى السياق الكلي للحياة الذي يشكل الموضوع الدائم للحياة (٣)حيث نستدل العلاقة بين التعبير وما يعبر عنه (المعنى) من حيث الطريقة التي يرتبط الاثنان بصورة مشتركة أي أنه علاقة التعبير بما يعبر عنه (٤).

وذلك ما جعل الأخذ بالصورة العليا للفهم لكي نضع التعبيرات في سياقها بأن نرتد إلى السياق الكلي للحياة وللعالم الإنساني لكي تخمد شكوكنا وذلك بأن يقوم في تفسيرنا للتعبيرات بأنماطها المختلفة بما فيها الأفعال بربطها ببعضها وبالسياق الكلي للحياة .

وعليه يؤكد دلتاى على أننا لا نستطيع أن نفهم التعبيرات بدون تعاطف ومشاركة وجدانية وأننا لا نعرف في شخص آخر شعورا لم نعايشه

---

(1) Dilthey , W., Meaning , Op. cit . , P .120.
(2) Dilthey,W., Ibid., PP.120 - 121.
(3) Dilthey, W., Ibid., P.119.
(4) Dilthey, W.,Ibid., PP.119 - 120.

نحن [1] وإننا عندما نعايش تجربة أحد الأشخاص أو نعيشها يتكون بداخلنا تجارب مماثلة لتجربته ومرتبطة بها . ويشير التعاطف هنا إلى حالة العقل المتضمنة في الفهم [2].

هذا بالإضافة إلى الأنماط المثالية عند ماكس فيبر سواء ما ارتبط منها بأنماط الفعل أو أنماط الشخصية ...... الخ والتي تأثر فيها إلى حد كبير بأنماط التعبيرات عند دلتاي . فضلا عن متغيرات النمط عند بارسونز وأنماط الحاجات المجتمعة (المتطلبات الوظيفية للمجتمع) .

ومن ثم أخذ شوتز بأنماط الفعل الاجتماعي والمعنى لدى فيبر باعتبارها ماهيات أساسية قائمة على ما هو عام ومشترك وذلك لشرح الواقع الاجتماعي . وهنا يتضح قناعة شوتز بمفهوم الذاتية الباطنية التي تقوم على مجموعة المعاني المشتركة والتي تشكل إحدى القضايا المحورية للمنظور الفينومينولوجي في تحليل الواقع الاجتماعي وفهمه .

وهنا يتضح مدى قناعة شوتز على أن جوهر العالم الاجتماعي (ماهيته) يمكن أن ندركه على أنه نسيج مؤلف من مجموعات المعاني العامة لأنشطة الفاعلين المترابطة حول مسرح الحياة الاجتماعية ، وهذه المعاني عامة ومألوفة وتمثل العالم المشترك للعديد من الأفراد الذين يعيشون في ذلك العالم .

وشوتز هنا يؤكد على أنه من أجل هذا العالم المألوف لدينا تعمل جميع العلوم الاجتماعية وتتناوله في كلية أو تتناول جانبا فيه متخذة من الذاتية الباطنية التي هي جوهر هذا العالم مقولة أساسية للفهم [3]ولما كانت الذاتية الباطنية ليست القضية الظاهرة بالنسبة لجميع تلك العلوم فقد بدأت جميع

---

(1) Dilthey, In Rickman, Ibid., P.226.
(2) Dilthey, W., Ibid., P.212.
(3) Zaner, Richard , Theory of Intersubjective , Alked Schutz , Social Research , 1961.

تلك العلوم الاجتماعية بالعالم الاجتماعي الثقافي على النحو الذي يرى عليه أي كما هو معطى وهنا يعقب شوتز قائلا :

" والحقيقة المؤكدة هي أننا جميعا فاعلين على مسرح الحياة الاجتماعية ، ونشترك فعليا وبصورة مختلفة في علاقات الذاتية الباطنية وبدون أية ضمانات لأن نكون قادرين على التقاط معاني وبناءات تلك العلاقات " (١).

وعندما يتحدث "شوتز" عن ذلك فإنه يطرح الحقيقة العليا Paramount reality بالصورة التي تتميز به عن عالم الأحلام حيث أجد ذاتي في عالم اليقظة حيث أكون فيه مع الآخرين والذين ترتب على أنشطتهم نتاج من الموضوعات الثقافية والنظم . والقيم وما شابه ذلك من موضوعات تشير بصورة فعلية لحضور الآخرين .

وهذا العالم الذي أعيش فيه وأمارس فيه دوري وأتفاعل فيه مع الآخرين ، هو عالم مسلم به من قبلي كحقيقة واقعية . فإنني وإن كنت أشق طريقي بداخله فإنه يمدني بخبراتي وتأويلاتي . وهذا العالم وجد قبل وجودي وسوف يستمر من بصري ، فهو عالم ثقافة اجتماعي منظم وقول من سبقوني وسوف يكون كذلك باللاحقين وبنفس الطريقة التي نظمته بها وأولته بها بنفسي . وعليه فإن هذا العالم يكون في متناولي ، لأنه يرتبط بالمعرفة المستقاة من خبرتي الخاصة بي والمتعلقة بمخزون المعرفة المشتركة لدي وبذلك يشكل هذا العالم الإطار الذي أقوم فيه بأفعالي ولكي أحقق توقعاتي على أن أعمل في نطاق هذا العالم . ومن ثم يشكل هذا العالم الحقيقة العليا بالنسبة لي فهو الذي يوجه عالمي وينظم أفعالي ويبرر أعمالي . وعليه فإن هذه الخبرات المتدرجة داخل نطاقات خبراتي الواقعية والذاتية المتداخلة والتي تشكل أمورا مسلم بها من قبلي كما هو مسلم بها من قبل الآخرين الذين يشكلون جانبا من العالم المحيط بي والذي أشكل

---

(1) Zaner, Ibid., P.72.

جانبا من العالم المحيط بهم هي التي تجيب على تساؤلات شوتز التي تشير إلى أنه :

" مع أنني لا أستطيع أن أعيش رؤيتك للأشياء ولا أن أشعر بحبك وكرهك ، ولا أستطيع أن أدرك مباشرة وفي التو والحال حياتك العقلية كما هي بالنسبة لك ، كيف يكون بمقدوري رغم ذلك كله أن أشاركك أفكارك ، ومشاعرك واتجاهاتك ؟

وهنا وبالتحديد نواجه قضية الذاتية الباطنية بكامل فاعليتها [١] ضمن وجودنا العيني في عالم الحياة اليومية العام والذي يسلم به [٢] والذي نتبادل في نطاقه تأويلاتنا لمعاني الأفعال في مواقف الاتصال والتفاعل وذلك بوحي من الحس العام المشترك [٣] .

وتبدأ التجريبية الفينومينولوجية هنا وهي في سبيلها للوصول إلى ماهية الظواهر التي تعالجها الفينومينولوجيا بالوصف والتحليل . وذلك بأن تعكس اتجاهنا الطبيعي في التفكير فنبدأ من وضع ما قبل الأحكام والأفكار ، ومن وضع ما قبل المواقف الفلسفية التي تحجب عنا الرؤية .

ونحن بذلك نرتد إلى مجال اسبق منها جميعا هو بعينه "المجرى الحيوي الخالص" الذي هو موطن التجربة المعاشة لنرى ما يحتويه هذا المجال من رؤية حدسية مباشرة ولنرى أيضا ما يمثل في هذا المجال من ماهيات .

وهوسرل يعرف هذا المجال الذي نسميه بالمجرى الحيوي الخالص . بأنه واقع محايد وليس فيزيقيا ولا سيكولوجيا ، ولا جوهرا ولا روحا وهو سابق على الوجدان (الوعي) نفسه ، والذي هو نوع خاص من ذلك المجال .

---

(1) Zaner,R., Ibid., P.76 .
(2) Zaner,R., Ibid., P.76 .
(3) Zaner,R., Ibid., P.77.

والفينومينولوجيا بذلك وصف لما يظهر في ذلك المجال الأصيل السابق على الأحكام و التفسيرات الفلسفية التي تحجب عنا رؤيته . وبذلك اعتبرت الفينومينولوجيا فلسفة ماهيات لأنها تبحث عن ظهور الماهيات كما تكشف عن ذاتها وترى حدسيا .

وبذلك فإن الماهية عند "هوسرل " هى الشيء نفسه وهي معطى أصل في المجال الحيوي الخالص . وهي أي الماهية بذلك ليست معنا مجردا ولكنها وبصفة الثبات التي نميزها والتي تشير لحقيقة الماهية العينية تعبر عن كيان الموضوع نفسه وأن هذا الكيان كجوهر وكوحدة عليه أن يجعلنا ندرك الماهيات في تجربة حدسية معاشة إلى أنها ترى رؤية حدسية .

المغايرة بالخيال والماهية :

وعندما يربط هوسرل بين الخيال والماهية نجده يشير إلى أننا لو حملنا الماهيات إلى المجال التجريبي وهو الإدراك الحسي . يكون هناك حدودا لخيالنا تفرضها الأشياء نفسها والتي نصدر عنها الحكم والتي يكشف عنها الخيال بنفسه من خلال عملية المغايرة بالخيال Im. Variation وهذه الحدود بخيالنا هي الماهية . وذلك لأن عملية المغايرة بالخيال هي التي تعطينا الماهية نفسها أي هي التي تعطينا الموضوع سواء كان معطى حسي ، ..الخ ، أو معطى مجرد (قضية ....الخ) .

وتكشف تجريبية هوسرل الفينومينولوجية عن المسار المنهجي للحصول على الماهية بالخيال ويتمثل ذلك المسار المنهجي فى أن نحاول بالخيال أي بالافتراض ، أن نستبعد جميع الصفات أو المحمولات لموضوع ما بقصد اكتشاف الصفات والخصائص التي يؤدي حذفها إلى اختفاء الموضوع نفسه وهنا يكون هذا العنصر الباقي الثابت هو الماهية .

وعليه نجد هوسرل يؤكد من خلا ل منهجيته الفينومينولوجية المستندة على مفهوم المغايرة بالخيال والافتراض على أنه الإدراك لكل شيء .

ماهيات للكيفيات الحسية .

ماهيات عاطفية (كيفيات غير حسية)

ماهيات رياضية ... الخ .

وجميع الماهيات لا ترد إلى بعضها كما أنها تتجاوز الزمن وخارجة عن نطاقه . وعن الخصائص المميزة للماهيات فيلخصها " ويلش " مقارنة بخصائص الواقعة كما هو موضحا في الشكل التالي [1] .

الواقعة	الماهية
محدودة بزمان	غير محدودة بزمان .
فردية .	كلية .
خارجية منقطعة .	ذاتية مستمرة .
واقعية .	مثالية .
تتحول أو تتبدل .	ثابتة ودائمة .
بعدية .	قبلية .
حادثة عرضية .	جوهرية مطلقة .
تقريرية احتمالية .	ضرورية يقينية .
تدرك تجريبيا .	تدرك حدسيا .

ثالثا : النقد الظاهري للتجريبية التقليدية :

يتجه النقد الفينومينولوجي هنا للنزعة الطبيعية والموضوعية التي يقلد بها كل من علم الاجتماع وعلم النفس العلوم الطبيعية ، والتي بموضوعها تنكر حقيقة المثل إلا إذا تحولت إلى حقيقة فيزيقية .

(1) Welch , E. Parl, The Philosophy .

واتخاذ النظاميين العلميين من النزعة الطبيعية الموضوعية والتجريبية التقليدية أساسها لدعم استقلال مجال تخصصها عن الفلسفة .

ومن ثم أكد أنصارها على التجريبية التقليدية وملاءمتها لدراسة الظواهر الواقعة في مجال كل منها باعتبارها ظواهر تقبل النظر إليها من الخارج فحسب ، شأنها في ذلك شأن ظواهر العلوم الطبيعية .

وهنا نجد "ادموند هوسرل" يتخذ موقفا رافضا لتلك النزعة شأنه في ذلك شأن فلهلم دلتاى . مستندا في ذلك إلى طبيعة موضوعات الدراسة فى هذه النظم العلمية من نوعية مغايرة لطبيعة ظواهر العلوم الطبيعية .

وان أنصار هذه العلوم الاجتماعية والإنسانية يهتمون بالحقائق الخارجية التي يتم التوصل إليها عن طريق الملاحظة والتجربة على نحو ما هو حادث بالنسبة للعلوم الطبيعية .

وهو بذلك يهملون الوعي والمعنى ويفصلون بين عالم الشعور وعالم المادة وبين الذات والموضوع أسوة بأنصار الاتجاه الطبيعي الذين يهتمون في دراستهم للظواهر الطبيعية بالنظر إليها من الخارج فحسب بحكم طبيعتها .

وإذا كان هذا الفرض التجريبي مناسب للعلوم الطبيعية إلا أن هوسرل يصر على ضرورة البدء بدون توجه مسبق . يؤثر على مدركاتنا لخبراتنا المعاشة والبدء بالظواهر التي يعتبر الحدس والخبرات القصدية محكا لرؤيتها ، ودراستها على أساس الفصل بين العالم الخارجي وشعوري وإدراكي كشخص يعيش في هذا العالم .

وهوسرل بذلك يؤكد على أن اكتساب المعرفة لمعناها الحقيقي يعتمد على كونها منتقاه من تصوراتي وأفكاري وخبراتي وتخيلاتي عن عالم الظواهر المعاشة .

وهوسرل بذلك يسعى لتطوير منهجية فينومينولوجية علمية دقيقة تقوم على تتبع طبيعة الأشياء المدروسة وليس على تحيزاتنا وأفكارنا وخبراتنا المسبقة . وذلك رغبة منه لدراسة الوعي على أساس منهجي يخلص الوعي من أية علاقة بالزمان والمكان والمادة أو السببية . مؤكداً على أن هذا الوعي المطلق يمتلك أشكاله الخاصة وله زمنه الباطني الخاص به . وأن قياسه لا يخضع لأداة قياس الوقت ، كما أن فهمه يتطلب التغلب على الاتجاه الطبيعي الذي سيطر على أنصار النزعة النفسية وأنصار النزعة السسيولوجية التي اتخذت بدورها من التجريبية التقليدية أساسها لدراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء خارجية ، وحقيقة في حد ذاتها ، كما فعل دور كايم الذي أكد على أن الضمير الجمعي الذي يقوم على مجموعة التصورات الفردية والتي إنفصل عنها ، وأصبح يشكل حقيقة في حد ذاتها ، لا تعبر عن أن أي من تلك الفرديات وإنما تشكل حقيقة في حد ذاتها ، يمكن النظر إليها ودراستها كظاهرة في حد ذاتها باعتبارها ذات طبيعة خارجية يمكن النظر إليها كشيء خارجي .

وقد حمل دلتاى بشدة على النزعة الوضعية والنزعة السيكولوجية التي اتخذت من منهج العلوم الطبيعية أساسها المنهجي لدراسة العالم الإنساني مشيراً إلى أن العالم الإنساني لا يمكن تجاوزه وإنه لكي نفهمه علينا أن نفهمه من الداخل ومن ثم طرح دلتاى إطاره النظري والمنهجي الملائم لطبيعة الواقع الاجتماعي والثقافي مشدداً في ذلك ! وعندما ربط دلتاى بين مقولة الزمانية ومقولات الحياة (العالم الإنساني) الأخرى جعلت الإنسان موجود تاريخي .[1] كما أنه عندما ربط بين مقولة المعنى ومقولات تحليل العالم الإنساني الأخرى ، أكد أن المعنى ينبثق عن الحياة ذاتها ، وأنها تشير إلى علاقة الأجزاء بالكل داخل العالم الإنساني ومن ثم فإنه لا يمكننا تجاوز العالم الإنساني ولكن نحاول فهمه من الداخل . وبذلك فإن معنى الحياة

(1) Dilthey , W., Selected Writing , Ibid . P .17 .

يتمثل عند دلتاى في الارتباط بين الأجزاء والكل بداخل الحياة (داخل العالم الإنساني) .

وعليه تكون التجربة عند دلتاى مكونة من أجزاء يربطها معنى عام [٢] ويعني دلتاى بذلك أن العالم الإنساني كل يكون لأجزائه معنى من حيث أن كل جزء يوضح الجزء الآخر ، ويكون شرطا بداخل هذا الكل .

وإذا كانت مقولات كانت تقدم لنا وسائل معرفة العالم الطبيعي ، فإن مقولات دلتاى تمكننا من فهم المعنى Meaning في الحياة البشرية ، حيث تصير الأشياء ذات معنى بالنسبة لنا لأننا نراها كالأجزاء من الكل والأهداف التي ترغبها والوسائل اللازمة لإنجازه وقد وصف دلتاى مدخله على أنه فلسفة العالم الإنساني التي لا يعنى بها جميع الأشياء الحية العائشة . ولكنها تخص من يتناول الحياة الإنسانية بكل تشعباته وتفريعاته الاجتماعية والثقافية. وعليه فقد قيل أن الإنسان يمثل مرحلة تطورية للحياة العضوية ولكنه لم يؤكد على السمات البيولوجية للإنسان ، فحياة الفرد عند "دلتاى" هي مجموعة تجاربه من الميلاد حتى الوفاة . وإنه جزء لا يتجزأ من حياة الجنس البشري (الواقع الاجتماعي التاريخي) ولأن حياته منظمة وتأملية وواعية بواسطة الفكر ، فقد حددها دلتاى وأبرز هويتها بعالم العقل .

وإذا كان دلتاى قد وصف نفسه بفيلسوف العالم الإنساني فمرد ذلك لكون تفكيره يقوم على ثلاثة قضايا مترابطة :

تتمثل أولها في رؤية للمبدأ التجريبي ونقده للتجريبية التقليدية المنطقية وقلبه لها على أساس أن جميع المعرفة تقوم على التجربة المعاشة أي التجربة الحية .

---

(2) Dilthey W., Meaning in History ..... Ibid ., P.17.

أما القضية الثانية فتشير إلى النظرية وإن كل فلسفة تظهر عن وتشير إلى المشكلات اليومية للحياة البشرية .

أما القضية الثالثة فهي جزء لا يتجزأ من الفكرة التي مؤداها أنه على الفلسفة أن ترتبط بإحكام باكتساب معرفة العالم الإنساني بالدراسات الإنسانية التجريبية [1] .

بهذه القضايا الثلاثة تتحدد معالم نسق التفكير العلمي لدى "دلتاى" والأطر النظرية المنهجية للنسق العلمي لدراسة العالم الإنساني . حيث شكلت مقولات تحليل العالم الإنساني مبادئ النسق النظري العام لدراسة وتحليل العالم الإنساني . وعلى أساس القضية الأولى من القضايا الثلاثة فإن العالم الإنساني لمجموعة تجاربنا هي التي تشكل مصدرا لكل معرفتنا.

وبالنسبة لدلتاى ليست التجربة كما هي بالنسبة للنزعة التجريبية التقليدية التي تطبع للواقعية على عقل سلبي . وعليه فقد رفض التجربة كبيانات حسية يستقبلها العقل ، وكذلك الفرضية للواقعية الساذجة والتي مؤداها أننا نواجه بالعالم المعقد من الأشياء والحوادث بتجربة صورة المرآة للواقع الموضوعي .

وبالنسبة لدلتاى كما هو الحال بالنسبة لكانت التجربة نفسها نتاج لنشاط العقل الذي بين البيانات التي استقبلتها وشكلها [2] .

وعليه تقوم نظرية المعرفة عند دلتاى على فلسفته التي عرف بها العالم الإنساني على أنه يشكل كلا من مجموعة التجارب وأيضا مصدرا لجميع التجارب .

فنحن جزء من العالم الإنساني ، كما إننا نتفاعل مع العالم الطبيعي لأننا مخلوقات طبيعية ، نقيم الأشياء ، لأن لدينا أهداف ومشاعر ،

---

(1) Dilthey , W., Selected Writing ., Ibid., P.22
(2) Dilthey ,Ibid . P. 22.

كما أننا نفهم التاريخ لأننا أنفسنا كائنات تاريخية وقادرين على فهم تعبيرات الآخرين (التعبيرات الاصطلاحية ، والعاطفية ، وتعبيرات الأفعال بأنماطها المختلفة) لأننا أنفسنا نتاج لهم [١] .

وعند هذا الحد يذهب "دلتاى" إلى أنه من الطبيعي أن يتأمل الإنسان ذاته وأعماله ، وتجاربه وإنه عندما يصير هذا التأمل منظما وشاملا فإنه يصبح فلسفة . وبمثل ما يتضمن العالم الإنساني جميع أنشطتنا وتجاربنا (وهذه هي القضية الثانية) فإنه العالم الإنساني يكون الموضوع الوحيد للفلسفة الذي يمكن أن ينبض وإن غير التفلسف بالنبض Impulse [٢] .

وإذا كان دلتاى قد رفض النزعة التجريبية التقليدية عند دراسة العالم الإنساني ، فذلك لأنه يرى أن تقدم المعرفة حول العالم الإنساني مرتبطا بالفهم الذي ربطه للتعبيرات بصورة المختلفة ، تلك التعبيرات التي تساعد على أن تعي الحياة الداخلية للآخرين . وذلك ما يوضحه قوله عندما أراد أن يؤكد اعتماد الفهم على التعبيرات ، " إننا نعي بصورة أساسية الحياة الداخلية للآخرين فقط عن طريق تأثير إشاراتهم وأصواتهم وأفعالهم على حواسنا " [٣] .

فالفهم عنده عملية إدراك للتعبيرات وذلك ما يوضحه قوله بأن "الفهم عملية إدراك حالة عقلية من إشارة حسية معطاه يتم عن طريقها التعبير عنها والتعبيرات ليست الرموز والإشارات فحسب ولكنها تشمل أيضا تجليات مضمون كلي تجعله مفهوما [٤] .

والفهم هنا كإجراء منهجي يساعد على إدراك ماذا تعني تعبيرات الآخرين بصورها المختلفة المتمثلة في التعبيرات الاصطلاحية التي تشكل تجريدات من التجربة التي حدثت فيها وهي تقوم على معايير منطقية

---

(1) Dilthey,W., Ibid., P.22.
(2) Dilthey,W., Ibid., P.22.
(3) Dilthey , Selected Writing , Ibid ., P. 248 .
(4) Dilthey,W., Ibid., P.248 .

مستقلة عن الزمان والمكان والمواقف والناس الذين يشملهم ومن هذه التعبيرات الاصطلاحية التي تحقق الوضوح والدقة تضم المفاهيم والبناءات الفكرية الكبرى والأحكام " فالحكم هو نفس الشيء بالنسبة لمن يصيغه ولمن يفهمه "لأنه يؤكد مضمونا فكريا بصورة مستقلة عن الناس والمواقف التي يحدث فيها ولها طابع عام أساسي [١] ويركز فهمها على مجرد المحتوى الفكري الذي يكون نفس الشيء في كل سياق ، ولذلك يكون الفهم هنا أكثر اكتمالا منه بالنسبة لأى تعبيرات أخرى للعالم الإنساني سواء كانت عاطفية ، اصطلاحية أو تعبيرات الأفعال .

أما التعبيرات العاطفية . فهي تشير لتلك التعبيرات التي تنطوي على الكلام التلقائي والتعجب والإيماء والضحك وغيرها من التعبيرات المماثلة . وهذا النوع من التعبيرات إما أن يكون حقيقيا أو غير حقيقي ولا يمكن أن يكون صادقا أو كاذب وهو مرتبط بالكائن الحي وطريقته وبالفهم الذي ينتجه [٢] دلتاى لتعاش التجربة المشتركة ونتاجاتها التي هي نتاج الحياة المشتركة والتي تنطبق على حياة الأفراد كما تنطبق على حياة المجتمعات [٣] حيث أن دلتاى قد أكد على أن الحياة تتكون من تفاعلات بين الناس [٤] .

وذلك بعينة ما دفع دلتاى إلى الاعتماد على التجربة المشتركة تلك في تحقيق الفهم عن طريق التجربة الانعكاسية أو تأليف التجربة وإعادة معايشتها بصورة خيالية والتي عبر عنها "بإعادة اكتشاف الأنا في الأنت [٥] والتي بناء عليها تتوقف كل معرفتنا بالذوات الأخرى من خلال عملية إسقاط حياتنا الباطنية الخاصة بنا على الآخرين وذلك ما يكشف عنه

(1) Dilthey .W., Descriptive Psychology and Historical Understanding , Hague Martinus Nighoff ,1977. P.123 .
(2) Dilthey , Ibid., P .123 .
(3) Dilthey . An Introduction to the Human Studies, Op. cit., P.179 .
(4) Dilthey, Ibid., P.232 .
(5) Dilthey, Meaning in History , Op . cit ., PP . 67 , 116

حوار هوسرل حول حضور الأنا مع الآخـــر Co - Present وذلـــك مـــا يوضحه النص التالي :

" المعية أو الوجود مع الأخر الذي لا يكون ولا يمكن أن يكون أيضـــا حاضرا بشخصه والأمر هنا خاص بنوع من العقل به يحصل الوجود مـــع نوع من إدراك النظير الذي سوف تشير إليه بكلمة حضور النظير [(١)] .

ويمهد "هوسرل" لتحليل آلية التفاعل بين الذاتيـــة الباطنيـــة المتعاليـــة بوصفها عالم غريب ومتصل بين الذوات ، وموضوعاته في متناول كل من تلك الذوات المتفاعلة في نطاق ذلك العالم المتعالي :

وذلك ما يوضحه النص التالي :

" إن عندي في ذاتي وفي إطار حياتي الشعورية الصرفة المردودة على نحو مثال تجربة عن العالم ، وعن الآخرين . لا يوصفها عملا لنشـــاطي التأليفي الخاص بي على نحو ما ... بل بوصفها تجربة عن عـــالم غريـــب عني ومتصل بين الذوات وموجود لكل واحد منا ، وموضوعاته في متناول كل واحد منا " [(٢)].

وعليه نكون قد وصلنا مع "هوسرل" إلى غية تلـــك الذاتيـــة الباطنيـــة المتعالية والقائمة بفضل الوضع المشترك بين الذوات ،بين الأنا والآخر تلك الذاتية التي تربط الأنا بالطرف الأخر في نطاقـــها وارتبـــاط كـــل الأنـــا والآخـــر . بها في نطاق عملية ذات آلية من التفاعل المستمر التي لا ينتفي منها وجود أى من الأطراف الثلاثة والتي تشكل على نحو ذاتي متصـــل العالم الموضوعي ونملك بفضلها الوضع المشترك الذي هو أســـاس تلـــك الذاتية المتعالية والتي تمثل النحن المتعالي وهو الطرف الثالث في نطـــاق الذاتية الباطنية المتعالية .

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتيه ، مرجع سابق ص ٢٣٦ .

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، مرجع سابق ص ٢١٤ .

وذلك ما يوضحه النص التالي :

" أن الذاتية المتعالية المتصلة التي تملك بفضل هذا الوضع المشترك دائرة متصلة للاختصاص حيث (يتكون) فيها على نحو ذاتي متصل العالم الموضوعي وكذلك بصفتها النحن المتعالي ، فإنها تكون بالنسبة إلى هذا العالم ذاتا وكذلك بالنسبة إلى عالم بني الإنسان بوصفه الصورة التي تتحقق عليها هذه الذات ذاتها كموضوع " (١) .

ومن ثم كان تأكيد هوسرل على البديل الفينومينولوجي متأثرا بدلتاى ورفضه لتوجهات المثالية والوضعية مع اعتبار المنظور الفينومينولوجي ذلك المنظور النظري العام الذي يساعدنا على تجاوز التوجهات الأيديولوجية سواء كانت تدعم النظام أو تهاجمه (٢) .

وذلك لأن الفينومينولوجية التجريبية تساعد على تحقيق الرؤية الحدسية المباشرة للحقيقة الموضوعية (الماهية) والتي لا تتغير لأنها بمنهج الرد الفينومينولوجية الذي تقوم عليه التجريبية الفينومينولوجية يتم حذف كل ما هو عرضي ويتغير حتى تصل إلى الماهية في باطن هذا الفرض .

وقد اتسع نطاق الفينومينولوجية التجريبية في فهم الواقع الاجتماعي بعد أن أخذ اتصال الاتجاه الوجودي الذين يستندون أيضا على التجربة الحدسية الوجدانية مع تأكيدهم على أن واقع التجربة هو واقع الإنسان الكائن بمعنى أن واقع التجربة هو وجود الإنسان بكل ما فيه من خصوصية وفردية ومعاناة بصورها المأسوية المتعددة التي كشف عنها الفكر الوجودي بدءاً من كيركيمارد وحتى ميرلوبونتي .

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ،مرجع سابق ص٢٣٤ .

(٢) دكتور السيد علي شتا ، الاغتراب الاجتماعي ، مرجع سابق ١٩٧٣ م نظرية الاغتراب ، الاسكندرية مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٣ .

من هنا كان الاهتمام بالمنظور الفينومينولوجي كإطار نظري عام لعلــم الاجتماع على نحو ما ذهب كل من شوتز ولو كان وبرجر وبارسونز [١].

ومن ثم جاء تأكيد علماء الاجتماع على أن الفينومينولوجية الوجوديــــة هي أساس النظرية العامة لعلم الاجتماع وبذلك اتخذ منه بعــض علمــاء الاجتماع منطلقهم النظري والمنهجي لإعادة التفكير في علم الاجتماع ومنهم الواقع الاجتماعي [٢].

(1) Parsons, T., The Structure of Social Action , Glencoe, Ill The Free Press , (1937) 1949.

(2) Tryakian, Edward, Existential Phenomenlogy and the Sociological Tradition . Am. Social. R., 1965. Vol: 30. PP.685 - 686.

الفصل السابع

الأصول الفكرية للتجريبية الظاهرية المعاصرة
في
علم الاجتماع

- تمهيد :
- أولاً : التجريب الاجتماعى فى العلوم الإنسانية عند فلهلم دلتاى
- ثانياً : تجريبية الذاتية البينية المتعالية عند ادموند هوسرل
- ثالثاً : التجريبية الظاهرية عند كارل شتوف
- رابعاً : تجريبية العلاج النفسى الظاهرى الوجودى

الفصل السابع

الأصول الفكرية للتجريبية الظاهرية المعاصرة في علم الاجتماع

تمهيد :

لانقف بالتجريب الاجتماعي عند مجرد نقد التجريبية التقليدية لدى جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) ، وهيوم (١٧١١-١٧٧٦م) ، والتى تشير الى ان التجربة هى التى تكون المعانى فى الذهن ، وأن الذهن مستقبل سلبى تطبع عليه التجربة المعرفة .

وإذا كان اوجست كونت بوضعيته قد أكد على أهمية التجربة بمعناها فى العلوم الطبيعية ، فان هذا لايعنى أن جميع علماء الاجتماع قد استخدموا التجربة بنفس نزعت " لوك " وهيوم " ، فهم أى علماء الاجتماع ليسوا تجريبيون بالمعنى الذى فهمنا به التجريبية التقليدية أو النزعة التجريبية ، كما ان من طالب منهم باستخدام التجربة الطبيعية فى دراسة الموضوعات الاجتماعية ومنهم " ملفريدو باريتو " .

لم يستطع ضبط التجربة واحكامها بالصورة التى عهدناها بها فى العلوم الطبيعية ، وذلك لعدم ملاءمتها للموضوع وعدم قدرتها على تحقيق الفوضى على المعانى فى بطون الاجتماع الإنسانى على نحو ما ذهب ابن خلدون.

وان كان باريتو (١٨٤٨-١٩٢٣) قد انتقد وضعية كونت وسبنسر بدعوى نزعتها العلمية الذاتية ، مؤكداً على ان مايتجنبا ذلك هو استخدام علم الاجتماع للمنهج التجريبى [1] المنطقى وفقاً لقواعد الاستقراء الى حد ما " جون استيوارث ميل " (١٨٠٦-١٨٧٣م) .

---

(١) تيجاشيف مرجع سابق ص ٢٣٩.

واذا كان باريتو يعتبر الفرد اصلا للوجود الاجتماعى ، وأنه كان يميل نحو التخلى عن الملاحظة ذاتها والاكتفاء بمجموع عواطف الآخرين حول الوقائع مما جعلة يبعد عن الاستقراء ويستخدم بدلا منه إنماطاً ونماذجا للفعل وللرواسب والمشتقات وللصفوة ...الخ مستنداً فى ذلك على الحدس ، والتأمل فى محاولة الحصول على وقائعه ، ثم تمييزه بين الرواسب والمشتقات على أساس منطق الرد الفينومينولوجى لدى هوسرل فيما يتعلق بالمحمولات الجوهرة التى تكشف عن الماهيات ، والمحولات العارضة التى تكون عارضة وتخفى الماهيات عنا . والنظر للرواسب على انها عناصر هامة دائمة ، فى حين أن المشتقات غير هامة وسطحية ومتغيرة . واننا نسعى للوصول الى الرواسب لاستخلاص العناصر الدائمة التى تمثل الرواسب وتمكننا من معرفة الرواسب التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالعواطف أكثر من المشتقات من التعمق فى أساس الأفعال الإنسانية والسعى لبحث وتحليل العملية فى أعماق العواطف مجرد تجليات أو مظاهر لظواهر نفسية بيولوجية.

هذا فضلا عن اهتمامة بالمدخل الفردى والعلاقة بين الفرد والمجتمع باعتبارها مظهر للمشكلة العامة المتعلقة بالعلاقة بين الجزء والكل وهى المقوله التى استند اليها دلتاى ضمن المقولات التى استند اليها فى تحليل العالم الإنسانى والكشف عن المعنى القائم على علاقة الكل فى الجزء من سياق العالم الاجتماعى هو المدخل التمهيدى للتحليل الفينومينولوجى للعالم الإنسانى وبتأكيد باريتو على هذا المدخل يعيد للأذهان ايضا نفس المداخل الذاتية الفردية التى أكد عليها فيبر ومالينوفكس.

حيث يذهب ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) الى حد القول بأن القيم داخل التكوين الفردى هى التى تشكل أساساً للوجود الاجتماعى .

وأيضا تأكيد مالينوفسكى (١٨٨٤-١٩٤٢) على أن سعى الفرد لاشباع حاجاته البيولوجية ليس التى تتطلب أشياء تؤدى كنتيجة تالية إلى صنع

الحضارة والثقافة ليس من خارج الذوات الفردية وإنما من داخلها ، أي من داخل التكوينات العميقة في الباطن العميق للذات الفردية .

وهذا ما يشجعنا على القول بأن " بارتو " في تشبثه بالتجريبية المنطقية في تعمق مجموعة الظواهر التي لا تنتمي للعالم التجريبي والتي تقوم بدور فعال في الحياة الاجتماعية والعملية في الأفكار ، والمجردات والأراء والمعتقدات والعواطف قد ترجع التأثر بالتجريبية الفينومينولوجية لدى شتوف إلى حد كبير .

ورغم وضعية كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) وسبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) إلا ان اميل دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧) قد انتقد تجريبيتها ووصفها بأنها ليست علميه بقدر كاف وطالب بدراسة الظواهر الاجتماعية على انها اشياء . تخضع للمعالجة التجريبية مع تأكيده على استخدام المقارنة وطريقة التلازم في التغيير كطريقة تجريبية أكد عليها جون استيورت ميل " (١٨٠٦-١٨٧٣) . ورغم ان اميل دوركايم " يصر على عدم ارجاع الظواهر الاجتماعية الى ظواهر فردية لكون الظواهر الاجتماعية تصاغ في بناء يجعلها حقيقة في حد ذاتها ، ومستقلة عن تجلياتها الفردية . الا انه يعود ويؤكد على ان التجليات الفردية هذه قد تشير الى ظواهر اجتماعية - نفسية يهتم بها عالم الاجتماع بصورة غير مباشرة .

وينتقد دوركايم منهجية اوجست كونت وسبنسر ووصفها بأنها غير علمية بالشكل الكاف . وتراجعه عن مقالاته في التعامل مع الظاهرة الاجتماعية على انها اشياء في حد ذاتها والاشارة الى وجود ظواهر اجتماعية نفسية يهتم بها عالم الاجتماع بصورة غير مباشرة ويكون هناك اعتراف ضمني من المغالين في تطبيق التجريبية التقليدية في مجال دراسة ظواهر العالم الاجتماعي .

بأن ظواهر الدوافع الاجتماعي من نوعية مغايرة لنوعية ظواهر العلوم الاجتماعية ، وأنهم بلجوئهم الى تجريبية العلوم الطبيعية ومحاولة تطبيعها على الظواهر التى يتناولها علم الاجتماع إنما كانوا متأثرين فى ذلك بالتجريبية التقليدية ومنبهرين بما حققته من حصاد معرفى فى مجال العلوم الطبيعية وبعض مجالات الدراسة الإنسانية مثل علم النفس الذى حقق استقلاليته عن الفلسفة آنذاك والذى اعتمد على التجربة التقليدية فى معالجة موضوعاتة وهو ماحمل عليه بشدة كل من فلهم دلتاى (١٨٣٣- ١٩١١) وبرنتانو(١٨٣٨-١٩١٧) وقد ظهر الميل العلمى الخالص لدى فوندن الذى ارتبط بظهور الحركة السيكولوجية التى بدأت منذ " فشنر Fechner " الذى نشر اسس علم النفس عام ١٨٦٠ ، ورغم ان برنتانو قد اطلق على علم النفس لديه بعلم النفس التجريبى الا ان علماء النفس لم يعترفوا به كواحد من أسلافهم لأن اسمه يرتبط دائما بالفينومينولوجية النظرية عند هوسرل ، الفينومينولوجية التجريبية عند شتوف . كما ان كل من فوندث ، وبرنتانو قد أقاما علم النفس على مبادئ فلسفية ومن الواضح أن نسق برنتانو كانت مبتدأ بالتوجه نحو التفسيرات التى تسمح بنوع من التأويل الذاتى بصورة أكثر ، وكان الفعل القصدى مفهوم رئيسى فى نسقه الفكرى وليس تحليل الوعى . وهو المفهوم المحورى فى فينومينولوجية هوسرل .(١)

كارل استوفى (١٨٤٨-١٩٣٦) اقام نسق التجريبية الفينوميولوجية والتى تميزت عنده بأنها كانت عكس الفينومينولوجية التجاوزية عند ادموند هرسول كما أنه لم يضمنها عملية الرد المنهجى التى اقام عليها هوسرل نسقه الفينومينولوجى وذلك لأن شتوف نظر له على أنه تخيلى أكثر من كونه واقعى (٢)إلا ان شتوف يذهب إلى أن التجريبية الفينومينولوجية عنده تتضمن

(1) Thiens, Georges, Phenomenology and the Science of Behaviour, London. Boston, George Allen & Unwin, 1977. P.57.
(2) Thiens, Georges, Ibid. P.70.

موضوع الظاهرة الأولية والثانوية حيث تشير الظاهرة الاولية للمحتوى المباشر للخبرة الحسية ، أما الظاهرة الثانوية تشير الى التصورات الحاضرة فى الذاكرة .

وهنا وان كان دلتاى يرفض وضعية كل من كونت وسبنسر ، والنزعة السيكولوجية التى تتخذ من التجربة الطبيعية أساسا لها فإنه لا يتفق مع مثالية هيجل الذى يذهب بأن كل معقول واقعى وكل واقعى معقول . كما أنه اتخذ موقفا مقابلا لموقف كانت بالنسبة للذات العارفة بوضعها مميزة عن الذات التى نعرفها ومن ثم رفض مفهوم الذات المتعالية عند كانت وتلاميذه وذلك لأنه يرى ان الفكر يجد النظام فى التجربة كما أن الفكر لا يفرض هذا النظام وهنا يذهب دلتاى إلى أن الحقيقة الموضوعية للعقول الآخرى وللموضوعات الخارجية لا تتمثل فى مطابقتها لقوانين نسق عقلى ، ولكنها تتمثل فى علاقة حيوية للفاعل وتفاعل بين ذواتنا وبينها وبين تلك العقول الآخرى والموضوعات الخارجية . وعليه يذهب دلتاى الى حد القول بأنه " بمعرفة ذاتى اعرف ايضا العالم الخارجى والآخرى " (١).

وإذا كان العالم الخارجى يبقى بالنسبة للعقل المدرك ظاهرة ، فإنه يبقى بالنسبة للكائنات البشرية التى تشعر ، وتريد ، وتتخيل هذا الواقع الخارجى شيئا مستقلا ومعطى بصورة مباشرة لأنه جزء من الحياة وليس مجرد فكرة . وذلك مايوضحه قول دلتاى " ان العالم الخارجى يبقى فقط بالنسبة للعقل المدرك ظاهرة ، ولكنه يبقى بالنسبة للكائنات البشرية ، التى تشعر وتريد وتتخيل هذا الواقع الخارجى شيئا مستقلا ومعطى بصورة مباشرة ويقينا مثل ذاته ، انه جزء من الحياة (العالم الإنسانى) لا مجرد فكرة " (٢)

وعندما يذهب دلتاى الى أن المعرفة مشروط باستمرار بفهمنا للسياق الباطنى (العقل ، الغريزة ، الحياة العاطفة ، افعال الارادة ... الخ) إنما كان

---

(1) Dilthey , W., Selceted Writing ,Ibid, P.162.
(2) Dilthey, Ibid. P, 162

يريد أن يقيم " علم التأمل فى الذات " يكون مستقلا عن منهج الفرد والتحقق ، أى علم يمكننا من وصف الارتباطات داخل الحياة الفعلية للكائن البشرى وتحليلها . وهو علم النفس الوصفى أو علم التأمل فى الذات . (١)

وقد ترتب على اهتمام دلتاى بالإنسان الكلى أكثر من اهتمامه بالعمليات العقلية والنواحى الجزئية ، أنه لا ينظر للإنسان من الخارج ولكنه ينظر له من الباطن كما يرى الإنسان ذاته ، وكما يشعر بنفسه . وهذه هى النظرة الى الحياة التى تجد التعبير فى الشعر الغنائى (٢) ، او فى سير الحياة الذاتية ، او فى التأملات الدينية .

وبذلك رفض دلتاى الوضعية التقليدية أو تلك التى أخذت بتوجه"باركلى" الذى كان يرى ان المادة ليست شئ فى ذاتها وإنما هى تجريد مناسب ، وعليه يرى باركلى ان القوانين الفزيائية لا تصف العلل الحقيقة ولكنها تعبيرات معممة عن الطريقة التى ترتبط بها أو التى كانت تربطها ببعضها.

وعندما يتناول دلتاى الوحدة الحقيقية للحياة العقلية لايتناولها على انها شعور او فعل قصدى منعزل عن مضمونه ، ولكنه يتناول تلك الحياة الفعلية على انها رد فعل كلى من الذات الكلية لمواقف يواجهها .

وفى تحليل دلتاى لرد الفعل هذا (وكل رد فعل) يحدد ثلاثة عناصر أساسية تتمثل فى :

- الإدراك Cognition.
- والشعور Feeling.
- والنزوع Conation.

وهى يتوقف بعضها على بعض فى تظام بشكل أساسى تظلم الحياة الفعلية.

(١) دكتور محمود أحمد ، ص ٥٥

(2) Hadges,H. A.The philosophy of Wilhelem Dilthey, Ibid P.200.

ويأتى تحليل دلتاى للحياة العقلية ورد فعلها فى الموقف الــذى يواجهــها كرد فعل على تلك المحاولات التى قدمها جون اسيورث لتحليل ظاهرة العقل البشرى . ومؤلفى هريرى بيشر الذات صدر عام ١٨٥٥ بعنــوان " مبـادئ علم النفس وهى دلتاى يطر " علم تأمل الذات " [١] وعلم النفس الوصفى .

وقد تأس بعلم تأمل الذات عند دلتاى س. رايت ميلز فى طرحه للخيــال السسيولوجى [٢]عند نقده لعلم الاجتماع الكلاسيكى ، وأيقنه جولدنر فى طرحه لعلم الاجتماع التأملى [٣]لإخراج علم الاجتماع من أزمته.

ونعود للنسق البنائى الذى تؤلفه عناصر رد الفعل فى الجربة حيــث أن هذه العملية العلمية التى تقود من الفهم الموضوع الى الشعور ومن الشــعور الى الارادة والفعل ، تقع بداخل التجربة الباطنية ، وتنشأ بالتــالى معرفتنـا بالنسق البنائى وعليه فان اكتشاف علم النفس الوضعي ، وعلم تأمل الــذات لهذا النسق البنائى لا يتم عن طريق الافتراض والاستدلال المنطقى ، ولكننــا نعايشه ونختبره بصورة فعلية لأنه معطى بداخل التجربة الحيــة ، ويظــل مرتبطا بها.

ودلتاى بذلك يؤكد على ان الحياة الكلية وحركة العقل منعكسه فــى كــل لحظة من لحظات التجربة . وبذلك يؤكد دلتاى على الاستبطان فى اكتشـاف النسق البنائى للعقل مخالفا بذلك ماهب اليه ديفيد هيوم ورؤيتــة للاســتبطان على انه لا يحقق إدراكا جزئيا.

ولما كان الوعى عند دلتاى لا يجاوز ذاته ، وأن مفاهيم العلم الطبيعــى بحكم انها مشروطة حسيا بالإدراك الخارجى المكانى والزمانى فــإن تلــك

---

(1) Dilthey , Descriptive Psychology.. Ibid . PP.43-45 & 68-69.
(2) Mills, C. W., the socialagical in cugination, N.Y., Oxfrod & London, Oxford University Press, (1959) 1980.
(3) Gouldner, Alvin W., The Coming Crisis of Western Sociology, London, Heinman, 1971.

المفاهيم لا تنطبق على وقائع التجربة الباطنية كما أننا لا نبحث عن معرفة النسق البنائى للعقل الا فى ذاته لأن الفكر الذى يصاحب التجربة الحية وبرفعها الى مستوى الإدراك الباطنى يتحول الى حكم والى تأمل فى ذاته.

وعليه ينتقل دلتاى من تحليل النسق البنائى للعقل مؤكد على ان الإنسان يتعلم معرفة ذاته من أفعاله وتعبيراته وأثرها على الآخرين . وذلك لأن التعبيرات تكشف عن التجارب التى نعيشها ، ومن ثم تتكشف العلاقة بين التجارب من خلال تلك التعبيرات ، وعليه يقرر دلتاى إمكانية تحليل البناء العقلى بدراسة التعبيرات .

وعليه يتم من خلال الاستبطان فهم أنفسنا وفهم الآخرين بوضع ما اختبرناه بالفعل فى كل نوع من التعبيرات عن حياتنا الخاصة وحياة الآخرين(١).

وفى سياق شرح " دلتاى " لمقوله الزمان يشير الى ان الزمان الذى يوجد بالنسبة لنا عن طريق وحدة الوعى . وذلك لأن الزمان الذى نعايشه ونختبره بوصفه مقافيا يصبح فيه الحاضر باستمرار ماضيا ويصبح المستقبل حاضراً ، ويشير مصطلح الواقع عنده إلى ان التجربة الحاضرة هى التى نعيشها فقط بينما يكون الماضي بالنسبة لنا متنكر والمتسقبل مستدلا ، ويبقى الحاضر بصورة مستمرة ، فى حين ان مضمون التجربة الحية يتغير باستمرار.

وعندما يقول دلتاى بأن التجربة تنتمى إلى الحاضر فهو يعنى بذلك ان الفعل العقلى يتم فى الحاضر فتذكرى لألم شعرت به فى الأمس يعنى ان تذكرى للتجربة يكون حاضراً بينما ينتمى الألم الى الماضى ، وبالتالى يطلق على المضمون الذى حدث فى الماضى أو فى المستقبل بأنه يجاوز (يفارق)

(1) Dilthey, Meaning, Ibid, P. 71.

التجربة الحية ولكنه لا يجاوز الوعى ، ولكنه يجاوز اللحظة الحاضرة للوعى المليئ بالتجربة الحية.

ومن ثم ينتقل دلتاى من تحليل النسق البنائى للعقل Yلى تحليل النسق البنائى لعالم الحياة (العالم الإنسانى) مؤكداً على قيام فهمنا للعالم الإنسانى يستند إلى مقولات أساسية تتمثل فى الزمانية ، ومقولة المعنى ومقولة التطورومقولة الداخلى والخارجى ومقولة الغايات والوسائل ومقولة الهدف ومقولة القوة ومقولة القيمة وهل يشكل مبادئ النسق النظرى الذى يساعدنا على فهم المعنى فى العالم الإنسانى . حيث تصبح الاشياء ذات معنى بالنسبة لنا لأننا نرى هذه الاشياء أجزاء من الكل ، ونراها أهدافا نرغبها ووسائل نستعين بها لتحقيق تلك الأهداف . ومقولات تحليل العالم الإنسان عند دلتاى ليست صورا قبلية للفهم لا يمكن برهنتها بتدبير متعالى ، ولكنها لا تنطبق على الحياة بصورة قبلية ، لأنها متضمنة في جوهر العالم الإنسانى ذاته ومستمدة منه . وهذا فضلا عن طريق مقولات تحليل الحياة تلك بصورة تكون منها نسقا نظريا يوصلنا لفهم المعنى فى العالم الإنسانى.

وبذلك يشير مصطلح التعالى ، (التجاوز) عند دلتاى والذى يعنى أنه شيئا ما يجاوز او يفارق ، الى انه لا يوجد بالفعل بالنسبة لنا ، ولكنه موجود بالنسبة للوعى الذى يختبر بصورة مباشرة وذلك يشير فى نظر دلتاى إلى أن " كل شئ يوجد بالنسبة لنا يوجد فقط بوصفه معطى فى الحاضر أو حتى عندما تكون التجربة ماضيا فإنها توجد فقط بالنسبة لنا بوصفها معطاه فى تجربة حاضرة [١]

كما أنه يؤكد على أن المعنى مقولة عامة لأنها ملازمة للعالم الإنسانى بحكم أنها ملازمة له لأنها تمثل العلاقة التى توجد بين أجزائه [٢] هذا

(1)Dilthey, Selected Writings , Construction, Ibid . P. 232.
(2)Dilthey , Meaning in History, Ibid. PP. 75-76.

بالإضافة الى تأكيده على أن المعنى ينبثق عن الحياة ذاتها . وهذا معناه أن كل قيمة وكل غرض مثبوت فى تجربة الكائنات البشرية الفردية التى تعيش فى زمان معين وفى ظروف معينة وعليه فإن ارتباط الحياة لايفهم إلا بواسطة المعنى الذى لكل جزء من اجزاء العالم الإنسانى .

وإذا كان دلتاى قد أكد على علاقة الفهم بالتعاطف فذلك لقناعته بأنه لكى نفهم علينا أن نعرف ما يختبره شخص آخر وما يعايشه ، وذلك عن طريق إعادة إنتاج تجربته أو اعادة معايشتها . وذلك ما يوضحه قوله " إننا لا نعرف فى شخص آخر شعوراً لم نعايشه نحن (١)

وبذلك يتأكد لنا بوضوح عمق الاختلاف النوعى بين الظواهر الطبيعية التى تخضع للاختبار والتجريب الطبيعى بمنطق هوم ولوك ووقوف تفسيرها عند حدود المظاهر الخارجية والظواهر الاجتماعية التى هى بمثابة تجليات لوقائع اجتماعية ونفسية إنصهرت فى نطاق تلك التجليات فجعلت من حدوثها طابعاً معيناً لا يكفى لتفسيرها النظر إليها من الخارج من خلال المظاهر والسلوكية والافعال التى تجسدها فى الواقع ، وإنما يخضع تفسيرها أيضا لأهمية النظر إليها من الداخل .

وذلك بعينة هو ما أثار الحوار الخلافى بين مؤيدى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على ظواهر الواقع الاجتماعى ومعارضي تلك الوضعية الذين رفضوا تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على الظواهر الاجتماعية ، وعن هذا الحوار المتصل تمزقت إنماط التجريب الاجتماعى المختلفة والتى تلائم طبيعية الظواهر الاجتماعية منذ ابن خلدون الذى كان أول من طرح التجربة الشخصية والتجربة التاريخية وحدد فاعليتهما فى فهم ظواهر الاجتماع الإنسانى . التى هى موضوع الدراسة فى علم الاجتماع الإنسانى عنده . وذلك ما أثرى من بعده الحوار وجعل المداخل الذاتية محل اهتمام العلماء فى فهم ظواهر الاجتماع الإنسانى وتأكيدهم على أهمية تلك المداخل فى دراسة

---

(1) Dilthey , Selected Writings , Trans. By Rickman, Ibid. P. 212.

التفاعل الاجتماعى والافعال البشرية للذوات المتفاعلة وضـــرورة الاهتمـــام بقضايا الفهم والتعاطف والمعانى والتعبيرات على نحو ما فعل " دلتاى ".

بالنسبة لوقائع العالم الإنسانى تلك الوقائع الإنسانية التى تعتبر ذاتية مـــن وجهة نظر أنصار النزعة الذاتية ، وذلك لانهم يرونها على انها حالات عقلية لأشخاص معينين وانها تمثل تأويلات وتعبيرات ووجهات نظـــر لأشـــخاص معينين .

وفهمنا لتلك الوقائع الإنسانية يأتى من كوننا نضع أنفسنا دائمـــا موضـــع هؤلاء الاشخاص فترتبط المعنى بالمعنى ، لكى نصل إلى نتيجة ذات دلالـــة نفهم بها العالم الإنسان والوقائع الإنسانية كما أننا لا نستيطع أن نمنع البـــاحث من تقييم المواقف ، كما يراها . وبذلك يكون حضور الجوانب الذاتيـــة فـــى دراسة الوقائع الإنسانية والاجتماعية أمر ضرورى لاتستطيع تجنبه ، وإنمـــا علينا أن نقتنه ونضع له الضوابط التى تجعلـــة ذات أداء وظيفـــى لتحقيـــق الموضوعية فى دراسة الظواهر والوقائع الاجتماعية التى لاتكفى رؤيتها من الخارج لإقامة موضوعية دراستها على نحو ما يحدث بالنسبة للظواهر التـــى تهتم بدراستها العلوم الطبيعية ولكن علينا أن نراها من الداخل سواء اســـتندنا فى تلك الرؤية على التعاطف مع الأخرين ، والنفاذ الى الدوافع التى تحـــرك سلوكهم ، والغايات التى يرمون اليها ، او النتائج التى تـــترتب علـــى تلـــك الدوافع . أو أقمناه على أساس الوعى أو الوعى والحـــدس ، أو الاســـتبطان والفهم على أساس ان الاستبطان للخبرات والعادات ، فضلا عن فهم الأفكـــار والعبارات والتعبيرات والمعانى والدوافع ، والغايات أو على أساس التقويـــم الذى يخلفه الباحث على الفعل.

وعملية فهم الذات سواء كانت قائمة على الوعـــــى والحـــدس بظواهـــر الاجتماعي الإنسانى أو قائمة على الفهم والاستبطان والتقويم الـــذى يخلفـــه الباحث على العقل فإنها (أى علمية الفهم) تنطوى على عمليـــات أساســـية تتمثل فى :

- الوعى او الإدراك بالكلمات.

- وفهم الأفكار التى تعبر عنها تلك الكلمات.

- وفهم الدوافع التى تعمل وزاهرة الافكار.

- وإدراك الغايات او النتائج.

- والتقويمات التى يخلفها الشخص على الغايات أو النتائج.

هذه هى مجموعة العمليات التى تهتم بها العلـوم الاجتماعية والإنسانية . وذلك ما يكشف بوضوح عن مدى حضور عملية الفهم الذاتى فى الدراسـات الإنسانية والاجتماعية الامر الذى يقتضى منـها أن نعمـل علـى تقنينـها وتبسيطها حتى تحقق بحضورها موضوعية المعرفة حول الظواهـر التـى تتناولها العلوم الاجتماعية بعامة وعلم الاجتماع الإنسانى بخاصة.

فبغيابها لا تتحقق موضوعية المعرفة وبدون ضبطها وتقنينها لا تتحقـق موضوعية المعرفة أيضا . والتقنين الذى نعنيه هنا هـو التنميـط ووضـع المظاهر الثقافية والاجتماعية والافعال والذوات فى نماذج وإنماط .

وهذا ما جعل الاهتمام بالمدخل الذاتى محط اهتمام العلماء الذيـن يتوفـر لديهم درجات عالية من الحرص على موضوعية المعرفـة حـول الوقـائع الاجتماعية.

والواقع أن التأكيد الذى يرتبط بالمنهج العلمى بالنسبة للارتباط القوى بيـن النظريات العلمية التفسيرية ، والخبرات الواقعية حول الظواهر التى تفسـرها تلك النظريات ، يرجع لكون التجربة والملاحظة يقدمان لنا الأدلة والشـواهد التى تقبل فى ضوئها الفروض والتعميمات وتقنيدها وهذا ما يؤكـد علـى ضرورة ارتباط عملية الفهم هذه بتعمق خبرتنا بتلك الوقـائع سـواء علـى مستوى الاستبطان ، أوالتقويم الذاتى.

وذلك بعينة ما جعل علماء الاجتماع يؤكدون على ضرورة ربط عملية الفهم تلك بالتجريب الاجتماعي الفينومينولوجي في أي من أشكاله التالية :-

- التجربة التاريخية والتجربة الشخصية عند عبد الرحمن بن خلدون .
- التجربة الحية عند فلهلم دلتاى.
- التجربة غير المباشرة عند اميل دوركايم وراد كليف براون .
- التجربة الموقفية عند توماس والتي ترتكز على سلوك الفرد في الموقف وهي تشكل أفضل بديل ممكن للتجربة في العلوم الاجتماعية . وقد استخدمها توماس وزنكانيكي في دراستهما الشهيرة للفلاح البولندي والتي أكدا فيها على دراسة الموقف كما يبدو للشخص ذاته وليس في جانبه الموضوعي الواقعي (١).
- التجربة التخيلية أو التجربة العقلية أو المنهج شبه التجريبي عند ملكس فيبر .
- التجربة الذاتية للتعامل عند هوسرل.
- التجربة الانعكاسية عند ماكيفر.
- تجربة المعارضة عند شوتز وجارفنكل.

ولكل نموذج من نماذج التجريب الاجتماعي هذه إجراءاته وأدواته ومعطياته التي تسهم بجانب أو بأخر في تحقيق الفهم التعاطفي للاجتماع الإنساني بذواته وأفعاله. ومن ثم تتيح لنا قدراً من التأمل النقدي لمعطيات نماذج التجريب الاجتماعي تلك.

هذا بالإضافة الى تأكيد علماء الاجتماع بدءاً من " ابن خلدون " مروراً بـ " أوجست كونت " وحتى فلهلم دلتاى " وفيبروشلر وغيرهم من العلماء

(١) تياشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٢٨.

المعاصرين [1] على التجربة التاريخية والنسبية التاريخية . ولـهذه الرؤية بصماتها على مسار التجريب الاجتماعى الفينومينولوجى وتطوره.

وذلك ما تكشف معالمه من خلال الحوار الذى تمخض عنه الاهتمام بالتجريب الاجتماعى بإنماطه المختلفة ، والتى سوف نكشف عن أبعادها الأساسية التى تقوم عليها فى علم الاجتماع من خلال الحوار المتصل حول التجريب الاجتماعى ونماذجه .

وذلك ما تتكشف معالمه من خلال الموضوعات التالية :

- التجريب الاجتماعى فى العلوم الإنسانية عند فلهلم دلتاى .
- التجربة الذاتية المتعالية البينية عند ادموند هوسرل .
- التجربة الفينومينولوجية عند كارل شتوف.
- تطور الحوار حول التجريب الاجتماعى الفينومينولوجى المعاصر فى علم الاجتماع.

أولاً : التجريب الاجتماعى فى العلوم الإنسانية عند فلهم دلتاى :

ونظرا لأن الاجراءات المنهجية التى يتبعها الباحث عند تناول موضوع دراسته تخضع بصورة عامة للمدخل الذى يتخذه الباحث فى معالجته لـهذا الموضوع ، فقد شغل معظم العلماء المعنيون بالمنهج العلمـى ، والنظرية العلمية بالمداخل المنهجية التى يسلكها الباحث فى معالجته للموضوع.

وما نعنية بالمدخل المنهجى ، هو التطور المنـهجى لتناول الظواهر والقواعد المنهجية التى يقوم عليها فى معالجة تلك الظواهر وتحليل المعطيات حولها.

---

(1) دكتور السيد على شتا ، المنهج العلمى والعلوم الاجتماعى ١٩٨٢، مكتبة الإشعاع – الإسكندرية -١٩٩٧.

والواقع أن السؤال حول علمية العلوم الاجتماعية بعامة وعلم الاجتماع بخاصة ومداخلها المنهجية ، من الاسئلة التى أثيرت منذ نشأة علم الاجتماع والتى ما تزال تطرح حتى يومنا هذا ، بل وقد أخذ طرحها يفرض نفسه بصورة ملحة عن ذى قبل.

فقد ذهب بعض المعنيين بمناهج البحث إلى التأكيد على أن المنهجية التى تعنى فلسفة عملية البحث بما تتضمنه من فرضيات وقيم ترشد الباحث ، بما يستخدم فيها من معايير ومعطيات لتأويل البيانات والوصول الى خلاصات . هذا بالإضافة الى ان المنهجية تحدد أيضا العوامل وصياغة الفروض ومستوى الوضوح المطلوب لقبول فرض أو رفضه .. هذه المنهجية بهذا الفهم اعتبرها " كينيث بيلى " دقيقية فى العلوم الطبيعية عنها فى العلوم الاجتماعية [1] إضافة الى كون العلوم الاجتماعية تختلف من حيث نطاقها ونقاط تركيزها ووحدات تحليلها ، حيث يكون الاشخاص والجماعات ... الخ . ومن ثم يعتبر بيلى أن النقطة الرئيسية بالنسبة لمنهجية العلوم الاجتماعية تتمثل فى تلك البدائل التى تتوزع بين المناهج والمداخل ومتغيرات لفهم الظاهرة الاجتماعية ، والمتطورات المنهجية المفضلة لدى باحث دون الآخر لدراسة مشكلة البحث[2] ..... الخ.

ولكى تبرز حجم المشكلة المنهجية المطروحة على بساط البحث الآن والتى تدور حول التجريب الاجتماعى فى علم الأجتماع وعلاقته بالتجريب الكلاسيكى ، ومدى كفاية نماذج التجارب الاجتماعية على تحقيق المعالجة الدقيقة والمحددة والشاملة لظواهر العالم الاجتماعى الإنسانى . وما الذى يحقق للعلوم الاجتماعية عليها هل هى التجريبية التقليدية أم التجريب الاجتماعى بنماذجه المختلفة ، وهل المداخل المنهجية المطروحة والتى

---

(1) Bailey. kennethe, Methods of Social Research, N.Y, The Free Press, 1978. P.26.

(2) Bailey, K., I bid., P. 27.

تثير التساؤل حولها منذ أوجست كونت وماركس وجون استيوارت ومـــاكس فيبر وهوسرل واميل دور كـــايم ، ورغم ما يزيد عن قرنيـــن خلـــت مـــن الزمان وما زال الحوار دائر بيننا اليوم حول تلك المداخل .

وهذا يعنى ان المسألة ليست بسيطة إلى حد أن نتلقى إجابـــة مـــن قبـــل شخص بعينة أو اتجاه بعينه لكى تحل بها مشكلة العلوم الاجتماعيـــة بعامـــة وعلم الاجتماع بخاصة . ومع ذلك هناك إجابة أولية لا تحسم المشكلة ولكنها تعمقها ، وهذا بيت القصيد وذلك لكى نجرى مراجعة فكرية لعلم الاجتمـــاع . فما هذه الإجابة ؟

وهذه الإجابة تعنى أن وجود اجابات متعددة من مداخل متعـــددة لحســـم المشكلة المنهجية فى علم الاجتماع بضبطها أمام نفس التحدى الذى واجهـــه انصار تلك المداخل وهم بصدد البحث عن ســـبيل لتعزيـــز علميـــة علـــم الاجتماع ، لأن لكل مدخل فرضياته الفلسفية ومبادئه وموقفه الخـــاص به (١)

ومع ذلك نجد أنفسنا فى وضع أفضل لما أتيح لنا من وضوح رؤية لتلك المداخل من ناحية ولنماذج النظريات المرتبطة بتلك النمـــاذج مـــن ناحيـــة أخـــرى ، ومن ثم تتحصر المشكلة فى ان نتأمل تلك المداخـــل والنظريـــات ونحن متحررين من تأثيراتها القيمية .حتى نكون فى وضع يسمح لنا برؤيـــة تلك المداخل والنظريات رؤية مباشرة تكشف لنا عن مضامينـــها النظريـــة والمنهجية بالقدر الذى يوفر لنا وعيا منهجيا ونظريا كافيـــا لمراجعـــة تلـــك المداخل والنظريات ، والوصول إلى رؤية أوسع وأكثر ملاءمة وكفاية لفـــهم العالم الاجتماعى الإنسانى من الداخل وذلك لأن كل معنى وكل قيمة وكـــل هدف ... الخ فى العالم الإنسانى مبثوث فى تجربة الكائنات البشـــرية الفردية التى تعيش فى زمان معين وظروف معينة ولكى نفهم العالم الإنســان

---

(1) Neuman , W. Lawrence, Social Research Methods, Wisconsin , Allym & Bam,1991.P.44

علينا فهم المعنى الذى يربط عناصره ، والذى هو مصدر له رغم أنه اى العالم الإنسانى قد تشكل من خلال تفاعلات الناس . وذلك ما توضحه عبارة " دلتاى " أن الحياة (العالم الإنسانى) تتشكل من تفاعلات الناس(١) .

ومن ثم جاء طرحه للتجربة المشتركة والتى وسع نطاقها بحيث أصبحت تعنى عنده المعتقدات المشتركة التى تظهر لدى أى جماعة من الناس والتى تشكل تقريرات عن احكام الطبيعة وقواعد السلوك وما هو خير ، والتى بحكم أنها مشتركة فإنها تنطبق على حياة الافراد ، كما تنطبق على حياة المجتماعات (٢)

ومن ثم كان تأكيده على اهمية فهم العالم الإنسانى من الداخل واعادة اكتشاف " الأنا فى الأنت " (٣) وذلك على أساس العلاقة بين الفهم والتعاطف ، تلك العلاقة التى تعنى عند دلتاى اننا لكى نفهم علينا أن نعرف ما يختبره أو يعايشه ، شخص ما ، وذلك بإعادة إنتاج تجربته وإعادة معايشتها . وفى ذلك يؤكد دلتاى على أن إعادة نشاط الأنا فى الأنت والذى يعنى به إسقاط حياتنا الباطنية الخاصة بنا على موضوعات حولنا هى العملية الأساسية التى تتوقف عليها جميع معرفتنا للذوات الآخرى ، أى أنه لا يكفينا لكى نفهم شخصا آخر أن نعرف فقط أن لديه تجربة معينة ، وإنما نحتاج لأن نشعر بانعكاس هذه التجربة ، أو أن نعتبرنا نعيشها بصورة تخيلية ، أى أن نعيد معايشة تجربته.

بهذا أردنا أن نقدم رؤية دلتاى وفهمة للعالم الاجتماعى ومدخله لإقامة التجريب الاجتماعي من البدايات المبكرة لعلم الاجتماع وذلك تمهيدا لاستعراض المنظورات والمداخل المنهجية المختلفة التى استهدف فهم ظواهر الواقع الاجتماعى.

---

(1) Dilthey ,W., Selcted writing, Rickman, Trans . Op. cit., P.232.
(2) Dilthey , I bid . P, 179.
(3) Dilthey , Meaning in History , Ibid. P.67.

١ – القضايا الأساسية للتجريب فى العالم الإنسانى عند دلتاى :

تقوم رؤية دلتاى ومنظوره النظرى على قضايا ثلاث أساسية تتمثل فى :

– رفض مبدأ التجريبية التقليدية التى تدعى بأن جميع المعرفة قائمة على التجربة وأن العقل مجرد متلقى سلبى تطبع التجربة عليه معارفها وقد رفض دلتاى هذه النزعة لدى كل من لوك وهيوم وقلب المبدأ التجريبى الكلاسيكى . وأصر دلتاى على ان نحن نبدأ فى الغالب من التجربة المختلفة الفنية للملاحظين الناضجين العاديين الذين يرون الأشجار مزهرة ويتحدثون مع الآخرين ويقرأون الجرائد ويستمتعون بالشعر والموسيقى ويتذكرون الأجازات الماضية والذين يكونون مواطنين فى دولة وأعضاء فى أسرة....الخ

وهذه الخبرة المعقدة هى التى تجعل الحياة أساس لجميع العلوم وجميع الدراسات للعالم الإنسانى وتمدنا بنقطة البدء لكل تفلسف . (١)

– أما القضية الثانية فهى النظرية بمعنى أن جميع الفلسفة تنبثق عن الحياة اليومية للإنسان ونشير الى مشكلاتها.

– أما القضية الثالثة فتنظم فكرة مؤداها أن على الفلسفة ان تكون مرتبطة بصورة محكمة بمعرفة العالم الإنسانى المكتسبة بواسطة الدراسات الإنسانية التجريبية.

٢– مقولات تحليل العالم الإنسانى عند دلتاى :

وعلى أساس تلك المبادئ العامة لنسقه العلمى لفهم العالم الإنسانى حدد دلتاى إطاره النظرى لفهم عالم الحياة (العالم الإنسانى) وتحليل الحياة اليومية على أساس انه يقوم على المقولات التالية :

---

(1) Dilthey, Selected Writing , Ibid . P.21.

- الجزء والكل **Part and All** وهذه المقولة ذات دلالة بالغة بالنسبة لفهم العالم الإنسانى ، رغم أنها تلائم معرفة العالم الطبيعى ، وهذه المقولة تكشف عن طبيعة تكوين البناء للعالم الاجتماعى والعلاقات التى ترتبط عناصره ببعضها وبالكل وتبرز أهمية هذه العلاقة بربطها بمقولة المعنى الذى لا نلمسة الا من خلال تلك العلاقة البيئية (والمثال البسيط لهذه المقولة علاقة الكلمة بالجملة الكلية) وعلاقة النظم ببعضها من خلال الوظائف التى تؤديها لبعضها والتى تجعل لتلك العلاقة معنى.

- الغايات والوسائل **Means and Ends** وهذه المقولة تسحب من وعينا بالأغراض أو الأهدف ففى نفس الجملة لها أغراض التى تخدمها الكلمات التى اختارها الفرد فى سياق الجملة او العبارة.

وعلى ذلك نقيس الأهداف والوسائل بالنسبة لأفعالنا ، وسلوكنا وجميع الإنماط التنظيمية فى المجتمع.

وأيضا الإنماط الاصطلاحية التى نستعين بها فى فهم وتحليل العالم الإنسانى.

وتنشأ مقولة الأهداف فى حال اتجاهنا نحو المستقبل ، وذلك لأتنا باتجاهنا نحو المستقبل ، إنما ننظر إلى العالم الإنسانى على انه تحقيق لقيمة عليا . وهذه القيمة هى هدف أسمى تخضع له جميع الأهداف الفردية ، لأن تحقيقه يعزز تحقيقها.

إذ تختلف الحياة الزمانية والمكانية طبقا لمقولة الكل وأجزائه وفى السياق التاريخى تشير انتماء الاشياء لبعضها إلى الاشخاص الى العالم الإنسانى الذى هم جزء منه . وذلك لأن مجرى التاريخ ليس مجرد أجزاء قطع أثاث مرتبة فى الغرفة التى يمكن ملاحظتها من قبل أى شخص يدخل الغرفة.

أو أن يمكن تحريكها لأنها لا ترتبط ببعضها وإنما حركتها والقوانين التى تحكم علاقتها ببعضها لها وضعها الخاص بها.

فالعالم الإنسانى فى اى صورة هو عليها له علاقتـه الباطنـة البينيـة بالنسبة لأجزاء والكل اى بالنسبة لعلاقة الجزء بالكل [١]

ويتحدد معنى الجزء هنا بواسطة علاقته بالكل ، ولكن هذا الكـل يعـالج على أنه تموضع العالم الإنسانى ، ويفهم من خلال تلك العلاقة . [٢]

- **القوة Power :**

تعبر القوة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية وفى العالم الإنسانى عن أمور يمكننا معايشتها والتعرف عليها فالعناصر التى تؤدى إلى صنع قرار أو اتخاذ قرار عملى هى قوى ، كما أن القرار نفسه بمثابة قوة لكونه يؤدى إلى فعـل وتعكس القوة وعينا بتأثيرنا على البيئة وتأثرنا بها.

- **الماهية والتطور Developemet Essence :**

تتشكل إنماط تطور العالم الإنسانى ويتحدد مجرى تطـوره مـن خـلال التشرب المستمر للخبرات الجديدة على حساب الخبرات القديمة وهنا يطلـق دلتاى على تلك العملية البناء العقلى المكتسب . وتسمح الطريقة التى تتم بـها هذه العملية باستمرارية البناء حتى عندما تكون التغيرات قائمة.

وهذه الحقيقة التى يمكننا ان نتكشفها فى كل حياة عقلية. هى التى يشـير اليها دلتاى بمصطلح مقولة الماهية أو الجوهر . ولكن الماهية لها فى الجانب الآخر تغير منتظم . وهذا يعنى أن التغير الذى يتشرب التأثيرات الخارجـة يكون فى نفس الوقت محددا بالإنماط المنتظمة للعالم الإنسانى ذاته.

وهذا ما يصنع طابع العالم الإنسانى والذى نحاول فهمه بدون تعصبـات تاركين جميع نظريات التطور التقدمى جانبا.[١]

---

(1) Dilthey ,W., Selected Writings, Tran . Eed., Rickman , Ibid., P.244.
(2) Dilthey , Ibid. P.242.
(1) Dilthey , Ibid . P.244.

وبذلك يقيم دلتاى مقولة الماهية للعالم الإنسانى على أساس صفة أساسية متأصلة ومبثوثة فيه وتتمثل فى الانتظام المستمر الذى يشكل الخاصة العامة للعالم الإنسانى . وأن تطور العالم الإنسانى لا ينفى عملية الانتظام تلك خلال موجات التفسيرات التى يمر بها العالم الإنسانى .

ويقوم فهم التطور عند دلتاى على أساس ان الماضى ممتلئ بالماضى المختزن بالذاكرة ، ويحمل بداخله المستقبل بالخيال وهذا هو معنى التطور عند دلتاى وهذا المفهوم يصف العلاقة ملازمة للحاضر ومتأصلة فيه وتحوى مبدأ التنظيم **Organization** الذى يعد سمة عامة للعالم الإنسانى . وحدوث التنظيم هذا فى العالم الإنسانى محكوم بمقولة المعنى التى اعتبرها دلتاى مقولة عامة للعالم الإنسانى [١] وتتصل بجميع المقولات الآخرى وعليه يكون للمعنى علاقة بمقولة الماهية . فهى أى المعنى مقولة شاملة يمكن فهم العالم الإنسانى من خلالها .[٢]

- مقولة باطنى وخارجى **Inner and Outer** :

تشير تلك المقولة للعلاقة بين تعبيرات الفعل ومقاصده ، ومايفهم من تعبيرات الفعل هذه . فالكلمات تفهم ايضا بواسطة علاقة الأصوات بالأفكار فى عقل المتحدث .[٣]

فالحالات الداخلية بذلك نجد تغييرات خارجية بواسطة علاقة منظمة بين التعبير ومايعبر عنه . وهذه العلاقة تكشف عما هو باطنى .

وهنا يسوق دلتاى مثالا توضيحيا على درجة كبيرة من الأهمية لفهم ما هو باطنى وما هو خارجى والعلاقة بينهما ، وخاصة أنه يرتبط بالتنظيم الاجتماعى للعالم الإنسانى وبعد المعنى من خلال العلاقة البينية بين ما هو باطنى وما هو خارجى " فالقانون المدنى يوجد لكى ينظم العالم الإنسانى فى

---

(1) Dilthey, Ibid., P.235.
(2) Dilthey, Ibid., P.17.
(3) Dilthey. Meaning in History, P.76.

فترة زمنية معينة . في حين أن دارس بمعريضة يستخدم القانون المدنى لكى يفهم روح هذا العصر ، وهو يعرف نوايا المشرع للقوانين وعليه فإننا نفهم فحص ودراسة المضمون العقلى الموجود فى شكل قيم اجتماعية واهداف ووعى بالالزام – فى عصر معين .

- **مقولة القيمة :**

تمثل القيمة تعبيراً تجريدياً لاتجاه معلوم ودلتاى هنا يذهب الى ان هناك اصلاً واحداً تنبثق عنه القيم والاحكام المتعلقة بها ، وهذا المصدر فى نظر دلتاى يتمثل فى التجربة الحية الذى هو العالم الإنسانى وبذلك يذهب دلتاى إلى أن أحكام القيمة ليست تعبيرات عن خبرات معرفية ولكنها تعبير عن خبرات الانفعال ، فإنها أى القيم تعبير عن رغبة او عن فعل من أفعال الإرادة . وذلك يعنى أننا لا نبحث عن الأساس الذى تقوم عليه القيم فى العقل لأنه لا وجود لانه قيمة خارجة عن الارادة الإنسانية . وبذلك يرى دلتلى أن التقييمات الكلية لأفراد البشرية تجعل التعاون الاجتماعى ، وترابط الأفراد فى جماعات ، بما يجعل الأفراد تقدر قيماً مشتركة ، وباستقراء العالم الإنسانى والتجربة الحية نتعرف على القيم التى تجعل الافراد يسعون الى غايات مشتركة وما إذا كانت القيمة سلبية أو ايجابية وذلك ما جعله يذهب إلى أن الحياة اى العالم الإنسانى مركباً من الانسجام والنفور يملأ حاضرنا وهنا نجد دلتاى يؤكد على أن هذه المقولات تمكننا من فهم العالم الإنسانى إلا أنها تعتمد بصفة أساسية على وعينا بأن " ارتباط العالم الإنسانى لا يمكن فهمه إلا بواسطة المعنى الذى يربط الاجزاء الفردية ببعضها " وذلك لأن المعنى عند دلتاى هو المقولة الشاملة التى تمكننا من فهم العالم الإنسانى . وعندما نتأمل يرجع الأنا إلى نفسه ويمكن أن يصبح الأنا موضوعاً لذاته وعندما تصبح الكائنات موضوعات لأنفسنا ولهذا ندرك أنفسنا وأفعالنا والمتعة المتحصلة منها وهنا نبرز القيم التى تميز الشخص عن أى شئ آخر ومما يؤكد عليه دلتاى أن القيم من خلال علاقتها بالعالم الإنسانى والقوة . فإنها

تعمل فى نطاق هذا العالم لدى الأشخاص دون أن تفقد علاقتها بالعالم الإنسانى [1]

- **مقوله المعنى :**

تبرز أهمية مقولة المعنى عند دلتاى من قوله بان المعنى ملازم للعالم الإنسانى لأنها العلاقة الموجودة بين أجزائه [2] وأن المفهوم المعنى هذا يكون ملائما عندما يكون مرتبطا بالوعى بسياق العالم الإنسانى الذى يكون متضمنا فيه .

وقد تناول " دلتاى " المعنى فى علاقتها بالبناء على أساس أن :

- أن التجربة فى واقعها العلمى متماسكة بواسطة المعنى وهذه هى الوحدة التى تربط من خلال الذاكرة ما اختبر بطريقة مباشرة أو مااختبر من خلال التعاطف فالمعنى لا يكمن خارج تجربتنا ولكنه متضمن فيها ويؤلف الرابطة بين تلك التجارب وعليه ذهب دلتاى إلى أن المعنى هو مقولة السياق الكلى للعالم الإنسانى وفى سياق تحليل " دلتاى " للمعنى يشير إلى أن التموضع الكلى للعالم الإنسانى يتألف من التعبيرات ، وهنا يطرح نمط العلاقة المزدوجة أى علاقة الكل بأجزائه والجزء بالكل .

وفى نفس الوقت تنتمي للنسق الاكبر للواقع . وتأتى الدلالة هنا من خلال هذه العلاقة المزدوجة ، كرابطة بالكل الأكبر . ولأن التجربة متضمنة لإتجاه نشط وفعال نحو الكل وبوجه خاص الاقتصادى والظروف الدينية بداخله فهو نسق التفاعل المشروط بهذا الاتجاه وهذا الاتجاه قد يكون انسحاباً غريباً ، حب ، عزلة ، معارضة ... الخ[1]

---

(1) Dilthey , Selected writings, edt., Rick man , I bid,243.
(2) Dilthey, Ibid.

(1) Dilthey, Ibid . P. 240.

وهنا يؤكد دلتاى على العلاقات الحيوية كأساس للمعنى وليست علاقات فكرية مفروضة من قبل الفعل أوالفكر وإذا ما اطلقنا على الروابط التى تتولد عن معنى أجزائه معنى العالم الإنسانى . هنا يعبر الشعر عن ذلك المعنى بواسطة الابداع الحر للروابط ذات المعنى وتصير حادثة الحوار فى الشعر رمزاً للعالم الإنسانى .(١)

- **مقولة الزمانية :**

نظر دلتاى لمقولة الزمانية على انها أساس جميع المقولات الآخرى ، وذلك لأنه يربط الزمان بتجربتنا الحية ، وذلك مايوضحه قوله " إن كل شئ يوجد بالنسبة لنا يوجد فقط بوصفه معطى فى الحاضر ، وحتى عندما تكون التجربة ماضيا ، فإنها توجد فقط بالنسبة لنا بوصفها معطاه فى تجربة حاضرة .(٢)

وهذا المبدأ فى نظره عام جداً (أكثر إكتمالا) أكثر من ذلك الذى للوعى ، وعليه يؤثر على أن هناك دائماً حاضراً وأن التجربة الحاضرة هى التى نعيشها فقط ، وبينما يكون الماضى متذكراً يكون المستقبل مستدلاً وهذا ما نعنيه بالواقع فالحاضر باستمرار أينما نعيش ونعانى ونتذكر بمعنى أننا نختبر فى واقعنا ، أما عن مفهوم التجاوز فهو يشير إلى أن المضمون الذى حدث فى الماضى وفى المستقبل يقال انه " يتعالى " ومعنى ذلك أنه لا يوجد بالفعل بالنسبة لنا ولكنه موجود فقط بالنسبة للوعى الذى نختبره بصورة مباشرة فى تعال بأنه تجاوز التجربة الحية فإنه لا يجاوز الوعى ولكنه يجاوز اللحظة الحاضرة للوعى الملئ بالتجربة الحية . وحتى عندما تكون التجربة ماضية فانها توجد بالنسبة لنا فقط باعتبارها معطاه فى تجربة حاضرة فتذكرى للتجربة يكون حاضراً بينما يجاوز مضمونها التجربة الحية المعاشه.

---

(1) Dilthey, Ibid. P. 241.
(2) Dilthey, Ibid., P.1232.

٣- خصائص المدخل المنهجى للتجريب الاجتماعى فى العالم الإنسانى عند دلتاى :

وفى ضوء هذه الرؤية النظرية لفهم عالم الحياة اجتهد دلتاى لتحديد معالم مدخله المنهجى لمعالجة ظواهر العالم الإنسانى . والذى تنحصر سماته فى :

(أ) حيث يتناول الظاهرة المعقدة فى العالم الإنسانى متضمنة العمليات الفعلية للعقل والشخصيات المنشأة . مستخدماً فى ذلك :

* السير الذاتية .
* والاعمال الادبية.
* والرسائل (الخطابات).
* والمذكرات اليومية.

باعتبارها وسائل توفر لنا مادة ملائمة للبحث فى العالم الإنسانى .

(ب) ذهب دلتاى إلى أن الواقع الاجتماعى التاريخى يتكون من الكائنات البشرية الفردية بتفكيرهم ومشاعرهم وأفعالهم . وكذلك اللغات والدين والنظم وقد كان دلتاى على قناعة تامة بين تلك الموجودات الغامضة والرمزية مثل ، العقل الجمعى **Collective mind** والإرادة الجمعية **Common Will** [1] والروح القومية (الوطنية) **National Spirit** ليس لها وجوداً مستقل بصورة حقيقية . وعليه فإنه لم يعتقد أبداً بأن الأفراد كانوا موضوعاً العلوم الاجتماعية فقط ، وذلك لإنه يعتبر اختزال الظاهرة الثقافية والاجتماعية إلى أنشطة فردية يستحال منهجيا .

(ج) إن النظم العلمية الإنسانية المختلفة تتناول جوانب مختلفة للعالم الإنسانى ، ولذلك فانها تتكامل مع بعضها فى فهم العالم الاجتماعى.

---

(1) Dilthey , W., P. 7.

(د) إن الدراسات الإنسانية بالنشاط البشرى كمعنى ، وفى معالجتها للمعنى تتناول معنى التواصل مع قناعتة بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتأمل أفعال ويعلق عليها . وهو هنا يؤكد على إمكانية استخدام التعبيرات الوجهية واستجابات الإنسان ، والأعمال الأدبية ، وأن الأساليب المنهجية ينبغى أن تلائم دراسة كل نمط ، كما أنه ينبغى مناقشتها.

(هـ) وقد اسمى دلتاى العمليات التى نفهم بها معنى التعبيرات سواء كانت اصطلاحية أو عاطفية او تعبيرات افعال بالفهم ، وعرض الفهم بانه مصطلح فنى يشير لارتباطه بالتعاطف ذات العلاقة بصورة تامة. وهو أساس للدراسات الإنسانية واهتم بالعلاقة بين الفهم والإدراك وكلا العمليتين مسلم بها فى الحياة اليومية ، فنحن ندرك المنازل والسيارات ، ونفهم ابتسامات الاصدقاء واذا ما ربطناها بسياقاتها كنا بصدد صورة الفهم العليا.

(و) وقد اطلق دلتاى على النسق النظرى للافعال الاولية لفهم المعنى المعقد للتعبيرات الدائمة التفسير ومنهجية التفسير فى الدراسات الإنسانية للعالم الاجتماعى ، حيث يكون الاهتمام بالمعنى متخذاً من التاريخ العلم التجريبى . وقد تبين نسق التفسير هذا من بعده لفيف من الفلاسفة والعلماء(1) منهم هيدجر ، وجادير ، وماكس فيبر.

(ز) وما اطلق عليه دلتاى مجال التفسير يشكل جانباً هاماً من منهجيته إذ أنه يظهر فى فهم علاقة الكل المعقد بأجزائه وذلك لأن الكل يفهم فحسب فى سياق أجزائه بينما تكتسب الاجزاء معناها الخاص داخل الكل ، وهذه العلاقة اى علاقة الجزء بالكل تسود فى عالم الاجتماع إذ أن الأفراد اعضاء فى التنظيمات والتى هى بدورها جزء من المجتمع.

---

(1) Dilthey, Ibid., P. 10.

فالدوافع الغريزية او التخيلات العقلية تأخذ مكانها فى البناء العقلى وأننا لكى نفهم الشخص علينا أن نأخذ فى الاعتبار الدور الذى يلعبه فى بنائه العقلى وفى نفس الوقت نفسر الثقافة التى يعيش فيها .(١)

ثانيا: تجربة الذاتية البينية المتعالية عند هوسرل .

١– المفاهيم الأساسية للمنظور الفينومينولوجى :

يقوم المنظور الفينومينولوجى لعلم الاجتماع على مفاهيم أساسية تميزه عن المنظورات النظرية الوصفية فى علم الاجتماع الكلاسيكى :

وتتمثل تلك المفاهيم فى :

- الموقف الطبيعى .

وهو يشير الى موقف الإنسان المتجه الى العالم والذى يتعامل مع هذا العالم بوصفه حقيقة قائمة بذاتها ويندمج فيه بعد ان يقبلة على ما هو عليه وتتدرج مجموعة العادات الفكرية التى سادت حتى اليوم ضمن مجال الموقف الطبيعى عند هوسرل.

وإذا كان هوسرل قد سعى الى تعطيل الموقف الطبيعى هذا بتعليقه وصفه بين قوسين فذلك يرجع الى رغبته فى الوصول الى ماهية الظواهر بالتخلى عن المواقف الطبيعية المرتبطة بتجربتنا وتفكيرنا . وذلك ما يوضحه – قوله " إذا كان الوصول الى ماهية الظاهرات يشكل صعوبة بالغة ، فذلك يرجع أولا وقبل كل شئ الى انها تقتضى التخلى عن المواقف الطبيعية المرتبطة بتجربتنا وتفكيرنا أى إحداث تغييراً جذرياً فى المواقف . (٢)

---

(1) Dilthey, Ibid., P. 11.
(2) Husserl Edmund, Idees : Directories Pure une Phénoménologie. Introduction de Paul Ricoueur, Paris, Galimard , 1950. PP. 98-99
عن دكتور فؤاد زكريا مرجع سابق ، ص ٩٣ – ٩٤.

ويرجع هذا التغيير فى المواقف عند هوسرل الى الرغبة فى الوصول إلى منطقة جديدة للوجود لم يتم حتى الآن تحديدها وفقا لما فيها من خصوصية ، يكون الوجود فيها شأنة شأن كل منطقة أصيلة وجوداً فردياً .[١]

ويرجع اتجاه هوسرل هذا بالنسبة للموقف الطبيعى لقناعته بأن الوعى ينسي ذاته فى هذا الموقف الطبيعى ويضيع فى موضوعات العالم ، وفى أفكاره عن هذه الموضوعات . ومن ثم يتباعد عن ذاته ويقترب ، ويصير متخارجاً عنها وعليه يؤكد هوسرل أن الوعي يظل ساذجاً ، طالما أنه مرتبطا بالموقف الطبيعى ، ومستسلما لوجود الأشياء .

ولما كان الموقف الطبيعى مصدراً للتميز والتحريف الفينومينولوجى عند هوسرل ، فقد اعتبره هوسرل عائقا وعقبة تثقل على الوعى فى حين أن شوتز قد اعتبر الموقف الطبيعى هنا موضوعاً للبحث الفينومينولوجى.

- التعليق الفينومينولوجى :

يقوم التعليق الفينومينولوجى عند هوسرل على وضع الموقف الطبيعى بين قوسين وتعطيله من أجل بلوغ منطقة جديدة لا يمكن بلوغها بدون هذا التعطيل الذى يبقى على الموقف الطبيعى بالنسبة الى كل من لم يتخذ وجهة النظر الفينومينولوجية.

وبذلك لا يترتب على تعليق الموقف الطبيعى المساس بحقيقة وجود العالم كما يتمثل للوعى.

وفى ذلك جاء قول هوسرل :

" إن ما نعطله هو الوضع العام الذى ينتمى إلى ماهية الموقف الطبيعى ، فنحن نضع بين قوسين كل ما يتضمنه هذا الوضع فى مجال الوجود ، وبالتالى كل هذا العالم الطبيعى الذى هو دائماً هناك بالنسبة إلينا " ، والذى

---

(1) Husserl , E., I bid. P. 106

هو مائل ، ولا يكف عن ان يظل هناك بوصفه واقعا بالنسبة إلـــى الوعـــى حتى عندما يرون لنا أن نضعه بين أقواس . وعندما أسير على هذا النحـــو وهو أمر يدخل تماماً فى نطاق قدرة حريتى لا أنكر إذن هذا العالم كما لـــو كنت سقطانيا ولاأضع وجوده موضع الشك كما لوكنت شكــاكــا (مذهبيــا) و إنما أمارس التعليق الفينومينولوجي الذى لا يمنع على الإطلاق مـــن كـــل حكم منصب على الوجـــود فى المكان والزمان .[1]

- **الرد والوعى الظاهرى :**

يشير مصطلح الرد **Preduction** إلى تلك العملية التى يتم بها الارتـــداد من عالم الجزئيات المتغيرية الى عالم الكليات العقلية الثابتة أى إلى الماهيات القائمة فى عالم الوعى المتعالى بعد تعليق العالم الواقعى.

ويشير الرد الفينومينولوجـــى " **Phenomenological Reduction** " مـــن الناحية المنهجية لمحاولة وضع جميع أنوع المعارف الطبيعيـــة التجريبيـــة جانبـــا ، وذلك لأن غرضة الرئيسى هو فتح بعداً جديـــداً للبحـــث يرتبـــط بالابعاد البحثية القديمة.

حيث يعلق الباحث أحكامه الواقع بتنحيتها جانبا أى موضع مـــا يعتـــبر ظاهرة فعلية او واقعية بين قوسين (الشجرة المرئية ، والحادثـــة المتذكـــرة والحياة النفسية للفرد .... الخ) وبذلك يكشـــف الرد الفينومينولوجـــى عـــن الظواهر الخالصة لوقائع العالم الذى تم تعليقه ، وذلك سعيا منـــه لإظـــهار حقيقة الأنا المتعالى وأهميته.

فؤاد زكريا ص٩١.

(1) Husrel, E., Ibid., P. 102

(2)Van Peursen, Cornelis A., ed Phenomenology and Analytical Philosophy, Pillsburgh, Duguesne University Preso, 1972 P.50.

وذلك لأنه فى حالة الرد الفينومينولوجى ينصب اهتمام الشخص على بناء الظاهرة كما هو . ومن ثم يتجه تحليله الى كيف تعرض نفسها ، وكيف تصبح معلومة للوعى [٢].

وذلك لأن الوعى لا يوجد فى رأس الفاعل فحسب ولكنه يوجد فى العلاقات القائمة بين الفاعل والأشياء فى العالم .

وعليه فإن الوعى عند "هوسرل " هو وعى دائما بشئ ما وببعض الموضوعات ، وعليه فان الوعى الفينومينولوجى عند هوسرل هو وعى علاقى بالنسبة للفاعل لأنه ليس باطنيا بالنسبة له ولكنه يوجد فى تلك العلاقة التى هى وعى بشئ ما وببعض الموضوعات وذلك ماعبر عنه هوسرل فى معنى القصدية **Intentionality** :-

وقد ذهب هوسرل بعد ذلك عندما نظر إلى المعانى على أنها ليست داخل الموضوعات ومباطنة لها ولكنها موجودة فى علاقة الفاعلين بتلك الموضوعات . وعليه فإن الوعى عنده هو العملية التى تعطى المعنى للموضوعات والواقع أن الرد الفينومينولوجى لم يلعب هذا الدور المنهجى فى البدايات الفينومينولوجية المتقدمة " لهوسرل " عند ما كان ينظر للفينومينولوجيا نظرة منهجية تشير الى كونها منهجاً وطريقة .. ولكنه أى الرد الفينومينولوجى نما أخيراً فى السياق الفلسفى الشامل . حيث نظر إليه على أنه يترك صدق الواقع بهدف تحقيق او انجاز بحثنا أساسيا واشمل للبناءات المنطقية . وبذلك جاء استخدام [١] هوسرل لمنهج الرد للتمييز بين الأفق التجريبى والأفق الصورى حيث سعى لتعليق الأفق التجريبى من أجل بلوغ الأفق الصورى بعملية الرد تلك.

---

(1) Van Peursen, C., Ibid., P. 44

ومن ثم تتجسد منهجية الرد الفينومينولجى وتتحدد أبعادها والاجـــراءات التى تجسدها صور الـــرد المختلفــة بغيــة الوصـــول الـــى فـــهم للوعـــى الفينومينولوجى والمعنى الباطن لعلاقة الفاعلين بالموضوعات.

وعليه يأتى الرد الما هو (أى الصورى)Eidetic Reduction ليكشـــف عن الاشكال الجوهرية أى·ألا تكشف الماهيات الكلية الثابتة للعالم وقد أخـــذ هوسرل مصطلح **Eidetic** الصورى او الماهوى عـــن الاصـــل اليونـــانى Eidos وتشير الترجمة الحديثة لهذا المصطلح الى انه يعنى البناء الماهـــوى (أى البناء الصورى) وقد استخدم "هوسرل " هذا المصطلح ليحـــل محـــل الكلمات الفكرة Idea ، والمثالى Ideal وذلك تفاديا لسوء الفهم واللبس الـــذى لحق استخدام المصطلحين الأخـــيرين [١] والـــذى يشـــير للصـــور الفعليـــة للموضوعات أو للأشياء المادية ، وعليه فإننا فى الرد الماهوى هذا نـــدرك الصور الفعلية فقط لتلك الموضوعات أو الأشياء الماديـــة ، والتـــى تظـــهر مجردة فى وعيـــنا الباطن ، وهما الصور العقلية هى بعينها تلك الماهيـــات الثابتة لجميع المتغيرات الجزئية القائمة فى العام الخارجى وعليه فغن الـــرد الماهوى بذلك يرمى لإدراك تلك الماهيات القائمة فى وعينا الباطنى ، وهـــو بذلك يحقق فى نظر " هوسرل " المعرفة اليقينية الكلية القائمة علـــى مبـــادئ مطلقة.

- **تجربة الأنا المتعالى والذاتية الباطنية البينية :**

إن الأنا الذى يحمل العالم فى ذاته كوحدة من المعـــانى ، يســـمى الأنـــا المتعالى بالمعنى الظاهرى . ورغم أن الأنا المتعالى ليس جزءا من العـــالم ، وليس العالم جزء منه ولكنه مفارقا له من الناحية النوعية المرتبطة بالطبيعـة النوعية لأى منهما .

وعليه فإننا لا نستطيع أن نخلع على العالم أى معنى غير ذلك المعنـــى الذى نستخلصه من تجاربنا الشعورية المرتبطة بالأنا المتعالى الخالص الـــذى

(1) Van Peursen, Cornelis, I bid., P . 45.

يخلع المعاني على المدركات ، وهو الذى اتصل اليـــه بعـد عمليـة الـرد الظاهرى وتعليق الحكم على العالم .

وبحكم طبيعة الأنا المتعالية ومفارقتها نوعياً لتجارب الأنا النفس فإنها أى الأنا المتعالية بحكم نوعيتها المتعالية تقتضى وجود تجارب خاصة مغـــايرة لتجارب الأنا النفس ، هذا فضلا عن كون التجارب الواقعية التى نعايشها فى حياتنا اليومية (كالإدراك والحفظ والتذكر .. الخ) يصاحبها فى الغالب خيال عقلى خالص ومتنوع بصورة موازية لتنوع التجارب الواقعية بمعنـــى أنـــه يوجد فى المقابل تخيل عقلى لتجربة ما تقوم فى عالم آخر باطنى مغاير لعالم الواقع الخارجى . وهذا ينطبق على حالات التجارب الأخرى المعاشة مثـــل الإدراك والتذكر والحفظ .

وقد عنى هوسرل بالتجربة الذاتية المرئية والأنا المتعالي وذلك بقولـــه : " إن المضمون اليقيني على الأخلاق والمعطى لنـــا فـــى التجربـــة الذاتيـــة المتعاليـــة ، لا يرد فقط إلي هوية الأنا أكون ، فمن خلال المعطيات الخاصة فى التجربة الذاتية .. تمتد البنية الكلية والضرورية لتجربة الأنا. المتعـــالى مثل الصورة الزمنية الباطنية لتيار الشعور الذاتى . وبحسب هذه البنية وتلـك أحد خواصها ، يمتلك الأنا عن ذاته هو مخططا ضروريا يجعلـــه يثـيرنى لنفسه كموضوع للتجربة ، ويخضع للتجربة (الذاتية) الممكنة ، والتى يمكن أن تتوسع وتغنى بالتجارب الى مالا نهاية " .(١)

وفى هذا الوضع المتعالي للأنا لا نكون بصدد أنا وحديـــة **Solipsism** . وذلك لأن هذا النا يتواصل مع الأنوات الآخرى من خلال الذاتيـــة الباطنيـــة البينية **Intersubljectivity**.

وذلك ما يوضحه قول هوسرل من أن " .. كل معنى وكل موجود يمكـــن تخيليهما سواء كانا مباطنين أو مفارقين هما جزء من نطاق الذاتية المتعاليـــة

(١) تاملات ديكارتية ص ١٣٥-١٣٦ . انظر سامح مصدر سابق

الباطنية بين الذوات باعتبارها مكونه لكل معنى ما خارج عالم الشعور والمعرفة والبداهة الممكنه ، وأن نفترض أن الوجود والشعور يتعلق كلاهما بالآخر على نحو خارجى تماما.

إذ أن كل واحد منهما يختص ذاتيا بالآخر ، وما يرتبط ذاتيا بالأخر ، يكون هو او الآخر شيئا واحداً بصورة عينية .. وإذا كانت هذه الذاتية البينية الباطنية هى عالم المعانى الممكنه ، فكل شئ خارج هذا العالم يكون لا معنى له .. ومن الممكن أن تصبح لا معقوليته أمراً بديهيا " .[١]

وفى ضوء ذلك يتضح أن تجربة الآخر تتصل بتجربتى الذاتية وترتبط فى وحدة تنفى عن الأنا المتعالى صفة الأنا وجدية ، ويتم لها ذلك من خلال الذاتية الباطنية البينية **Intersubjectivity** والتى تعد صفة أساسية مميزة للوعى الذاتى وطبيعة القصدية وذلك ما يوضحه هوسرل بقوله :

" وإذا كان فعل القصدية يؤكد لى بصورة بديهية ظهور الأنا الآخر فى أناى الخاص وداخل منطقة شعورى الذاتى ، فكيف يتكون حينئذ هذا المدرك القصدى ، وكيف يتألف فى وعى بناء " ماهوى " عن تجارب الآخرين ، وغير ذلك من التساؤلات الأخرى التى تحتاج إلى إجابات تتوافق مع التحليل الفينومينولوجى للوعى الذاتى والأنا المتعالى ، مع التأكيد مقدما على صعوبة إنجاز مثل هذا العمل ودحض الإعتراض السابق " . [٢]

وهنا يأخذنا هوسرل إلى العلاقة بين الوعى الذاتى والأنا المتعالي بالتأكيد على عالم الذاتية الباطنية البينية باعتبارها مؤلفة من تلك العلاقة التى تربط كل من الأنا والآخر بعالم غريب عن الأنا ومتصل بين الذوات وموجود فى متناول كل منا . بوضعها وأنا متعالية ومشتركة وهى النحن المتعالي .

وهنا يعرف هوسرل ذلك العالم المشترك المتصل بين الذوات بقولة :

---

(١) هوسرل تأملات ديكارتية ص ٢٠٥.

(٢) هوسرل تأملات ديكتارية ، ص ٢١٣.

" إن عندى فى ذاتى وفى إطار حياتى الشعورية الصدفة المردودة على نحو متعالي تجربة عن العالم ، وعن الآخرين لا بوصفها لنشاطى التأليفى الخاص بى على نحوما... بل بوصفها تجربة عن عالم غريب عنى ومتصل بين الذوات ، وموجود لكل واحد منا وموضوعاته فى متناول كل واحد منا.(١)

وبذلك نكون على عتبة ذاتية متعالية بينيه تملك بفضل وصفها المشترك دائرة ذاتية بينية ومتصلة بحكم صفتها النحن المتعالية .

وذلك ما يوضحه قول هوسرل " أن الذاتية المتعالية البينية تملك بفضل هذا الوضع المشترك دائرة ذاتية بينية (متصلة) الاختصاص حيث يتكون فيها على نحو ذاتى العالم الموضوعى وكذلك صفتها النحن المتعالى ، فإنها تكون بالنسبة إلى هذا العالم ذاتا ، وكذلك بالنسبة الى عالم بنى الإنسان بوصفه الصورة التى تتحقق عليها هذه الذات ، ذاتها كموضوع . (٢)

وفى سياق العلاقة المتبادلة بين الأنا والآخر والقائمة على خاصية الاشتراك التى تقوم عليها أنا النحن المتعالى . يؤكد "هوسرل" على بعد التناول الاجتماعى فى العلاقات بين الأنا والآخر فى علاقة الفرد الآخر كعضو بالذات فى المجتمع وذلك مايوضحه قول هوسرل " فإن معنى الاشتراك بين الناس ، ومعنى كلمة إنسان ، من حيث أنه فى الأصل فرد وعضو لذات فى المجتمع يستلزم أن يكون هناك وجوداً متبادلاً بين الواحد والآخر ... وإننى أرى على السواء أن تكثر الآخرين يدرك على نحو متبادل بوصفهم الآخرين ، وبالتالى متعلقاً فى الوقت نفسه تعلقاً مباشراً بذاتى أنا " (٣)

---

(١) هوسرل تاملات ديكارتة ص ٢١٤.

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ٢٣٤.

(٣) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢٦١-٢٦٢.

وهنا يؤكد " هوسرل " على أن الآخر يظل له وجـوده الذاتـى بجسـمه ونفسه كما أن لى وجودى الذاتى المغاير له والذى لا يتوحد معه تماما وذلـك لقناعة بأن الآخر يعطى لى فى وعيى الخاص كحضور مناظر ، ومن ثم فان إدراكي له يحتاج آلي نوع من القصديةِ الوسـيطة Mediate Intentionality غير المباشرة والتي تبدأ منْ أعماق عالمي الأولى الخاص ، والتـى تمثـل المعيشة Co- Present أى الوجود مع الآخر الذى لا يكون حضوره بشخصه وإنما يعتمد حضوره على إدراك النظير أنا الآخر ليس باسـتعادة حضـوره وإنما كتجربة فعلية ترتبط بحضور حى يكون إدراكه تمثيلى يرتبط بقصديه الشعور التى تميل إلى موضوع مماثل " يحويه هذا الشعور ويتـم إدراكـه بالحدس المباشر . وعلى أساس المزاوجه Pairing والتى تعنى أنه رغـم أن الموضوعين متحدين إلا أنهما متمايزين عن بعضهما وأن كل منهما يكـون ظاهرا فى الشعور يستدعى الموضوع الآخر المزاوج بالتبادل ، بواسطة نوع من التجاوز القصدى . وهذا النوع مـن الإدراك لا يختلـف عـن الإدراك الحسى للأنا الآخر والذى لا يتحدث إلا عندما تدخل الآخـر فـى مجـال إدراكـى الحسى .(١)

وذلك ما يوضحه هوسرل بقوله . " بأن الآخر لا يعطى لى فى تجربتـى الذاتية بلحمه وعظمه أى لا يعطى لى فى صورته الأصلية لأنه يظـل لـه وجوده الذاتى بجسمه ونفسه ، ويبقى لى أيضا وجودى الذاتى المغاير لـه ، دون أن يتوحد معه تماما .

إنما الآخر يعطى لى فى وعى الخاص كحضور مناظر ، وإدراكى لـه لا يحتاج إلى نوع من القصدية الوسيطة ، تبدأ من أعمق طبقات عالمى الأولـى الخاص ، وهى التى تمثل المعية أو الوجود مع الآخر الذى لا يكـون ، ولا يمكن أن يكون أبدا حاضرا لشخصه ، والأمر هنا خاص بنوع من الفعل بـه

(١) هوسرل ، تاملات ديكارتية ، ص ٢٤٠-٢٤١.

يحصل الوجود معه ، ونوع من إدراك النظير الذى سوف نشير اليه بكلمة حضور النظير " .[1]

بعد أن توصلنا إلى أن التحصيل بين العناصر المتزاوجة يمكن أن يكون كليا او جزئيا ، وأنه يتطلب نوعا من التدرج الذى ينتهى إلى حد المساواه بين المعطيين ، وهذا بدوره يؤدى الى فعل المعنى التى داخل المجموع المتزاوج ، أى أنه يؤدى الى الإدراك العقلى لكل عضو من هذين العضوين طبقاً لمعنى الأخر على نحو ما ذهب هوسرل.

فإننا نصل الى النقطة التى تؤكد منها على إمكانية معرفة الذات للآخر من خلال دائرة العلاقات المتبادلة التى تقوم عليها الذاتية الباطنية البينية التى تربط كل من الأنا والآخر ببعضهم فى مجال النحن المتعالى والذى يجعل الذاتية البينية المتعالية تملك بفضل هذا الوضع المشترك دائرة ذاتية بينية يتكون فيها على نحو ذاتى متصل العالم الموضوعى وصفة النحن المتعالى والتى على أساسها تكون تلك الذاتية البينية ذاتا بالنسبة الى عالم بنى الإنسان بوصفه الصورة التى تتحقق عليها هذه الذات ذاتها كموضوع .[2]وعند هذا الحد يصل الحوار بهوسرل حول الأنا والآخر إلى تأكيد أن بيان نحو المعنى معطى من معطيات الحدس وأنه فيما يختص بالعالم الموضوعى فان البيان الفينومينولوجى لا يفعل أكثر من بيان المعنى الذى يكون لهذا العالم بالنسبة لنا قبل كل فلسفة ، والذى يتضح لنا فى تجربتنا .[3]

وهنا يتجلى مدى تأثر هوسرل بمقولات تحليل العالم الإنسانى (عالم الحياه) وخاصة مقولة المعنى عند فلهم دلتاى .

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢٣٦.

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢٣٤.

(٣) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢٢٨.

وذلك ما يتضح من قول " هوسرل " إن البيان الفينومينولوجى ليس فى الحقيقة شيئا مثل البناء الميتافيزيقى ، وليس نظرية تستخدم – بصورة خفية أو مكشوفة – التصورات والأحكام السابقة للميتافيزيقا التقليدية ، إنما هو يتميز عنها بصورة قاطعة لأنه لا يستخدم غير معطيات الحدس الخالص ، وهو مجرد بيان نحو (المعنى) الذى يملؤه الحدس على نحو أصلى . وفيما يختص بالعالم الموضوعى .. فإن البيان الفينومينولوجى .. لا يفعل أكثر من بيان المعنى الذى يكون لهذا العالم بالنسبة لنا قبل كل فلسفة والذى يتضح لنا فى تجربتنا" . (١)

– قصدية الوعى :

تقوم القصدية عند هوسرل على فعل الإدراك **Noesis** وموضوع الإرتباط **Noema** معا وعلى أساس البناءات الإدراكية المدركة كشف هوسرل عن المجال الاعلى للوعي .(٢)

أكد " هوسرل " علي أنه كل حالة للوعى إنما تقصد شيئا ما ، وهو يحمل فى ذاته هو بوصفه مقصودا الموضوع المقابل ، والمفكر فيه وكل أنا آخر يفعل ذلك بطريقته الخاصة .

والقصدية بذلك ما هى إلا وعى بشئ ما أيا كان أمر وجوده الواقعى ، وأيا كان أمر اقتناعى عن وضع هذا الوجود فى الموقف المتعالي . وهنا يؤكد هوسرل على ضرورة اضافة عنصرا جديدا إلى الأنا أفكر المتعالي لتوسيع مضمونه . إذ أن كل حالة وعى إنما تقصد شيئا ما وهو يحمل فى ذاته هو ، بوصفه مقصودا . (٣)الموضوع المقابل .

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢٢٨.

(2) Husrel ,E., Ideas " General Introduction to Pure Phenomenology, Trans. by Gibson, London Union Ltd.,., M 67., P 271.

(٣) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ١٤٠.

وعليه يؤكد هوسرل على أن تلك القصدية التى هى بمثابة خاصية أساسية للوعى تقتضى ان يحمل هذا الشعور فى ذاته وبوصفه أنا أفكر جميع الموضوعات التى يفكر فيها ويتأملها . [١]

وإذا كان موضوع قصدية الوعى Noema ومحتوى الوعى (الإدراك) ، وفعل قصدية الوعى Noesis (فعل الوعى) (الإدراك) يتكاملان فى مجال التجربة المتعالية التى يقوم بها الأنا أفكر فى صورته المردودة المتعالية فإن الوصف الفينومينولوجى يتخذ مسارين متلازمين وفقاً لتلك الطبيعية المميزة للوعى يدور أولهما حول موضوع قصدية الوعى ويدور ثانيهما حول فعل قصدية الوعى.

وذلك ما يوضحه قول هوسرل .

" والمهمة الأولى للوصف هى التمييز بين الأنا أفكر من جهة ، والموضوع المفكر فيه من حيث هو كذلك من جهة أخرى " .[٢]

وعليه فإننا فى التحليل الفينومينولوجى تتصل الإدراك الواقعى الى نطاق اللاواقعيات ، والتى تعطينا الإمكانيات المجردة عن كل ما يمكن أن يربطها بأى أمر كان .

وذلك ما عبر عنه هوسرل بقوله :

" تنقل الإدراك الواقعى إلى مملكة اللاواقعيات ، مملكة (كأن) أى تعطينا الإمكانيات المجردة عن كل ما يمكن أن يربطها بأى أمر كان .[٣]

وتقوم عملية النقل هذه على أساس ان كل كلية ذاتية لها قيمة القانون ، وعليه تدرس الفينومينولوجى القوانين الماهوية (الصورية) الكلية التى

---

(١) سامح ، مرجع سابق ص ٢٠٣.

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٤٨.

(٣) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٨٨.

يتعين بها الممكن مقدما. وما يقابله من معنى مضاد لكل تقرير تجريبي كل على المتعالى .

وهذا بدوره يتطلب تحديد المعانى المقصودة بالقبلى الكلى بدقة ، وهذا ما يقوم به الأنا المتعالى كنموذجاً (كأنا) يحتوى على المعرفة اليقينية المطلقة : ومن ثم جاء تأكيد هوسرل على " أن القبلى الكل الذى يخص الأنا المتعالي بوصفه كذلك هو صورته الذاتية التى تشمل لانهائية من الصور ومن النماذج القبلية للفاعليات والقوى الممكنه للحياة القصدية وللموضوعات التى تتكون بوصفها موجودة فى الواقع حقاً . (١)

وقد كان لتأكيد هوسرل على تلك النماذج بوحي من تنميطات دلتاى ونماذجه فضلاً عن كون تلك النماذج هى التى تأثر بها ماكس فيبر وناجه وسلى شوتز لمعالجتها من خلال عمليات التنميط وهو بصدد ترسيخ دعائم علم الاجتماع الفينومينولوجى من ناحية أخرى.

- التخيل والتجربة المتعالية :

يبدأ عمل التخيل من مقتضيات الإنسان المتعالى والتجارب الخاصة به يكون لها نوعيتها المتعالية المتسقة مع طبيعة الأنا المتعالى بقدر ما تكون مغايرة للتجارب الواقعية الخاصة بالأنا النفس وهنا يبدأ عمل التخيل الفينومينولوجى الذى يشكل مجالا للتجارب المتعالية بخصائصها الماهوية الخالصة حيث يصاحب كل تجارب الحياة اليومية الواقعية . التى نعايشها مثل الإدراك والحفظ والتذكر ... الخ خيال عقلى خالص فى إطار باطنى موازى لتنوع تجاربنا الواقعية ومتزامن مع تلك الحالات النوعية القائمة فى عالمنا الخارجى.

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٨٣.

بمعنى وجود تخيل عقلى خالص مصاحب لتجاربنا الواقعية ومتزامن معها هو يتمثل فى عبارة ترتبط جزئيا بمصطلح " هانز فايهينجز "(١٨٥٢-١٩٣٣) " كأن " (asif) فى كتابه بعنوان (فلسفة كأن) عام ١٩١١م.

وهذه العبارة المرتبطة بالخيال العقلى الخالص والمصاحبة لتجاربنا فى الحياة اليومية هى (كأن هناك تجربة ما) . [١]

وتشير هذه العبارة الى وجود تخيل عقلى لتجربة ما تقوم فى عالم بـاطنى مغاير لعالم الواقع المادى وتجاربه المعايشة بحالاتها المتنوعة . فى حين أن التخيل المرتبط بكأن فيشير الى حالات التخيل العقلى السابق التى لا تنطبق احكامه على الحقائق المتعالجة وإنما تنطبق على ممكناتها القبلية ، ويفرض بذلك قواعده القبلية على الحقائق القائمة ، وهذا مايوضحه قول." هوسرل ".

" يصبح من حقنا أن نتوقع فى مجال الأفعال الخالص – إلى الخيال الخالص – وجود علم خاص من مرتبة قبلية لا تنطبق أحكامه على الحقائق المتعالية بل تنطبق على ممكناتها القبلية ، ويفرض بذلك قواعد القبلية على هذه الحقائق القائمة " . [٢]

وهنا يذهب هوسرل إلى أن الأنا المتعالي يملك عن ذاته هو مخططاً ضرورياً يجعله ينبرى لنفسه كأنا عينى موجود مع مضمونه الفردى من الحالات المعاشة ، ومن الملكات والميول ، أنا ينبرى لذاته كموضوع للتجربة ويخضع للتجربة الذاتية الممكنه ، والتى يمكن أن تتوسع وتغنى بالتجارب الى ما لانهاية [٣]" إذ أن " ماهية الأنا تختص بأن يحيا فى أنساق توافق

(١) سامح ، مرجع سابق ص ٢٠٠.

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٣٤-١٣٥.

(٣) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٣٤-١٣٥.

القصد بأن التى تسرى فى الأنا أحيانا ، والتى هى فى أحيان أخرى إمكانيات ثابتة يمكن أن تتحقق دائما ، وكل موضوع لقصد الأنا ، كل موضوع لفعله أو لحكمه التقويمى ، يكون الأنا قد تخيله أو من الممكن أن يتخيله وهو دليل يشير الى ان مثل هذا النسق من القصديات لا يكون غير الموضوع المتضايف المشار إليه . (١)

. وعلى أساس تبدى الأنا لذاته كموضوع للتجربة الممكنه وكأساس يقينى لكل معرفة متعالية ان يقوم علم لا نظير له فى خصوصية ، موضوعه الذاتية المتعالية حيث هى معطاه فى تجربة متعالية فعلية أو ممكنه . وهذا العلم من وجهة نظر هوسرل يتخذ من الأنا المتعالي موضوعاته وهو بذلك معارض للعلوم الوضعية التى تتناول الذاتية كموضوع جزئى يرتبط بالعالم المتغير.

- **التأمل الظاهرى :**

وتبدأ الرحلة الفكرية لهوسرل مع التأمل الفينومينولوجي من نظرته إلى العالم المدرك حسب فى حياة التأمل باعتباره حاضراً لذاتى وأدركه كما أدركت المضمون الخاص به من قبل وذلك ما يوضحه قوله :

"... فأنا لا أقوم فى موقف التأمل الخاص بى بفعل الاعتقاد الوجودى بالتجربة الطبيعية ، إذ أننى لا أسلم أبداً بهذا الاعتقاد بوضعه صحيحا مع انه فى الوقت نفسه دائما هنا " .(٢)

وهوسرل بذلك يؤكد على وظيفته التأمل مشيراً الى ان الطابع العام للموضوع المدرك يظهر فى الشعور كوحدة للكثرة التى تتوالى أمام شعورنا ، وبداخله ، والتى تتحول إلي وحدة تأليفية من خلال التأمل وعليه فإن الأنا أفكر يعى موضوع تفكير فى داخل بنية الكثيرات ذات الطابع

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ١٨١-١٨٢.

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٢٣.

الوصفى المعين جداً للوعى القصدى وللموضوعات المتضايفة إليه ، وهى البنية المترابطة ذاتيا مع هذا الموضوع المعين والمفكر فيه .[1]

وعليه ينصب التأمل الفينومينولوجى المتعالى على التجربة التأملية لعلمية الإدراك نفسها بوجه خاص . وبهذه التجربة التأملية تدرك البيت أو الشجرة أو المفاهيم المجردة مثل المجتمع... الخ او اى موضوع قصدى آخر ، بعد أن نعلق الحكم عليه وعلى جميع ما يختص بالعالم حيث تبلغ بعد ذلك المجال الأصلى للآنا المتعالي بمقاصده الخالصة التى لايمكن استبعادها فى علميه الرد ، ومن ثم نعتبرها بداهة او مسلمه ضرورية أويقينية .

وعلى أساس أن التأمل بصورة عامة هو بمثابة انعكاس الفكر على ذاته ، وأن هناك أفعال تأملية طبيعية تتم بصورة تلقائية مثل : الإدراك الحسى والتذكر والتقويم ... الخ إضافة الى تلك الافعال التأملية الأخرى المقصودة والتى تكشف عن الافعال التلقائية السابقة . وإن كانت أفعال إدراكية إلا أنها من مستوى متعالي جديد . وذلك لكونها تنصب على أفعال وعمليات الإدراك فحسب دون النظر إلى موضوعاتها ومضمونها . على أساس ذلك فقد ميز هوسرل بين نمطى التأمل وهما :

- التأمل الطبيعى **Natural reflection**

وهو التأمل لانعاكس الشعور التى تحدث فى حياتنا اليومية ، وموضوعه العالم القائم هنا . مثال ذلك أننا فى حالة التأمل الطبيعى تدرك حسب وبواسطة الأنا النفس الالم الذى وقع علينا والبت الذى أمامنا دون ان نلتفت الى فعل إدراكنا النفسى وعليه نقول اننا نشاهد هذا البيت اونتألم من الضرب الذى وقع علينا ..... الخ.

- والتأمل المتعالي **Trancsendental reflection**

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٥٠.

وهو يتم داخل الشعور الخارجي ويتجه نحو فعل الإدراك ذاته بعد عملية التعليق الفينومينولوجي للعالم الخارجي ويقوم بهذا النشاط التأملي المتعالي الأنا المتعالي . والذي يتجه الى فعل الإدراك وليس لموضوعه الذي تم تعليقة الخارجي . وعليه فإننا نقول هنا أننا ندرك فعل الإدراك نفسه الذي نرى به هذا البيت أو نحس به ألم الضرب ، أي أننا هنا نترك الموضوع الذي يمثله البيت بواسطة التعليق ، ونقف عند دراسة فعل الإدراك للوقوف على خصائصه ومقوماته ، والكشف على تجاربه الخاصة المتميزة وبذلك تبدأ الدخول في مجال التجربة المتعالية.

- تلك التجربة المتعالية التي تتمثل مهامها الأساسية عند هوسرل في :

" فحص ووصف الأنا افكر المردود على النحو المتعالي .... وعدم وضع الوجود الطبيعي الذي يستلزمه الإدراك الحسي التلقائي المتحقق ... والذي ينجزه فعلا وتلقائيا الأنا الطبيعي . فقد حلت هنا حقا بدلا من الحالة الطبيعية الساذجة ، حالة اخرى تختلف عنها ذاتيا ".[١]

ندرك بها البيت أو أي موضوع قصدي آخر بعد أن نطق الحكم عليه وعلى كل مايختص بالعالم ، حيث نبلغ بعد ذلك المجال الأصلي للأنا المتعالي بمقاصده الخالصة والتي لايمكن ابتعادها في عملية الرد .[٢]وعلى أساس التميز بين نمطي التأمل يميز هوسرل بين نمطي الوصف في التحليل الفينومينولوجي . على أساس الطبيعة القصدية المميزة للشعور .

فهناك وصف يدور حول موضوع القصد الشعوري **Noema** أي أنه وصف يتناول محسوس الإدراك . أو النمو الآخر للوصف فهو يدور حول فعل القصد الشعوري **Noesis** أي أنه يتناول فعل الإدراك . [٣]و هذا

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص١٤٢.

(٢) سامح ، مرجع سابق ص ٢٠٤.

(3) Husserl , Edmund , Ideas ., General Introduction to Pure Phenomenology, London ,George Allen & Unwin Ltd.,. (1913) 1967 . P . 272 .

التصنيف لنمطي التأمل و الوصف عند "هوسرل" يكشف عن بعض صـــور التأثر بتصنيف دلتاى لنمطي الفهم و صورها الأولية و صورها العليا . [١]

٢ – القضايا التي يقوم عليها المنظور الظاهرى :

يشكل طرح القضايا الرئيسية للمنظور الفينومينولوجي تمـــهيدا منطقيـا للكشف عن المسارات النظرية و المنهجية للأحيـــاء الفينومينولوجـــى لعلـــم الاجتماع و ذلك لدى " مورس روش " عندما أثار قضيـــة عـــودة الـــنزوع الفينومينولوجى إلى علم الاجتماع . [٢]

وإذا كان المنظور الفينومينولوجى ذو حضور واضح في السياق الفكـرى الذي عايشة الرواد الأوائل لعلم الاجتماع ، فقـــد مـــارس هـــذا الحضـــور الفينومينولوجى تأثيره على توجهات أقطاب الاتجاهات الرئيسية فـــى علـــم الاجتماع ، ومنهم (أوجست كونت ، ودلتاى ، ودوركايم ، وماكس شـــلر ، وماكس فيبـــر ، وكال مانهيم ، وفركاندك [٣]وهابر ماكس).

كما أن استعداد التوجـــه الفينومينولوجـــى لـــدى رواد علـــم الاجتمـــاع المعاصرين أمثال بارسونز وميرتون ، وس.رايت ميلـــز ، وألفـــن جولدنـــو و" اونيل " وغيرهم من المعاصرين .

فضلا عن بروز علم الاجتماع الفينومينولوجى نفسه لدى كل من شـــوتز ولوكمان وبيرجر ، وميرلوبونتى ، ودوجلاس ، ورورش ،وناتانسون ..الـــخ والذين يتصدرون المدرسة الفينومينولوجية المعاصرة لعلم الاجتماع .

كل ذلك يكشف بوضوح عن الحضور القوى للمنظـــور الفينومينولوجـــى فى علـــم الاجتمـــاع ويرجـــع هذا الحضـــور المتواصـــل للمنظور

---

(1) Dilthey W., Discriptive Psychology, Ibid., PP.125-128.
(2) Rache. Maurice , Phenomenology, Language and the Social Sciences, London. Boston, Rautledge & Kegan Pawl, 1973. PP.315 - 326.
(3) Tiryaian, E. A., Existential Phenomenology and Sociological Tradition, Am. Social R., 1965. Vol :30 No:1, P.647.

الفينومينولوجى والمنظـورات المرتبطـة بـه مثـل المنظـور الوجـودى والاثنوميثودولوجى ، ومنظور التفاعلية الرمزية ، ونظرية الدور ، ومنظـور التبادلية الاجتماعية ، لكون تلك المنظورات تعمل بوحى من مظلـة فكريـة مشتركة لعلم الاجتماع تقوم على عدد من الفرضيات [1] المتمثلة فى :

* أن الواقع يوجد خارج الأفراد وعندما يدخل الأفراد في التفاعل فانـهم يشكلون البناءات الاجتماعية التي تشكل بدورها تفاعلاتهم اللاحقة . وأن على علم الاجتماع أن يهتم ببحث خصائص تلك البناءات إضافـة إلـى تنـاول العمليات التي تؤدى الى خلق تلك البناءات والحفاظ عليها وتغيرها .

* وأنه من خلال تطور النظرية المجردة يمكن فهم العالم الاجتماعي .

* وأنه عند محاولة فهم العالم الاجتماعي يمكن منـع تـأثير المشـاعر الانسانية والتميزات الفكرية بتعليقها وتطبيق المنهج العلمي .

وفي ضوء تلك الفرضيات التي تشكل مظلة التوجيه النظري والمنـهجي لعلم الاجتماع تستعرض قضايا المنظور الفينومينولوجي وتوجهاتـها فـي نطاق علم الاجتماع .

ولكي نقف على حدود القضايا النظرية التي يقـوم عليـها المنظـور الفينومينولوجي لعلم الاجتماع نتناول الإسهامات النظرية لكل من هوسـرل وشوتز والتي استندت اليها بعض علماء الاجتماع في تناول الأفكار النظرية أو الفرضيات النظرية التي يقوم عليها المنظـور الفينومينولوجـي لعلـم الاجتماع وخاصة لدى كل من "بست" و "ورو ش" .

(أولاً) إسهامات هوسرل النظرية للمنظور الفينومينولوجي :

(1) Tuener, J., The Structure of Social Theory , Ontario, The Dorsey Press,1976,P.393

تشكل إسهامات هوسرل الفينومينولوجية معالم الانبثاق المبكر للمنظـور الفينومينولوجي إذ أن إسهاماته جاءت عقب النقد الذي وجه للنزعة الطبيعية والتجريبية [1] على يد "فلهلم دلتاى" هذا بالإضافة إلى النقد الموجه لمثاليـة هيجل وسعى دلتاى لطرح بديل فلسفي للعلوم الإنسانية يساعدها على فـهم العالم الاجتماعي ، والعمليات الأساسية التي تشكل الوسط الذي تعمل مـن خلاله الأحداث الاجتماعية والتي تشكل الوعي **Consciousness** ومن ثـم تجسدت إسهامات هوسرل الفينومينولوجية بالصورة التالية :

- التأكيد على العملية التجريبية لإثارة وعي المفكرين للبحث عن الكيفيـة التي تشكل بها العمليات العقلية للأفراد طبيعة العالم الاجتماعي بصورة أكثر من النظر إلى العالم باعتباره مفروض علـى الوعـي وتحـول الاهتمام إلى الكيفية التي تخلق بها العمليات الذاتية للعقل الإنساني .
- أدى الاهتمام بخلق عالم الحياة إلى دافع المدرسين لطرح السؤال عن كيف يخلق البشر الشعور بالواقع ، وكيف يمكن أن يكـون شـعورهم بالواقع بالصورة التي تجعله المقوم الرئيسي لحل مشكلة النظام .
- وأن نقد العلوم الاجتماعية قد خدم المعنيين بالمنظور الفينومينولوجـي والذى أثار رؤيتهم النقدية للعلـم الطبيعـي علـى أسـاس أن العلـم الموضوعي قد لا يكون ممكنا في فهم عالم الحياة أو على الأقل مـن يكون بنفس المستوى الذي هو عليه بالنسبة للعالم الطبيعي .
- ورغم تعثر الحل الرديكالي الذي طرحه هوسرل إلا انـه قـد اقنـع الفينومينولوجيين بإمكان فهم الوعي البشري والواقع الاجتماعي وذلـك بدراسة الافراد في تفاعلهم الفعلي وليس بوضعهم بين قوسين حسـب التجريد الراديكالي .

---

(1) Turner,j., op.cit.,P.395 .

وذلك لأن هوسرل ينظر إلى الوعي على انه عملية ، فالوعي عنده لا يوجد في رأس الفاعل ، ولكنه يوجد في العلاقات القائمة بين الفاعل والأشياء في العالم .

وقد عبر هوسرل عن هذا التوجه في طرحه لمعنى القصدية حيث ذهب إلى أن الوعي دائما هو الوعي بشيء ما ، وببعض الموضوعات ومن ثم يوجد الوعي فى هذه العلاقة .

وبذلك يؤكد هوسرل على ان الوعي ليس داخليا أو باطنيا بالنسبة للفاعل وإنما هو علاقي Relational .

ويستطرد "هوسرل" في هذا التوجه مؤكدا على أن الأكثر من ذلك هو أن المعاني ليست في داخل الموضوعات ولكنها في علاقة الفاعلين بتلك الموضوعات ، وهنا يتجلى مدى تأثر هوسرل بفكر دلتاى بالنسبة لمقولات الحياة وخاصة مقولة المعنى التي اعتبرها دلتاى أساسية وعامة بالنسبة لجميع مقولات تحليل عالم الحياة إلى العالم الإنساني الذي يفهم من خلالها باعتبارها أي المعنى مقولة شاملة [١] .

وذلك ما أكده دلتاى يقول إن المعنى تشير إلى علاقة الأجزاء بالكل [٢] وفي قول آخر يقول "...ولكن هناك تفاعل بين الكل والأجزاء" [٣] والمعنى عنده ينبثق من الحياة ذاتها وليست من وضع العقل [٤].

وهنا تبدأ فينومينولوجية دلتاى بتعليقه الحياة العملية وتأمله للحياة ، حيث يراها عملية تبدو لنا كلا واحداً مع أنها لا تكون ثابتة أو كاملة . فكل واقعة أو حادثة اجتماعية في هذه العملية ما هى إلا نتاج الماضي ، كما أن كل واقعة تفتح امكانية للمستقبل وتقفل إمكانيات أخرى .

---

(1) Dilthey, W., Selected Writings, Edited, Rickman, H.P., Ibid., P. 235 .

(2) Dilthey, W., Selected Writings, Edited, Ricknan, H.P., Ibid., P. 235 .

(3) Dilthey, W., Meaning in History, Ibid .,P.158

(4) Dilthey, W., Meaning in History, Ibid.,P.75

وعليه يذهب دلتاي إلى أن معنى الواقعة الجزئية بداخل هذه العلاقة كما يتمثل معنى العملية الكلية في الوحدة التي تمثلها هذه العلاقة [1] ويرجع ذلك في نظر دلتاى إلى أن كل معنى وكل قيمة وكل هدف ، مفروض في تجربة الكائنات الإنسانية الفردية .

" فنحن أولا وقبل كل شيء كائنات تاريخية وبعد ذلك متأملون التاريخ" [2] ودلتاى وهو بصدد الحديث عن كيفية تعرفنا على المعنى يشير إلى أن طبيعية علاقات المعنى تكمن في نمط الحياة التي تشكلت عبر الزمن بواسطة التفاعل بين الموجودات الحية وبينها [3] وعليه فان العلاقة تبرز أولا وقبل كل شيء في العلاقة بعملية الفهم . ولما كانت المعنى هي مقولة السياق الكلى للعالم الإنساني فإن دلتاى يذهب إلى أن التجريد ومفهومه يكون ملائم فقط عندما يرتبط بالوعي بسياق العالم الإنساني الذي يتضمنه .

والوعي عند هوسرل يتمثل عمله أساسا في خلع المعنى على الموضوعات .

* وإذا كان هوسرل يبحث عن المعنى في العالم الإنساني وفي العلاقة بين المتفاعلين وذلك لأن العالم الإنساني عنده هو تفاعلات بين الناس وذلك ما يوضحه قوله "إن العالم الإنساني (الحياة) يتكون من تفاعلات بين الناس .

* وإذا كان دلتاى يبحث عن المعنى في سياق التفاعلات بين الناس وتعبيرات تلك التفاعلات فإن "هوسرل " يبحث عن المعنى في نطاق الذاتية البينية **Intersubjectivity** المتعالية والمتصلة بين الذوات باعتبارها مكونة لكل معنى ما خارج الشعور والمعرفة والبداهة الممكنة [4]. وذلك ما يوضحه قول هوسرل بأن " كل معنى وكل موجود يمكن تخيلهما سواء كان

---

(1) Hodges,H.A. Ibid.,P.250 .
(2) Dilthey, W., Meaning in History, Ibid., P.66.
(3) Dilthey, W., Selected Writings, Ibid.,P.239.
٤) هوسرل تأملات ديكارتية ص ٢٠٥ .

مباطنين أو مفارقين هي جزء من نطاق الذاتية المتعالية المتصلة بين الذوات باعتبارها (مكونة) لكل معنى ما خارج عالم الشعور ، والمعرفة والبداهة الممكنة ، وأن نفترض أن الوجود والشعور يتعلق كلاهما بالآخر على نحو خارجي تماما ، إذ أن كل واحد منهما يختص ذاتيا بالآخر ، وما يرتبط ذاتيا بالآخر يكون،هو والآخر شيئاً واحداً بصورة عينية ... وإذا كانت هذه الذاتية البينية (المتصلة بين الذوات) **Intersubjectivity** هي عالم المعاني الممكنة ، فكل شيء خارج هذا العالم لا يكون له معنى ... ومن الممكن أن تصبح لا معقوليته أمراً بديهياً .(١)

وهوسرل بذلك يرفض موقف دلتاى من " كانت " ورفضه لتوجه كل من لوهين وناتورب وريكرت وفيبر لياند للعودة إلى " كانت " تماما . ورده عليهم بأنه ليس هناك وجوداً لما هو قبلي ، فجميع الأنساق الفكرية تنشأ في نظرة من التجربة وتستمد معناها من علاقاتها بالتجربة وانه ليس هناك ذاتاً ميتا فيزيقية أو ذاتاً متعالية كتلك التي كانت عند " كانت " ومدرسته . وهنا يؤكد دلتاى أنه لا يوجد سوى الوجود البشري .(٢)

وكان لإهتمام هوسرل بفكرة الذاتية البينية المتصلة Intersubjectivity والتي اعتبرها من السمات المميزة للوعي الذاتي وطبيعته القصدية ، ونفيه لفكرة الأنا وحدية Solipsism في عملية تعالى الذات دافعا قويا له للبحث عن موقف تجربة الأخر بالنسبة لتجربتي الذاتية والكيفية التي تتواصل بها تلك الذوات أي ذاتي وذات الآخر ، وكيف أنها ترتبط ببعضها في وحدة متلاحمة لتشكلان معا ذاتاً أخرى متعالية تقوم بينها علاقة أخرى داخل نمط العلاقة التي تقوم عليها الذاتية البينية الباطنية .

---

(١) هوسرل تأملات ديكارتية ص ٢٠٥.

(٢) احمد محمود ، مرجع سابق ص ٢٣ .

وهنا يوضح لنا هوسرل تلك العلاقة بقوله "وإذا كان فعل القصدية يؤكد ليَّ بصورة بديهية ظهور الأنا الآخر في أناي الخـــاص وداخـــل منطقـــة شعوري الذاتي فكيف يتكون إذن هذا المدرك القصدي ؟ وكيف يتألف فـــي وعي بناء ما هوى عن تجاربي الأخرى ؟ "[١] .ولا يفوتنا هنـــا أن نذكـــر مدى تأثر "هوسرل" بتوجهات دلتاى الفينومينولوجية في هذا الشان مؤكـــداً على ان الفهم ينشأ من اهتمامات الحياة العملية حيث يعتمد النـــاس علـــى الاتصال ببعضهم البعض ، وحيث ينبغي أن يفهم كل منهم الآخر بصـــورة تبادلية .

فعلي كل منهم ان يعرف ما يريده الآخر منه [٢]ولا يتم هذا فـــي نظـــر دلتاى عن طريق الحواس بل يمكن أن نختبره داخليا ، وهنا يستخدم دلتـــاى كلمة الفهم بمعنى النظر في عمل الوعي البشري مؤكداً هنا على أن العملية الأساسية التي بناءً عليها تتوقف كل معرفتنا للذوات الأخرى هـــي إســـقاط حياتنا الباطنية الخاصة بنا علي موضوعات حولنا وبذلك جـــاء تعبيـــر دلتاى المشهور " إعادة اكتشاف الأنا في الأنت" [٣]مؤكداً هنا على أن نعيـــد معايشة تجربة الروابط الباطنية التي تقودنا لهذا الفهم [٤]الذي يرتبط عنـــده بالتعاطف الذي نتمكن من خلاله معايشة التجربة أو لتعقب في تجربة الآخر خطوط الارتباط التي نكون معتادين عليها في تجاربنا ، أي أن ندرك الحياة الداخلية للشخص الآخر والتي تشبه حياتنا ومن ثم نعيد اكتشـــاف ذاتـــه بداخلنا ، وذلك يرجع لقناعة دلتاى بأن الفهم يرتكز على الرؤية الداخليـــة للطبيعة البشرية التي نملكها جميعا . [٥]

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ٢١٣ .

(2) Dilthey, W., Meaning in History, Ibid., P.119.

(3) Dilthey, Ibid., P.67.

(4) Dilthey, Selected Writings,(Ed.) Rickman, Ibid.,P.1956.

(٥) دكتور محمود سيد أحمد ، مرجع سابق ص ٣٥.

ونعود لهوسرل لنجده يؤكد على : "أن عندي في ذاتي وفي إطار حياتي الشعورية الصرفة المردودة على نحو متعالٍ تجربة عن العالم ، وعن الآخرين لا بوصفها عملاً لنشاطي التأليفي الخاص بي على نحو ما ... بل بوصفها تجربة عن عالم غريب عني ومتصل بين الذوات وموجود لكل واحد منا وموضوعاته في متناول كل واحد منا "[١].

وبذلك حدد هوسرل العلاقة بين الأنا والآخر في نطاق الذاتية الباطنية البينية المتصلة بين الذوات ثم يعود ليؤكد على صفة النحن المتعالي التي تقوم على أساس الوضع المشترك بين الذوات في نطاق الذاتية البينية الباطنية أي المتصلة بين الذوات .

وهنا يؤكد هوسرل على ان ذلك الوضع المشترك هو الذي تقوم عليه صفة النحن المتعالي . التي هي بمثابة ذات . بالنسبة للإنسان باعتبارها الصورة التي تتحقق عليها هذه الذوات ذاتها كموضوع وهذا ما يوضحه قول "هوسرل" ان الذاتية المتعالية المتصلة تملك بفضل هذا الوضع المشترك ، دائرة ذاتية متصلة للاختصاص حيث "يتكون" فيها على نحو ذاتي متصل العالم الموضوعي ، وكذلك صفتها النحن المتعالي ، فإنها تكون بالنسبة إلى هذا العالم ذاتا وكذلك بالنسبة إلى عالم بني الإنسان بوصفه الصورة التي تتحقق عليها هذه الذوات ذاتها كموضوع" . [٢]

وقد عبر دلتاى من قبل عن هذه الأنا المشتركة التي تشكل النحن عندما ذهب الى ان الموقف الفردي الذي يصبغ المعرفة الشخصية للحياة والتي تنبثق من تعميمات تم جمعها وتختلف تعميماتها عن التعميمات العلمية لأنها لا تتم بصورة منهجية ، إن الموقف الفرد لهذه المعرفة يصححه ويوسع من نطاقه التجربة المشتركة ، ودلتاى يعني هنا بالتجربة المشتركة تلك المعتقدات المشتركة التي تظهر لدى جماعة من الناس ، وهذه المعتقدات

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢١٤.

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢٣٤.

نتاجات مشتركة وتنطبق على حياة الأفراد كما تنطبق على حياة المجتمعات ، وهي بذلك أي تلك المعتقدات بمثابة تقريراً عن أحكام القيمة وقواعد السلوك ، وتعريف ما هو خير ...الخ. (١)

والفارق بين رؤية دلتاى ورؤية هوسرل لتلك الذاتية البينية الباطنية هو أن "هوسرل" ينظر لها في نطاق ذاتية بينيه باطنية متعالية ، في حين ان دلتاى نظر اليها مثل هوسرل على ان تلك الذات عينية وقائمة في سياق التفاعلات بين الناس في الحياة المعاشة رافضا بذلك تلك الذات المتعالية (الترنسند نتاليه) عن كانت من قبله وعند هوسرل في عصره . وقد مهدت رؤية دلتاى هذه الطريق أمام أنصار علم الاجتماع الفينومينولوجي وخاصة لدى الفريد شوتز الذي اهتم بمخزون المعرفة المشتركة وعلاقتها بالذاتية البينية والتي نفهمها في سياق الحياة اليومية .

* وعندما يعالج هوسرل التجارب المتبادلة بين الانا والآخر (أي بين الأنوات) يشير إلى أن معني الاشتراك بين الناس يشكل أساسا للإدراك المتبادل ، كما أن معنى كلمة إنسان من حيث انه فى الأصل فرد وعضو بالذات في المجتمع . يستلزم ان يكون هناك وجوداً متبادلا بين الواحد والآخر .. وانني ارى على السواء ان تكثر الآخرين يدرك على نحو متبادل بوصفهم الآخرين ، وبالتالي متعلقا في الوقت نفسه تعلقا مباشراً بذاتي أنا. (٢)

ويشير هوسرل هنا الى امكانية معرفة الذات للآخر ، بعد الكشف عن قدرتها على ادراك العالم الموضوعي عامة . مؤكداً هنا "ان البيان الفينومينولوجي ليس مثل البناء الميتافيزيقي ، وليس نظرية تستخدم بصورة

---

(1) Dilthey, W., Rickman, Ibid., P.179

(٢) هوسرل ، تأملات ، ديكارتية ، ص ٢٦١ – ١٦٢ .

خفية أو معلنة التصورات والاحكام السابقة للميتافيزيقا التقليدية ولكنه يتميز عنها جميعا لان الفينومينولوجية تستخدم معطيات الحدس الخالص ، وهو مجرد بيان نمو المعني الذي يملؤه الحدس على نحو اصلي وفيما يختص بالعالم الموضوعي ... فان البيان الفينومينولوجي ... لا يفعل اكثر من بيان المعنى بالنسبة لنا قبل كل فلسفة ، والذي يتضح لنا في تجربتنا". [١]

وهنا يشير هوسرل الى أننا "تدخل الادراك الواقعي الى مملكة اللاواقعيات ، ممكنة (كأن) [٢] التي تعطينا الإمكانيات المجردة عن كل ما يمكن ان يربطها باي أمر كان " . [٣] وفيما يتعلق بالأنماط والنماذج التي يستعين بها لإدراك الواقع يذهب "هوسرل" الى حد القول "ان القبلي الكلي الذي يخص الأنا المتعالي بوصفه كذلك هو صورته الذاتية التي تشمل لانهائية من الصور ومن النماذج القبلية للفاعليات والقوى الممكنة للحياة القصدية وللموضوعات التي تتكون بوصفها موجودة في الواقع حقا " [٤].

وبذلك أقام "هوسرل" العلاقة بين امكانيات التجربة التخيلية والنماذج القبلية المقابلة للفاعليات والقوى الممكنة للحياة للموضوعات التي تتكون بوصفها موجودة في الواقع حقا .

ثالثاً : التجريبية الظاهرية عند كارل شتوف :

تأثر كارل شتوف Carl Stumph (١٨٤٨ - ١٩٣٦) بالسياق الفكري الذي ساد في عصره وخاصة على يد كل من "فونت" وبرنتانو واللذان

---

(١) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ٢٨٨ .

(٢) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ١٨٨ .

(٣) هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ص ١٨٨ .

(٤) هوسرل ، تأملات ديكارتية ص ١٩٣ .

أقاما علوم النفس على أساس مبادئ فلسفية . وقد بدأ النسق الفكري عند برنتانو بالتوجه نحو التفسيرات التي تسمح بنوع من التاويل الذاتي ، كما ان مفهوم الفصل القصدي قد شكل في نسقه الفكري مفهوما رئيســـيا وليــس تحليل الوعي .

ومن ثم كان علم النفس عند برنتانو مسبوقا في التحليل الفينومينولوجي . وقد تم تبني النزعة النقدية الموجهة ضد الرؤى الواضحة التي تتبناها نظرية المعرفة في علم النفس [1]وقد اتخذ تأثير برينتانو الفينومينولوجى مسـارين – ارتبط أحدهما بالبحث التجريبى لدى شتوف وارتبط ثانيهما بالجانب الفلسـفى الخالص لدى " هوسرل " .ولكي نفهم أبعاد تلك المشكلة ومصادرها علينـا ان نتناول التطور التاريخي للفينومينولوجيا التجريبية في هذا السياق الفكرى .

ومن ثم نمهد لعرض التجريبية الفينومينولوجية عند "شتوف" باستعراض مختصر لتطورها التاريخي .

١ – التطور التاريخي للفينومينولوجيا التجريبية :

من الامور المعتادة بين المعاصرين من العلماء السلوكيين أن يشـــيروا الى "تدت" Wundt على أنه مؤسس علم النفس العلمي دون الاشارة الـــى إسهامات "برنتانو" **F.Brentano** وقد كان الميل العلمي عند فوندت مرتبطا ببدايات علم النفس المختبري ، في الحركة السيكولوجية والتي بدأت عنــــد فشنر **Fechner** الذي نشر مؤلفه مباديء علم النفس عام ١٨٦٠ م .

ويرجع السبب الذي جعل علماء النفس يهملون عمل برنتانو لكون مؤلفه بعنوان "علم نفس العقل" ينطوي على التطـــور الاخـــير للفينومينولوجيـــا الأساسية ومع ذلك فقد اثر برنتانو على علم النفس الجشطالتي بشكل بـــالغ من خلال مدرسة "جراز" **Graz** ولذلـــك فقـــد اتخـــذت الفينومينولوجيـــا

(1) Thiens, georges, Phenomenology and the Science of Behavior, London, George Allen & Unwin, 1977, P.57.

اتجاهين ، ارتبط احدهما بالبحث التجريبي عن شتوف ، وارتبط الاتجاه الآخر بالفلسفة عند "ادموند هوسرل" .

ومع ان "برنتانو" قد اسمى علم النفس عنده بعلم النفس التجريبي الا ان علماء النفس لم يعترفوا به كواحد من اسلافهم لكون اسمه يرتبط دائما بالفينومينولوجيا . بالمعنى الذي اتخذه "هوسرل" (١) متجاهلين بذلك الأعمال الرائدة التي قام برنتانو بنشرها في مجال علم النفس التجريبي ، وأيضا الكثير من اتباعه التجريبيين بحق والذين قدم بعضهم أعمالا رائدة في مجال علم النفس ، ومن بينهم "مينونج" Meinong الذي أسس مختبرا لعلم النفس التجريبي في مدينة جراز عام ١٨٩٤ ، وقدم عملا مميزا خاصة في مجال الإدراك .

وعليه يتضح ان كل من "فوندت" و"برنتانو" اقام علوم النفس على مبادئ فلسفية ، إلا انه من الواضح ان نسق :برنتانو" كان موجها منذ البداية نحو التفسير الذي يسمح بنوع من التأويل الذاتي بصورة اكثر. (٢)

وإذا ما كان الفعل القصدي مفهوما محوريا وليس تحليل الوعي ، فسوف يكون تطور علم النفس استنادا إلى هذه المصادرة مستغرقا في الفينومينولوجيا . ومركز على المدخل الذي يؤكد التنظيم البياني للإدراك . وهذا ما يعلن عن نفسه في الفينومينولوجيا التجريبية" عند "شتوف" ١٩٠٦ .

وقد كان "كارل شتوف" مولعا بالتاريخ الطبيعي والموسيقى ، وقد ترجم ذلك في أعماله وخاصة ما يتعلق منها بعلم النفس الأصوات والذي صدر في مجلدين في عام ١٨٨٣ ، وعام ١٨٩٠ ثم أعيد نشرها عام ١٩٠٧ ، ومن ثم اعتلى شتوف مكانة مرموقة في نهاية القرن التاسع عشر وذلك نتيجة أعماله التي قدمها في تحليل نظرية المعرفة غير ان الإسهام الأساسي

(1) Thines , G., Ibid., P . 57 .
(2) Thines , G., Ibid., P. 57.

"لشتوف" هو ذلك الذي حدده بنفسه والذي أسماه الإسهام الفينومينولوجي (علم الظاهريات) .

ولهذا المصطلح عند شتوف دلالة معنى فى نظامه العلمي ، وذلك لأنه يختلف عن دلالته عند ادموند هوسرل . وذلك لان بحوث شتوف الفينومينولوجية قد نفذت في سياق علم النفس التجريبي . وجميع تلك البحوث التجريبية فينومينولوجية بصورة محددة .

٢ – خصائص التجريبية عند شتوف :

سعى كل من "سبيجلبرج" [١] Spiegelberg وكوكلمانز [٢] Kockelmans لتحديد خصائص فينومينولوجية شتوف التجريبية [٣] على النحو التالي :

أ – ان موضوع الفينومينولوجيا ينطوي على ظواهر اولية وظواهر ثانوية . ويمكن النظر الى الظاهرة على انها ارتباطات موضوعية لأفعال "برنتانو" . أما كارل شتوف فيطلق على الأفعال ويسميها الوظائف النفسية . وللظاهرة وجودها المستقل فالظاهرة الأولية تنطوي على الخبرة الحسية المباشرة ، أما الظاهرة الثانوية فهي تلك التطورات الحاضرة في الذاكرة .

ب – ولا تنطوي الظاهرة على مضامين النشاط العقلي وهذه المضامين (متماثلة مع تعقيدات "مينونج المثالية) وهي موضوعات النظام العلمي الخاص الذي اسماه شتوف "إدولوجي" Eidology في حين ان العلاقات القائمة بين المضامين العقلية لا تدخل في مجال

---

(1) Spiegelberg, H.,The Phenomenological Movement, the Hague, Nijhoff, 1960, Vol: 2 .
(2) Kackelmans ,j.j., A First Introduction to Husserl's Phenomenology, Pittsburgh, Duguems University Press, 1967.
(3) Thines, G., Ibid., P.67.

الفينومينولوجيا . وهي تدرس بواسطة نظام علمي آخر خاص ، يسمى علم العلاقات **Logology** .

جـ - ان الفينومينولوجيا علم محايد أساسا ويتجنب اقامة اسس للعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، كما انه لا يستبعد التحليل السببى الأخير للعلوم الخاصة .

د - والفينومينولوجيا هي الاولي من بين العلوم الثلاثة ولها افضلية على "ادولوجي" (علم الماهيات) والوجولجي (علم العلاقات)

هـ - كما ان الفينومينولوجيا لا تستبعد أفضليه من المداخل المنهجية . فيتضمن في التحقق من موضوعها وفهمه علاوة على ذلك استخدام المنهج التجريبي ، وهذا المفهوم الواسع للبحث العلمي قد طبق في علم الأصوات .

وقد تبنى "شتوف" الإجراء الفينومينولوجي عندما حاول تحديد قابليه الصوت للسمع في علاقته بالانتباه أو بالخبرة السابقة [1] .

وعلى عكس الفينومينولوجيا المتعالية عند "ادموند هوسرل" لا تتضمن الفينومينولوجيا التجريبية عند شتوف عملية الرد **Reduction** الذي يقوم على تعليق المعطي الطبيعي . حيث ان هذا التعليق يعد في الغالب نوع من العملية المثالية والاكثر من ذلك فهي بمثابة تخيلات **Fictitious** ، وليس لها هدف قابل للتحقق واقعيا . وقد تولدت افكار "شتوف" حول الفينومينولوجيا التجريبية عن وجهة نظر المستمع اكثر من وجهة نظر المستقبل وذلك لأنه حاول ان يعطي وزنا للجوانب السيكولوجية والفسيولوجية للمستمع .

(1) Thines, G., Ibid. p.70 .

هذا وقد لاقت الدراسات الفينومينولوجية التجريبية رواجا بين عدد من العلماء ومنهم "دافدكاتز" David Katz في دراسته المونوجرافية حول أساليب إظهار الالوان عام ١٩١١م .

وقد وسع كاتز في دراسته الأخيرة تحليلاته الفينومينولوجية إلى أفعال الذاتية البينية Intersubjective وعلاقتها ببعض المتغيرات في المواقف الاجتماعية ، وما يرتبط به من تعبيرات وجهه ويرجع ذلك لاهتمام كاتز في عمله التجريبي بالتحليل الانثروبولوجي وأنماط السلوك التعبير القابلة للملاحظة وقد حقق التحليل التجريبي والوصف الفينومينولوجي للسلوك التعبير الكثير بصورة عامة في هذا المجال البحثى الجديد . حيث كان الاهتمام واضح بوصف علاقات الذاتية الباطنية البينية التلقائية [١].

ولم تقف الجهود في مجال التجريبية الفينومينولوجية عند هذا الحد ولكنها قد توسعت وامتد نطاقها واهتم بها العديد من علماء النفس فتناولوا استخدام الكلمات لوصف الخبرات الذاتية فضلا عن الإدراك والسلوك البشري ، والذاتية الباطنية البينية (المتصلة) كمشكلة انولوجية متعلقة بدراسة السلوك وتكون الشخصية ، وذلك يعقد تأويلات فينومينولوجية حول السلوك الغريزي والاتصال الاجتماعي عند الحيوانات ، وذلك للوصول الى انماط سلوكية ، يتم وصفها على أساس مقارنة [٢]يكشف عن الجانب البيولوجي للسلوك في مواقف التفاعل .

٣ - اتساع نطاق التجارب الفينومينولوجية بعد كارل شتوف :

وقد تواصلت البحوث الفينومينولوجية التجريبية التي بدأها "شتوف" بالبحوث الصوتية والموسيقية والتي نبعت عنده من ممارساته العملية كعالم يهتم بدراسة الظاهرة الادراكية من وجهة نظر المستمع اكثر من المستقبل وقد كرس معظم اهتمامه لارتباط الجوانب النفسية والفسيولوجية بالسمع .

---

(1) Thunes , G., Ibid .p.137 .
(2) Thunes ,G., Ibid.p.145 .

ولكن دراساته تمحورت حول الخبرة الظاهرية وقد أثرت دراساته ومدخلـه الفينومينولوجي في علم النفس على تطور علــم النفــس الجشــطالتي. (١) فامتدت تجريبية الفينومينولوجية إليهم بصورة شملت طـــــرق العـــلاج النفسي .

كما تابع بحوث الفينومينولوجيا التجريبية "دافيد كاتز" الذي وجد لديــه ميل تجريبي مماثل في اعماله وخاصة في دراسته الموتوجرافيـــة حــول اساليب اظهار الالوان ١٩١١ . والذي يعـــد مثــالاً للدراســة الوصفيـة الفينومينولوجية هذا بالاضافة الى دراساته الاخرى التـــي حــول الادراك والالوان وكان متأثرا في ذلك بمفهوم هوسرل الفينومينولوجي حول تكويـن الوعى .

في عمله حول الألوان واللمس "اعتبر كاتز" ان الظاهرة الذاتيــة علــى علاقة بقدرات المستقبل داخل اطار السلوك الايجابي . وفي دراسة اخــرى له وسع كاتز من فينومينولوجيته لتشمل مشكلات اتصال الذاتيــة الباطنيــة البينية Intersubjective والتواصل البصري بوجه خاص . حيث يشـــير التواصل البصري eye - contact للجوانـــب التعبيريــة المختــبرة بيــن شخصين في مواجهة أو محادثة . (٢)

وقد تأصلت فينومينولوجية "كاتز" فيما قدمه من وصف لتلقائية علاقــات الذاتية الباطنية البينية .

وبصورة مختصرة ارتكز العمل التجريبي عند "كاتز" علـــى التحليـل الأنثروبولوجى للمضمون متناولاً بذلــك الأنمـــاط الملاحظــة للسـلوك التعبيري (٣).

---

(1) Thunes ,G., Ibid.p.135 .
(2) Thenes, G., Ibid.p.137
(3) Thenes, G., Ibid.p.137

وبمناقشة "ميشوت" CF.A.Michotte حول المضامين النظرية لعملة حول الاستمرار أو الديمور الظاهري والواقع الظاهر ، وادراك السببية والجوانب الجوهرية للبناءات الادراكية باعتباره عالم نفسي تجريبي تقوم اعماله على فروض نظريات فلسفية منها الفينومينولوجية . حيث انه قد سار على الخط الفينومينولوجي عند "شتوف" [1]الذي اثر على فكره في هذا المسار كثيرا ، فاهتم كثيرا باستبطان المشاعر السارة وغير السارة التي يخبرها الفرد وقد اثر "ميشوت" على بعض تلاميذه امثال "فلان" Phelan الذي قد طبق اسلوب الاستبطان [2]الذي استخدمه ميشوت وتكنيكاته في اطار الفينومينولوجية الوصفية .

وفي بحوثه الأخيرة ذهب ميشوت الى انه يدرس عالم الاشياء كما تبدو للذات على أساس الفحص البسيط من خلال الاوصاف الشفهية مشيرا إلى ان الاختلافات التجريبية ترتبط بمدى الانطباعات التي يقررها الأشخاص المتقابلة في المواقف المختبرة في الحياة اليومية وعندما نكشف تحليل الاستجابات عن انحرافات دائمة نحو الآخر فانه تفترض انهم يشكلون قواعد التنظيم للعالم الظاهري .

ورغم أن "ميشوت" كان يعبر عن شكه فيما يتعلق بالفينومينولوجيا المتعالية إلا انه كان يقرر عمل "هوسرل" بصورة كبيرة .

وفي الجانب الآخر . قد كشف عن عدم رضاه عن التأويلات السلوكية . ومن ثم نجده يعرف بنفسه وجهة نظره خلال مناقشاته لمعطياته مؤكدا على أن رؤيته العامة أو أن وجهة نظره العامة تتسق مع

(1) Michotte,Cf.A.,The Perception of Causality London , Methuen, 1963 .
(2) Phelan, G.B., Feeling Experience and its Modalities, London, Kegan Paul, 1925
(3) Michotte, A., The Perception of Causality, London. Methuen,1963. P.402F. & Thines, G., Ibid., P.140.

الفينومينولوجيا التجريبية [1]وذلك رغم انه لم يهتم بالتعبير عن المضـــامين المعرفية لتجاربه بطريقة صريحة . فيما عدا دور اللغة الذي كـــان مـــهتما به ، حيث نجده يشير الى ان للفاعلين الأشخاص الذين يستخدمون الكلمـــات لوصف التجربة الذاتية . اكتشافات متباينة Differential reagents تتوافـــق مع أو تطابق تعديلات التجربة أو اختلافاتها والتي تتطابق بدورهـــا مـــع التغيرات الطبيعية في نظم المثير. [2]

. وقد كشفت الدراسات التي قام بها "بيوتنديجك" F.J.JBuytendijk عـــن البعد الفينومينولوجي المرتبط بالنموذج البيولوجي في تفسير السلوك وذلـــك ما تكشف أبعاده التجريبية في عملين رئيسيين له ولهما بعنوان : النظريـــة العامة للاتجاهات والحركـــات الإنســـانية [3]وثانيـــهما بعنـــوان : مقدمـــة للفسيولوجيا الانثروبولوجية . [4]

وقد تعددت الموضوعات التي تناولها "بيوتنديجـــك" منـــها مـــا يتعلـــق بالسلوك ومنها ما يتعلق بالاتجاهات ومنـــها مـــا يتعلـــق بفينومينولوجيـــا المواجهات الاجتماعية **Social encounters** ومنها ما يتعلـــق بالإشـــارات الروتينية **Rival gestures** وبحكم وضعه المرموق بين المنتمين لمدرســـة **(ulrecht)** علم النفس التجريبي فقد مارس تأثير ســـريعا علـــى اتجاهـــات مختلفة لدى بعض التجريبيين الذين اهتموا بمشـــكلات الادراك البصـــري

(1) Michotte, A., The Perception of Causality, London, Methuen,1963. P.402F. & Thines, G., Ibid., P.140.
(2) Michotte,A., Reflections sur le role du language dons l'analyse des organizations perceptives ; Acta psychal., 1959, 15,pp.70 – 91 . Thines,G., Ibid., p.139
(3) Buytendijk, F, (A General Theory of Human Attitudes and Movements) Allgemein théorie.., Berlin, springer, 1956.
(4) Buytendijk, F., Prolegomena to an Anthropological Physiology, (Utreoht, Spectrum 1956) Trans., Pittsburg, Duguesity University Press, 1974, & Thines, G., Ibid., P.141.

والذين قدموا تحليلات بنائيه مرتبطة بالفينومينولوجيا التجريبية . إضافة الى تأثيره على تعسر الذين اهتموا ببعض المشكلات الخاصة بعلم نفس الطفل والاختبارات السسيومترية .

ورغم الصعوبات التي ارتبطت بالاعمال التجريبية الفينومينولوجية لدى "بيوتنديجك" الا انه قد مارس تأثيره الواضح في تطوير البحث في سياق الفينومينولوجيا التجريبية . ورغم أن رؤيته البيولوجية المبكرة ظلت قائمة في دراساته الاخيرة الا انها لم تتعارض مع تأملاته المعرفية حول معنى الملاحظات التجريبية والمداخل التجريبية لهذا فقد ظهرت له دراستين للفينومينولوجيا الوصفية في عام ١٩٥١ حول "سيكولوجية المرأة" والأخرى حول "المواجهة الفينومينولوجية" وبعض أعماله الأخيرة قدم تحليلا مقارنا لمواقف الحياة **Life - Situations** الإنسانية والحيوانية حيث أكد على التقارب بين الفينومينولوجية وعالم النفس ، حيث لم ينحصر هدفه في تفسير الظاهرة النفسية فحسب ولكن امتد ليشمل فهمها أيضا . حيث يعنى تفسير الظاهرة تحديد أسبابها ، ويشير فهمها الى تحديد دورها في سلوك الفرد (١) .

وعليه فان الإنجازات الرئيسية المتعلقة بالتجارب الموجهة فينومينولوجيا عند "بيوتنديجك" وقد وجدت في مجال علم النفس المقارن. وجميعها تؤكد على ان الفينومينولوجيا البيولوجية قد ارتكزت على التميز الوجودي بين العالم الطبيعي الحيواني ، والعالم الثقافي للإنسان ، وان الصعوبات التي اثيرت بواسطة فئات الكائنات الحية تلك تأكدت في خصائص العالم الطبيعي ، وعالم الحياة عند هوسرل . ولكن حتى وجهات النظر الفينومينولوجية هذه لها إسهاماتها المتعلقة بالتأويلات التفسيرية والانثروبولوجية الفلسفية ، ورغم الصعوبات التي ظهرت في التجارب الفينومينولوجية والتي ترجع في أساسها الى ذلك اللبس المتكرر

---

(1) Thines,G., Ibid., P. 143 .

بين الاجتهادات المعرفية للفلسفة الفينومينولوجية والإيضاحات المنهجية للمعرفة التجريبية ، فقد ساهم الوصف الفينومينولوجي لجعل الفينومينولوجيا الوصفية ممكنة رغم محدوديتها نتيجة للصعوبات التي واجهت الفينومينولوجيين التجريبيين .

رابعاً : تجريبية العلاج النفسي الظاهري الوجودي :

ساهم تطور التجارب الفينومينولوجية منذ جهود كارل شتوف وتعدد مداخلها وتراكم نتائجها حول الإدراك والاتجاهات والسلوك وفي مجال علم نفس الطفل والمواجهات الاجتماعية والإشارات الروتينية ..الخ .

فضلا عن الإيضاحات المنهجية التي لازمت البحوث والتجارب الفينومينولوجية حول المداخل التجريبية والملاحظات الامبيريقية والتأملات المعرفية المتعلقة بالرؤى الفينومينولوجية وما قدمته من إسهامات تتعلق بالتأويل والوصف الفينومينولوجي والتمايز الوجودي بين العالم الطبيعي للحيوان والعالم الثقافي للإنسان ، والمقارنة بينها وبين الخصائص التي حددها هوسرل لكل من العالم الطبيعي وعالم الحياة [١] .

ساهم كل ذلك في دفع التجريب الفينومينولوجي نحو مزيد من التطبيق وتوسيع نطاقه بحيث امتد الى مجال العلاج النفسي ، مع ذلك جهود مبدعة في الربط بين التوجيهات الفينومينولوجية بقضاياها ومفاهيمها وتجارب العلاج الفينومينولوجي .

وقد كشفت الطرق المختلفة في العلاج الفينومينولوجي عن وجود التوجيهات التالية .

- التبادلية والفهم التعاطفي في تجريبية العلاج الفينومينولوجي عند روجرز .
- الوعي والتميز المعاشة في فينومينولوجية العلاج الجشطالتي .

---

(1) Thines, G., Ibid. P.144 .

- التجريبية الفينومينولوجية ونظرية الدور في العلاج النفسي عند كيلي .

- تجريبية المواجهة في العلاقات العلاجية لدى التجريبيين .

التبادلية والفهم التعاطفي في تجريبية العلاج الفينومينولوجي عند روجرز :

وقد تزايد الاهتمام بالتوجه الفينومينولوجي التجريبي في مجال العلوم السلوكية الى حد ان علماء النفس اجروا التجارب على العديد من الحالات المختيرة ومن ثم بدأ التوجه ينحو نحو علاج الظاهرات بعد ان تأكدت الحاجة الى المرونة والتأمل المتصل في فهم العلاج النفسي . وقد كان روجرز واحد من أقطاب هذا التوجه حيث انه رأى في الفرد ظاهره يأتي بمعنى انه يفهم الواقع بالنسبة لكل كائن عضوي فردي على انه ينتظم في بنيه عن طريق إدراكات هذا الكائن العضوي للواقع . وبينما يمكن ان يوجد واقع حقيقي موضوعي فان ما يؤثر على سلوك الفرد ، ليس هو بالضرورة ما هو واقعي بل ما يتم ادراكه بحسبانه حقيقيا ، وهكذا فان الشخص لديه دافع الى تحقيق ذاته ضمن الواقع الذي يدركه الفرد [١] .

ولما كان روجرز بنزعته الفينومينولوجية تلك ينظر الى الذات باعتبارها موضوعا ادراكيا فقد نظر الى الفرد على انه يستحدث من خلال أفعاله المتبادلة مع بيئته ذاتا ، حاجة الى التقدير الموجه للذات وان الفرد يجري خبرته التي تشكل في نهاية الامر وعيا بكيانه الخاص وبممارسته لوظائفه ، وقد نظر الى عملية تنظيم الإدراكات حول خبرة الذات على انها نحو تصور الذات عند الفرد تلك الذات التي نظر اليها روجرز على انها موضوع ادراكي [٢]في حقل خبرة الفرد .

---

(١) دافيد مارتن ، في العلاج السلوكي والظاهرياتى (ترجمة دكتور صلاح مخيمر) القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٢ ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢) دافيد مارتن ، مرجع سابق ص ٩٤ .

وبذلك اقام روجرز مفـــهوم القصديـــة الـــذي أخـــذه هوســـرل عـــن فينومينولوجية برنتانو والتي تقوم على فعل الادراك وموضـــوع الإدراك . وهذا ما حققه روجرز في عملية تشكيل وعي الفرد بكيانه الخاص .

هذا فضلا عن تأكيد روجر على الفهم التعاطفي الدقيق مـــن المعـــالج للعميل وذلك بالرجوع الى الاطار المرجعي لهذا العمل ، وايصال هذا الفهم الى العميل على أســـاس عمليـــة انعكـــــاس المشـــاعر **Reflection of feeling** [١]مع قيام المعالج بتأويل المشاعر الحالية التي يقر بها العميـــل ، والكشف عن مناطق المشاعر التي هي اعظم ما تكـــون انضمـــاراً عنـــد العميـــل ، وبذلك يشكل الرد الفينومينولوجي أساس في استبعاد المحمولات العارضة وصولا لمناطق الشاعر المضمورة لدى العميـــل بحيـــث يصـــل العميل الى فهم ووعي بالانفعالات الكامنة .[٢]

وهنا يضع روجرز شروط أساسية وضرورية للعلاج المتمركز حـــول العميل وهي :

- شخصان في اتصال نفسي .
- أولهما عميل في حالة (غير مسايرة) لكونه سهل الانحراف أو قلقا.
- وثانيهما المعالج وهو حالة مسايرة) أو تكامل ضمن العلاقة .
- يشعر المعالج بتقدير موجب غير شرطي تجاه العميل .
- المعالج يعيش الفهم التعاطفي للإطار المرجعي الداخلي عنـــد العميـــل ويسعى لإيصال ما يخبره للعميل .

---

(١) دافيد مارتن ، نفس المرجع ص ١٠٤ .

(٢) دلفيد مارتن ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

- الفهم التعاطفي ، والتقدير الموجب غير الشرطي [١]لدى المعالج تحقق الحد الأدنى من إيصالها للعميل .

وقد حققت طريقة العلاج الظاهراتي المرتبط بتقدير الذات وتحقيقها عند روجرز [٢]نجاحا بالغا رغم التغير المتوجه للوضع النظري المتعلق بالتوجه الظاهراتي .

٢ - الوعي والخبرة المعاشة في فينومينولوجية العلاج الجشطالتي :

وبالاضافة الى طريقة روجرز التي تعكس النزعة الإنسانية الظاهراتية في العلاج النفسي ظهر طرق فينومينولوجية أخرى منها : الطريقة الجشطالتية التي تقوم على المواجهة الموجهة **encounter - oriented** وهي تؤكد على الوعي الموجه **awareness - oriented** إضافة إلى الطريقة الوجودية التي تشبه الى حد كبير الطريقة الجشطالتية الظاهراتية في العلاج النفسي مضافة لهما الطريقة التبادلية التكوينية عند كيلي .

والطريقة الجشطالتية من الاتجاهات الأساسية التي مارست الفينومينولوجية تأثيرها عليها ، وكما كان "المعالج الجشطالتي ينظر الى الشخصية على انها نتاج عملية التكون والتميز المتصلين للجشطلتات المدركة أو للوحدات الكلية المدركة [٣]فان الجشطالتي شأنه شأن الفينومينولوجيين الآخرين يرى ان إدراكات الفرد تحكم سلوكه . وان إدراكات الفرد تحكم سلوكه وان كان الجشطالت يضيفون الى ذلك انه جانبا

---

(١) مارتن مرجع سابق ص ١٠٠ .

(2) Rogers, C.R., Client-Centered Therapagy, Boston, Houghton

- Rogers, Mifflin,1951 . On Becoming a Person , Boston, Houghton Mifflin, 1963 .-

- Rogers, The Interpersonal Relationship, Harvard Edu. R. 1962, 32, pp.412 –429

(٣) مارتن ، دافيد ، مرجع سابق ص ١٢١ .

هاما لهذه الادراكات هو انتظامها ، هو وحدتها الكليـــة وتقــوم الطريقــة الجشطالتية الظاهرياتية في ممارسة العلاج على مبدأ أساسي هو الحاضر - الموجه **Present - oriented** وتترجمها تلك الطبيعة "الآن = تجربة حية = وعي = واقع . فالان وحده هو الذي يوجد فالماضي لم يعد ، والمســـتقبل ليس بعد [١] وبذلك لا يهم الجشطالتي الماضي والمستقبل الا بقدر تشــكيلهما لجانب من الخبرة المعاشة .[٢]

. وتقوم المواجهة الواقعية بين المعالج الجشطالتي والعميل حيث انه ينظر إلى العلاقة العلاجية على أنها مواجهة بين فردين يعـــى فيــها المريــض الحاضر وما يعيشه وإذا كان فردريك . س **F.S.Porls** يركز بحكم خبرتــه كطبيب نفسي ألماني يسعى بالعميل لان يكتشف حقيقته الخاصة به [٣] فإنـــه بذلك يتفق مع طريقة روجرز في تركيزها على العميل لكونها قد انبثقتا عن النزعة الإنسانية والنظر الى الفرد بحكم انه تعافي ، وهذا وترجع اســتعانة البعض بالطريقة الفينومينولوجية في العلاج النفسى لقناعتهم بأن الســلوكية تهتم بالمسالك الصريحة في حين الفينومينولوجية تختص بالمسالك الداخليــة الخبيئة [٤] ومن ثم يهتم المعالج الفينومينولوجي ببحث العميل على ان يرتكز على احاسيسه البدنية وعلى ادراكاته للبيئة ، وعلى وعيه الحسي ، وعلــى مشاعره تجاه نفسه ، وتجاه المعالج ، وتجـــاه الاخريــن ، وعليــه يميــل الجشطالتي الفينومينولوجي على تكوين تجارب لوجهه مــهتما بــالتعبيرات غير اللفظية .[٥]

---

(١) مارتن دافيد ، مرجع سابق ص ١٢٤ .

(٢) نفس المرجع ص ١٢٣ .

(3) Perls, F.S.,Four lectures, in Fagan, J. and Shepherd, I.L. (eds.) Gestal Therapy now. Pale Alto, California, Science and Behavior Books.. 1970 , PP. 14 – 38 .

(٤) مارتن ، دفيد ، المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٥) مارتن ، ص ١٢٧ .

ولما كان العلاج الفينومينولوجي الجشطالتي يقوم على أساس الوعي الموجه ، وذلك لان الكائن البشري يحتاج الى ان يتحقق لديه اكتمال الوعي بذاته وبالآخرين ما أمكن . وهذا الوعي عند الجشطالتي يتضمن مجموعة من القيم تخص الحياة الصحية . ذلك ما دفع المعالجين الجشطالتيين أن يستحدثوا نسقا مركبا من القيم ونسق القيم هذا بمثابة تأكيد وجودي للوعي المكتمل عند الفرد بوجوده الراهن ، وبذلك يتفق نسق القيم هذا مع تفكير الوجوديين . وتتمثل قائمة القيم التي قدمها " نارانجو " للتأكيد الوجودي للوعي المكتمل عند الفرد بوجوده الراهن هي :

- عش الآن وركز على الآخرين اكثر من تركيزك في الماضي أو المستقبل.
- عش الواقع وتوقف عن التخيل .
- توقف عن التفكير غير الضروري (تذوق وانظر)
- عبر اكثر من المناورة أو القيام بالتفسير أو التبرير أو الحكم .
- لا تقم بالحد من وعيك وانفتح للألم والكدر مثلما تنفتح للذة .
- لا تعيد أي صورة معروفة ولا تقبل ينبغي أو كان ينبغي .
- اضطلع بالمسئولية الكاملة لأفعالك ومشاعرك وأفكارك .
- سلم بان تكون على النحو الذي أنت عليه (١) .

٣ - التجريبية الظاهرية ونظرية الدور في العلاج النفسي عند كيلي :

كما تشكل طريقة كيلي للعلاج الفينومينولوجي المسماه البدائلية التكوينية Constructive Alternativism وهي تقوم على نظرة فينومينولوجية في الشخصية ويسميها البعض بالطريقة المعرفية . والعلاج النفسي بهذه

---

(1) Naranjo,c., Present – Centerednen, Technique prescription and Ideal .Inj. Fagan & I.L. Shepherd (eds.) Gestalt Therapy Now, Palo Alto, California ,Science and Behavior Books, Inc., 1970 , PP.47-69 .

الطريقة يقوم على أساس ان السلوك الإنساني يستند على اختيارات يقوم بها الفرد بالرجوع الى ادراكاته للنتائج المقبلة التي تترتب على هذه الاختيارات . وتقوم فكرة البدائلية الانشائية على اعتقاد بأن **"كثرة من البدائل المعقولة الممكنة تكون دائما متاحة للفرد ، ومن ثم يتعين عليه الاختيار من بين تلك البدائل . وهنا تأتي اختيارات الفرد وفقا لتكويناته الشخصية الخاصة التي هي فروض يقيمها الفرد عن النتائج المقبلة المترتبة على افعاله" (١).**

ومن ثم ينتظم إدراك الفرد للعالم حول هذه التكوينات الشخصية أو الفروض . ولهذا يذهب ليكس على ان السلوك البشري ينظر اليه على انه توقعي بصورة اكثر من كونه رد فعل .

وإذا كانت بؤرة الاهتمام عند الفينومينولوجيين امثال "روجرز" و"بيرلز" والوجوديين على انه خبرة الوجهة حاضري التمركز فان كيلي يقيم تجارب العلاج النفسي . بالتركيز على معرفي عقلاني ومستقبلي الوجهة . وذلك لأنه يؤكد على دور المعالج في معاونة العميل على ترجمة تكويناته الشخصية بشكل دقيق وعلى ان يتبين بدائله المستقبلية بصورة محددة ودقيقة ، ومساعدته على اقامة تكوينات جديدة عن المستقبل ، وعلى ان يعيش حياته على انه عالم .

وما ذلك إلا لأن الطريقة البدائلية التكوينية تؤكد على ان كل واحد منا عالم ، يقيم فروضا عن العالم ويقيم سلوكه وفق تنبؤاتنا بالنتائج المحتملة لسلوكنا ، وبذلك تقوم طريقة كيلي الفينومينولوجية في العلاج على أساس النظر إلى الحياة على أنها تجريبية الطابع ، وعلي أنها صياغة فروض يمكن التثبت منها. (٢)

---

(١) مارتن ، مرجع سابق ص ١٣٤ .

(٢) مارتن ، ص ١٣٤ .

وتشكل نظرية الدور **Role Theory** محور نظرية "كيلي" [1]في العلاج النفسي حيث يستطيع كل منا ان يضطلع بعدة أدوار ، ومن ثم يختار الفرد من بين الأدوار التي يستطيع أن يقوم بها ، وهذه الرؤية الفينومينولوجية التي تربط نظرية الدور بالعلاج النفسي مترجمة في العلاج النفسي برسم تخطيطي لدور يشكل وصفا لطريقة ممكنة في السلوك يقدم للعميل لمساعدة المريض على تجريب فروضا جديدة يحاول خلالها العميل طريقه فريدة في السلوك . مع استحداث تكوينات متفاعلة توجه سلوكه في المستقبل .[2]

٤ - تجريبية المواجهة في العلاقات العلاجية لدى الوجوديين :

يقوم هذا التوجه العلاجي على افكار هيدجر وهو أحد تلامذة ادموند هوسرل الذي شغل نفسه بالرؤية الفينومينولوجية ،وقد انعطف بالفينومينولوجية نحو الرؤية الوجودية ، وقد تأثر بأفكار "رولوماي" الذي غلبت النزعة الإنسانية على معظم إنتاجه في علم النفس . [3]

وتقوم الرؤية الوجودية بصورة أساسيه على مسلمة مؤداها " إن الإنسان هو ما يختار ان يكون عليه ، انه هذا الذي يصنعه من نفسه ولاشيء اكثر " . [4]

وبذلك تلح الوجودية على مسئولية الفرد عن مسار حياته الخاصة واختياره لطبيعته الخاصة ، والإنسان بذلك برؤية الوجودي لا يمكن ان

---

(1) Kelly, G.A., The Psychology of Personal Constructs, New York, Norton , 1955, 2 vol.5.

(٢) مارتن ، مرجع سابق ص ١٣٤ .

(3) May, R., Angel, E. & Ellenberger, H.F., (eds.) Existence, N.Y., Basic Books,1958.

- May, R., (ed.) Existential Psychology (2^{nd}. Ed.,) N.Y., Random House,1969

(٤) مارتن ، مرجع سابق ص ١٢٩ .

يكون حقيقياً إلا عندما يقوم بالاختيار دون ان يعتمد على القوى الخارجة لكي تصنع منه شيئا لا يريده هو .

وعلى أساس ذلك تؤكد الوجودية على مسئولية الإنسان عن وجوده ، ومواجهة القلق الوجودى ، الذي يكابده في مواجهته لتلك المعوقات التي تحد من وجوده أو تقيده . عليه فان على الإنسان ان يجد معنى لحياته الخاصة من خلال وجوده . وعليه فإن ماي يري ان الأمراض النفسية ليست نتيجة صدفة ولكنها نتيجة حتمية لعدم قدرة الإنسان على رؤية معنى الحياة .

وفي ضوء ذلك جاءت اعمال "رولوماي" تحمل لنا خصائص العلاج الوجودي للمشكلات النفسية بما يؤكد علي :

- أن الفنيات النوعية تأتي بعد الفهم " **فهدف المعالج ان يفهم بشكل عميق ومكتمل الوجود النوعي للمريض الفرد من حيث هو كينونة Being في العالم** " (١) .

وهذا يعنى ان الطريقة تكون ملائمة فقط عندما تكون ملائمة للفرد المريض . وبذلك تتيح الوجودية للمعالج استخدام التداعي الحر ، وأيضاً الجلوس وجها لوجه ، المهم ان يكون المريض موجودا بعينه في لحظة بعينها أي المهم هو حضور المريض .

وتناول المواجهة في العلاقات العلاجية وذلك ما جعل الوجوديين المعالجين يناقشون بالتفصيل تلك العلاقة الحقيقية التي تتضمن حضور المعالج والمريض معا . وبذلك يكون الحضور الإنساني المليء في المواجهة في العلاقات العلاجية قائم على التبادل البيني الحقيقي وليس التبادل البيني الأتوماتي أي ان المواجهة هنا تكون مليئة الدلالة ويكون التبادل البيني حقيقي وليس مجرد رؤية الآخرين كأشياء . وهنا يكون ميل

---

(١) مارتن ، مرجع سابق ص ١٣٠ .

الوجوديين ضمنا وبصورة غير معلنة لاسلوب الفهم التعاطفي لجعل التبادل في مواجهة العلاقات العلاجية حقيقيا وليس آليا .

- ان المعالج الوجودي وعي - الموجهة شأنه شأن المعالج الجشطالتي وذلك لان هدفه هو ان يواجه المريض تجربته الحية بوعي مكتمل وبمباشرة تجعله ينظر لوجوده على انه واقع وان يفترض الفروض الدقيقة لهذا الوجود . وهو أي المعالج الوجودي عندما يسأل المريض " أين أنت " فإنه يستعين بذلك كوسيلة تساعد المريض على اكتشاف وجوده الخاص (١) .

- وأخيرا يسوق لنا "رولوماري" خاصية اخرى للعلاج الوجودي الذي يؤكد على التزام المريض بعد قبوله للمعرفة الجديدة ، ولأحداث تغيرات جوهرية في حياته أن يتخذ قراراً يكرس به نفسه لتوجه نهائي إلى الحياة ، أي توجه عام إلى الوجود .

والشيء الملفت للانتباه هنا أن الوجودية قد أثرت على المعالجين الجشطالتيين الفينومينولوجيين أنفسهم ، وذلك ما تكشف قائمة القيم التى قدمها " نارنجو " والتي تشير للتوكيد الوجودي للوعي المكتمل عند الفرد بوجوده الراهن والتي عبر بها المعالجون الفينومينولوجيين الجشطالتيون . والتي تترجم اعتقادهم في :

" مسئولية الشخصية ،

" والتلقائية ،

" والمواجهة ،

والوعي بالآخرين وبالبيئة تماما كالوعي الملئ "وغير المحدود للذات ".

---

(١) مارتن ص ١٣١ .

وتأكيدهم على أن اللحظة الحاضرة هي مركز الوجود ، وذلك ما أكده الفينومينولوجيين الجشطالت بالنظر إلى الماضي والمستقبل على أنهما ليسا بمحل اهتمام إلا من حيث كونهما يشكلان جانباً من خبرة الحاضر المعاشة . [1]، وهو ما يقترب من فكر حضور المعالج والمريض في الطريقة الوجودية كما أن وحدة الهدف بين المعالج الفينومينولوجي الجشطالتي والمعالج الوجودى والمتمثلة في أن المريض يواجه تجربته الحية بوعي مكتمل و بمباشرة ، فضلا عن كون كليهما يكونا واعين في عملية المواجهة بحيث يأتي التبادل البينى في المواجهة مليء بالدلالة . [2]

وذلك ما ساعد على تحقيق جانبا من المصاهرة بين التجريبية الفينومينولوجية والتجريبية الوجودية في العلاج النفسي .

---

(١) مارتن ، مرجع سابق ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٢) مارتن ص ١٣١ .

المراجع

1 - Agar , Neil Mck . & Sandra W.Pike., The Science game : An introduction to research in Social Science N.Y., Prentice-Hall , 1991.

2 - Bailley , Kenneth D., Methods of Social research , lodon , the free press & Collier Macmillan Publishers , 1978.

3 - Chirchman , Charkles , Elementer of Logic and Formal Science , N.Y., J.B. Liqincalt Co., 1940.

4 - Churchman , C.West & others , Introduction to operations Research, N.Y., John Welley & Sons , Inc., 1957.

5 - Cohen, Marris R. & Nagel , Ernest , an Introduction to Logic and Scientific Method, N.Y.,Harcourt , Brate and Company,1934.

6 -Collins , Randall , Three Sociological Traditions , Oxford , Oxford University Press , 1985.

7 - Cole , Stephen , The Sociological Method Chicago : Rand McNally College , Publishing Company , 1972.

8 - David James A.,The Logic of Causal Order ,Beverly Hills ,CA: Sage,1985.

9 - Durkheim,E.,The Rules of Sociological Method, 1980.

10 - Durkheim,E.,Suicide,N.Y.,The Free Press of Glencoe , Lc.1951.

11 - Dewy John, The theory of Inquiry ,N.Y., Henery Holt and Company , Inc.,1938.

12 -Denzin , Norman K., The Research Act,N.Y.,McGraw -Hill Book Company , 1978.

13 - Dubin, Robert ,Theory Building N.Y., The Free Press , 1978.

14 - Dising ,P. Objectivism Versus Subjectivism , Philosophy of Science , 1966, vol. 33 , No,1.

15 - Ferriss, Abbott L., The Uses of Social Indicators , Social Press , 1988,66:601-617.

16 - Fenton, C.,Stephen , The Myth of Subjectivism as a Special Method in Sociology , the Sociological Review ,1968,16.N.3.

17 - Forcese, Demis & Richer, Stephen, Social Research Methods, N.J.: Prentice - Hill , Inc.,1973.

18 - Ferman Gerald S. & Levin Jack, Social Science Research , N.Y., John Willy & Sons ,1957 .

19 - Fitzgerald , Jack D. & Cox, Steven M, Unraveling Social Science , Chicago : McNally Comp., 1975.

20 - Groot Adrian D., Methodology , Paris : Mouton, the Huge , 1969.

21 - Gouldner, Alvin W., the Coming Crisis of Western Sociology , London , Heineman , 1871.

22 - Galtung , Johan , methodology and Ideology , Copenhagen , llexin Bueuresti , 1977.

23 - Gobal, M.H., An Introduction to Research Procedure in Social Sciences , N.Y.,Asid. Pub.House,1964.

24 - Goode, W., & Hatt,P., Methods in Social Research, N.Y., McGraw Hill, Book Company 1952.

25 - Hause , Ernest R., Evaluating with Validity CA: Sage,Beverl Hills , 1980.

26 - Hutchean , pat Duffy , Sociology and the Objectivity Problem , Sociology and Social Research ,1970, Vol.54, No:2.

27 - Harre R., The Principles of Scientific Thinking , London , McMillan,1970.

28 - Harre, R., the Philosophies of Science , London:& N.Y., Oxford University Press, 1972.

29 - Hudner, Richard, S., Philosophy of Social Science , N.J.: Prentice Hall,Inc.,1966.

30 -. Haberman, Shelby J., Analysis of Qualitative Date, N.Y., Academic Press, 1978.

31 - Inkels, A., What is Sociology , Prentice-Hall ,Inc., 1964.

32 - Kenneth, Leiter , A Primer on Ethnomethodology , N.Y. Oxford University Press, 1980.

33 - Levin, Kurt, Field Theory in Social Science, N.Y., Harper and Brothers, 1951.
34 - Lin, Man, Foundation of Social Research, N.Y., McGraw Hill Book Comp., 1976.
35 - Marshall, Catherine & Gretchen B. Possman, Designing Qualitative Research, Beverly Hills, CA. Sage, 1989.
36 - Mahmoudi, Koores N. & Parlin, Bradley W., Sociology Inquiry, Hant Publishing Company, 1975.
37 - Merton R., Social Theory and Social Structure, N.Y., The Free Press of Glence, Inc, 1957.
38 - Nagel, E., Logic without Metaphysics, Glencoe, III inois : the Free Press, 1956.
39 - Nagel, E., the Structure of Science, N.Y., Harcourt, Brace & World Inc., 1961.
40 - Narthrop, F.S.C., The Logic of the Sciences and the Humanities, N.Y., McMillan & Co. 1977.
41 - Osterberg, Dag., Meta Sociological Essay, Pittsburg, Duquesne University Press, 1976.
42 - Popper, the Logic of Scientific Discovery, 1958.
43 - Rex, John, Key Problems of Sociological Theory, London, Routh Ledge & Kegan Paul, 1973.
44 - Smithy, H.W., Strategies of Social Research, N.J., Prentice Hall Inc., 1975.
45 - Savory, Theodore H., The language of Sciences, London, Tanbridge Printer, LTD., 1967.
46 - Winton, Chester, Theory and Measurement in Sociology N.Y., Schenkman Publishing Company, 1974.

تم الكتـاب بحمـد الله والله الموفـق

* * *
* *
*

مدخل علم الاجتماع التجريبي

والنظرية التجريبية المعاصرة

دكتور

السيد علي شتا

